

الكِفاية

في التفسير بالمأثور والدرّاية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه

عبدالله خضر حمد

باحث عراقي

الجزء الثالث والثلاثون

[سورة محمد، الآية: ١٦] - [سورة الذاريات، الآية: ٤٦]

منشور إلكترونياً

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى
مراسلة المؤلف -لطفًا وتكرما- على البريد الإلكتروني الآتي، وذلك
لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإياكم لما
يرضيه برحمته، آمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ}

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)} [محمد : ١٦]
التفسير:

ومن هؤلاء المنافقين مَنْ يستمع إليك -أيها النبي- بغير فهم؛ تهاوناً منهم واستخفافاً، حتى إذا انصرفوا من مجلسك قالوا لمن حضروا مجلسك من أهل العلم بكتاب الله -على سبيل الاستهزاء- : ماذا قال محمد الآن؟ أولئك الذين ختم الله على قلوبهم، فلا تفقه الحق ولا تهتدي إليه، واتبعوا أهواءهم في الكفر والضلال.

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [محمد : ١٦]، أي: "ومن هؤلاء المنافقين مَنْ يستمع إليك -أيها النبي- بغير فهم؛ تهاوناً منهم واستخفافاً"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء الكفار يا محمد {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وهو المنافق، فيستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاوناً منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، تغافلاً عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان"^(٢).

قال ابن أبي زمنين: "يعني: المنافقين، كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون حديثه من غير حسبة ولا يفقهون حديثه"^(٣).

قال الثعلبي: "هم المنافقون يستمعون قولك، فلا يعونه، ولا يفهمونه تهاوناً منهم بذلك، وتغافلاً"^(٤).

عن مجاهد، قوله: " {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [الأنعام: ٢٥] يعني: «قريشاً»"^(٥).

قال قتادة: "هم المنافقون"^(٦).

قال القشيري: "هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل الله لما فيه من افتضاحهم"^(٧).

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً"^(٨).

قال مقاتل: "يعني: من المنافقين.. منهم رفاعة بن زيد، والحارث بن عمرو، وحليف بن زهرة، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خطب يوم الجمعة، فعاب المنافقين وكانوا في المسجد، فكظموا عند النبي -صلى الله عليه وسلم-"^(٩).

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [محمد : ١٦]، أي: "حتى إذا انصرفوا من مجلسك قالوا لمن حضروا مجلسك من أهل العلم بكتاب الله -على سبيل الاستهزاء-: ماذا قال محمد الآن؟"^(١٠).

قال الطبري: يقول " {حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ} قالوا إعلاماً منهم لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب الله، وتلاوتك عليهم ما تلوت، وقيلك لهم ما قلت إنهم لن يصغوا أسماعهم لقولك وتلاوتك {مَاذَا قَالَ} لنا محمد {آنِفًا}؟"^(١١).

(١) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٢) تفسير الطبري: ١٦٩/٢٢.

(٣) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٤٠/٤.

(٤) الكشاف: ٣٣/٩.

(٥) تفسير مجاهد: ٣٢٠.

(٦) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٨٠): ص ٢٠٦/٣.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٠٩/٣.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣١٥/٧.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤.

(١٠) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(١١) تفسير الطبري: ١٦٩/٢٢.

قال الزجاج: " كانوا يسمعونَ خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا خرجوا سألو أصحاب رسول الله استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال، فقالوا: {مَاذَا قَالَ أَنفَا}، أي: ماذا قال الساعة، ومعنى: {أَنفَا}، من قولك: استأنفتُ الشيء إذا ابتدأته، ورَوْضَةٌ أُنْفٌ، إذا لم تُرْعَ بعدُ، أي لها أولٌ يُرعى، فالمعنى: ماذا قال من أول وقتٍ يُقربُ مِنَّا" (١).

قال ابن أبي زمنين: " فإذا خرجوا من عنده قالوا لعبد الله بن مسعود: ماذا قال محمد أنفا؟ لم يفقهوا ما قال النبي" (٢).

قال ابن كثير: " فإذا خرجوا من عنده {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} من الصحابة: {مَاذَا قَالَ أَنفَا}، أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكثرثون له" (٣).

قال قتادة: " هؤلاء المنافقون، دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك" (٤).

قال ابن زيد: " هؤلاء المنافقون، والذين أوتوا العلم: الصحابة رضي الله عنهم" (٥).

قال ابن عباس: " أنا منهم، وقد سئلت فيمن سئل" (٦).

عن ابن بُريدة -من طريق صالح بن حيّان-: " {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} ماذا قال أنفاً: هو عبد الله بن مسعود" (٧).

عن القاسم بن عبد الرحمن -من طريق مسعر- قال: " كان أبو الدرداء من الذين أوتوا العلم" (٨).

قال مقاتل: " {أوتوا العلم}: وهو الهدى، يعني: القرآن، يعني: عبد الله ابن مسعود الهذلي" (٩).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [محمد: ١٦]، أي: " أولئك الذين ختم الله على قلوبهم، فلا تفقه الحق ولا تهتدي إليه" (١٠).

قال الطبري: يقول: " هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام" (١١).

قال مقاتل: " يعني: ختم الله على قلوبهم بالكفر فلا يعقلون الإيمان" (١٢).

قال السمعاني: " أي: ختم الله على قلوبهم، ولم يهدهم لقبول قول رسوله" (١٣).

وقال ابن الأعرابي: الختم على القلب من فهم القول" (١٤).

عن أبي مالك: " ختم الله، يعني: طبع الله" (١٥).

(١) معاني القرآن: ١٠/٥.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٤٠/٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣١٥/٧.

(٤) أخرجه الطبري: ١٦٩/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ١٦٩/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ١٦٩/٢٢.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه (ت: محمد عوامة) ١٧/ ١٩٧ (٣٢٩٠٥)، وابن عساكر ٣٣/ ١٤٤.

(٨) أخرجه سعيد بن منصور في سننه -التفسير ٧/ ٣٥٩ (١٩٩٣) في تفسير هذه الآية، وابن ابي حاتم (٣٣٠٧): ص ٦١٧/٢، في تفسير قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤.

(١٠) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(١١) تفسير الطبري: ١٧٠/٢٢.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤.

(١٣) تفسير السمعاني: ١٧٥/٥.

(١٤) تفسير السمعاني: ١٧٥/٥.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٧): ص ٤١/١.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد : ١٦]، أي: "واتبعوا أهواءهم في الكفر والضلال"^(١).

قال الطبري: "يقول: ورفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان، وسوى جلّ ثناؤه بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين، في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله، الذي ابتعث به محمدا صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك، {كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}^(٢).

قال ابن كثير: "أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح"^(٣).

قال السمعاني: "المراد من الآية وفائدتها: هو منع المسلمين أن يكونوا مثل هؤلاء، وبيان حالهم للمؤمنين"^(٤).

قال الشعبي: "إنما سُمي: الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار"^(٥).

القرآن

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد : ١٧]

التفسير:

والذين اهتدوا لا يتابع الحق زادهم الله هدى، فقوي بذلك هداهم، ووقفهم للتقوى، وبسرّها لهم. قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد : ١٧]، أي: "والذين اهتدوا لا يتابع الحق زادهم الله هدى"^(٦).

قال الطبري: يقول: "وأما الذين وقفهم الله لا يتابع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك، زادهم الله بذلك إيمانا إلى إيمانهم، وبيانا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذكر أن الذي تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل الإيمان، ماذا قال أنفا، وزاد الله أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل الله من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل"^(٧).

قال ابن كثير: "أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها"^(٨).

قال السمعاني: "أي: زادهم بيانا ورشدا، ويقال: زادهم هدى أي: العمل بالناسخ بعد العمل بالمنسوخ، ويقال: الأخذ بالعزائم بعد العمل بالرخص"^(٩).

قال الزمخشري: "زَادَهُمُ اللهُ هُدًى" بالتوفيق"^(١٠).

قال الثعلبي: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا"، يعني: المؤمنين"^(١١).

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد : ١٧]،، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الإستهزاء زاد المؤمنين هدى، قاله الفراء^(١).

(١) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٢) تفسير الطبري: ١٧٠/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣١٥/٧.

(٤) تفسير السمعاني: ١٧٦/٥.

(٥) أخرجه الثعلبي ٣٦٢ / ٨، وتفسير البغوي ٢٤٥ / ٧.

(٦) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٧) تفسير الطبري: ١٧٠/٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣١٥/٧.

(٩) تفسير السمعاني: ١٧٦/٥.

(١٠) الكشاف: ٣٢٢/٤.

(١١) الكشاف والبيان: ٣٣/٩.

الثاني: أن القرآن زادهم هدى ، قاله ابن جريج^(٢) .
الثالث: أن الناسخ والمنسوخ زادهم هدى ، قاله ابن عباس^(٣) ، وعطية^(٤) .
قال مقاتل: " {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا} من الضلالة {زَادَهُمْ هُدًى} بالمحکم الذي نسخ الأمر الأول"^(٥) .

قال ابن عباس: " لما أنزل الله القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ والمنسوخ زادهم هدى"^(٦) .

وفي "الهدى الذي زادهم"، خمسة أقوال:

أحدها: زادهم علما ، قاله الربيع بن أنس^(٧) .

الثاني: علموا ما سمعوا ، وعلموا بما عملوا ، قاله الضحاك^(٨) .

الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم، قاله الكلبي^(٩) .

الرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ذكره الماوردي^(١٠) .

الخامس: والذين اهتدوا بالحق زادهم هدى للحق. أفاده الماوردي^(١١) .

قوله تعالى: {وَأَنَّهُمْ تَقَوَّاهُمْ} [محمد : ١٧] ، أي: " ووقفهم للتقوى، ويسرّها لهم"^(١٢) .

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وأعطى الله هؤلاء المهتدين تقواهم، وذلك استعماله

إياهم تقواهم إياه"^(١٣) .

قال مقاتل: " يقول: وبين لهم التقوى، يعنى: عملا بالمحکم، حتى عملوا بالمحکم"^(١٤) .

قال الثعلبي: {وَأَنَّهُمْ تَقَوَّاهُمْ}، يعنى: " ألهمهم ذلك، ووقفهم"^(١٥) .

قال ابن كثير: "أي: ألهمهم رشدهم"^(١٦) .

قال الماتريدي: " أي: يوقفهم ما يتقون مخالفة أمره من بعد في المستأنف، وقال

بَعْضُهُمْ: أي: أعطاهم الله ثواب أعمالهم في الآخرة؛ يقول: كلما جاء من الله أمر أخذوا به،

فزادهم الله - تعالى - هدى {وَأَنَّهُمْ تَقَوَّاهُمْ}؛ أي: أجرهم"^(١٧) .

قال الزمخشري: أي: " أعانهم عليها. أو أتاهم جزاء تقواهم"^(١٨) .

وقال سعيد بن جبیر: " وأتاهم ثواب تقواهم"^(١٩) .

وعن السدي: " بيّن لهم ما يتقون"^(٢٠) .

وقرى: «وأعطاهم»^(١) .

(١) انظر: معاني القرآن: ٦١/٣ .

(٢) النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(٣) أخرجه الطبري: ١٧١/٢٢ .

(٤) النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤ .

(٦) أخرجه الطبري: ١٧١/٢٢ .

(٧) انظر: النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(٨) انظر: النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(٩) انظر: النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(١٠) النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(١١) النكت والعيون: ٢٩٨/٥ .

(١٢) التفسير الميسر: ٥٠٨ .

(١٣) تفسير الطبري: ١٧١/٢٢ .

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤ .

(١٥) الكشف والبيان: ٣٣/٩ .

(١٦) تفسير ابن كثير: ٣١٥/٧ .

(١٧) تأويلات أهل السنة: ٢٧٣/٩ .

(١٨) الكشف: ٣٢٢/٤ .

(١٩) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٣٣/٩ ، والبغوي في التفسير: ٢٨٣/٧ . بدون سند .

(٢٠) حكاه عنه الزمخشري في الكشف: ٣٢٣/٤ .

وقرأ ابن مسعود والأعمش: «وأنطاهم»^(٢)، قال الماتريدي: " لغة معروفة، أنطى: أي: أعطى، وكذلك قرأ: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١]"^(٣).
 عن مجاهد في قوله: "منه آيات محكمات"، ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو "متشابه"، يصدق بعضه بعضاً، وهو مثل قوله: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [سورة البقرة: ٢٦] ، ومثل قوله: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٥] ، ومثل قوله: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [سورة محمد: ١٧]"^(٤).

القرآن

{فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [١٨] { [محمد : ١٨]

التفسير:

ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة التي وُعدوا بها أن تجيئهم فجأة، فقد ظهرت علاماتها ولم ينتفعوا بذلك، فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟
 قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} [محمد : ١٨]، أي: " ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة التي وُعدوا بها أن تجيئهم فجأة"^(٥).
 قال الطبري: يقول: " فهل ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله من أهل الكفر والنفاق إلا الساعة التي وعد الله خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحياء، أن تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها"^(٦).

عن مجاهد: قوله "بغتة": فجأة"^(٧).

قال قتادة: " قد دنت الساعة ودنا من الله فراغ العباد"^(٨).

قال قتادة: بذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه بعد العصر حتى كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف أي شيء قال: "والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه وما بقي منه إلا اليسير"^(٩).

قال الماتريدي: " كأن هذه الآية نزلت في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون إلا عند قيام الساعة؛ كأنه يقول: ما ينظرون لإيمانهم إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، لكن لا ينفعمهم الإيمان في ذلك الوقت؛ كقوله: {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلُ}، وقوله: {قَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}، كأنه - والله أعلم - يؤيس رسوله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الطمع في إيمانهم قبل ذلك الوقت"^(١٠).

قال الفراء: " {أن} مفتوحة في القراءة كلها، وحدثني أبو جعفر الرؤاسي قال: قلت لأبي عمرو بن العلاء: ما هذه الفاء التي في قوله: «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» ؟ قال: جواب للجزاء. قال: قلت: أنها {أن تأتيهم} مفتوحة؟ قال: فقال: معاذ الله إنما هي «إن تأتيهم». قال الفراء: فظننت أنه أخذها عن أهل مكة لأنه عليهم قرأ، وهي أيضاً في بعض مصاحف الكوفيين: تأتيهم بسينة"^(١١)

(١) انظر: الكشاف: ٣٢٣/٤.

(٢) انظر: الكشاف والبيان: ٣٣/٩.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٢٧٣/٩.

(٤) أخرجه الطبري (٦٥٨٥): ص ١٧٧/٦.

(٥) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٦) تفسير الطبري: ١٧١/٢٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٩١): ص ٣٠٧٤/٩.

(٨) أخرجه الطبري: ١٧٢/٢٢.

(٩) الدر المنثور: ٤٦٧/٧، وعزاه إلى ابن مردويه.

(١٠) تأويلات أهل السنة: ٢٧٣/٩.

(١١) قال المحقق: " كذا في جميع النسخ وقد تكون بسنة".

واحدة، ولم يقرأ بها أحد منهم، وهو من المكرر: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً. والدليل عَلَى ذَلِكَ أَنَّ التِي فِي الزخرف فِي قِرَاءَةِ عِبْدِ اللَّهِ: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ»^(١)، ومثله: «وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ»^(٢) لَوْلَا أَنْ تَطْنُوهُمْ فَإِنْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عِنْدَ الْفَتْحِ، وَأَنَّ فِي الزخرف- وَهَاهُنَا نَصَبٌ مَرْدُودَةٌ عَلَى السَّاعَةِ، وَالْجَزْمُ جَائِزٌ تَجْعَلُ: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ مَكْتَفِيًّا، ثُمَّ تَبَدُّى: إِنْ تَأْتِيَهُمْ، وَتَجْبِيئُهَا بِالْفَاءِ عَلَى الْجَزَاءِ، وَالْجَزْمُ جَائِزٌ»^(٣).

قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} [محمد : ١٨]، أي: " فقد ظهرت علاماتها ولم ينتفعوا بذلك" ^(٤).

قال الطبري: " يقول: فقد جاء هؤلاء الكافرين بالله الساعة وأدلتها ومقدماتها" ^(٥).

قال ابن عباس: " يعني: أشراط الساعة" ^(٦).

قال ابن زيد: " أشراطها: آياتها" ^(٧).

قال الزجاج: " أشراطها: أعلامها" ^(٨).

عن قتادة: " {فقد جاء أشراطها} قال: دنت الساعة" ^(٩).

قال الحسن: " محمد صلى الله عليه وسلم من أشراطها" ^(١٠).

قال الأصمعي: ومنه: الاشتراط الذي يشترط بعض الناس على بعض إنما هي علامات بينهم، قال: هذا بيان للاشتقاق، فأما حقيقة الشرط فالخصلة الموجبة للحكم" ^(١١).

قال مقاتل: " يعني: أعلامها، يعني: انشقاق القمر وخروج الدجال وخروج النبي- صلى الله عليه وسلم- فقد عاينوا هذا كله" ^(١٢).

قال الماتريدي: " يحتمل ما ذكر من مجيء أشراطها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ لأنه خاتم الأنبياء، وبه ختمت النبوة، وروى عنه أنه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١٣)، وأشار إلى أصبعين جمع بينهما، فإن كان التأويل هذا فهو على تحقيق مجيء أشراط الساعة؛ أي: قد جاءت أشراط الساعة حقيقة وتحققت. ويحتمل أن يكون ما ذكر من مجيء أشراطها هي الأعلام والشرائط التي جعلت علماً لقيامها؛ من نحو نزول عيسى، وخروج دابة الأرض، وخروج الدجال، وغير ذلك" ^(١٤).

قوله تعالى: {فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [محمد : ١٨]، أي: " فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟" ^(١٥).

(١) الزخرف الآية ٦٦.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٥.

(٣) معاني القرآن: ٦١/٣.

(٤) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٥) تفسير الطبري: ١٧١/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ١٧٢/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ١٧٢/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ١١/٥.

(٩) الدر المنثور: ٤٦٧/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير.

(١٠) الدر المنثور: ٤٦٧/٧، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(١١) نقلاً عن: دَرْجُ الدَّرَجِ فِي تَفْسِيرِ الْآيِ وَالسُّورِ: ٤/١٥٤٣.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧/٤.

(١٣) حديث أنس: أخرجه أحمد (١٢٣/٣)، رقم (١٢٢٦٧)، والبخاري (٢٣٨٥/٥)، رقم (٦١٣٩)، ومسلم

(٤/٢٢٦٨)، رقم (٢٩٥١)، والترمذي (٤٩٦/٤)، رقم (٢٢١٤) وقال: حسن صحيح. وعبد بن حميد (ص ٣٥٣،

رقم ١١٦٦)، وابن حبان (١١/١٥)، رقم (٦٦٤٠).

حديث جابر بن سمرة: أخرجه أحمد (١٠٨/٥)، رقم (٢١٠٨١)، والطبراني (٢٣٩/٢)، رقم (١٩٩٨) قال الهيثمي

(٣١١/١٠): رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

(١٤) تأويلات أهل السنة: ٢٧٣/٩-٢٧٤.

(١٥) التفسير الميسر: ٥٠٨.

قال الطبري: يقول: " فمن أيّ وجه لهؤلاء المكذّبين آيات الله ذكرى ما قد ضيّعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة، يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم، لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال"^(١).

قال الزجاج: " المعنى: فمن أين لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة"^(٢).
قال مقاتل: " فيها تقديم، يقول: من أين لهم التذكرة والتوبة عند الساعة إذا جاءتهم وقد فرطوا فيها؟"^(٣).

قال قتادة: " يقول: إذا جاءتهم الساعة أنى لهم أن يتذكروا ويعرفوا ويعقلوا؟"^(٤).

قال قتادة: " أنى لهم أن يتذكروا أو يتوبوا إذا جاءتهم الساعة"^(٥).

قال ابن زيد: " الساعة، لا ينفعهم عند الساعة ذكراهم"^(٦).

القرآن

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَّوِّكُمْ
{(١٩)} [محمد : ١٩]

التفسير:

فاعل -أيها النبي- أنه لا معبود بحق إلا الله، واستغفر لذنبك، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات. والله يعلم تصرفكم في يقظتكم نهاراً، ومستقركم في نومكم ليلاً.

قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد : ١٩]، أي: " فاعلم -أيها النبي- أنه لا معبود بحق إلا الله"^(٧).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه"^(٨).

قال الواحدي: " أي: فاثبت على ذلك من علمك"^(٩).

كعب قال: " لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص"^(١٠).

قال محمد بن إسحاق: " لا إله إلا الله، أي: ليس معه غيره شريك في أمره"^(١١).

قال الزجاج: " هذه «الفاء» جاءت للجزاء، المعنى: قد بيّنا ما يدل على أن الله واحد فاعلم الله أنه لا إله إلا الله، والنبي عليه السلام قد علم ذلك ولكنه خطاب يدخل الناس فيه مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، كما قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ}، والمعنى من علم فليقم على ذلك العلم، كما قال: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، أي: ثبتنا على الهداية"^(١٢).

قال السمعاني: " فإن قيل: كيف قال: فاعلم أنه لا إله إلا الله وقد علم؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن المراد منه هو الثبات على العلم لا ابتداء العلم.

والثاني: أن معناه: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنده.

(١) تفسير الطبري: ١٧٣/٢٢.

(٢) معاني القرآن: ١١/٥.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٤) أخرجه الطبري: ١٧٣/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ١٧٣/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ١٧٣/٢٢.

(٧) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٨) تفسير الطبري: ١٧٣/٢٢.

(٩) الوجيز: ١٠٠٣.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٢٣): ص ٥٨٥/٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٧٣٦): ص ٥٧٣٣/٣.

(١٢) معاني القرآن: ١٢/٥.

ويقال: الخطاب مع الرسول، والمراد منه الأمة^(١).

قال سهل بن عبدالله: "الخلق كلهم موتى إلا العلماء، ولذلك دعا نبيه صلى الله عليه وسلم إلى محل الحياة بالعلم بقوله: {فَاعْلَمْ}^(٢)."

عن سفيان بن عيينة: "أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ} - إلى قوله- {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [الحديد: ٢١ - ٢٠] وقال: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: {فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]. وقال تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [الأنفال: ٤١]. ثم أمر بالعمل بعد^(٣).

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: ١٩]، أي: "واستغفر لذنوبك، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات"^(٤).

قال الطبري: يقول: "وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء"^(٥).

عن عبد الله بن سرجس، قال: "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال رجل من القوم: أستغفر لك يا رسول الله، قال: نَعَمْ وَلَكَ، ثم قرأ {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}^(٦)."

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إني لأستغفر في اليوم وأتوب سبعين مرة، أو أكثر»^(٧).

عن عبيد بن المغيرة، قال: "سمعت حذيفة، يقول كنت رجلا ذرب اللسان على أهلي، فقلت يا رسول الله، إني لأخشى أن يدخلني لساني النار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فأين أنت من الاستغفار، إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»، قال أبو إسحاق: فذكرته لأبي بردة، فقال: وأتوب إليه"^(٨).

عن أبي بكر الصديق، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «عليكم بـ: لا إله إلا الله، والاستغفار، فأكثروا منهما؛ فإن إبليس قال: أهلكتم الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون»^(٩).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩]، أي: "والله يعلم تصرفكم في يقظتكم نهاراً، ومستقركم في نومكم ليلاً"^(١٠).

قال الطبري: يقول: فإن الله يعلم متصرفكم فيما تتصرفون فيه في يقظتكم من الأعمال، ومثواكم إذا ثويتم في مضاجعكم للنوم ليلاً لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم على جميع ذلك"^(١١).

(١) تفسير السمعي: ١٧٧/٥.

(٢) تفسير التستري: ١٤٦.

(٣) انظر: الكشاف: ٣٢٤/٤، وتفسير القرطبي: ٢٤٢/١٦، وتفسير النسفي: ٣٢٧/٣.

(٤) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(٥) تفسير الطبري: ١٧٤/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ١٧٤/٢٢.

(٧) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٨٢): ص ٢٠٧/٣.

(٨) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٨٣): ص ٢٠٧/٣.

(٩) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٩ / ١ (٧)، وأبو يعلى في مسنده ١ / ١٢٣ (١٣٦).

قال ابن كثير في تفسيره ١٢٤ / ٢: «عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان». وقال الهيثمي في المجمع ١٠ / ٢٠٧

(١٧٥٧٤): «وفيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف». وقال البوصيري في إتحاف الخيرة ٧ / ٤٢٢ (٧٢٣٧):

«بسند ضعيف». وقال المناوي في التيسير ٢ / ١٤٦: «وإسناده ضعيف». وقال الألباني في الضعيفة ١٢ / ١١٦

(٥٥٦٠): «موضوع».

(١٠) التفسير الميسر: ٥٠٨.

(١١) تفسير الطبري: ١٧٤/٢٢.

قال مقاتل: " {مُنْقَلَبِكُمْ}، يعني: منتشركم بالنهار {وَمَثْوَاكُمْ}، يعني: مأواكم بالليل" (١).
قال الزجاج: "أي: يعلم متصرفاتكم، ويعلم {مَثْوَاكُمْ}، أي: يعلم أين مقامكم في الدنيا
والآخرة" (٢).

قال الواحدي: " {مُنْقَلَبِكُمْ}: مُنْصَرَفُكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ وَقِيلَ: {مُنْقَلَبِكُمْ} مِنْ
الْأَصْلَابِ إِلَى الْأَرْحَامِ {وَمَثْوَاكُمْ}: مَرْجِعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (٣).
عن عبد الله بن عباس: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُنْقَلَبَكُمْ فِي الدُّنْيَا، {وَمَثْوَاكُمْ} فِي الْآخِرَةِ" (٤).
عن الضحاك: " {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُنْقَلَبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} مُنْصَرَفُكُمْ وَمُنْتَشِرُكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَمَثْوَاكُمْ: مُصِيرُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ" (٥).
فوائد الآيات: [١٦-١٩]:

- ١- من الجائز أن تكون السورة مكية وبها آية أو أكثر مدنية.
 - ٢- التحذير من اتباع الهوى فإنه يعمي ويصم والعياذ بالله.
 - ٣- بيان أن لقيام الساعة أشراطاً أي علامات تظهر قبلها فتدل على قربها.
- روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "«بَعثت أنا
والساعة كهاتين»، قال: وضم السبابة والوسطى" (٦).
٤- وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، وذلك يتم على الطريقة التالية:
- الاعتراف بأن الإنسان مخلوق كسائر المخلوقات حوله، وكل مخلوق لا بد له من خالق فمن خالق
الإنسان والكون إذا؟ والجواب قطعاً: الله. فما دام الله هو الخالق فمن عداه مخلوق مفتقر إلى الله
خالقه في حفظ حياته، ومن يؤله ويعبد إذا الخالق أم المخلوق؟ والجواب: الخالق. إذا تعين أنه لا
معبود إلا الله وهو بمعنى لا إله إلا الله ولما كانت العبادة لا تعرف إلا بالوحي وجب الإيمان
برسول الله فكان لا بد من زيادة محمد رسول الله فنقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

القرآن

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١)} [محمد : ٢٠-٢١]
التفسير:

ويقول الذين آمنوا بالله ورسوله: هلا نُزِّلَتْ سورة من الله تأمرنا بجهاد الكفار، فإذا أنزلت سورة
محكمة بالبيان والفرائض وذكُرَ فيها الجهاد، رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله ونفاق
ينظرون إليك -أيها النبي- نظر الذي قد غشي عليه خوف الموت، فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم
مرض أن يطيعوا الله، وأن يقولوا قولاً موافقاً للشرع. فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بقرضه
كره هؤلاء المنافقون ذلك، فلو صدقوا الله في الإيمان والعمل لكان خيراً لهم من المعصية
والمخالفة.

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ} [محمد : ٢٠]، أي: "ويقول الذين آمنوا
بالله ورسوله: هلا نُزِّلَتْ سورة من الله تأمرنا بجهاد الكفار" (٧).
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ويقول الذين صدقوا الله ورسوله: هلا نزلت سورة من
الله تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار" (٨).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٢) معاني القرآن: ١٢/٥.

(٣) الوجيز: ١٠٠٣.

(٤) الدر المنثور: ، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٥) تفسير الثعلبي ٩/ ٣٤ - ٣٥، وتفسير البغوي ٧/ ٢٨٥.

(٦) صحيح مسلم (٢٩٥١): ص ٤/٢٢٦٩.

(٧) التفسير الميسر: ٥٠٩.

قال السعدي: " يقول تعالى: { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا } استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: {لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ} أي: فيها الأمر بالقتال" (١).

قال مقاتل: " وذلك أن المؤمنين اشتاقوا إلى الوحي فقالوا هلا نزلت سورة؟" (٢).

قال ابن قتيبة: " كان المسلمون إذا بطل الوحي يقولون: هلمنا نزل شيء، تأميراً أن تنزل عليهم بشرى من الله وفتح وخير وتخفيف" (٣).

وقال الفراء: " كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا نَزَلَتْ الْآيَةُ فِيهَا الْقِتَالُ وَذَكَرَهُ، شَقَّ عَلَيْهِمْ وَتَوَاقَعُوا أَنْ تَنْسَخَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}، أَي: هَلْأُنزِلَتْ سِوَى هَذِهِ" (٤).

عن ابن جريج، في قوله: {ويقول الذين آمنوا} الآية، قال: "كان المؤمنون يشناقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه" (٥).

قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ} [محمد : ٢٠]، أي: " فإذا أنزلت سورة محكمة بالبيان والفرائض وذكُر فيها الجهاد" (٦).

قال الطبري: يقول: " {فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً} بالبيان والفرائض، وذكُر فيها الأمر بقتال المشركين" (٧).

وقال ابن قتيبة: " {مُحْكَمَةٌ}، أَي: مُحَدَّثَةٌ. وَسُمِّيَتْ الْمُحَدَّثَةُ: مُحْكَمَةً، لِأَنَّهَا حِينَ تَنْزَلُ تَكُونُ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْسَخَ مِنْهَا شَيْءٌ.. {وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ}، أَي: فَرَضَ فِيهَا الْجِهَادَ" (٨).

قال السعدي: " {مُحْكَمَةٌ}، أَي: مُلْزِمٌ الْعَمَلُ بِهَا، {وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ} الَّذِي هُوَ أَشَقُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ، لَمْ يَنْبَغِ ضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ عَلَى امْتِنَالِ هَذِهِ الْأَمْرِ" (٩).

قال الفراء: " فإذا نزلت وَقَدْ أَمَرُوا فِيهَا بِالْقِتَالِ كَرَهُهَا" (١٠).

وفي السورة المحكمة أقوال :

أحدها : أنها التي يذكر فيها الحلال والحرام ، ذكره مقاتل (١١).

الثاني : أنها التي يذكر فيها القتال، وهي أشد القرآن على المناققين ، قاله قتادة (١٢).

وقال قتادة: " كلّ سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة" (١٣).

قال الزمخشري: أي: " مبيّنة غير متشابهة لا تحتل وجهاً إلا وجوب القتال" (١٤).

الثالث : أنها التي تضمنت نصوصاً لم يتعقبها ناسخ ولم يختلف فيها تأويل. أفاده الماورى (١٥).

وفي قراءة عبد الله: «سورة مُحَدَّثَةٌ» (١٦).

(١) تفسير الطبري: ١٧٤/٢٢.

(٢) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٤) تاويل مشكل القرآن: ٢٣٨.

(٥) معاني القرآن: ٦٢/٣.

(٦) الدر المنثور: ٤٩٦/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٧) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٨) تفسير الطبري: ١٧٤/٢٢.

(٩) تاويل مشكل القرآن: ٢٣٨.

(١٠) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(١١) معاني القرآن: ٦٢/٣.

(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٧٥/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ١٧٥/٢٢.

(١٥) الكشاف: ٣٢٤/٤.

(١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٠١/٥.

(١٧) انظر: معاني القرآن: ٦٢/٣.

قوله تعالى: {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [محمد : ٢٠] ، أي: " رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله ونفاق ينظرون إليك -أيها النبي- نظر الذي قد غشي عليه خوف الموت"^(١).

قال الطبري: " يقول: رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف {يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ} يا محمد، {نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، خوفا أن تعزيهم وتأمروهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفا من ذلك وتجنبنا عن لقاء العدو ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صرع. وإنما عنى بقوله {مِنَ الْمَوْتِ} من خوف الموت، وكان هذا فعل أهل النفاق"^(٢).

قال مقاتل: " {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، يعني: الشك في القرآن، منهم عبد الله ابن أبي، ورفاعة بن زيد، والحارث بن عمرو"^(٣).

قال ابن قتيبة: " يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون نظرا شديدا بتحديد، وتحديد، كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، من شدة العداوة. والعرب تقول: رأيت لهما باصرا، أي: نظرا صلبا بتحديد. ونحوه قوله: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُرْثِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} [القم: ٥١] ، أي: يسقطونك بشدة نظرهم"^(٤).

قال الزجاج: " لأنهم منافقون يكرهون القتال، لأنهم إذا قعدوا عنه ظهر نفاقهم، فخافوا على أنفسهم القتل"^(٥).

قال النحاس: " وإنما كانوا يكرهون ذكر القتال، لأنهم إذا تأخروا عنه تبين نفاقهم فخافوا القتل"^(٦).

عن قتادة: " المرض : النفاق"^(٧).

وعن الحسن: " الشرك"^(٨).

قال ابن زيد: " هؤلاء المنافقون طبع الله على قلوبهم، فلا يفقهون ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم"^(٩).

عن ابن جريج: " فإذا أنزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين {ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم}"^(١٠).

قال السمعاني: " فإن قيل: كيف أخبر عن المؤمنين في ابتداء الآية ثم قال: {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} وهم المنافقون، والمنافق لا يكون مؤمنا؟

والجواب عنه: أن في الآية حذف، ومعناه: فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، فرح المؤمنون واستأنسوا بها"^(١١).

قوله تعالى: {فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ} [محمد : ٢٠-٢١] ، أي: " فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن يطيعوا الله، وأن يقولوا قولا موافقا للشرع"^(١٢).

قال السعدي: " أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه"^(١٣).

(١) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٢) تفسير الطبري: ١٧٥/٢٢.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٨.

(٥) معاني القرآن: ١٢/٥.

(٦) معاني القرآن: ٤٧٩/٦.

(٧) علقه يحيى بن سلام في "التفسير": ٧٠٥/٢.

(٨) علقه يحيى بن سلام في "التفسير": ٧٠٥/٢.

(٩) أخرجه الطبري: ١٧٥/٢٢.

(١٠) الدر المنثور: ٤٩٦/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(١١) تفسير السمعاني: ١٨٠/٥.

(١٢) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(١٣) تفسير السعدي: ٧٨٨.

قال الزجاج: " {أولى لهم} وعيدٌ وتهددٌ، المعنى: وليهم المكروه" (١).
قال ابن قتيبة: " تقول للرجل - إذا أردت به سوءاً ففاتك -: أولى لك" (٢).
قال مقاتل: " {فأولى لهم}: فهذا وعيد" (٣).
قال مجاهد: " أمر الله بذلك المنافقين" (٤).
عن ابن جريج: " {فأولى لهم} قال: وعيد من الله لهم" (٥).
عن قتادة، قوله: " {فأولى لهم}، قال: وعيد كما تسمعون" (٦).
قال قتادة: " هذا وعيد ، يقول: فأولى لهم قال: ثم انقطع الكلام ، فقال: {طاعة وقول معروف}، يقول: «طاعة الله ، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم» (٧).
وفي قوله تعالى: {فأولى لهم} (٢٠) طاعةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ [محمد : ٢٠-٢١]، قولان:
أحدهما: أن قوله: {فأولى لهم} وعيد لهم، ثم انقطع الكلام فقال: {طاعةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ}، يقول:
«طاعة الله ، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم. قاله قتادة (٨). ونحو هذا قال مقاتل (٩)،
والكلبي (١٠)، واختاره الزجاج (١١)، وابن قتيبة (١٢)، والطبري (١٣)، وهو قول أكثر أهل اللغة (١٤).
قال ابن قتيبة: " {فأولى لهم} تهددٌ ووعيد. وتمّ الكلام، ثم قال: {طاعةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ}
وهذا مختصر، يريد قولهم قبل نزول الفرض: سمع لك وطاعة" (١٥).
قال الفراء: " قَالَ اللَّهُ: {فَأُولَىٰ لَهُمْ} لِمَنْ كَرِهَهَا، ثُمَّ وَصَفَ قَوْلَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ: سَمِعَ
وَطَاعَةَ، قَدْ يَقُولُونَ: سَمِعَ وَطَاعَةَ، فَإِذَا نَزَلَ الْأَمْرُ كَرِهَهُ" (١٦).
قال ابن عطية: " المشهور من استعمال «أولى» : أنك تقول: هذا أولى بك من هذا، أي:
أحق، وقد تستعمل «أولى» فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فنقول على
جهة الزجر والتوعد: أولى لك يا فلان، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه وقوله تعالى: {أولى لك
فأولى} [القيامة: ٣٤ - ٣٥]" (١٧).
الثاني: أن الآية الثانية التي هي قوله: {طاعةٌ} متصلة بالآية الأولى في المعنى، والتقدير: فأولى
لهم طاعة وقول معروف، وهذا معنى ما روي عن عطاء عن ابن عباس (١٨)، واختاره
الكسائي (١٩)، وبه قال الماتريدي (٢٠)، وابن كثير (١).

- (١) معاني القرآن: ١٢/٥.
- (٢) غريب القرآن: ٤١١.
- (٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.
- (٤) تفسير مجاهد: ٦٠٥.
- (٥) الدر المنثور: ٤٩٦/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.
- (٦) أخرجه الطبري: ٧٥/٢٢.
- (٧) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٨٥): ص ٢٠٨/٣، والطبري: ١٧٥/٢٢. باختصار.
- (٨) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٨٥): ص ٢٠٨/٣، والطبري: ١٧٥/٢٢. باختصار.
- (٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.
- (١٠) حكاه عنهم الواحدي في التفسير البسيط: ٢٤٩/٢٠.
- (١١) انظر: معاني القرآن: ١٢/٥.
- (١٢) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢٣٨.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٧٥/٢٢-١٧٦.
- (١٤) حكاه عنهم الواحدي في التفسير البسيط: ٢٤٩/٢٠، وانظر: "تهذيب اللغة" (ولى) ٤٤٨ / ١٥، "اللسان"
(ولى) ٤١١ / ١٥، "مقاييس اللغة" (ولى) ١٤١ / ٦.
- (١٥) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٨.
- (١٦) معاني القرآن: ٦٢/٣.
- (١٧) المحرر الوجيز: ١١٧/٥.
- (١٨) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٢٥١/٢٠، و"تفسير البيهقي" ٢٨٦ / ٧، نسبه لابن عباس في رواية
عطاء.
- (١٩) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٢٥١/٢٠.
- (٢٠) انظر: تأويلات أهل السنة: ٢٧٨/٩.

قال الماتريدي: "ظاهره ليس بتوعد ولا تهديد، إنما ظاهره، أي: أخرى لكم وأولى أن تطيعوه، وأن تقولوا معروفاً، فإذا تركوا ذلك يكون وعيداً"^(١).

قال ابن كثير: "ثم قال مشجعا لهم: {فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ}، أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة"^(٢).

قوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ} [محمد: ٢١]، أي: "فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بقرضه كره هؤلاء المنافقون ذلك"^(٣).

قال مجاهد: "فإذا جد الأمر"^(٤). وفي رواية: "فإذا عزم الأمر: جد الأمر"^(٥).

قال مقاتل: "يعني: جد الأمر عند دقائق الأمور"^(٦).

قال ابن كثير: "أي: جد الحال، وحضر القتال"^(٧).

قال الزجاج: "المعنى: فإذا جدَّ الأمر ولزم فرض القتال"^(٨).

قال ابن قتيبة: "أي: جاء الجدُّ كرهوا ذلك، فحذف الجواب على ما بينت في باب الاختصار"^(٩).

قال السعدي: "أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتّم"^(١٠).

قوله تعالى: {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١]، أي: "صدقوا الله في الإيمان والعمل لكان خيراً لهم من المعصية والمخالفة"^(١١).

قال قتادة: "طاعة الله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم"^(١٢).

قال الزجاج: "فلو صدقوا الله فأمّنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وعملوا بما نزل عليه وما أمروا به من فرض القتال لكان خيراً لهم. المعنى لكان صدقهم الله بإيمانهم خيراً لهم"^(١٣).

قال ابن كثير: "فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ}، أي: أخلصوا له النية، {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}"^(١٤).

قال السعدي: "ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تقتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣١٧/٧.

(٢) تاويلات أهل السنة: ٢٧٨/٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣١٧/٧.

(٤) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٥) تفسير مجاهد: ٦٠٥.

(٦) تفسير إسحاق البستي (٨٩٤): ٣٥٨/٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣١٧/٧.

(٩) معاني القرآن: ١٣/٥.

(١٠) تاويل مشكل القرآن: ٢٣٨.

(١١) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(١٢) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(١٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٨٨٥): ص ٢٠٨/٣، والطبري: ١٧٧/٢٢، كما أخرجه من طريق سعيد ٢١١ / ٢١، ٢١٣. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(١٤) معاني القرآن: ١٣/٥.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٣١٧/٧.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيهه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره^(١).

القرآن

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)} [محمد : ٢٢]

التفسير:

فلعلكم إن أعرضتم عن كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به وتسفكوا الدماء وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ.

قوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} [محمد : ٢٢]، أي: "فلعلكم إن أعرضتم عن كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم"^(٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف أنهم إذا نزلت سورة محكمة، ودُكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر المغشي عليه : فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جل ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد صلى الله عليه وسلم و عما جاءكم به"^(٣).

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} [محمد : ٢٢]، على قولين:

أحدهما : فلعلكم إن توليتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه. قاله قتادة^(٤).

قال ابن قتيبة: "يريد: فهل تريدون إذا أنتم تركتم محمداً، صلى الله عليه وسلم، وما يأمركم به"^(٥).

قال ابن كثير: "أي : عن الجهاد ونكلتم عنه"^(٦).

الثاني : المعنى: إن توليتم أمور الناس، من: الولاية، قاله أبو العالية^(٧)، وكعب الأحمبار^(٨)، ومحمد بن كعب القرظي^(٩)، والمسيب بن شريك^(١٠)، والكلبي^(١١)، والفراء^(١٢).

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه- : «إِنْ تَوَلَّيْتُمْ» بضم «التاء» و«الواو» وكسر «اللام»، يقول: إن وليتكم ولاية جائزة خرجتم معهم في الفتنة، وعاونتموهم، أو على معنى: إن توليتم بالتعذيب والتكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسبأ^(١٣).

قال الزمخشري: "نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في التوكيد"^(١٤).

(١) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(٢) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٣) تفسير الطبري: ١٧٧/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٧٧/٢٢.

(٥) تاويل مشكل القرآن: ٢٣٨.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣١٧/٧.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٠١/٥. حكاه بدون سند.

(٨) انظر: المحرر الوجيز: ١١٨/٥. حكاه بدون سند.

(٩) انظر: المحرر الوجيز: ١١٨/٥. حكاه بدون سند.

(١٠) انظر: الكشف والبيان: ٣٥/٩. حكاه بدون سند.

(١١) انظر: النكت والعيون: ٣٠١/٥.

(١٢) انظر: معاني القرآن: ٦٣/٣.

(١٣) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٣٥/٩، والمحرر الوجيز: ١١٨/٥.

(١٤) الكشف: ٣٢٥/٤.

وفي قراءة على بن أبي طالب -رضى الله عنه-: {توليتهم}، أي: إن تولاكم ولادة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم؟^(١).

قال الباقلائي: "فيما ذكره في هذا الباب وادعوا انتشاره وظهوره، ومعتقدي نقصان القرآن من الشيعة أن عليا عليه السلام جمع القرآن بعد النبي صلى الله عليه وجاء به يحمله قنبر لا يغلانه فوضع، ثم تلى عليهم آيات يكيههم بها في تقدمهم بن يديه، وهي قوله: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: ٢٢-٢٣]. فقال له عمرُ عند ذلك: ارفع مصحفك لا حاجة لنا إليه، ومن ذلك - زعموا - ما تواترتة نقلُ الشيعة خلفا عن سلف عن علماء أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -"^(٢).

قوله تعالى: {أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: ٢٢]، أي: "وسلم أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به وتسفكوا الدماء وتقطعوا أرحامكم"^(٣). قال الفراء: "أن تصيروا إلى أمركم الأول من طبيعة الرحم والكفر والفساد"^(٤). قال ابن قتيبة: "أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر، والإفساد في الأرض وقطع الأرحام"^(٥).

قال الطبري: "يقول: أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبكم"^(٦).

قال الزجاج: "وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، أي: تندوا البنات، أي تدفنوهن أحياء. ويجوز أن يكون فلعلكم إن توليتم الأمر أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، ويقئلُ فريشُ بني هاشم، وبنو هاشم فريشاً، وكذلك إن توليتم"^(٧).

قال ابن كثير: "أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام.. وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة"^(٨).

قال السعدي: "أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتنثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولٍ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام"^(٩).

عن قتادة، قوله: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} ... الآية. يقول: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن"^(١٠). عن قتادة: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، قال: فعلوا"^(١١).

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}؟

- (١) انظر: الكشاف: ٣٢٥/٤.
- (٢) الانتصار للقرآن: ٤٦٠/٢.
- (٣) التفسير الميسر: ٥٠٩.
- (٤) معاني القرآن: ٦٣/٣.
- (٥) تاويل مشكل القرآن: ٢٣٨.
- (٦) تفسير الطبري: ١٧٧/٢٢.
- (٧) معاني القرآن: ١٣/٥.
- (٨) تفسير ابن كثير: ٣١٨/٧.
- (٩) تفسير السعدي: ٧٨٨.
- (١٠) أخرجه الطبري: ١٧٧/٢٢.
- (١١) أخرجه الطبري: ١٧٨-١٧٧/٢٢.

قلت: معناه: هل يتوقع منكم الإفساد؟

فإن قلت: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟
قلت: معناه: إنكم- لما عهد منكم- أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريركم
ورخاوة عقدكم في الإيمان: يا هؤلاء، ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم
عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل أن تُفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم
تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا؟ وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله صلى الله
عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض: بالتغاور
والتناهب، وقطع الأرحام: بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات؟^(١)

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله الخلق، فلما فرغ منه
قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.
فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك. قال أبو
هريرة: اقرؤوا إن سئتم: ﴿رَفَهْلٌ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٢).
عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من ذنب أحرى أن يعجل
الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البيغي وقطيعة الرحم"^(٣).
عن ثوبان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سره النساء في الأجل،
والزيادة في الرزق، فليصل رحمه"^(٤).

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن
ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: "لا إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال
معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك"^(٥).

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرحم معلقة
بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها"^(٦).
عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "توضع الرحم يوم
القيامة لها حُجَّةٌ كحجَّة المغزل، تتكلم بلسان طُلق دُلُق، فتصل من وصلها وتقطع من
قطعها"^(٧).

عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم - قال: "الراحمون يرحمهم
الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن، من وصلها
وصلته، ومن قطعها بنته"^(٨).

عن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو
مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتكم رحمًا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله

(١) الكشاف: ٣٢٥/٤.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٣٠).

(٣) المسند (٣٨/٥) وسنن أبي داود برقم (٤٩٠٢) وسنن الترمذي برقم (٢٥١١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١).

(٤) المسند (٢٧٩/٥) وشاهده حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: "من سره أن يبسط عليه رزقه، أو
ينسأ في أثره فليصل رحمه". رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٨٦) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٥٧)
واللفظ لمسلم.

(٥) المسند (١٨١/٢).

(٦) المسند (١٦٣/٢) وصحيح البخاري برقم (٥٩٩١).

(٧) المسند (١٨٩/٢) قال الهيثمي في المجمع (١٥٠/٨): "رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي ثمامة الثقفي،
وثقه ابن حبان".

(٨) المسند (١٦٠/٢) وسنن أبي داود برقم (٤٩٤١) وسنن الترمذي برقم (١٩٢٤).

عز وجل : أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال : من يبتهأ أبته"^(١).

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"إذا ظهر القول، وخزن العمل، وانتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم"^(٢).

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه عني بها المنافقين. وهو الظاهر.

قال مقاتل: "يعني: منافقي اليهود"^(٣).

الثاني : قريشاً ، قاله ابن حبان^(٤).

وقال المسيب بن شريك^(٥)، والفراء^(٦)،: "نزلت في بني أمية وبني هاشم".

قال السمعاني: "فإن قريشاً لما تولوا الأمر أفسدوا في الأرض وقطعوا الأرحام، وذلك من قتل بني هاشم قريشاً، وقتل قريش بني هاشم"^(٧).

عن عبد الله بن مغفل، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فهل عسيتم إن وليتم أن تفسدوا في الأرض ثم قال: «هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم»^(٨).

الثالث : أنها نزلت في الحرورية والخوارج، قاله بكر بن عبد الله المزني^(٩).

قال القرطبي: "الأظهر أنه إنما عني بها المنافقون"^(١٠).

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد : ٢٣]

التفسير:

أولئك الذين أبعدهم الله من رحمته، فجعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلم يتبينوا حجج الله مع كثرتها.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ} [محمد : ٢٣]، أي: "أولئك الذين أبعدهم الله من رحمته"^(١١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام الذين لعنهم الله، فأبعدهم من رحمته"^(١٢).

قال الماتريدي: "أي: أصمهم حتى لم يسمعوا سماع الاعتبار والتفكير، وأعمى أبصارهم حتى لم ينظروا فيما عاينوا نظر اعتبار وتفكر ما لو تفكروا وتأملوا ونظروا نظر معتبر، لأدركوا"^(١).

(١) المسند (١٩١/١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦١/٢، رقم ١٥٧٨) ، والخرائطي في مساوي الأخلاق (ص ١٢٦، رقم ٣١٣) . وأخرجه أيضاً: الطبراني في الكبير (٢٦٣/٦، رقم ٦١٧٠) ، قال الهيثمي (٢٨٧/٧) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه جماعة لم أعرفهم. وأبو نعيم في الحلية (١٠٩/٣).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٨/٤.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٠٢/٥، وتفسير القرطبي: ٢٤٥/١٦.

(٥) انظر: الكشف والبيان: ٣٥/٩. حكاه بدون سند.

(٦) انظر: معاني القرآن: ٦٣/٣.

(٧) تفسير السمعاني: ١٨١/٥.

(٨) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٣٥/٩.

(٩) انظر: النكت والعيون: ٣٠٢/٥، وتفسير القرطبي: ٢٤٥/١٦.

(١٠) تفسير القرطبي: ٢٤٥/١٦.

(١١) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(١٢) تفسير الطبري: ١٧٨/٢٢.

قال النحاس: "المعنى: أولئك الذين لعنهم الله فلم ينلهم ثواباً"^(٢).
قال الزمخشري: " {أُولَئِكَ} إشارة إلى المذكورين {لَعَنَهُمُ اللَّهُ}، لإفسادهم وقطعهم الأرحام"^(٣).

قال السعدي: " {أُولَئِكَ الَّذِينَ} أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم {لَعَنَهُمُ اللَّهُ} بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله"^(٤).
قال ابن عطية: " {أُولَئِكَ} إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين. و: {لَعَنَهُمُ} معناه: أبعدهم"^(٥).

قوله تعالى: {فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} [محمد : ٢٣]، أي: " فجعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلم يتبينوا حجج الله مع كثرتها"^(٦).

قال الطبري: يقول: " فسلبهم فهم ما يسمعون بأذانهم من مواضع الله في تنزيله، وسلبهم عقولهم، فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته"^(٧).

قال السعدي: " أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم أذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات"^(٨).

قال القشيري: " أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم، وأعمى بصائرهم"^(٩).

قال الواحدي: " فلا يسمعون الحق، ولا يهتدون لرشد"^(١٠).

قال ابن عطية: " وقوله: {فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} استعارة لعدم سماعهم فكأنهم عمي وضم"^(١١).

قال النحاس: " فهم بمنزلة الصم لا يسمعون ثناء حسنا عليهم ولا يبصرون ما يسرون به من الثواب"^(١٢).

فوائد الآيات: [٢٠-٢٣]:

- ١- جواز تمني الخير والأولى أن يسأل الله تعالى ولا يتمنى بلفظ ليت كذا.
- ٢- في القرآن محكم ومنسوخ من الآيات وكله كلام الله يتلى ويتقرب به إلى الله تعالى ويعمل بالمحكم دون المنسوخ وهو قليل جداً.
- ٣- ذم الجبن والخور والهزيمة الروحية.
- ٤- شر الخلق من إذا تولى أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي.

القرآن

{أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا (٢٤)} [محمد : ٢٤]

التفسير:

أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواضع القرآن ويتفكرون في حججه؟ بل هذه القلوب مغلقة لا يصل إليها شيء من هذا القرآن، فلا تتدبر مواضع الله وعبره.

(١) تأويلات أهل السنة: ٢٨٠/٩.

(٢) إعراب القرآن: ١٢٤/٤.

(٣) الكشاف: ٣٢٥/٤.

(٤) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(٥) المحرر الوجيز: ١١٨/٥.

(٦) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٧) تفسير الطبري: ١٧٨/٢٢.

(٨) تفسير السعدي: ٧٨٨.

(٩) لطائف الإشارات: ٤١٢/٣.

(١٠) التفسير الوسيط: ١٢٧/٤.

(١١) المحرر الوجيز: ١١٨/٥.

(١٢) إعراب القرآن: ١٢٤/٤.

قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} [محمد : ٢٤]، أي: "أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواظ القرآن ويتفكرون في حججه؟"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواظ الله التي يعظهم بها في أي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون"^(٢).

قال مقاتل: "يقول: أفلا يسمعون القرآن"^(٣).

قال النحاس: "أي: فيعملون بما فيه ويقفون على دلئلته"^(٤).

قال ابن كثير: "يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} أم على قلوب أفعالها"^(٥).

قوله تعالى: {أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَاتٍ} [محمد : ٢٤]، أي: "بل هذه القلوب مغلقة لا يصل إليها شيء من هذا القرآن، فلا تتدبر مواظ الله وعبره"^(٦).

قال الطبري: "يقول: أم أفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواظ والعبر"^(٧).

قال النحاس: "أي: أقفال تمنعها من ذلك"^(٨).

قال مقاتل: "يعنى: الطبع على القلوب"^(٩).

قال ابن كثير: "أي: بل على قلوب أفعالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه"^(١٠).

عن قتادة، قوله: "{أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} أم على قلوب أفعالها"، إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله، لو تدبره القوم ففعلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابهه فهلكوا عند ذلك"^(١١).

قال خالد بن معدان: "ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لندياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: {أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَاتٍ}"^(١٢).

وفي رواية قال معدان: "ما من الناس أحد إلا وله أربع أعين، عينان في وجهه لمعيشته، وعينان في قلبه، وما من أحد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره، عاطف عنقه على عنقه، فاغر فاه إلى ثمرة قلبه، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب، فعمل به، وهما غيب، فعمل بالغيب، وإذا أراد الله بعبد شرا تركه، ثم قرأ: {أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَاتٍ}"^(١٣).

عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} القرآن أم على قلوب أفعالها، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أفعالها، حتى يكون

- (١) التفسير الميسر: ٥٠٩.
- (٢) تفسير الطبري: ١٧٩/٢٢.
- (٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.
- (٤) إعراب القرآن: ١٢٥/٤.
- (٥) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٧.
- (٦) التفسير الميسر: ٥٠٩.
- (٧) تفسير الطبري: ١٧٩/٢٢.
- (٨) إعراب القرآن: ١٢٥/٤.
- (٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.
- (١٠) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٧.
- (١١) أخرجه الطبري: ١٧٩/٢٢.
- (١٢) أخرجه الطبري: ١٧٩/٢٢.
- (١٣) أخرجه الطبري: ١٧٩/٢٢-١٨٠.

الله عزّ وجلّ يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى ولي فاستعان به" (١).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ} [محمد : ٢٥]

التفسير:

إن الذين ارتدّوا عن الهدى والإيمان، ورجعوا على أعقابهم كفاراً بالله من بعد ما وضح لهم الحق، الشيطان زيّن لهم خطاياهم، ومدّ لهم في الأمل.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ} [محمد : ٢٥]، أي: "إن الذين ارتدّوا عن الهدى والإيمان، ورجعوا على أعقابهم كفاراً بالله من بعد ما وضح لهم الحق" (٢).

قال الطبري: "يقول الله عزّ وجلّ إن الذين رجعوا القهقري على أعقابهم كفاراً بالله من بعد ما تبين لهم الحقّ وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله تعالى ذكره من بعد العلم" (٣).

قال النحاس: "أي: رجعوا بعد سماع الهدى وتبينه إلى الكفر" (٤).
قال ابن كثير: "أي : فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، {مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ}" (٥).

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ} [محمد : ٢٥]، قولان:

أحدهما : أنهم اليهود كفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- من بعدما علموا في التوراة أنه نبي ، قاله قتادة (٦)، وابن جريج (٧)، ومقاتل (٨).

قال قتادة: "هم أعداء الله أهل الكتاب، يعرفون بعث محمد نبيّ الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه عندهم، ثم يكفرون به" (٩).

وعن قتادة: "مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ"، إنهم يجدونه مكتوباً عندهم" (١٠).
قال ابن جريج: "اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي" (١١).

الثاني : أنهم أهل النفاق، قعدوا عن القتال من بعدما علموه في القرآن، قاله ابن عباس (١٢)، والضحاك (١٣)، والسدي (١٤).

(١) أخرجه الطبري: ٨٠!/٢٢.

(٢) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٣) تفسير الطبري: ١٨٠/٢٢.

(٤) إعراب القرآن: ١٢٥/٤.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٨٠/٢٢.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٠٢/٥.

(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.

(٩) أخرجه الطبري: ١٨٠/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ١٨٠/٢٢.

(١١) الدر المنثور: ٥٠٣/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ١٨١/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٨٠/٢٢.

(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٠٢/٥.

قال الطبري: " وهذه الصفة بصفة أهل النفاق عندنا، أشبه منها بصفة أهل الكتاب، وذلك أن الله عزّ وجلّ أخبر أن ردّتهم كانت بقليلهم: {لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ}، ولو كانت من صفة أهل الكتاب، لكان في وصفهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلّم الكفاية من الخبر عنهم بأنهم إنما ارتدّوا من أجل قليلهم ما قالوا"^(١).

قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد : ٢٥]، أي: " الشيطان زيّن لهم خطاياهم، ومدّ لهم في الأمل"^(٢).

قال ابن كثير: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}، أي : زين لهم ذلك وحسنه، {وَأَمْلَى لَهُمْ}، أي : غرهم وخدعهم"^(٣).

وقال الطبري: يقول: " الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى، والله مدّ لهم في آجالهم ملاءة من الدهر"^(٤).

قال مقاتل: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}، يعني: زين لهم ترك الهدى، يعني: إيماننا بمحمد- صلى الله عليه وسلم-. {وَأَمْلَى لَهُمْ}، ذلك فيها تقديم: وأمهل الله لهم حين قالوا: ليس محمد بنبي! فلم يعجل عليهم"^(٥).

عن قتادة: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}، يقول: زين لهم"^(٦).
عن ابن جريج، في قوله: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}، قال: أملى الله لهم"^(٧).
وقرئ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» على وجه ما لم يسمّ فاعله. وقرأ مجاهد: «وَأَمْلَى» بضم الألف وإرسال الياء، على وجه الخبر من الله جلّ ثناؤه عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم"^(٨).

القرآن

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد : ٢٦]

التفسير:

ذلك الإمداد لهم حتى يتمادوا في الكفر ; بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر الذي هو خلاف لأمر الله وأمر رسوله، والله تعالى يعلم ما يخفيه هؤلاء ويسرونه، فليحذر المسلم من طاعة غير الله فيما يخالف أمر الله سبحانه، وأمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ} [محمد : ٢٦]، أي: " ذلك الإمداد لهم حتى يتمادوا في الكفر ; بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر الذي هو خلاف لأمر الله وأمر رسوله"^(٩).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: أملى الله لهؤلاء المنافقين وتركهم، والشيطان سول لهم، فلم يوفقهم للهدى من أجل أنهم {قالوا للذين كرهوا ما نزل الله} من الأمر بقتال أهل الشرك به من المنافقين: {سنطيعكم في بعض الأمر} الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلّم"^(١٠).

(١) تفسير الطبري: ١٨١/٢٢.

(٢) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٧-٣٢١.

(٤) تفسير الطبري: ١٨١/٢٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.

(٦) أخرجه الطبري: ١٨١/٢٢.

(٧) الدر المنثور: ٥٠٣/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٨١/٢٢.

(٩) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(١٠) تفسير الطبري: ١٨٢/٢٢.

قال الزجاج: " المعنى - والله أعلم - الأمر ذلك أي ذلك الإضلال بقولهم للذين كرهوا ما نزل الله، وجاء في التفسير أنهم اليهود، قالوا : سنطيعكم في التظاهر على عداوة النبي - صلى الله عليه وسلم - " (١).

قال النحاس: " أي: الأمر ذلك الإضلال فإنهم قالوا لليهود سنطيعكم في التظاهر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم " (٢).

قال ابن كثير: " أي : مآلئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرن خلاف ما يبطنون " (٣).

قال مقاتل: " ثم انتقم منهم حين قتل أهل قريظة، وأجلى أهل النضير، يقول {ذلك} الذي أصابهم من القتل والجلاء {بأنهم قالوا للذين كرهوا}، يعني: تركوا الإيمان، يعني: المنافقين، {ما نزل الله} من القرآن {سنطيعكم في بعض الأمر}، قالت اليهود للمنافقين في تكذيب بمحمد- صلى الله عليه وسلم- وهو بعض الأمر، قالوا ذلك سرا فيما بينهم " (٤).

عن قتادة: " {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ}، فهو لاء المنافقون " (٥).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد : ٢٦]، أي: " والله تعالى يعلم ما يخفيه هؤلاء ويسرونه " (٦).

عن ابن جريج: " واللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ، قال: ذلك سر القول " (٧).

قال مقاتل: " يعني: اليهود والمنافقين " (٨).

قال ابن كثير: " أي : يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: {وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ} [النساء : ٨١] " (٩).

قال الطبري: يقول: " والله يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفي عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها " (١٠).

قرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الألف من أسرارهم على وجه جماع سرّ. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة {إِسْرَارَهُمْ} بكسر الألف على أنه مصدر من أسررت إسراراً (١١).

قال الزجاج: " فمن قرأ «أَسْرَارَهُمْ» - بالفتح - فهو جمع: سرّ وأسرار، مثل: حمل وأحمال، ومن قرأ: {إِسْرَارَهُمْ}، فهو مصدر: أسررت إسراراً " (١٢).

القرآن

{فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)} [محمد : ٢٧]

التفسير:

فكيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم؟

(١) معاني القرآن: ١٤/٥.

(٢) إعراب القرآن: ١٢٥/٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.

(٥) أخرجه الطبري: ١٨٢/٢٢.

(٦) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٧) الدر المنثور: ٥٠٣/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧.

(١٠) تفسير الطبري: ١٨٢/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٨٢/٢٢.

(١٢) معاني القرآن: ١٤/٥.

قال الطبري: يقول: " والله يعلم إسرار هؤلاء المنافقين، فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، يقول: فقالهم أيضا لا يخفى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبار: الأعجاز" (١).

قال النحاس: " فيه حذف، أي: فكيف تكون حالهم {يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} " (٢).
قال ابن كثير: " أي : كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال : {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} الآية [الأنفال : ٥٠]، وقال : {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ}، أي : بالضرب {أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام : ٩٣] " (٣).

قال ابن أبي زمنين: " المعنى: فكيف تكون حالهم إذا فعلت الملائكة هذا بهم؟! " (٤).
وفي قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةُ} [محمد : ٢٧]، وجهان من التفسير:
أحدهما : بقبض الأرواح عند الموت، يعني: ملك الموت وحده. قاله ابن جريج (٥)، ومقاتل (٦).
الثاني : بالقتال نصره لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-. قاله ابن عباس (٧)، مجاهد (٨).
قال ابن عباس: " إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف. وإذا ولوا ، أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم " (٩).
عن الحسن قال: " قال رجل: يا رسول الله، إنني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك! " (١٠).
قال : ما ذاك ؟ قال : ضرب الملائكة " (١١).

عن مجاهد : " أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضربه، فنذر رأسه؟ " (١٢) فقال : سبقك إليه الملك " (١٣).
وفي قوله تعالى: {يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [محمد : ٢٧]، وجهان من التفسير (١٤)
أحدهما : يضربون وجوههم في القتال عند الطلب وأدبارهم عند الهرب.
الثاني : يضربون وجوههم عند الموت بصحائف كفرهم، وأدبارهم في القيامة عند سوقهم إلى النار.

عن الحسن: {توفتهم الملائكة}، حشرتهم إلى النار، {يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} في النار " (١٥).
قال الزجاج: " يفعلون بهم ذلك في نار جهنم - والله أعلم - ويكون المعنى فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم " (١).

-
- (١) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.
(٢) إعراب القرآن: ١٢٥/٤.
(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٤٤/٤.
(٥) الدر المنثور: ٥٠٣/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٩/٤.
(٧) انظر: تفسير الطبري (١٦٢٠٥): ص ١٦/١٤.
(٨) انظر: تفسير الطبري (١٦٢٠٠): ص ١٦/١٤، وتفسير مجاهد: ٣٥٦.
(٩) أخرجه الطبري (١٦٢٠٥): ص ١٦/١٤.
(١٠) " الشراك " ، سير النعل الذي يكون على ظهرها.
(١١) أخرجه الطبري (١٦٢٠٥): ص ١٦/١٤-١٧.
(١٢) " نذر الشيء " سقط . يقال : " ضرب يده بالسيوف فأندرها " ، أي قطعها فسقطت. [حاشية تفسير الطبري: ١٧/١٤]
(١٣) أخرجه الطبري (١٦٢٠٦): ص ١٧/١٤.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٠٤/٥.
(١٥) حكاه عنه ابن أبي زمنين: ٢٤٤/٤.

وفي بعض التفاسير: "ما من عاص يموت إلا وتضرب الملائكة وجهه ودبره عند إدخاله القبر"^(١).
 عن مجاهد، قوله: "يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ"، قال: وأستاهم، ولكنه كريم يَكْنِي"^(٢).

القرآن

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)} [محمد : ٢٨]

التفسير:

ذلك العذاب الذي استحقوه ونالوه؛ بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم من طاعة الشيطان، وكرهوا ما يرضيه عنهم من العمل الصالح، ومنه قتال الكفار بعدما افترضه عليهم، فأبطل الله ثواب أعمالهم من صدقة وصلة رحم وغير ذلك.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ} [محمد : ٢٨]، أي: "ذلك العذاب الذي استحقوه ونالوه؛ بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم من طاعة الشيطان"^(٤).

قال الطبري: يقول: "تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان"^(٥).

قال الزجاج: "المعنى - والله أعلم - : ذلك جزاؤهم بأنهم اتبعوا الشيء الذي أسخط الله، أي: اتبعوا من خالف النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن خالف الشريعة وكرهوا الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واتباع شريعته"^(٦).

قال النحاس: "أي: ذلك جزاؤهم بأنهم اتبعوا الشيء أسخط الله من ترك متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم"^(٧).

عن ابن عباس: "بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ} بما كتموا من التوراة، وكفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم"^(٨).

قوله تعالى: {وَكْرَهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد : ٢٨]، أي: "وكرهوا ما يرضيه عنهم من العمل الصالح، ومنه قتال الكفار بعدما افترضه عليهم"^(٩).

قال الطبري: يقول: وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به، بعد ما افترضه عليهم"^(١٠).

قال الزجاج: "وكرهوا الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واتباع شريعته"^(١١).

قال النحاس: "أي: اتباع شريعته والإيمان"^(١٢).

قال ابن الجوزي: "أي: كرهوا ما فيه الرضوان، وهو الإيمان والطاعة"^(١٣).

قوله تعالى: {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد : ٢٨]، أي: "فأبطل الله ثواب أعمالهم من صدقة وصلة رحم وغير ذلك"^(١).

(١) معاني القرآن: ١٤/٥.

(٢) نقلا عن: تفسير السمعاني: ١٨٢/٥.

(٣) أخرجه الطبري (١٦٢٠٢): ص ١٤/١٦.

(٤) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٥) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(٦) معاني القرآن: ١٤/٥.

(٧) إعراب القرآن: ١٢٦/٤.

(٨) تفسير البغوي ٧/٢٨٨.

(٩) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(١٠) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(١١) معاني القرآن: ١٤/٥.

(١٢) إعراب القرآن: ١٢٦/٤.

(١٣) زاد المسير: ١٢١/٤.

- قال الطبري: "يقول: فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهب، لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته، فبطلت، ولم تنفع عاملها"^(٢).
- قال الزجاج: "أي: ما كان من عمل خير نحو صلة رحم أو بر أو صدقة، أحبط الله ذلك بكفرهم بما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم -"^(٣).
- قال النحاس: "أي: فأحبط ذلك، ويجوز أن يكون المعنى: فأحبط الله جلّ وعزّ ما عملوا من خير بكفرهم"^(٤).
- فوائد الآيات: [٢٤-٢٨]:
- ١- وجوب تدبر القرآن الكريم عند تلاوته أو سماعه وهو تفهم معانيه في حدود قدرة المسلم على الفهم.
 - ٢- الارتداد عن الإسلام كالرجوع عن الطاعة إلى المعصية سببها تزيين الشيطان للعبد ذلك وإملاؤه له بالتمني والوعد الكاذب.
 - ٣- من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأي شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين.
 - ٤- تقرير عقيدة عذاب القبر وأنه حق ثابت، أعادنا الله منه أمين.

القرآن

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد : ٢٩]

التفسير:

- بل أظنّ المنافقون أن الله لن يُخرج ما في قلوبهم من الحسد والحقد للإسلام وأهله؟ بلى فإن الله يميز الصادق من الكاذب.
- قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [محمد : ٢٩]، أي: "بل أحسب أولئك المنافقون الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين"^(٥).
- قال الطبري: يقول: "أحسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شكّ في دينهم، وضعف في يقينهم، فهم حيارى في معرفة الحق"^(٦).
- قال مقاتل: "يعني: الشكّ بالقرآن، وهم المنافقون"^(٧).
- قوله تعالى: {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد : ٢٩]، أي: "أن الله لن يُخرج ما في قلوبهم من الحسد والحقد للإسلام وأهله؟"^(٨).
- قال الطبري: يقول: "أن لن يُخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان على المؤمنين، فيبيده لهم ويظهره، حتى يعرفوا نفاقهم، وحيرتهم في دينهم"^(٩).
- قال مقاتل: "يعني: أن لن يظهر الله الغش الذي في قلوبهم للمؤمنين"^(١٠).
- قال الفراء: "يقول: أن لن يبدي الله عداوتهم وبغضهم لمحمد صلى الله عليه"^(١١).
- قال ابن كثير: "أي : اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة "براءة"،

(١) التفسير الميسر: ٥٠٩.

(٢) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(٣) معاني القرآن: ١٥/٥.

(٤) إعراب القرآن: ١٢٦/٤.

(٥) تفسير المراغي: ٧١/٢٦.

(٦) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٠/٤.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٩) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٠/٤.

(١١) معاني القرآن: ٦٣/٣.

فبين فيها فضائهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان : جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره"^(١).

عن السدي: {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ}: غشهم"^(٢).

قال ابن عباس: "هم أهل النفاق"^(٣).

قال عبيد: "سمعت الضحاك يقول في قوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} ... الآية، هم أهل النفاق"^(٤).

عن ابن عباس، قوله: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ}، قال: أعمالهم خبثهم، والحسد الذي في قلوبهم، ثم دل الله النبي- صلى الله عليه وسلم- بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق"^(٥).

القرآن

{وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَלَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)}

[محمد : ٣٠]

التفسير:

ولو نشاء -أيها النبي- لأريناك أشخاصهم، فلعرفتهم بعلامات ظاهرة فيهم، ولتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم. والله تعالى لا تخفى عليه أعمال من أطاعه ولا أعمال من عصاه، وسيجازي كلا بما يستحق.

قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [محمد : ٣٠]، أي: "ولو نشاء -أيها النبي- لأريناك أشخاصهم، فلعرفتهم بعلامات ظاهرة فيهم"^(٦).

قال الطبري: يقول: "ولو نشاء يا محمد لعرفناك هؤلاء المنافقين حتى تعرفهم من قول القائل: سأريك ما أصنع، بمعنى سأعلمك"^(٧).

قال الفراء: "يريد: لعرفناكم، تقول للرجل: قد أريتك كذا وكذا، ومعناه عرفتك وعلمتك"^(٨).

قال الزجاج: "المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السيمياء، {فَلَعَرَفْتَهُمْ} بتلك العلامة"^(٩).

قال ابن كثير: "يقول تعالى : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمر على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها"^(١٠).

قال السعدي: "أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم"^(١١).

قال ابن عباس: "هم أهل النفاق، وقد عرفه إياهم في براءة، فقال: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}، وقال: {قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا}"^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧.

(٢) النكت والعيون: ٣٠٤/٥.

(٣) أخرجه الطبري: ١٨٤/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ١٨٤/٢٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٥٩٠): ص ٣٢٩٩/١٠.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٨٣/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٦٣/٣.

(٩) معاني القرآن: ١٥/٥.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧.

(١١) تفسير السعدي: ٧٨٩.

قال الضحاك: " {فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، فعرفه الله إياهم في سوره براءة، فقال: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا}، وقال: «قل لهم لن تتفروا»^(٢) معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا»^(٣).

قال ابن زيد: " هؤلاء المنافقون، قال: وقد أراه الله إياهم، وأمر بهم أن يخرجوا من المسجد، قال: فأبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا الله؛ فلما أبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا الله حُقنت دماؤهم، ونكحوا ونوكحوا بها"^(٤).

قوله تعالى: {وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد : ٣٠]، أي: " ولتعرفنهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم"^(٥).

عن ابن زيد، في قوله: " {في لحن القول}، قال: قولهم"^(٦).

قال ابن عباس: " في معنى القول"^(٧).

قال الحسن: " في فحواه"^(٨).

وقال القرظي: " في مقصده ومغزاه"^(٩).

قال الطبري: " يقول: فلتعرفهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم ثم إن الله تعالى ذكره عرفه إياهم"^(١٠).

قال الفراء: " في نحو القول، وفي معنى القول"^(١١).

قال ابن كثير: " أي : فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتت لسانه. وفي الحديث : «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»^(١٢)^(١٣).

قال الزجاج: " أي: في فحوى القول. فدلَّ بهذا والله أعلم - على أن قول القائل وفعله يدلُّ على نيته، وقول الناس: قد لحن فلان، تأويله: قد أخذ في ناحية عن الصواب، وعدلَّ عن الصواب إليها، وقول الشاعر^(١٤):

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلَحَّنُ أَحْيَانًا ... وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

تأويله: خير الحديث من مثل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد، إنما يُعرفُ قولها في أنحاء قولها"^(١٥).

(١) أخرجه الطبري: ١٨٤/٢٢.

(٢) التلاوة: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة : ٨٣].

(٣) أخرجه الطبري: ١٨٤/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ١٨٤/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٦) أخرجه الطبري: ١٨٥/٢٢.

(٧) تفسير الثعلبي: ٢٠٦/٢٤، ط. دار التفسير.

(٨) تفسير الثعلبي: ٢٠٦/٢٤، ط. دار التفسير. وذكره بنحوه النسفي في "تفسيره" ٣/ ٣٢٩، الخازن في "تفسيره" ٤/ ١٤١ ولم ينسياه.

(٩) تفسير الثعلبي: ٢٠٦/٢٤، ط. دار التفسير. ولم أجده، وذكر معنى قوله البيهقي في "تفسيره" ٧/ ٢٨٩، والشوكاني في "فتح القدير" ٥/ ٥٣.

(١٠) تفسير الطبري: ١٨٤/٢٢.

(١١) معاني القرآن: ٦٣/٣.

(١٢) المعجم الكبير (١٧١/٢)، فيه حامد بن آدم كذاب. وقال ابن كثير: ٣٢٢/٧ محمد بن عبيد الله العرزمي متروك.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٧-٣٢٢.

(١٤) لمالك بن أسماء بن خارجة. البيان والتبيين: ١/ ١٤٧، وأمالى المرتضى: ١/ ١١، والشعر والشعراء" ص ٥٢٧، و"تهذيب اللغة" (لحن) ٥/ ٦١، و"اللسان" (لحن) ١٣/ ٣٨٠.

(١٥) معاني القرآن: ١٥/٥.

قال السعدي: "أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفتلات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر"^(١).
 عن أبي سعيد الخدري -من طريق أبي هارون- في قوله: "وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ"، قال: ببغضهم علي بن أبي طالب"^(٢).

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، رضي الله عنه، قال: "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم". ثم قال: "قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان". حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: "إن فيكم - أو: منكم - فاتقوا الله". قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: بعدًا لك سائر اليوم"^(٣).
 قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٠]، أي: "والله تعالى لا تخفى عليه أعمال من أطاعه ولا أعمال من عصاه، وسيجازي كلا بما يستحق"^(٤).
 قال الطبري: "لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته، والمخالف ذلك، وهو مجازي جميعكم عليها"^(٥).

القرآن

{وَلَنَبِّئَنكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبِّئُوا أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]

التفسير:

ولنختبرنكم -أيها المؤمنون- بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر ما علمه سبحانه في الأزل؛ لنميز أهل الجهاد منكم والصبر على قتال أعداء الله، ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيظهر الصادق منكم من الكاذب.

قوله تعالى: {وَلَنَبِّئَنكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد: ٣١]، أي: "ولنختبرنكم -أيها المؤمنون- بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر ما علمه سبحانه في الأزل؛ لنميز أهل الجهاد منكم والصبر على قتال أعداء الله"^(٦).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَلَنَبِّئَنكُمْ} أيها المؤمنون بالقتل، وجهاد أعداء الله، حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم، وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلوا أخباركم، فنعرف الصادق منكم من الكاذب"^(٧).

قال النسفي: "ولنبلونكم بالقتال إعلاما لا استعلاما أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل {حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين} على الجهاد أي نعلم كائنا ما علمناه أنه سيكون"^(٨).

قال السمعاني: "أي: نعلم علم الشهادة، وهو العلم الذي يقع عليه الوعد والوعيد. ويقال: لنعاملكم معاملة من يريد أن يعلم أعمالكم. ويقال معناه: حتى تعلموا أننا علمنا أعمالكم"^(٩).

(١) تفسير السعدي: ٧٨٩.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٤٢ / ٣٦٠. وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٣) المسند (٢٧٣/٥) قال الهيثمي في المجمع (١١٢/١): "فيه عياض بن أبي عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما".

(٤) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٥) تفسير الطبري: ١٨٥/٢٢.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٨٥/٢٢.

(٨) تفسير النسفي: ٣٣٠/٣.

(٩) تفسير السمعاني: ١٨٤/٥.

قال ابن كثير: "أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى"^(١).

قال الزجاج: "معنى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} لنختبرنكم بالحرب. {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ}، وهو عز وجل قَدْ عَلِمَ قَبْلَ خَلْقِهِمُ الْمُجَاهِدِينَ مِنْهُمْ وَالصَّابِرِينَ، ولكنه أراد العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم على أعمالهم. فتأويله: حتى يعلم المجاهدين علم شهادة، وقد علم - عز وجل - الغيب، ولكن الجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم شهادة"^(٢).

قال ابن أبي زيمين: "{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} وهذا علم الفعال"^(٣).

قال النحاس: "الابتلاء في اللغة: الاختبار فقليل: المعنى: لنشدن عليكم في التعبد، وذلك في الأمر بالجهاد، والنهي عن المعاصي. يدل على ذلك حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين"^(٤).

عن ابن زيد، قوله: "{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ}"، قال: نختبركم، البلوى: الاختبار. وقرأ: {لَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} قال: لا يختبرون (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} ... الآية"^(٥).

قال ابن عباس: "أخبر الله سبحانه المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشّرهم فقال: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} ثم أخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه، وصفوته لتطيب أنفسهم، فقال: {مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا} فالبأساء: الفقر، والضراء: السقم، وزلزلوا بالفتن وأذى الناس إياهم"^(٦).

قوله تعالى: {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]، أي: ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيظهر الصادق منكم من الكاذب"^(٧).

قال النسفي: أي: "أسراركم"^(٨).

قال الواحدي: "أي: نظهرها، ونكشفها، بإبائه من يابى القتال، ولا يصبر على الجهاد"^(٩).

قال النحاس: "أي: ما عملتم فيما تعبدتم به"^(١٠).

قال ابن أبي زيمين: "أي: نختبركم؛ فنعلم من يصدق فيما أعطي من الإيمان ومن يكذب"^(١١).

قال الشافعي رحمه الله: "ومنه: ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم، فإنه يقول تبارك وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، الآية"^(١٢).

- (١) تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٧.
- (٢) معاني القرآن: ١٦/٥.
- (٣) تفسير ابن أبي زيمين: ٢٤٥/٤.
- (٤) إعراب القرآن: ١٢٦/٤-١٢٧.
- (٥) أخرجه الطبري: ١٨٦/٢٢.
- (٦) أخرجه الطبري: ١٨٥/٢٢-١٨٦.
- (٧) التفسير الميسر: ٥١٠.
- (٨) تفسير النسفي: ٣٣٠/٣.
- (٩) التفسير الوسيط: ١٢٩/٤.
- (١٠) إعراب القرآن: ١٢٦/٤-١٢٧.
- (١١) تفسير ابن أبي زيمين: ٢٤٥/٤.
- (١٢) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٥٨/٣.

قال إبراهيم بن الأشعث: "كان الفضل إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبلنا، فإناك إن بلوتنا هتكت أستاذنا، وفضحتنا"^(١).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ} [محمد : ٣٢]

التفسير:

إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، وصدوا الناس عن دينه، وخالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاربوه من بعد ما جاءتهم الحجج والآيات أنه نبي من عند الله، لن يضرروا دين الله شيئاً، وسيبطل ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [محمد : ٣٢]، أي: "إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له"^(٢).

قال الطبري: يقول: "إن الذين جحدوا توحيد الله"^(٣).

قوله تعالى: {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [محمد : ٣٢]، أي: "وصدوا الناس عن دينه"^(٤).

قال الطبري: يقول: "وصدوا الناس عن دينه الذي ابتعث به رسله"^(٥).

قال السمعاني: "أي: منعوا الناس عن الإيمان بالله"^(٦).

قوله تعالى: {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ} [محمد : ٣٢]، أي: "وخالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاربوه من بعد ما جاءتهم الحجج والآيات أنه نبي من عند الله"^(٧).

قال الطبري: "يقول: وخالفوا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، فحاربوه وأدوه من بعد ما علموا أنه نبي مبعوث، ورسول مرسل، وعرفوا الطريق الواضح بمعرفته، وأنه الله رسول"^(٨).

قال السمعاني: "أي: خالفوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى"^(٩).

قال السعدي: "أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال"^(١٠).

قال القرطبي: " {شاقوا الرسول}، أي: عادوه وخالفوه"^(١١).

قال أبو هلال العسكري: «الهدى» - هنا - "يعني: ما بين الله في التوراة والإنجيل من أمر محمد - صلى الله عليه وسلم -"^(١٢).

قال البيضاوي: "هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر"^(١٣).

عن ابن عباس: "هم المطعمون يوم بدر"^(١٤).

(١) نقلا عن: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي: ٣٨/٩.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٣) تفسير الطبري: ١٨٦/٢٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٥) تفسير الطبري: ١٨٦/٢٢.

(٦) تفسير السمعاني: ١٨٤/٥.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٨) تفسير الطبري: ١٨٦/٢٢.

(٩) تفسير السمعاني: ١٨٤/٥.

(١٠) تفسير السعدي: ٧٨٩.

(١١) تفسيراً لقرطبي: ٢٥٤/١٦.

(١٢) الوجوه والنظائر: ٤٩٩.

(١٣) تفسير البيضاوي: ١٢٤/٥.

(١٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٣٨/٩. بدون سند.

قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} [محمد : ٣٢]، أي: "لن يضرُوا دين الله شيئاً"^(١).
قال الطبري: "لأن الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومُظهره على من عاداه وخالفه"^(٢).
قال السمعاني: "أي: [لن] ينقصوا الله شيئاً"^(٣).
قال السعدي: "فلا ينقص به ملكه"^(٤).
قال البيضاوي: " {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} بكفرهم وصددهم، أو لن يضرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفطيق مشاقته"^(٥).
قال ابن كثير: " وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها"^(٦).
قوله تعالى: {وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ} [محمد : ٣٢]، أي: "وسَيُحِطُّ ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى"^(٧).
قال الطبري: " يقول: وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلا ينفعم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويبيطلها إلا مما يضرهم"^(٨).
قال ابن كثير: " وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات"^(٩).
قال الزمخشري: " {وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ} التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب، لأنها مع كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم باطلة، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكاييد التي نصبوها في مشاقرة الرسول، أي: سيبيطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل هم رؤساء قريش، والمطعمون يوم بدر"^(١٠).
قال السعدي: "أي: مساعيمهم التي بذلوا في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها"^(١١).
فوائد الآيات: [٢٩-٣٢]:

- ١- بيان حقيقة وهي من أسر سريرة ألبسه الله رداءها فكشفه للناس.
- ٢- ومن أحب شيئاً ظهر على وجهه وقلبات لسانه.
- ٣- تقرير قاعدة وهي أنه لبد من الابتلاء لمن دخل في الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته لا إيماناً صورياً أدنى فنته تصيب صاحبه يرتد بها عن الإسلام.
- ٤- حكمة الله عز وجل، حيث يبئلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحاناً حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} [محمد: ٣١]؛ فلا يُعرف زيف الذهب إلا إذا أذناه بالنار؛ ولا يُعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار؛ أيضاً لا يعرف المؤمن إلا بالابتلاء والامتحان؛ فعليك يا أخي بالصبر؛ قد تؤذى على دينك؛ قد يستهزأ بك؛ وربما تلاحظ؛ وربما تراقب؛ ولكن اصبر، وصدق، وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم كان ساجداً لله في آمن بقعة على الأرض - وهو المسجد الحرام -؛ فبأتي طغاة البشر بفرث الناقة، ودمها، وسلاها، يضعونها عليه وهو ساجد؛ هذا أمر عظيم لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل؛ ويبقى

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.
(٢) تفسير الطبري: ١٨٦/٢٢.
(٣) تفسير السمعاني: ١٨٤/٥.
(٤) تفسير السعدي: ٧٨٩.
(٥) تفسير البيضاوي: ١٢٤/٥.
(٦) تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٧.
(٧) التفسير الميسر: ٥١٠.
(٨) تفسير الطبري: ١٨٦/٢٢.
(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٧.
(١٠) الكشاف: ٣٢٨/٤.
(١١) تفسير السعدي: ٧٨٩.

ساجداً حتى تأتي ابنته فاطمة وهي جويرية - أي صغيرة - تزيله عن ظهره فيبقى القوم يضحكون، ويقهقهون^(١)؛ فاصبر، واحتسب؛ واعلم أنه مهما كان الأمر من الإيذاء فإن غاية ذلك الموت؛ وإذا مت على الصبر لله عزّ وجلّ انتقلت من دار إلى خير منها.
٥- أعمال المشرك والكافر باطلة لا ثواب خير عليها لأن الشرك محبط للأعمال الصالحة.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)} [محمد : ٣٣]

التفسير:

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعلّموا بشرعه أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما، ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بالكفر والمعاصي.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال مقاتل: "وذلك أن أناساً من أعراب بني أسد بن خزيمه قدموا على النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: أتيناك بأهلينا طائعين عفواً بغير قتال وتركنا الأموال والعشائر، وكل قبيلة في العرب قاتلوك حتى أسلموا كرهاً فلنا عليك حق، فأعرف ذلك لنا فأنزل تعالى في «الحجرات»: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} [الحجرات : ١٧] إلى آيتين^(٢). وأنزل الله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد : ٣٣]"^(٣).

قال ابن عطية: "روي أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب، وذلك أنهم أسلموا وقالوا لرسول الله عليه السلام: نحن قد أثرتك على كل شيء وجئناك بنفوسنا وأهلنا، كأنهم منوا بذلك، فنزل فيهم: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} [الحجرات : ١٧] ونزلت فيهم هذه الآية، فإن كان هذا فالإبطال الذي نهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التام، لأن الإفساد التام لا يكون إلا بالكفر، وإلا فالحسنات لا تبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهي الناس عن إبطال أعمالهم بالكفر، والإبطال هو الإفساد التام"^(٤).

الثاني: قال أبو العالية: "كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، فخافوا أن يبطل الذنب العمل"^(٥).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [محمد : ٣٣]، أي: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعلّموا بشرعه"^(٦).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله ورسوله"^(٧).

قال ابن عباس: "ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"^(٨).

(١) أخرجه البخاري ص ٢٢، كتاب الوضوء، باب ٦٩: إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، حديث رقم ٢٤٠، وأخرجه مسلم ص ٩٩٧، كتاب الجهاد والسير، باب ٣٩: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم ٤٦٤٩ [١٠٧] ١٧٩٤.

(٢) هما الآية ١٧، ١٨ من سورة الحجرات ونصهما: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} فَلَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات: ١٧-١٨].

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥١-٥٠/٤. ومقاتل متروك، وكذبه غير واحد، فخبره لا يصح.

(٤) المحرر الوجيز: ١٢٢/٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٥٩١): ص ٣٢٩٩/١٠، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة: ٢ / ٦٤٦، وإسناده ضعيف، وذكره السيوطي في الدر المنثور: ٧ / ٥٠٤-٥٠٥ وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٥): ص ١٩٦/١.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"^(١).
قوله تعالى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [محمد : ٣٣]، أي: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما"^(١).

قال التستري: "أي: في تعظيم الله"^(٢).
قال الطبري: "أي: في أمرهما ونهيهما"^(٣).
قال عطاء بن ابي رباح: "طاعة الله: إتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته"^(٤).
قال الشافعي رحمه الله: "فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الاجتهاد بعد أن لا يكون كتاب الله ولا سنة رسوله، ولقول الله - عز وجل -: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} الآية، وما لم أعلم فيه مخالفاً من أهل العلم، ثم ذلك موجود في قوله - صلى الله عليه وسلم - "إذا اجتهد"؛ لأن الاجتهاد ليس بعين قائمة، وإنما هو شيء يحدثه من قبل نفسه، فإذا كان هذا هكذا فكتاب الله، والسنة، والإجماع أولى - به - من رأي نفسه، ومن قال الاجتهاد أولى خالف الكتاب والسنة برأيه"^(٥).

قوله تعالى: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد : ٣٣]، أي: "ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بالكفر والمعاصي"^(٦).

قال يحيى بن سلام: "يعني: بالمن"^(٧).
قال مقاتل: أي: "بالمن، ولكن أخلصوها لله- تعالى-"^(٨).
قال عطاء: "بالشك والنفاق"^(٩).
قال الكلبي: "بالرياء والسمعة"^(١٠).
قال الحسن: "بالمعاصي والكبائر"^(١١).
قال التستري: "أي: برؤيتها من أنفسكم ومطالبة الأعداء من ربكم، فإن العمل الخالص الذي لم يطلب به العوض"^(١٢).
قال الطبري: "يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما، وكفركم بربكم ثواب أعمالكم فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح"^(١٣).
قال ابن كثير: "أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، أي: بالردة"^(١٤).
قال قتادة: "من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها"^(١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٧): ١٩٦/١.

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٢) تفسير التستري: ١٤٦.

(٣) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢.

(٤) تفسير القرآن من الجامع لان وهب (١٢): ١٢/٩.

(٥) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٥٨/٣.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه: ٢٩٥.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥١/٤.

(٩) حكاه عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ١٢٩/٤، والبغوي في التفسير: ٢٩٠/٧. بدون سند.

(١٠) حكاه عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ١٢٩/٤، والبغوي في التفسير: ٢٩٠/٧. بدون سند.

(١١) حكاه عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ١٢٩/٤، والبغوي في التفسير: ٢٩٠/٧. بدون سند.

(١٢) تفسير التستري: ١٤٦.

(١٣) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧.

قال الجصاص: " قوله تعالى: {ولا تبطلوا أعمالكم} يحتج به في أن كل من دخل في قرية لا يجوز له الخروج منها قبل إتمامها لما فيه من إبطال عمله، نحو الصلاة والصوم والحج وغيره" (٢).

قال ابن العربي: "اختلف العلماء فيمن افتتح نافلة من صوم أو صلاة، ثم أراد تركها، قال الشافعي: له ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة: ليس له ذلك لأنه إبطال لعمله الذي انعقد له، وقال الشافعي هو تطوع فإلزامه إياه يخرج عن الطوعية. قلنا: إنما يكون ذلك قبل الشروع في الفعل، فإذا شرع لزمه كالشروع في المعاملات. ولا تكون عبادة ببعض ركعة ولا ببعض يوم في صوم، فإذا قطع في بعض الركعة أو في بعض اليوم إن قال: إنه يعتد به فقد ناقض الإجماع، وإن قال: إنه ليس بشيء فقد نقض الإلزام. وذلك مستقصى في مسائل الخلاف" (٣).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)} [محمد : ٣٤]

التفسير:

إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له وصدّوا الناس عن دينه، ثم ماتوا على ذلك، فلن يغفر الله لهم، وسيعذبهم عقاباً لهم على كفرهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد. في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها نزلت الآية في رؤساء أهل بدر. قاله الكلبي (٤).
الثاني: وقال مقاتل: "وذلك أن المسلم كان يقتل ذا رحمه على الإسلام فقالوا: يا رسول الله، أين أبوانا وإخواننا الذين قاتلوا فقتلوا؟ فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: هُمُ فِي النَّارِ. فقال رجل من القوم: أين والده وهو عدي بن حاتم؟ فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: فِي النَّارِ. فولى الرجل وله بكاء فدعاه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: فَقَالَ مَالِكُ؟ فقال: يا نبي الله أجدني أرحمه وأرثي له، فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: فَإِنَّ وَالِدِي وَوَالِدَ إِبْرَاهِيمَ وَوَالِدَكَ فِي النَّارِ فليكن لك أسوة فيّ وفي إبراهيم خليله فذهب بعض وجده. فقال: يا نبي الله، وأين المحاسن التي كان يعملها؟ قال: يخفف الله عنه بها من العذاب فأنزل الله فيهم: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (٥) (٦).

قال ابن عطية: " وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة" (٧).

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} [محمد : ٣٤]، أي: " إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له وصدّوا الناس عن دينه، ثم ماتوا على ذلك" (٨).

قال الطبري: يقول: " إن الذين أنكروا توحيد الله، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك، ففتنوه عن ذلك، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم" (٩).

(١) أخرجه الطبري: ١٨٧/٢٢.

(٢) أحكام القرآن: ٥٢٢/٣.

(٣) أحكام القرآن: ١٢٣/٤-١٢٤.

(٤) حكاة عنه أبو الليث السمرقندي في بحر العلوم: ٣٠٦/٣.

(٥) نص الآية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [محمد : ٣٤].

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥١/٤-٥٢. مقاتل متروك متهم، والخبر لا يصح.

(٧) المحرر الوجيز: ١٢٢/٥.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٩) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢.

قوله تعالى: {فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [محمد : ٣٤]، أي: " فلن يغفر الله لهم، وسيعذبهم عقاباً لهم على كفرهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد"^(١).
 قال الطبري: " يقول: فلن يعفو الله عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبه عليه، ويفضحه به على رؤوس الأشهاد"^(٢).
 قال الزجاج: " أعلم - عزَّ وجلَّ - أنه لا يغفر لمن مات على الكفر"^(٣).
 قال الثعلبي: " هم أصحاب القليب"^(٤)، وحكمها عام"^(٥).
 قال الزمخشري: " قيل، هم أصحاب القليب، والظاهر العموم"^(٦).

القرآن

{فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)} [محمد :

٣٥

التفسير:

فلا تضعفوا -أيها المؤمنون بالله ورسوله- عن جهاد المشركين، وتجنبوا عن قتالهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم، والله تعالى معكم بنصره وتأييده، ولن يُنقصكم الله ثواب أعمالكم.

قوله تعالى: {فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ} [محمد : ٣٥]، أي: " فلا تضعفوا -أيها المؤمنون بالله ورسوله- عن جهاد المشركين، وتجنبوا عن قتالهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم"^(٧).
 قال الفراء: "يقول: لا تدعوا إلى السلم، وهو الصلح، وأنتم الأعلون، أنتم الغالبون آخر الأمر لكم"^(٨).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد المشركين وتجنبوا عن قتالهم، لا تضعفوا عنهم وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم"^(٩).

قال ابن كثير: " أي: لا تضعفوا عن الأعداء، {وَتَدْعُوا إِلَى} المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك"^(١٠).

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢.

(٣) معاني القرآن: ١٦/٥.

(٤) أصحاب القليب هم صناديد كفار قريش عندما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً منهم فقتلوا في قليب بدر، وعندما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يغادر المكان وقف على شفة البئر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فأبأ وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟! فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: يا رسول الله، ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟! فقال رسول الله - رضي الله عنه -: "والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" والحديث أخرجه البخاري في صحيحه [٣٠٠ / ٧]، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل - الفتح].

(٥) الكشف والبيان: ٣٨/٩.

(٦) الكشف: ٣٢٩/٤.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٨) معاني القرآن: ٦٤/٣.

(٩) تفسير الطبري: ١٨٧/٢٢-١٨٨.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧.

قال القاسم بن سلام البغدادي: "تَهْتُوا": تضعفوا بلغة قريس وكنانة"^(١).
 عن مجاهد: "فَلَا تَهْتُوا"، قال: لا تضعفوا"^(٢).
 قال ابن زيد: "لا تضعف أنت"^(٣).
 عن قتادة، قوله: "فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ"، قال: لا تكونوا أولى الطائفتين صرعت
 لصاحبتهما، ودعتها إلى المودعة، وأنتم أولى بالله منهم والله معكم"^(٤).
 وفي قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} [محمد: ٣٥]، ثلاثة وجوه من التفسير:
 أحدها: معناه: وأنتم أولى بالله منهم. قاله قتادة"^(٥).
 قال ابن الجوزي: "وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين، ودلالة
 على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل مكة صلحاً، لأنه نهاه عن الصلح"^(٦).
 الثاني: معناه: وأنتم الغالبون الأعزّ منهم. قاله مجاهد"^(٧)، وابن زيد"^(٨)، ومقاتل"^(٩).
 قال مجاهد: "يعني: الغالبين مثل يوم أحد، أي: تكون عليهم الدائرة"^(١٠).
 قال مقاتل: "يقول: وأنتم الغالبون عليهم، وكان هذا يوم أحد"^(١١).
 قال ابن زيد، في قوله: "فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ"، قال: هذا منسوخ،
 قال: نسخه القتال والجهاد، يقول: لا تضعف أنت وتدعوهم أنت إلى السلم وأنت الأعلى، قال:
 وهذا حين كانت العهود والهدنة فيما بينه وبين المشركين قبل أن يكون القتال، يقول: لا تهن
 فتضعف، فيرى أنك تدعو إلى السلم وأنت فوقه، وأعزّ منه {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} أنتم أعزّ منهم، ثم
 جاء القتال بعد فنسخ هذا أجمع، فأمره بجهادهم والغلبة عليهم"^(١٢).
 الثالث: معناه: وأنتم الغالبون آخر الأمر، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وقهروكم في بعض
 الحروب. حكاها الطبري"^(١٣).
 قال ابن الجوزي: "أي: أنتم أعزّ منهم، والحجّة لكم، وآخر الأمر لكم وإن غلبوكم في
 بعض الأوقات"^(١٤).
 قال الجصاص: "فنهى عن المسالمة عند القوة على قهر العدو وقتلهم وكذلك قال
 أصحابنا إذا قدر بعض أهل الثغور على قتال العدو ومقاومتهم لم تجز لهم مسالمتهم ولا يجوز
 لهم إقرارهم على الكفر إلا بالجزية، وإن ضعفوا عن قتالهم جاز لهم مسالمتهم كما سالم النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا من أصناف الكفار وهادنهم على وضع الحرب بينهم من غير
 جزية أخذها منهم، قالوا فإن قوا بعد ذلك على قتالهم نبذوا إليهم على سواء ثم قاتلوهم قالوا وإن
 لم يمكنهم دفع العدو عن أنفسهم إلا بما يبذلونه لهم جاز لهم ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وآله
 وسلم قد كان صالح عيبنة بن حصن وغيره يوم الأحزاب على نصف ثمار المدينة حتى لما
 شاور الأنصار، قالوا: يا رسول الله هو أمر أمرك الله به أم الرأي والمكيدة؟ فقال النبي صلى
 الله عليه وآله وسلم: لا، بل هو رأي، لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن

(١) لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم: ٤.

(٢) أخرجه الطبري: ١٨٨/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ١٨٨/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ١٨٨/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٨٨/٢٢.

(٦) زاد المسير: ١٢٣/٤.

(٧) انظر: تفسير مجاهد: ٦٠٥، وتفسير الطبري: ١٨٨/٢٢-١٨٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٨٩/٢٢.

(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٣/٤.

(١٠) تفسير مجاهد: ٦٠٥، وأخرجه الطبري: ١٨٨-١٨٩.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٣/٤.

(١٢) أخرجه الطبري: ٨٩!/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٨٩/٢٢.

(١٤) زاد المسير: ١٢٣/٤.

أدفعهم عنكم إلى يوم ما. فقال السعدان بن عبادة وسعد بن معاذ: والله يا رسول الله إنهم لم يكونوا يطعمون فيها منا إلا قرى وشرى ونحن كفار فكيف وقد أعزنا الله بالإسلام لا نعطيهم إلا بالسيف وشقاء الصحيفة، فهذا يدل على أنهم إذا خافوا المشركين جاز لهم أن يدفعوهم عن أنفسهم بالمال فهذه أحكام بعضها ثابت بالقرآن وبعضها بالسنة وهي مستعملة في الأحوال التي أمر الله تعالى بها واستعملها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها^(١).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} [محمد : ٣٥]، أي: "والله تعالى معكم بنصره وتأييده"^(٢).

قال الطبري: "يقول: والله معكم بالنصر لكم عليهم"^(٣).

قال ابن كثير: "قوله: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء"^(٤).

قوله تعالى: {وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد : ٣٥]، أي: "ولن يُنقصكم الله ثواب أعمالكم"^(٥).

قال الطبري: "يقول: ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها، من قولهم: وترت

الرجل إذا قتلت له قتيلا فأخذت له مالا غصبا"^(٦).

قال ابن كثير: "أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم

منها شيئا"^(٧).

قال ابن عباس: "يقول: لن يظلمكم أجور أعمالكم"^(٨).

قال قتادة: "أي: لن يظلمكم أعمالكم"^(٩). وروي عن الضحاك مثله^(١٠).

قال ابن زيد: "لن يظلمكم، أعمالكم. ذلك: {يَزِيدُكُمْ}"^(١١).

قال مجاهد: "لن ينقصكم"^(١٢).

ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر ماله

وأهله"^(١٣).

قال الفراء: "وترت الرجل، إذا قتلت له قتيلا، أو أخذت له مالا فقد وترته. وجاء في

الحديث: «من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(١٤) قال الفراء، وبعض الفقهاء يقول: أوتر،

والصواب وتر"^(١٥).

القرآن

{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنَّ
يَسْأَلْكُمْوَمَا فِيحِفْظِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ (٣٧)} [محمد : ٣٦-٣٧]

(١) أحكام القرآن: ٢٥٥/٤.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٣) تفسير الطبري: ١٨٨/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٦) تفسير الطبري: ١٨٩/٢٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧.

(٨) أخرجه الطبري: ١٨٩/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ١٩٠/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ١٩٠/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ١٩٠/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ١٨٩/٢٢-١٩٠.

(١٣) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر بنحوه في كتاب مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته العصر (٥٥٢)،

وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر بنحوه في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: التخليط في تقويت صلاة

العصر (٦٢٦).

(١٤) الموطأ: ١١، ١٢، وروايته: «الذي تفوته العصر، كأنما وتر أهله وماله».

(١٥) معاني القرآن: ٦٤/٣.

التفسير:

إنما الحياة الدنيا لعب وغرور. وإن تؤمنوا بالله ورسوله، وتتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، يؤتكم ثواب أعمالكم، ولا يسألكم إخراج أموالكم جميعها في الزكاة، بل يسألكم إخراج بعضها. إن يسألكم أموالكم، فيُلجَّ عليكم ويجهدكم، تبخلوا بها وتمنعوه إياها، ويظهر ما في قلوبكم من الحقد إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [محمد : ٣٦]، أي: "إنما الحياة الدنيا لعب وغرور" (١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: حاضا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مهجتهم في قتال أهل الكفر به: قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر، ولا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما كان منها لله من عمل في سبيله، وطلب رضاه. فأما ما عدا ذلك فإنما هو لعب ولهو، يضمحل فيذهب ويندرس فيمِر، أو إثم يبقى على صاحبه عاره وخزيه" (٢).

قال ابن كثير: "يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}، أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل" (٣).

قال مجاهد: "اللهو: الطبل" (٤).

قال مجاهد: "كلُّ لعبٍ لهو" (٥).

قوله تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ} [محمد : ٣٦]، أي: "إن تؤمنوا بالله ورسوله، وتتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، يؤتكم ثواب أعمالكم" (٦).

قال الطبري: "يقول: وإن تعملوا في هذه الدنيا التي ما كان فيها مما هو لها، فلعب ولهو، فتؤمنوا به وتتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وهو الذي يبقى لكم منها، ولا يبطل بطول اللهو واللعب، ثم يؤتكم ربكم عليه أجوركم، فيعوضكم منه ما هو خير لكم منه يوم فقركم، وحاجتكم إلى أعمالكم" (٧).

قوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ} [محمد : ٣٦]، أي: "ولا يسألكم إخراج أموالكم جميعها في الزكاة، بل يسألكم إخراج بعضها" (٨).

قال الزمخشري: "أي: ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على ربع العشر" (٩).
قال الطبري: "يقول: ولا يسألكم ربكم أموالكم، ولكنه يكلفكم توحيدته، وخلع ما سواه من الأنداد، وإفراد الألوهية والطاعة له" (١٠).

قال النحاس: "المعنى: ولا يأمركم أن تنفقوا أموالكم كلها في الجهاد ومواساة الفقراء" (١١).

قال ابن كثير: "أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم" (١٢).

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٩٠/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٢٣١): ص ١٢٨٢.

(٥) أخره ابن أبي حاتم (٧٤٥٠): ص ١٣١٨/٤.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٩٠/٢٢-١٩١.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٩) الكشاف: ٣٣٠/٤.

(١٠) تفسير الطبري: ١٩١/٢٢.

(١١) إعراب القرآن: ١٢٧/٤.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٧-٣٢٤.

قوله تعالى: {إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا} [محمد : ٣٧]، أي: "إن يسألكم أموالكم، فإلح عليكم ويجهدكم، تبخلوا بها وتمنعوه إياها"^(١).

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها منكم فيلحف، تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضنا منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها"^(٢).

قال ابن كثير: " {إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا} يجرركم تبخلوا"^(٣).

قال الزجاج: "أي إن يجهدكم بالمسألة، {تَبَخَّلُوا} "^(٤).

قال الفراء: "أي: يجهدكم تبخلوا.. أحفيت الرجل: أجهدته"^(٥).

قال ابن زيد: "الإحفاء: أن تأخذ كل شيء بيديك"^(٦).

قال ابن منظور: "أحفى فلان فلانا: إذا برج به في الإلحاف عليه، أو سأله فأكثر عليه في الطلب"^(٧).

قال الزمخشري: "الإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح. وأحفى شاربه: إذا استأصله"^(٨).

قوله تعالى: {وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ} [محمد : ٣٧]، أي: "ويظهر ما في قلوبكم من الحقد إذا طلب منكم ما تكرهون بذله"^(٩).

قال الفراء: "ويخرج ذلك البخل عداوتكم، ويكون: يخرج الله أضغانكم"^(١٠).

قال الطبري: "يقول: ويخرج جل ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم قال: قد علم الله أن في مسألته المال خروج الأضغان"^(١١).

قال الزمخشري: "تضطغنون"^(١٢) على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والضمير في {يُخْرِجُ} لله عز وجل، أي: يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبخل، لأنه سبب الاضطغان"^(١٣).

قال معمر: "تلا قتادة: {إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ} [محمد: ٣٧] قال: «قد علم الله في مسألة، خروج الأضغان»"^(١٤).

القرآن

{هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (٣٨) [محمد :

٣٨

التفسير:

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٩١/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٢٤/٧.

(٤) معاني القرآن: ١٧/٥.

(٥) معاني القرآن: ٦٤/٣.

(٦) أخرجه الطبري: ١٩١/٢٢.

(٧) انظر: اللسان، مادة: «حفا».

(٨) الكشف: ٣٣٠/٤.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٠.

(١٠) معاني القرآن: ٦٤/٣.

(١١) تفسير الطبري: ١٩١/٢٢.

(١٢) في الصحاح: «الضغن» الحقد. وتضاغن القوم واضطغونا: انطوا على الأحقاد.

(١٣) الكشف: ٣٣٠/٤.

(١٤) تفسير عبدالرزاق (٢٨٩١): ص ٢٠٩/٣.

ها أنتم -أيها المؤمنون- تُدْعُونَ إِلَى النِّفْقَةِ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ بِالنِّفْقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَامْتِنَالِ أَمْرِهِ يَهْلِكُمْ، وَيَأْتِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ فِي التَّوَلَّى عَنِ أَمْرِ اللَّهِ، بَلْ يَطِيعُونَهُ وَيَطِيعُونَ رَسُولَهُ، وَيَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ.

قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [محمد : ٣٨]، أي: "ها أنتم -أيها المؤمنون- تُدْعَوْنَ إِلَى النِّفْقَةِ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين: {ها أنتم} أيها الناس، تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه"^(٢).

قوله تعالى: {فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ} [محمد : ٣٨]، أي: "فمنكم من يبخل بالنفقة في سبيل الله"^(٣).

قال ابن كثير: "أي : لا يجيب إلى ذلك"^(٤).

قال الطبري: أي: "بالنفقة فيه"^(٥).

قال مقاتل: أي: "بالنفقة في سبيل الله"^(٦).

قال الزمخشري: "قيل: هي النفقة في الغزو. وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتكم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به"^(٧).

قوله تعالى: {وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ} [محمد : ٣٨]، أي: "ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب"^(٨).

قال الطبري: يقول: "ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله، فإنما يبخل عن بخل نفسه، لأن نفسه لو كانت جوادا لم تبخل بالنفقة في سبيل الله، ولكن كانت تجود بها"^(٩).

قال النحاس: "أي: إنما يعود الضرر عليه والعقوبة"^(١٠).

قال القشيري: "لأنه لو لم يفعل ذلك لحصل له الثراء- هكذا يظن"^(١١).

قال ابن كثير: "أي : إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه"^(١٢).

قال مقاتل: "لأنه لو أنفق في حق الله أعطاه الله الجنة في الآخرة"^(١٣).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} [محمد : ٣٨]، أي: "والله تعالى هو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه"^(١٤).

قال مقاتل: " {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ} عما عندكم من الأموال، {وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} إلى ما عنده من الخير والرحمة والبركة"^(١٥).

(١) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٩١/٢٢.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٤/٧.

(٥) تفسير الطبري: ١٩١/٢٢.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

(٧) الكشاف: ٣٣٠/٤.

(٨) صفوة التفاسير: ١٩٩/٣.

(٩) تفسير الطبري: ١٩٢/٢٢.

(١٠) إعراب القرآن: ١٢٨/٤.

(١١) لطائف الإشارات: ٤١٦/٣.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٤/٧.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

(١٤) التفسير الميسر: ٥١٠.

(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم، لأنه الغني عن خلقه والخلق الفقراء إليه، وأنتم من خلقه، فأنتم الفقراء إليه، وإنما حضكم على النفقة في سبيله، ليكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه" (١).

قال ابن كثير: "وَاللَّهُ الْغَنِيُّ"، أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: {وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ}، أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي لا ينفكون عنه" (٢).

قال ابن زيد: "ليس بالله تعالى ذكره إليكم حاجة وأنتم أحوج إليه" (٣).

قال النحاس: "أي: فلم يكفكم ذلك لما علمه منكم" (٤).

قال التستري: "معرفة السر كله في الفقر، وهو سر الله، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله عز وجل" (٥).

قوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد : ٣٨]، أي: "وإن تتولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره يهلككم، ويأت بقوم آخرين" (٦).

قال الطبري: يقول: "وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم. به محمد صلى الله عليه وسلم، فترتدوا راجعين عنه يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلا منكم يصدقون به، ويعملون بشرائعه" (٧).

قال مقاتل: "يقول: [وإن] تعرضوا عما افترضت عليكم من حقي، {يَسْتَبْدِلْ} بكم {قَوْمًا غَيْرَكُمْ}، يعني: أمثل منكم وأطوع الله منكم" (٨).

قال ابن كثير: "وإن تَوَلَّوْا}، عن طاعته واتباع شرعه {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} ثم لا يَكُونُوا أُمَّتَالَكُمْ}، أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره" (٩).

قال قتادة: "يقول: إن توليتكم عن كتابي وطاعتي أستبدل قوما غيركم. قادر والله ربنا على ذلك على أن يهلكهم، ويأتي من بعدهم من هو خير منهم" (١٠).

وفي قوله تعالى: {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد : ٣٨]، أربعة أقوال: أحدها: أنهم أهل اليمن وهم الأنصار، قاله شريح بن عبيد (١١)، ومقاتل (١٢).

الثاني: أنهم الفرس.

عن أبي هريرة، قال: "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما هذه الآية: {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} ثم لا يَكُونُوا أُمَّتَالَكُمْ}، قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه هذا وقومه" (١٣). وفي رواية: "لو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من فارس" (١٤).

(١) تفسير الطبري: ١٩٢/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٤/٧.

(٣) أخرجه الطبري: ١٩٢/٢٢.

(٤) إعراب القرآن: ١٢٨/٤.

(٥) تفسير التستري: ١٤٦.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٩٢/٢٢.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢٤/٧.

(١٠) أخرجه الطبري: ١٩٣-١٩٢/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٩٤/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

(١٣) أخرجه الترمذي في التفسير (تفسير سورة محمد) (٣٢٦٠): ص ٢٣٦/٥، وقال: "هذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، وقد روى عبد الله بن جعفر أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن"، وأخرجه الطبري: ١٩٣/٢٢-١٩٤، والحاكم: ٤٥٨ / ٢ / صححه، وعبد الرزاق في المصنف: ١١ / ٦٦، والمصنف في شرح السنة: ١٤ / ٢٠٠. وعزه السيوطي في الدر المنثور: ٧ / ٥٠٦ لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في

الثالث : فارس والرُّوم. قاله عكرمة^(٢).

وعن الحسن: " {وَأِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} هم العجم"^(٣).

الرابع: أنهم من شاء من سائر الناس ، قاله مجاهد^(٤).

قال الزجاج: " جاء في التفسير: إن تَوَلَّى العِبَادُ اسْتَبْدَلَ اللهُ بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ. وجاء أيضاً: إن تَوَلَّى أهل مكة استبدل الله بهم أهل المدينة. وجاء أيضاً - يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ مِنْ أَهْلِ قَارِسَ. فأما ما جاء أنه يستبدل بهم الملائكة، فهو في اللغة على ما أتوهم فيه بُعد لأنه لا يقال للملائكة قوم، إنما يقال قوم لِلْأَدَمِيِّينَ. والمعنى - والله أعلم - :وَأِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا أَطْوَعَ مِنْكُمْ، كما قال - عز وجل - {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}. إلى آخر القصة، فلم يتولَّ جميع النَّاسِ - والله أعلم"^(٥).

قوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد : ٣٨]، أي: " ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم"^(٦).

قال مقاتل: أي: " في المعاصي، بل يكونوا خيرا منكم وأطوع"^(٧).

قال الطبري: " يقول: ثم لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به"^(٨).

قال الواحدي: " {ثم لا يكونوا} في الطاعة {أمثالكم} بل يكونوا أطوع منكم وهذا الخطاب للعرب"^(٩).

قال البيهقي: قوله: " {وَأِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} ثم لا يكونوا أمثالكم، هذا في الإخبار عن القدرة لأنه ليس في الوجود أمة خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم"^(١٠).
فوائد الآيات: [٣٣-٣٨]:

١- وجوب طاعة الله وطاعة رسوله.

٢- وجوب إتمام العمل الصالح من صلاة وغيرها بالشروع فيه.

٣- بطلان العمل الصالح بالرياء أو إفساده عند أدائه أو بالردة عن الإسلام.

٤- حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.

٥- أن القرآن عال بل علي، وهذا يدل على أن من تمسك بهذا القرآن فله العلو كقوله سبحانه وتعالى: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم} [محمد: ٣٥] فنقول: القرآن علي، ومن تمسك به فله العلو، وشاهد هذا الواقع؛ لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة بالإسلام كان في العلو والظهور، وملكت به مشارق الأرض ومغاربها، ولما تقاعست وتخاذلت وتنازعت وتباغضت صار الأمر بالعكس، صار لها الذل.

٦- التنفير من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.

٧- حرمة البخل مع الجدة والسعة.

«آخر تفسير سورة (محمد)، والحمد لله وحده»

الأوسط، والبيهقي في الدلائل.

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٤٥): ص ٦٥/١.

(٢) تفسير الثعلبي ٣٩ / ٩، وتفسير البيهقي ٢٩١ / ٧.

(٣) تفسير الثعلبي ٣٩ / ٩، وتفسير البيهقي ٢٩١ / ٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٩٤/٢٢.

(٥) معاني القرآن: ١٧/٥.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٥٤/٤.

(٨) تفسير الطبري: ١٩٢/٢٢.

(٩) الوجيز: ١٠٠٥.

(١٠) تفسير البيهقي: ١٦٨/٨-١٦٩.

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة «الفتح»

سورة «الفتح»: هي السورة الثامنة والأربعون بحسب ترتيب المصحف العثماني، وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة «سورة الصف» وقبل «سورة التوبة».

عدد آياتها تسع وعشرون. وكلماتها خمسمائة وستون. وحروفها ألفان وأربعمائة وثمان وثلاثون. وفواصل آياتها على «الألف»^(١).

■ أسماء السورة:

■ أولاً: أسمها التوقيفي: «سورة الفتح»:

اشتهرت تسميتها بـ«سورة الفتح»، وجاءت في كلام الصحابة-رضوان الله عليهم-^(٢)، وبذلك كتبت في المصاحف وكتب التفسير والسنة.

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ افتتحت السورة ببشرى الفتح للمؤمنين، وتكرر فيها لفظ: «فتحا»، في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح : ١]، {وَأَنبَأَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح : ١٨]، {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح : ٢٧].

قال المهاييمي: "سميت لدلالاتها على فتح البلاد والنصر العزيز، وكل هذه أمور جلييلة"^(٣).

■ ثانياً: اسمها الاجتهادي: «سورة إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ»:

تسمى «سورة إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ»، من باب تسمية السورة بأول جملة افتتحت بها، وقد وردت هذه التسمية عند يحيى بن سلام^(٤)، والفخر الرازي^(٥).

وهي تسمية اجتهادية أظنها جاءت للفرقة بينها وبين «سورة النصر»، إذ أن الأخيرة معنونة في «سنن الترمذي» بـ«سورة الفتح»^(٦)، لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا»-والله أعلم-.

■ مكية السورة ومدنيتها:

في مكان نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها نزلت بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها. قاله المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم^(٧). [ضعيف]

(١) انظر: بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ١/ ٤٣٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري(٤٨٣٤):ص٦/١٣٥، وفيه وردت هذه التسمية عند عبدالله بن مغفل، وانظر: المستدرک: ٢/ ٤٥٩، وأسباب النزول للواحدي: ٣٨٢. وفيه وردت هذه التسمية عند المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم-رضوان الله عليهم-.

(٣) تفسير المهاييمي: ٢/ ٢٨١.

(٤) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتهبت أسمائه وتصرفت معانيه: ١٠٩.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٩/٣٣٣.

(٦) انظر: سنن الترمذي: ٥/٤٥٠.

(٧) أخرجه الحاكم (المستدرک: ٢/ ٤٥٩) ، والواحدي في أسباب النزول: ٣٨٢، من طريق محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور به.

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٥٩، ١٦٠) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور ومروان قالوا: ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعاً، فلما أن كان بين مكة والمدينة؛ نزلت عليه سورة الفتح من أولها إلى آخرها: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} فكانت القضية في سورة الفتح، وما ذكر الله من بيعة رسول الله تحت الشجرة، فلما آمن الناس وتفاوضوا؛ لم يكلم أحد بالإسلام إلا دخل فيه، فقد دخل في تينك السنين في الإسلام أكثر مما كان فيه قبل ذلك، وكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً. وفيه عنعنة ابن إسحاق، وباقي رجاله ثقات، ويتقوى بشواهده الكثيرة في الصحيحين وغيرهما (فتح الباري: ٧/ ٤٤٢، ٤٤٣/٨).

وعند الترمذي في التفسير (٣٢٦٣) من حديث أنس قال: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله....

قال ابن عاشور: "وهي بهذا في حكم المدني"^(١).
قال القرطبي: "سورة الفتح مدنية بإجماع، نزلت ليلا بين مكة والمدينة في شأن
الحديبية"^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: "واختلف في المكان الذي نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد:
«بضجنان»، وهي: بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة، وعند الحاكم في الإكليل «بكرع
الغميم»، وعن أبي معشر: «بالجحفة».. والأماكن الثلاثة متقاربة"^(٣).
وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهو في بعض أسفاره- لعمر: لقد
أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس"^(٤).
وأخرج أيضا عن عبد الله بن مغفل قال: "قرأ النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة
سورة الفتح، فرجع فيها"^(٥).

الثاني: أنها أنزلت بالمدينة. قاله ابن عباس^(٦)، وابن الزبير^(٧).
قال ابن عطية: "الأول أصح، ويشبه أن منها بعضا نزل بالمدينة، وأما صدر السورة
ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النبي عليه السلام لعمر وهما في تلك السفارة: «لقد نزلت
عليّ الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها»^(٨).
قال الشوكاني بعد أن ذكر القولين: "وهذا لا ينافي الإجماع على كونها مدنية، لأن
المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة"^(٩).

قال ابن عاشور: "هي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة
ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها. وهذه السورة نزلت بموضع
يقال له «كرع الغميم» بضم الكاف من: كراع، وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من:
«الغميم»، موضع بين مكة والمدينة وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من

مرجعه من الحديبية". وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح، وفيه عن مجمع بن جارية".

(١) التحرير والتنوير: ١٤١/٢٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٥٩/١٦.

(٣) فتح الباري: ٥٨٣/٨.

(٤) صحيح البخاري (٤١٧٧): ص ١٢٦/٥.

(٥) صحيح البخاري (٤٨٣٤): ص ١٣٥/٦.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥٠٧/٧، وعزاه إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي،
وانظر: معاني القرآن للنحاس: ٤٩١/٦، والمحرم الوجيز: ١٢٥/٥.

وذكر الواحدي عن وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين
لما نزل قوله تعالى: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على
النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.
[أسباب النزول: ٣٩٨ بدون إسناد].

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥٠٧/٧، وعزاه إلى ابن مردويه.

وذكر الواحدي عن وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين
لما نزل قوله تعالى: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على
النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.
[أسباب النزول: ٣٩٨ بدون إسناد].

(٨) مسند أحمد (٢٠٩): ص ٣٣٦/١. ونصه:

عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، قال:
فسألته عن شيء ثلاث مرات، فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نزلت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك، قال: فركبت راحلتي، فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء،
قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي صلى
الله عليه وسلم: "نزلت علي البارحة سورة، هي أحب إلي [ص: ٣٣٧] من الدنيا وما فيها، {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا
مُبِينًا} (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ" [الفتح: ١-٢].

(٩) فتح القدير: ٥٢/٥.

عسافان، وهو من أرض مكة، وقيل نزلت: بـ«ضجنان»، وهو جبل قرب مكة ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي. ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقبل غزوة خيبر^(١).

عن مجمع بن جارية رضي الله عنه قال: "أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحديبية حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كراع الغميم فإذا الناس يرسمون^(٢) نحو رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال لبعض الناس فحركنا حتى وجدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند كراع الغميم واقفا فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال بعض الناس أوفتح؟ هو قال: "والذي نفسي بيده إنه لفتح"^(٣).

عن حبيب بن أبي ثابت قال: حدثني أبو وائل، قال: كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف، فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإننا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلنا في الجنة وقتلهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا»، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم»^(٤). وفي رواية: " فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم»، فطابت نفسه ورجع"^(٥).

قال ابن الجوزي: "هي مدنية كلها بإجماعهم"^(٦).

قال الفيروزآبادي: "السورة مدنية إجماعا"^(٧).

والظاهر - والله اعلم - أن السورة نزلت على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مرجعه من الحديبية، وكان موضوعها على تلك القضية يدور بما فيها من قصص وأحداث متفرقة وذلك لصحة أسانيد الأحاديث في ذلك، وصراحة ألفاظها، واتفاق المفسرين عليها.

■ مناسبة السورة لما قبلها:

وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها:

- ١- إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال.
- ٢- إن في كل منهما ذكرا للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين.
- ٣- إن في السورة السالفة أمرا بالاستغفار، قال تعالى: ﴿قَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُنْقَلَبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد : ١٩]، وفي هذه ذكر وقوع المغفرة، قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح : ٢]^(٨).

■ أغراض السورة ومقاصدها

تضمنت هذه السورة جملة من المقاصد، هي وفق الآتي:

(١) التحرير والتنوير: ١٤١/٢٦.

(٢) يرسمون: أي يذهبون إليه سراعا كما في النهاية.

(٣) [أخرجه ابن جرير ج ٢٦ ص ٧١، والحاكم ج ٢ ص ٤٥٩].

(٤) صحيح البخاري (٣١٨٢): ص ١٠٣/٤.

(٥) صحيح مسلم (١٧٨٥): ص ١٤١١/٢.

(٦) زاد المسير: ١٢٥/٤.

(٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٣٢/١.

(٨) انظر: روح المعاني: ٢٣٨/١٣، وتفسير المراغي: ٤٣/٢٦.

- ١- بُدئت السورة الكريمة بالبشارة بالفتح المبين، وبما أفاء الله به على رسوله والمؤمنين من نصر عزيز وتأييد مبين.
- ٢- تضمنت السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحُدَيْبِيَّة، وأنه نصر وفتح، فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين، وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عِدَّة لا تُغلب من قلة، فرأوا أنهم عادوا كالحائبيين، فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين.
- ٣- بيان أن الله سبحانه أرسل رسوله محمداً للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً؛ ليتحقق الإيمان بالله ورسوله، ويعم الخير والحق بين الناس بطاعته وتعظيمه.
- ٤- التتويه بكرامة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، ووعده بفتح آخر، يعقبه فتح أعظم منه، وبفتح مكة.
- ٥- بيان أن الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وعاهدوه على نصرته، والاستشهاد في سبيل دعوته، أنهم بعملهم هذا ومبايعتهم له إنما يبايعون الله، ويد الله فوق أيديهم بالنصر والتأييد، فمن نقض منهم العهد بعد ميثاقه، فضرر ذلك عليه، ومن أوفى بالعهد، فسيؤتيه الله أجراً عظيماً.
- ٦- ذِكْرُ بيعة الحُدَيْبِيَّة، والتتويه بشأن من حضرها، وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب، ووصفهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا عُفِرَ لهم تخلفهم عن الحُدَيْبِيَّة.
- ٧- تناولت الآيات أصحاب الأعدار الذين يباح لهم التخلف عن القتال؛ لعجزهم عن مباشرته، وأنهم لا إثم عليهم في ذلك.
- ٨- ذكرت السورة مئةً الله في كف الكافرين عن المؤمنين، والمؤمنين عن الكافرين يوم فتح مكة، بعد أن نصرهم الله وأقدرهم عليهم.
- ٩- بيان أن الله صدق رسوله الرؤيا بالحق، وكان الرسول قد رأى في منامه أنه يدخل هو ومن معه من المؤمنين المسجد الحرام آمنين محلقيين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون.
- ١٠- الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسوله الأمين وأيدوه ونصروه، وأن الله قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل.
- ١١- خُتِمَت السورة ببيان خُلِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح : ٢٩]، وببيان نعتهم وصفتهم في التوراة والإنجيل، وبذكر ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر العظيم^(١).

- **الناسخ والمنسوخ:**
السورة خالية عن المنسوخ^(٣).
- **فضائل السورة:**
ومما وردت في فضائل هذه السورة:

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث: ٩٧٨/٩-٩٧٩، ومقاصد سورة الفتح [إسلام ويب، موقع الكتروني].

(٢) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٤٩٣/٢.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن حزم: ٥٧. وقال: "فيها ناسخ وليس فيه منسوخ".

- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر، نزلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، وجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١]»^(١).
- عن قتادة، أن أنس بن مالك، حدثهم، قال: "لما نزلت: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَجْعَلَ لَكَ} [الفتح: ٢] إلى قوله: {فَوَرًا عَظِيمًا} [النساء: ٧٣] مرجعه من الحديبية^(٢)، وهم يخالطهم الحزن والكآبة^(٣)، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً»^(٤).
- عن يزيد بن هارون، قال: "سمعت المسعودي يذكر، قال: بلغني أن من قرأ في أول ليلة من رمضان: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، في التطوع، حفظ ذلك العام"^(٥).
- عن أبي برزة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الصباح بـ{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}»^(٦).
- عن إبراهيم بن ميسرة قال: أخبرني صالح بن كيسان، أنه «سمع ابن عمر قرأ في المغرب: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}»^(٧).
- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ومن قرأ سورة الفتح فكأنما كان مع من شهد مع محمد صلى الله عليه وسلم فتح مكة»^(٨).

(١) صحيح البخاري (٤١٧٧): ص ١٢٦/٥.

(٢) أي: زمان رجوعه منها.

(٣) في النهاية: «الكآبة»: تغير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن.

(٤) صحيح مسلم (١٧٨٦): ص ١٤١٣/٣.

(٥) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٠/٩، وانظر: تفسير القرطبي: ٢٦٠/١٦.

(٦) مصنف عبدالرزاق (٢٧٣٢): ص ١١٨/٢.

(٧) مصنف عبدالرزاق (٢٦٩٦): ص ١٠٨/٢.

(٨) الخبر رواه الواحدي في التفسير الوسيط (٨٤٧): ص ١٣٢/٤، بالإسناد إلى أبي بن كعب، وذكره المستغفري في فضائل القرآن (١٢١٥): ص ٧٨٤/٢، وذكره أيضا الزمخشري في الكشاف: ٣٤٨/٤، والبيضاوي في التفسير: ١٣٢/٥، وفيه: "من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة".

والخبر أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ٣١٨/١٠، بالإسناد إلى أبي بن كعب، وذلك عند تفسير سورة «النصر». وقد ذكرنا سبب هذا الخلط في التسمية بين «سورة الفتح» و«سورة النصر». فارجع إليه إن أردت.

[وحديث أبي بن كعب من قرأ سورة كذا، أعطي من الأجر كذا فذكر فضل سور القرآن سورة سورة وثواب قارئها إلى آخر القرآن، هذا الحديث أخرجه بطوله ابن الشجري في الأمالي الشجرية (١٧٩ / ١)، وابن عدي في الكامل (٢٥٨٨ / ٧)، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢٤٠ / ١)، وقال بعده: "قد فرّق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، فذكر عند كل سورة منه ما يخصها، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرّق على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن، وهو يعلم أنه حديث مُحال".

ثم قال: "حديث فضائل السور مصنوع بلا شك" وقال: "نفس الحديث يدل على أنه مصنوع؛ فإنه قد استنفد السور، وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة، لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم".

قلت: والحديث له طرق كلها تالفة:

الطريق الأولى: تفرد بها أبو الخليل بزيع بن حبان، قال الدارقطني: وهو متروك.

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

الطريق الثانية: تفرد بها مخلد بن عبد الواحد، قال ابن حبان في «المجروحين»: منكر الحديث جدا يفرد بأشياء مناكير لا تشبه أحاديث الثقات، فبطل الاحتجاج به.

الطريق الثالثة: تفرد بها ميسرة بن عبد ربه، قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة بن عبد ربه: من أين جئت بهذه الأحاديث: «من قرأ كذا فله كذا»؟ قال: وضعته أرغب الناس فيه.

الطريق الرابعة: تفرد بها هارون بن كثير، قال ابن عدي: وهارون غير معروف، ولم يحدث به عن زيد بن أسلم غيره، وهذا الحديث غير محفوظ عن زيد.

وروى العقيلي في الضعفاء (١/ ١٧٥): عن عبد الله بن المبارك قال في حديث أبي بن كعب في فضائل السور: "أظن الزنادقة وضعته".

وقال العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤١٩): "فضيلة قراءة كل سورة، روي ذلك وأسندوه إلى أبي بن كعب، ومجموع ذلك مفترى وموضوع بإجماع أهل الحديث".]

القرآن

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} [الفتح : ١]

التفسير:

إنا فتحنا لك -أيها الرسول- فتحًا مبينًا، يظهر الله فيه دينك، وينصرك على عدوك، وهو هدنة «الحديبية» التي أمن الناس بسببها بعضهم بعضًا، فاتسعت دائرة الدعوة لدين الله، وتمكن من يريد الوقوف على حقيقة الإسلام من معرفته، فدخل الناس تلك المدة في دين الله أفواجًا؛ ولذلك سمّاه الله فتحًا مبينًا، أي ظاهرًا جليًا.

في سبب نزول الآيات: [١-٥]، وجهان:

أحدهما: أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن الصحابة-رضوان الله عليهم- تقتضي صحته.

عن زيد بن أسلم عن أبيه: «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء؛ فلم يجبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم سأله؛ فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه فقال عمر بن الخطاب: تَكَلَّمْتُ أم عمر، نزلت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلمت عليه، فقال: "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}»^(١). [صحيح]

عن حبيب بن أبي ثابت؛ قال: "أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم؛ فلقد رأينا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والمشركين -ولو نرى قتالاً لقاتلنا- فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلنا في الجنة، وقتلهم في النار؟ قال: "بلى"، فقال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: "يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً"؛ فرجع متغيظاً فلم يصبر، حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولن يضيعه الله أبداً؛ فنزلت سورة الفتح"^(٢). [صحيح]

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أنها نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - مرجعه من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم ونحروا الهدى بالحديبية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} إلى قوله: {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، قال: "لقد أنزلت عليّ آيتان هما أحب إليّ من الدنيا جميعاً"^(٣)، قال: فلما تلاهما؛ قال رجل: هنيا مرثياً يا نبي الله!

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤١٧٧، ٤٨٣٣، ٥٠١٢).

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٧/٤٥٣): "هذا صورته مرسل، ولكن بقيته تدل على أنه عن عمر؛ لقوله في أثناؤه: قال عمر: فحركت بعيري إلخ، وقد أشبعت القول فيه في المقدمة".

قلنا: وقد أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (١/٣١)، والترمذي (رقم ٣٢٦٢)، والنسائي في "تفسيره" (٢/٣٠١ رقم ٥١٩)، والبخاري في "البحر الزخار" (١/٣٨٨، ٣٨٩ رقم ٢٦٤، ٢٦٥) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن غزوان ومحمد بن خالد بن عثمة كلاهما عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر موصولاً.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٧٥٨).

(٣) قال النحاس في إعراب القرآن: ١٢٩/٤: "فإن قيل:

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يحب الدنيا، فكيف قال في هذا الفضل العظيم الخطير أحب إليّ من الدنيا؟ وإنما تقول العرب: هذا في الشيء الجليل فيقولون: هو أسخى من حاتم طي، والدنيا لا مقدار لها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين مرّ بشاة ميّنة «والله للدنيا أهون على الله جَلَّ وعزَّ من هذه على أهلها» [أخرجه الترمذي في سننه- الزهد ١٩/١٩٨، وابن ماجه في سننه رقم الحديث (٤١١٠)] ففي ذلك غير جواب منها أن المعنى لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها لو كانت لي فأنفقتها في سبيل الله جَلَّ وعزَّ".

قد بين الله لك ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأُنزل الله - عزّ وجلّ - الآية التي بعدها: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حتى ختم الآية^(١). [صحيح] عن قتادة؛ قال: نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - : ﴿لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "لقد نزلت عليّ آية أحب إليّ مما على الأرض"، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مرئياً يا نبي الله! قد بين الله - تعالى - ذكره - لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢). [ضعيف]

الثاني: وقال عطاء عن ابن عباس: "إن اليهود شتموا النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين لما نزل قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف : ٩]، وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به، فاشتد ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأُنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ..﴾ [الفتح : ١ - ٢]^(٣). [ضعيف]

وهذا الخبر قاله عطاء عن ابن عباس بدون إسناد، فهو لا شيء لخلوه عن الإسناد، والمتن باطل، فإن الآية المذكورة في الخبر مكية، عند الجمهور وسورة الفتح مدنية.

وذكر مقاتل نحوه قائلاً: "وذلك أن الله - تعالى - أنزل بمكة على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ... ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف : ٩]، ففرح كفار مكة بذلك، وقالوا: واللات

(١) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٢٥)، وعبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٥) - وعنه الترمذي (٥/ ٣٨٥، ٣٨٦ رقم ٣٢٦٣) -، وأحمد في "المسند" (٣/ ١٣٤، ١٩٦، ٢١٥، ٢٥٢)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٦٠ - موارد)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٣، ٤٤)، والحاكم في "المستدرک" (٢/ ٤٥٩، ٤٦٠)، والنسائي في "التفسير" (٢/ ٣٠٤ رقم ٥٢٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٥، ٢٥٦)، و"الوسيط" (٤/ ١٣٢، ١٣٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥/ ٢١٧، ٢٢٢)، و"دلائل النبوة" (٤/ ١٥٨)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (١/ ١٢٤، ١٢٥ رقم ٢٥)، وأبو يعلى في "المسند" (٥/ ٣٠٨ رقم ٢٩٣٢، ص ٣٨٥ رقم ٣٠٤٥، ص ٤٧٣ رقم ٣٢٠٤، ٢١/ ٦ رقم ٣٢٥٢)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٤/ ٤٧٤ رقم ٥٧٦٦، ص ٤٧٦ رقم ٥٧٦٧)، والبخاري في "شرح السنة" (١٤/ ٢٢٢ رقم ٤٠١٩)، و"معالم التنزيل" (٧/ ٢٩٥) من طرق عن قتادة عن أنس.

قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق" ووافقه الذهبي، وهو كما قالنا على تفصيل.

فقد أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧/ ٤٥٠، ٤٥١ رقم ٤١٧٢)، والبيهقي في "الدلائل" (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، وأحمد (٣/ ١٧٣)، وأبو يعلى (٦/ ٢١ رقم ٣٢٥٢) وغيرهم من طريق شعبة عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾؛ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مرئياً، فما لنا؟ فأُنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة ثم رجعت فذكرت له، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾؛ فعن أنس، وأما هنيئاً فعن عكرمة.

فهذا يبين أن قوله: هنيئاً مرئياً إلخ من قول عكرمة، فهي ضعيفة؛ لإرسالها، وحكم شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني - رحمه الله - عليها بالشذوذ؛ كما في "صحيح الترمذي" (رقم ٢٦٠١).

وأخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٧٨٦) بنحوه، لكن ليس عنده سبب نزول الآية.

وأخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٤٢٩ رقم ١٨٦٨٥)، والبخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٣٤) وغيرهما كثير من طريق شعبة عن قتادة عن أنس؛ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾، قال: الحديبية.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٤): ثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثني قالوا: ثنا شعبة عن قتادة عن عكرمة؛ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُبَيِّنْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)﴾؛ قالوا: هنيئاً مرئياً لك يا رسول الله! فماذا لنا؟ فنزلت: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

قلنا: وهذا سند صحيح إلى عكرمة، وهو يؤكد أنه من مرسل عكرمة؛ كما بيناه سابقاً، والله الحمد والمنة على الفهم للإسلام والسنة.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٥) وزاد نسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري: ١٠٠/٢٢. وهو مرسل رجاله ثقات.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ٢٨٢-٢٨٣. بدون إسناد

والعزى ما أمره وأمرنا عند إلهه الذي يعبده إلا واحد ولولا أنه ابتدع هذا الأمر من تلقاء نفسه لكان ربه الذي بعثه يخبره بما يفعل به ويمن اتبعه كما فعل بسليمان بن داود، ويعيسى بن مريم والحواريين، وكيف أخبرهم بمصيرهم؟ فأما محمد فلا علم له بما يفعل به ولا بنا إن هذا لهو الضلال كل الضلال، فشق على المسلمين نزول هذه الآية فقال أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- للنبي- صلى الله عليه وسلم-: ألا تخبرنا ما الله فاعل بك؟ فقال: ما أحدث الله إلي أمر بعد. فلما قدم المدينة، قال عبد الله بن أبي رأس المنافقين: كيف تتبعون رجلا لا يدري ما يفعل الله به، ولا بمن اتبعه؟ وضحكوا من المؤمنين وعلم الله ما في قلوب المؤمنين من الحزن وعلم فرح المشركين من أهل مكة، وفرح المنافقين من أهل المدينة، فأنزل الله- تعالى- بالمدينة بعد ما رجع النبي- صلى الله عليه وسلم- من الحديبية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ..} (١).

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} [الفتح : ١]، على ثلاثة أقوال:

أحدها : إنا أعلمناك علماً مبيناً فيما أنزلناه عليك من القرآن وأمرناك به من الدين، وقد يعبر عن العلم بالفتح كقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} [الأنعام : ٥٩]، أي: علم الغيب، وكقوله: {إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [الأنفال : ١٩] أي: إن أردتم العلم فقد جاءكم العلم. حكاه الماوردي عن ابن بحر (٢).

وقال سهل بن عبدالله: " يعني: أسرار العلوم في قلبك حتى ظهر عليك آثارها، وهي من أعلام المحبة وتمام النعمة" (٣).
الثاني : إنا قضينا لك قضاء بيناً، يعني: الإسلام. قاله قتادة (٤)، ومجاهد (٥)، ومقاتل (٦)، وبه قال الطبري (٧)، والزجاج (٨).

قال الزمخشري: " فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيوف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومنتشعب منه" (٩).
قال الخازن: " الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده والمعنى: إنا قضينا وحكمنا لك فتحة مبينا ظاهرا بغير قتال ولا تعب" (١٠).

قال ابن قتيبة: " أي: قضينا لك قضاءً عظيماً. ويقال للقاضي: الفتح" (١١)، " وقال أعرابي لآخر ينازعه: بيني وبينكم الفتح، يعني الحاكم" (١٢).
وقال ابن عباس في قول الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح : ١]: " كنت أقرؤها ولا أدري ما هي، حتى تزوجت بنت مشرح، فقالت: فتح الله بيني وبينك، أي حكم الله بيني وبينك" (١٣).

قال ابن عطية: " والفتح: القاضي بلغة اليمن" (١٤).

- (١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٦/٤.
- (٢) نقلا عن: النكت والعيون: ٣٠٩/٥.
- (٣) تفسير التستري: ١٤٧.
- (٤) انظر: تفسير الطبري: ١٩٨/٢٢.
- (٥) حكاه عنه النحاس في معاني القرآن: ٤٩٢/٦. بدون إسناد.
- (٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٥/٤.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ١٩٧/٢٢.
- (٨) انظر: معاني القرآن: ١٩/٥.
- (٩) الكشاف: ٣٣٣/٤.
- (١٠) لباب التأويل في معاني التنزيل: ١٥٢/٤.
- (١١) غريب القرآن: ٤١٢.
- (١٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٨.
- (١٣) نقلا عن تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٢٦٩.
- (١٤) المحرر الوجيز: ١٢٥/٥.

قال الزجاج: "معنى: {فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هو الهداية إلى الإسلام، وجاء في التفسير: قضينا لك قضاءً مبيناً، أي: حكمنا لك بإظهار دين الإسلام والنصرة على عدوك"^(١).

قال الطبري: "يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكماً لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصرك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر، لتشكر ربك، وتحمد على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتح ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره"^(٢).

قال قتادة: "الفتح: القضاء"^(٣).

قال مقاتل: "يعني: قضينا لك قضاءً مبيناً، يعني: الإسلام"^(٤).

وقال الضحاك: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" بغير قتال، وكان الصلح من الفتح"^(٥).

وقال الحسن: "فتح الله عليه بالإسلام"^(٦).

الثالث: إنا يسرنا لك يسراً مبيناً. قاله مقاتل بن حيان^(٧).

قال ابن عطية: "وقال جمهور الناس: والصحيح الذي تعضده قصة الحديبية أن قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}، إنما معناه: إن ما يسر الله لك في تلك الخرجة فتح مبين تستقبله، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا استوحشوا من رد قريش لهم ومن تلك المهادنة التي هادتهم النبي عليه السلام فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت ومذهبه: ما كان في قلوبهم"^(٨).

قال أبو حيان: "وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه، إشعاراً بأنه من عند الله، لا بكثرة عدد ولا عدد، وأكده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين، مظهر لما تضمنه من النصر والتأييد"^(٩). وفي المراد بهذا الفتح أربعة أقوال:

أحدها: أنه فتح خيبر، قاله مجاهد^(١٠)، والعمري^(١١)، وابن زيد^(١٢).

الثاني: أنه فتح الروم. حكاه الزمخشري^(١٣).

الثالث: أنه فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، رواه مسروق عن عائشة^(١٤)، وبه قال السدي^(١٥)، واختاره الزمخشري^(١٦).

قال الزمخشري: "هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخير ما لا يخفى. فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدت من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم

(١) معاني القرآن: ١٩/٥.

(٢) تفسير الطبري: ١٩٧/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ١٩٩/٢٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٥/٤.

(٥) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩. بدون إسناد. وذكر ذلك أيضا البغوي في "تفسيره" ٢٩٦/٧ عن الضحاك، وكذلك ذكره القرطبي عن الضحاك ٢٦٠/١٦.

(٦) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩. بدون إسناد.

(٧) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩.

(٨) المحرر الوجيز: ١٢٥/٥.

(٩) البحر المحيط: ٤٨٢/٩.

(١٠) حكاه عنه البغوي في التفسير: ٢٩٦/٧، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٧/٤، بدون إسناد.

(١١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٧/٤. بدون إسناد.

(١٢) حكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط: ٥٠٠/٩.

(١٣) انظر: الكشاف: ٣٣٣/٤.

(١٤) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٧/٤. بدون إسناد.

(١٥) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٧/٤. بدون إسناد.

(١٦) انظر: الكشاف: ٣٣١/٤.

والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة- من حيث إنه جهاد للعدو- سببا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلِق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح"^(١).

قال الجصاص: "الأظهر أنه فتح مكة بالغبلة والقهر، لأن القضاء لا يتناول الإطلاق وإذا كان المراد فتح مكة فإنه يدل على أنه فتحها عنوة إذ كان الصلح لا يطلق عليه اسم الفتح وإن كان قد يعبر مقيدا، لأن من قال فتح بلد كذا عقل به الغلبة والقهر دون الصلح ويدل عليه قوله في نسق التلاوة {وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا} [الفتح : ٣]، وفيه الدلالة على أن المراد فتح مكة وأنه دخلها عنوة، ويدل عليه قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر : ١]، لم يختلفوا أن المراد: فتح مكة، ويدل عليه قوله تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} [الفتح : ١]، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح : ٤]، وذكره ذلك في سياق القصة يدل على ذلك، لأن المعنى: سكنون النفس إلى الإيمان بالبصائر التي بها قاتلوا عن دين الله حتى فتحوا مكة"^(٢).

قال أبو حيان: "الظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة، وقال الكلبي، وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ} [محمد : ٣٨]، الآية، بين أنه فتح لهم مكة، وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا، لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. وأيضا لما قال: {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ} [محمد : ٣٥]، بين برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعلى. وأيضا لما قال: {قَلَّا تَهْتَبُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ} [محمد : ٣٥]، كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن، ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين. وكانت هذه البشرية بلفظ الماضي، وإن كان لم يقع، لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه"^(٣).

وضَعَفَ النحاس هذا القول، قائلا: "الفتح -ها هنا- فتح الحديبية. وقد توهم قوم أنه فتح مكة ممن لا علم لهم بالآثار"^(٤).

الرابع : أن «الفتح»: هو صلح الحديبية. قاله جابر^(٥)، وأنس^(٦)، والبراء^(٧)، وابن عباس^(٨)، وسهل بن حنيف^(٩)، وعامر الشعبي^(١٠)، ومجاهد^(١١)، وهو قول الأكثرين^(١٢).

قال ابن عاشور: "وما يندرج في هذا التفسير أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبية تشبيها له بفتح مكة لأنه توطنه له"^(١٣).

قال ابن جزى: قيل: "أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش، وهو على هذا بمعنى: الحكم، أو بمعنى العطاء،

(١) الكشاف: ٢٣٠/٤-٢٣١.

(٢) أحكام القرآن: ٢٧٢/٥.

(٣) البحر المحيط: ٤٨٢/٩.

(٤) إعراب القرآن: ١٢٩/٤.

(٥) انظر: الطبري: ٢٠١/٢٢-٢٠٢.

(٦) انظر: الطبري: ١٩٩/٢٢، وصحيح البخاري "كتاب: التفسير باب [١] {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}

(٤٨٣٤):ص١٣٥.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٢/٢٢.

(٨) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ١٢٩/٤. بدون إسناد.

(٩) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ١٢٩/٤. بدون إسناد.

(١٠) انظر: الطبري: ١٩٩/٢٢.

(١١) انظر: الطبري: ١٩٩/٢٢.

(١٢) حكاه عن الأكثرين الزجاج في معاني القرآن: ١٩٥/٥-٢٠، والواحي في التفسير البسيط: ٢٧٩/٢٠-٢٨٠، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٥/٤، والسمعاني في التفسير: ١٨٨/٥.

(١٣) التحرير والتنوير: ١٤٤/٢٦.

ويدل على صحة هذا القول: أنه لما وقع صلح الحديبية، شق ذلك على بعض المسلمين لشروط كانت فيه، حتى أنزل الله هذه السورة، ويتبين أن ذلك الصلح له عاقبة محمودة، وهذا هو الأصح^(١).

قال ابن كثير: "قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، أي: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان"^(٢).

قال الفراء: "كَانَ فَتْحٌ وَفِيهِ قِتَالٌ قَلِيلٌ مَرَامَةٌ بِالْحِجَارَةِ، فَالْفَتْحُ قَدْ يَكُونُ صَلْحًا، وَيَكُونُ أَخْذَ الشَّيْءِ عَنُوةً، وَيَكُونُ الْقِتَالَ، إِنَّمَا أُرِيدُ بِهِ يَوْمَ الْحَدِيبِيَّةِ"^(٣).
قال الزمخشري: "قيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة"^(٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنه: "رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم"^(٥).

وعن الكلبي: "ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح"^(٦).

وعن موسى بن عقبة: "أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت وصد هدينا، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح^(٧)، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا"^(٨).

قال الواحدي: "ذهب الأكثرون إلى أن الآية نزلت في صلح الحديبية، والمراد بالفتح ذلك الصلح... ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق^(٩)، والصلح الذي حصل بينه وبين المشركين في ذلك اليوم كان مسدوداً عليه متعذراً حتى فتحه الله ذلك اليوم ويسره، ودخل بعد ذلك ناس كثير في الإسلام"^(١٠).

قال الزجاج: "وأكثر ما جاء في التفسير أنه فتح الحُدَيْبِيَّةِ، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة من آيات النبي - صلى الله عليه وسلم -، وذلك أنها بئر فاستُقيَ جميع ما فيها من الماء حتى نَزَحَتْ ولم يبق فيها ماء، فتمضمض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم مَجَّهُ فيها فدرت البئر بالماء حتى شَرِبَ جميع من كان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - . وليس يخرج هذا من معنى فتحنا لك فتحاً ميبناً أنه يُعْنَى به الهداية إلى الإسلام، ودليل ذلك قوله {لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢]، فالمعنى: فتحنا لك فتحاً في الدين لتَهْتَدِيَ بِهِ أَنْتَ وَالْمُسْلِمُونَ"^(١١).

قال السمعاني: "معنى القضاء هو الحكم بالنصرة على الأعداء، والفتح في اللغة هو انفتاح المنغلق، وقيل: هو الفرح المزيل الهم، ومنه انفتاح المسألة، وهو انكشاف البيان الذي يؤدي إلى البغية، وأما معنى ما وقع عليه اسم الفتح، فالأكثر من العلماء والمفسرين على أنه صلح الحديبية، فإن قيل: كيف يكون الصلح فتحاً؟ وإن كان فتحاً للمسلمين فهو فتح للكفار أيضاً؛

(١) التسهيل في علوم التنزيل: ٢٨٦/٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٨م٧.

(٣) معاني القرآن: ٦٤/٣.

(٤) الكشاف: ٣٣٢/٤.

(٥) نقلا عن: الكشاف: ٣٣٢/٤.

(٦) نقلا عن: الكشاف: ٣٣٢/٤.

(٧) الصاحح «الراح»: الخمر، والراح: جمع راحة وهي الكف. والراح:

الارتياح. اهـ. والظاهر هنا الثالث.

(٨) انظر: الكشاف: ٣٣٢/٤، وهكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ومن طريق أبي الأسود عن عروة أيضاً نحوه مطولاً.

(٩) انظر: "معاني القرآن" للفراء ٦٤/٣.

(١٠) التفسير البسيط: ٢٧٩/٢٠-٢٨٠.

(١١) معاني القرآن: ١٩/٥-٢٠.

لأن الصلح يشتمل على الجانبين، والجواب عنه: أنه قد أشكل هذا على عمر، " فإنه لما أنزل الله تعالى هذه السورة، قال عمر: «يا رسول الله، أفتح هو؟ قال: نعم»^(١)، وقيل: إنه أعظم فتح كان في الإسلام؛ لأنه لما صالح مع المشركين ووداعهم فكان قد صالح على وضع الحرب عشر سنين، فاختلف المشركون مع المسلمين بعد ذلك، وسمعوا القرآن، ورأوا ما عليه رسول الله وأصحابه فرغبوا في الإسلام، وأسلم في مدة الصلح من المشركين أكثر مما كان أسلم في مدة الحرب، وكثر سواد الإسلام، وأسلم في هذه المدة: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة العبدري، وكثير من وجوه المشركين، وقد كان في غزوة الحديبية بيعة الرضوان، ووجد فتح خيبر وظهور الروم على الفرس، وكان ذلك من معجزات الرسول، وكان ذلك مما سر المسلمين وساء المشركين؛ لأن المسلمين كانوا يودون ظهور أهل الكتاب، والمشركون كانوا يودون ظهور الفرس والعجم فحقق الله ما يوده المسلمون وكان المشركون قالوا حين ظهرت الفرس على الروم: كما ظهر الفرس على الروم كذلك نحن نظهر عليكم، فحين أظهر الله الروم على الفرس كان ذلك علامة لظهور المسلمين على المشركين"^(٢).

قال الزهري: "ما كان في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام"^(٣).

قال جابر: "ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية"^(٤). وفي رواية: "ما كنا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية"^(٥). قال ابن عاشور: "يريد: أنهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد"^(٦).

قال البراء: "تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة مئة"^(٧). عن مجاهد: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، قال: نحره بالحديبية وحلّفه رأسه"^(٨).

عن عامر: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا، قال: الحديبية"^(٩). قال عامر الشعبي: "نزلت: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوة، أصاب أن بويح بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدى مجله، وأطعموا نخل خيبر، وفرح المؤمنون بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، وبظهور الروم على فارس"^(١٠).

قال عبد الله بن مسعود: "لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم، قال: فقلنا أيقظوه، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون، فكذلك من نام أو نسي قال: وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدناها قد تعلّق خطامها بشجرة، فأتيتها بها، فركب فيينا نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه اشتدّ عليه، فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}"^(١١).

-
- (١) أخرجه الطبري: ٢٠١/٢٢.
(٢) تفسير السمعاني: ١٨٩٨-١٨٩٨/٥.
(٣) ذكر ذلك الواحدي في التفسير البسيط: ٢٨٠/٢٠، والوسيط: ١٣٣/٤، والبيهقي في "تفسيره" ٢٩٦/٧، وابن الجوزي في "زاد المسير" ٤١٩/٧، والقرطبي في "الجامع" ٢٦١/١٦.
(٤) أخرجه الطبري: ٢٠٢-٢٠١/٢٢.
(٥) أخرجه الطبري: ٢٠١/٢٢.
(٦) التحرير والتنوير: ١٤٤/٢٦.
(٧) أخرجه الطبري: ٢٠٢/٢٢.
(٨) أخرجه الطبري: ١٩٩/٢٢، وانظر: تفسير مجاهد: ٦٠٧.
(٩) أخرجه الطبري: ١٩٩/٢٢.
(١٠) أخرجه الطبري: ٢٠٢/٢٢.
(١١) أخرجه الطبري: ١٩٩/٢٢.

قال أنس بن مالك، قال: "لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، قال: فنحن بين الحزن والكآبة، قال: فأُنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، أو كما شاء الله، فقال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا»^(١).

و«الحديبية»: بالتخفيف والتشديد، قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت بئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحتها، وبين الحديبية ومكة مسافة (٢٥) كم تقريباً، ويقع بعضها في الحل وبعضها في الحرم، وتعرف الآن باسم الشميسي، وتقع في طريق مكة جدة القديم، وصلح الحديبية كان في سنة لست من الهجرة حين منع المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه أصحابه وكانوا ١٤٠٠ وقيل: ١٥٠٠، ثم تصالحو الصلح المعروف، ولم يقع فيه قتال، وفيه أنزل الله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢).

قال الماوردي: "والحديبية: بئر، وفيها تفضض رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد غارت فجاشت بالرواء"^(٣).

قال النحاس: "الحديبية: بئر سمي المكان باسمها قال أبو جعفر ولا أعرف أحداً من أهل اللغة يشدد الباء منها وكان في فتحها أعظم الآيات لأن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي ورد على هذه البئر وقد نزل ماؤها فتمضمض صلى الله عليه وسلم وتقل فيها فأقبل الماء حتى شرب كل من كان معه ولم يكن بينهم إلا ترام حتى كان الفتح"^(٤).

قال الزمخشري: "وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه، وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد"^(٥)^(٦).

القرآن

﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيُنصِرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح : ٢-٣]
التفسير:

فتحنا لك ذلك الفتح، ويسرناه لك؛ ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة وبما تحملته من المشقات، ويتم نعمته عليك بإظهار دينك

(١) أخرجه الطبري: ١٩٩/٢٢.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام" ٣/ ٣٦٥ - ٣٧٣، "طبقات ابن سعد" ٢/ ٩٥ - ١٠٥، "تاريخ الطبري" ٣/ ٧١، "زاد المعاد" ٣/ ٣٨٦، "الروض المعطار" ص ١٩٠، و"معجم البلدان" ٢/ ٢٢٩.

(٣) النكت العيون: ٣١٠/٥.

(٤) معاني القرآن: ٤٩٣/٦.

(٥) متفق عليه. من حديث البراء مطولا باللفظ الأول. ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع. قال «قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويهما. ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنب الركبة فاما دعا وإما بصق، قال فجاشت. فسقينا واستقينا. وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء. فلم يلبث الناس أن سرحوه. وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فو الله ما زال يجيش لهم بالري ولا مخالفة في هذا لحديث البراء. لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان. عن أبيه. حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة. أن ناجية بن الأعجم. قال «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم. حين شكا إليه من قلة الماء فدفع إلى سهما من كنانته وأمر بدلو من مائها. فمضمض فاه منه ثم مجه في الدلو. وقال لي: انزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم. ففعلت. فو الذي بعثه بالحق. ما كدت أخرج حتى كاد يغمرنى». وروى أيضا من حديث قتادة. قال: لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل. فنزل بالسهم وتوضأ. ومج فاه منه، ثم رده في البئر: جاشت بالرواء.

(٦) الكشف: ٣٣٣-٣٣٢/٤.

ونصرك على أعدائك، ويرشدك طريقًا مستقيمًا من الدين لا عوج فيه، وينصرك الله نصرًا قويًا لا يَضَعُ فيه الإسلام.

قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح : ٢]، أي: "فتحنا لك ذلك الفتح، ويسرناه لك؛ ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة وبما تحملته من المشقات"^(١).

عن قتادة، قال: "نزلت على النبي عليه السلام: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح : ٢] بين مكة والحديبية"^(٢).

وفي نوع «اللام» في قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} [الفتح : ٢]، قولان: أحدهما : أنها لام القسم، المعنى: ليغفرن لك الله، فلما أسقط النون خفض اللام. وهذا قول أبي حاتم السجستاني^(٣).

الثاني : أنها لام «كي»، والمعنى: وقع الفتح لك يا محمد لتقع لك المغفرة. قاله ثعلب^(٤)، وابن كيسان^(٥)، والنحاس^(٦).

قال ثعلب معناه: "كي يغفر الله لك، فاللام بمعنى «كي»، قال: وحقيقة المعنى هو أنه يجمع لك المغفرة مع الفتح، فيتم عليك النعمة بها"^(٧).

قال أبو الحسن بن كيسان: "لا يجوز أن تكون إلا «لام كي»، قال الله جل وعز: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)} [النصر : ١ - ٣]، فأمر الله أن يستغفره إذا كان الفتح ووعده بالمغفرة فكان قوله : {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} [الفتح : ١ - ٢] متعلقًا بذلك"^(٨).

قال ابن الجوزي: "المعنى : لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث، حسن معنى «كي»"^(٩).

قال ابن عاشور: "جعلت مغفرة الله للنبي صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح، وليست لام التعليل مقتضية حصر الغرض من الفعل المعلل في تلك العلة، فإن كثيرا من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيذكر بعضها مما يقتضيه المقام وإذ قد كان الفتح لكرامة النبي صلى الله عليه وسلم على ربه تعالى كان من علته أن يغفر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مغفرة عامة إتماما للكرامة فهذه مغفرة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح. فالمعنى: أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله حتى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات. فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنصب والرغبة إلى الله"^(١٠).

وفي قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح : ٢]، خمسة أقوال : أحدها : {مَا تَقَدَّمَ} قبل الفتح، {وَمَا تَأَخَّرَ} بعد الفتح . قاله الطبري^(١١).

(١) التفسير الميسر: ٥١١.

(٢) أخرجه المحاسبي في "فهم القرآن": ٤٥٦.

(٣) حكاه عنه النحاس في معاني القرآن: ٤٩٥/٦، والسمعاني في التفسير: ١٨٩/٥، ومكي في الهداية إلى بلوغ النهاية: ٦٩٢٨/١١.

(٤) نقلا عن: تفسير السمعاني: ١٨٩/٥.

(٥) حكاه عنه النحاس في معاني القرآن: ٤٩٥/٦.

(٦) إعراب القرآن: ١٢٩/٤.

(٧) نقلا عن: تفسير السمعاني: ١٨٩/٥.

(٨) حكاه عنه النحاس في معاني القرآن: ٤٩٥/٦.

(٩) زاد المسير: ١٢٧/٤.

(١٠) التحرير والتنوير: ١٤٦/٢٦.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٩٧/٢٢، وانظر: النكت والعيون: ٣١٠/٥، وتفسير القرطبي: ٢٦٣/١٦.

الثاني : {مَا تَقَدَّمَ} قبل نزول هذه الآية {وَمَا تَأَخَّرَ} بعدها. أفاده الماوردي^(١).

الثالث: {مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكُمْ} قبل الرسالة، {وَمَا تَأَخَّرَ}: إلى وقت نزول هذه السورة. حكاها بعض المفسرين^(٢).

الرابع : {مَا تَقَدَّمَ} من ذنب أبيك آدم صلوات الله عليه وأنت في صلبه، {وَمَا تَأَخَّرَ} من ذنوب أمتك، إذ كنت قائدهم ودليلهم. قاله سهل بن عبدالله^(٣). وروي عن عطاء نحوه^(٤).

قال عطاء بن أبي مسلم الخرساني: " {مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكُمْ}، يعني: ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، {وَمَا تَأَخَّرَ} ديوان أمتك بدعوتك"^(٥).

الخامس : {مَا تَقَدَّمَ} من ذنب إبراهيم، {وَمَا تَأَخَّرَ} من ذنوب النبيين. حكاها القرطبي^(٦).

السادس : {مَا تَقَدَّمَ} من حديث مارية، {وَمَا تَأَخَّرَ} من امرأة زيد. حكاها الزمخشري^(٧).

وقال الزمخشري: " يريد: جميع ما فرط منك"^(٨).

السابع : معناه: ما وقع وما لم يقع، على طريق الوعد بأنه مغفور إذا كان. وهو معنى قول أبي علي الرودباري^(٩).

قال القاسم النصرآبادي: "سمعت أبا علي الرودباري بمصر يقول في قول الله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}، قال: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه"^(١٠).

الثامن : {مَا تَقَدَّمَ} هو قوله يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»^(١١). {وَمَا تَأَخَّرَ} هو قول بعض الصحابة يوم حنين: «لن نغلب اليوم من قلة»^(١٢). حكاها بعض المفسرين^(١٣).

التاسع : {مَا تَقَدَّمَ}، أي: ما كان في الجاهلية، {وَمَا تَأَخَّرَ}: ما كان في الإسلام مما لم تعمله بعد. قاله ابن عباس^(١٤)، وسفيان^(١).

- (١) انظر: النكت والعيون: ٣١٠/٥.
- (٢) ذكره الطبري في التفسير: ١٩٨/٢٢، والثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩.
- (٣) انظر: تفسير التستري: ١٤٧.
- (٤) انظر: الكشف والبيان: ٤٢/٩.
- (٥) حكاها عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩.
- (٦) انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٣/١٦.
- (٧) انظر: الكشاف: ٣٣٣/٤.
- (٨) الكشاف: ٣٣٣/٤.
- (٩) انظر: الكشف والبيان: ٤٢/٩.
- (١٠) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩.
- (١١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧/٧، رقم ٣٦٦٨٤)، وأحمد (٣٠/١، رقم ٢٠٨)، والترمذي (٢٦٩/٥)، رقم ٣٠٨١، وأبو عوانة (٢١٩/٤، رقم ٦٥٧٩)، وابن حبان (١١٤/١١، رقم ٤٧٩٣)، وأخرجه أيضا: مسلم (١٣٨٣/٣، رقم ١٧٦٣)، والبزار (٣٠٦/١، رقم ١٩٦) وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى بهذا اللفظ عن عمر إلا من هذا الوجه.
- (١٢) مسند البزار (٦٥١٨): ص ١٢٨/١٣، ونصه: عن أنس، قال: "قال غلام منا من الأنصار يوم حنين: لن نهزم اليوم من قلة فما هو إلا أن لقينا عدونا فانهزم القوم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجامها والعباس عمه أخذ بغرزها وكنا في واد دهبس فارتفع النقع فما منا من أحد يبصر كفه إذا شخص قد أقبل فقال له: إليك من أنت؟ قال: أنا أبو بكر فذاك أبي وأمي وبه بضعة عشر ضربة، ثم إذا شخص قد أقبل فقال: إليك من أنت؟ فقال: عمر بن الخطاب فذاك أبي وأمي وبه بضعة عشر ضربة".
- (١٣) حكاها ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٢٦/٥، والقرطبي في التفسير: ٢٦٣/١٦.
- قال القرطبي: "وذلك أن الذنب المتقدم يوم بدر، أنه جعل يدعو ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبدا" وجعل يردد هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا، فكان هذا الذنب المتقدم. وأما الذنب المتأخر في يوم حنين، لما انهزم الناس قال لعنه العباس ولابن عمه أبي سفيان: ناولاني كفا من حصباء الوادي فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: شأهت الوجوه. حم. لا ينصرون [فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم: لو لم أرمهم لم ينهزموا، فأنزل الله عز وجل: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} [الأنفال: ١٧] فكان هذا هو الذنب المتأخر". [تفسير القرطبي: ٢٦٣/١٦]
- (١٤) حكاها عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٢٨/٤. بدون إسناد.

قال سفيان: " { مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ } ما عملت في الجاهلية، { وَمَا تَأَخَّرَ } كل شيء لم تعمله" (٢).

قال ابن الجوزي: " وهذا على سبيل التأكيد، كما تقول: فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه" (٣).

العاشر: { مَا تَقَدَّمَ } قبل النبوة، { وَمَا تَأَخَّرَ } بعد النبوة . قاله مجاهد (٤)، والشعبي (٥)، ومقاتل (٦). قال ابن عطية: " وهذا ضعيف، وإنما المعنى التشریف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد عليه السلام أو لم يقع" (٧).

قال ابن كثير: " قوله: { لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } : هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشریف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله الله، وأكثرهم تعظيماً لأوامره ونواهيه. قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئا يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها» (٨)، فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ }" (٩).

قال القرطبي: " واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صغائر من الذنوب يؤخذون بها ويعاتبون عليها أم لا؟ بعد اتفاهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً عند القاضي أبي بكر، وعند الأستاذ أبي إسحاق أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم، فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم. خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القرينة والإباحة أو الحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتنال أمر لعله معصية، لاسيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضاً من الأصوليين. قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة. وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا

(١) حكاه عنه النحاس في معاني القرآن: ٤٩٢/٦.

(٢) رواه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٢/٩.

(٣) زاد المسير: ١٢٨/٤.

(٤) حكاه عنه النحاس في "إعراب القرآن": ١٢٩/٤. بدون إسناد.

(٥) حكاه عنه النحاس في "إعراب القرآن": ١٢٩/٤. بدون إسناد. وفيه: "إلى أن مات".

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٦/٤.

(٧) المحرر الوجيز: ١٢٦/٥.

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٢٨/٧.

يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك أحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. منهم- صلوات الله وسلامه عليهم- وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه"^(١).

قوله تعالى: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [الفتح : ٢]، أي: "و يتم نعمته عليك بإظهار دينك ونصرك على أعدائك"^(٢).

قال الطبري: أي: " بإظهاره إياك على عدوك، ورفع ذكرك في الدنيا، وغفرانه ذنوبك في الآخرة"^(٣).

قال ابن كثير: " أي : في الدنيا والآخرة"^(٤).

قال النحاس: " يتم نعمته عليه في الدنيا بالنصر وفي الآخرة بالثواب"^(٥).

قال ابن عطية: " إتمام النعمة عليه، هو إظهاره وتغلبه على عدوه والرضوان في الآخرة"^(٦).

قال أبو معشر القرظي: "كنت إذا سمعت شيئا من أصحاب النبي عليه السلام التمسته في القرآن فوجدته؛ قال الله لنبيه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ (٢)} [الفتح : ١ - ٢]، فعرفت أن الله لم يتم عليه النعمة حتى غفر له؛ قال: ثم قرأت الآية التي في سورة المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} [المائدة : ٦]، حتى بلغ: {وَلْيُتِمِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} [المائدة : ٦]، فعرفت أن الله لم يتم النعمة عليهم حتى غفر لهم"^(٧).

قوله تعالى: {وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح : ٢]، أي: " ويرشدك طريقًا مستقيمًا من الدين لا عوج فيه"^(٨).

قال مقاتل: " يعني: دينا مستقيما"^(٩).

قال الطبري: "يقول: ويرشدك طريقا من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربك"^(١٠).

قال ابن الجوزي: " أي: وَيُتَبِّتُكَ عَلَيْهِ، وقيل: وَيَهْدِي بِكَ"^(١١).

قال ابن كثير: " أي : بما يشره لك من الشرع العظيم والدين القويم"^(١٢).

قال النحاس: " قيل: طريق الجنة"^(١٣).

قال محمد بن يزيد^(١): " الصراط المنهاج الواضح"^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٠٨/١-٣٠٩.

(٢) التفسير الميسر: ٥١١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠٢/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٨/٧.

(٥) إعراب القرآن: ١٣٠/٤.

(٦) المحرر الوجيز: ١٢٦/٥.

(٧) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٨): ص ٤٥/١.

(٨) التفسير الميسر: ٥١١.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٦/٤.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٠٢/٢٢-٢٠٣.

(١١) زاد المسير: ١٢٨/٤.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٢٨/٧.

(١٣) إعراب القرآن: ١٣٠/٤.

قوله تعالى: {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح : ٣]، أي: "وينصرك الله نصرًا قويًا لا يَضَعُ فيه الإسلام"^(٣).

قال ابن جريج: "يريد بذلك فتح مكة وخيبر والطائف"^(٤).
قال الطبري: "يقول: وينصرك على سائر أعدائك، ومن ناوأك نصرًا، لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع، للبأس الذي يؤيدك الله به، وبالظفر الذي يمدك به"^(٥).
قال مقاتل: "يقول: ولكي ينصرك الله بالإسلام على عدوك {نَصْرًا عَزِيزًا}، يعني: منيعًا فلا تذلل"^(٦).

قال الزجاج: "نَصْرًا ذَا عَزٍّ لَا يَقَعُ مَعَهُ ذُلٌّ"^(٧).
قال الزمخشري: أي: "فيه عز ومنعة- أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه"^(٨).

قال ابن كثير: "أي : بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٩). وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال : «ما عاقبت - أي: في الدنيا والآخرة - أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه»^(١٠).

القرآن

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)} [الفتح : ٤]
التفسير:

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم «الحديبية» فسكنت، ورسخ اليقين فيها؛ ليزدادوا تصديقًا لله واتباعًا لرسوله مع تصديقهم واتباعهم. والله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين. وكان الله عليماً بمصالح خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح : ٤]، أي: "هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم «الحديبية» فسكنت، ورسخ اليقين فيها"^(١١).

وفي معنى «السكينة»، أقوال:

أحدها : أنها الرحمة، قاله ابن عباس^(١٢)، والربيع ابن أنس^(١٣)، وعلي بن عيسى^(١٤).
الثاني : أنها الوقار، قاله قتادة^(١٥)، والحسن^(١).

(١) هو: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد.

(٢) حكاه عنه النحاس في "إعراب القرآن": ١٣٠/٤.

(٣) التفسير الميسر: ٥١١.

(٤) الدر المنثور: ٥١٤/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٥) تفسير الطبري: ٢٠٣/٢٢.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٦/٤.

(٧) معاني القرآن: ٢٠/٥.

(٨) الكشف: ٣٣٣/٤.

(٩) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٢٨/٧.

(١١) التفسير الميسر: ٥١١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٣/٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٤٨١): ص ٤٦٩/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٧٠/٢. وتفسير الطبري (٥٦٨٣): ص ٣٢٩/٥.

(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٢.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٨٢): ص ٤٧٠/٢. وتفسير الطبري (٥٦٨٤): ص ٣٢٩/٥.

قال الزجاج: "أي: أسكن قلوبهم التعظيم لله ولرسوله، والوقار"^(٢).
 الثالث: أنها شيء يسكن الله به قلوبهم، قاله الحسن^(٣)، وعطاء^(٤).
 الرابع: أنها الطمأنينة. قاله الضحاك^(٥)، وهو مروى عن ابن عباس أيضا^(٦)، وبه قال مقاتل^(٧)،
 وابن قتيبة^(٨)، والطبري^(٩)، والنحاس^(١٠).
 قال ابن عباس: "كلّ سكينه في القرآن فهي الطمأنينة إلّا التي في البقرة"^(١١).
 قال الطبري: يقول: "الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله إلى
 الإيمان"^(١٢).
 قال الواحدي: أي: "الطمأنينة والوقار، لئلا تنزع نفوسهم بما يرد عليهم، وذلك لأنهم
 يجدون برد اليقين في قلوبهم"^(١٣).
 قال ابن جزى: "يعني: سكونهم في صلح الحديبية وتسليمهم بفعل رسول الله صلى الله
 عليه وسلم"^(١٤).
 قال سهل بن عبدالله: "يعني الطمأنينة. فأول ما كاشف الله به عباده المعارف، ثم
 الوسائل، ثم السكينه، ثم البصائر. فمن كاشفه الحق بالبصائر عرف الأشياء بما فيها من
 الجواهر، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ما أخطأ في نطق"^(١٥).

- (١) انظر: النكت والعيون: ٢ / ٣٤٩.
 (٢) معاني القرآن: ٢٠/٥.
 (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٨٠): ص ٢/٤٦٩.
 (٤) أخرج ابن أبي حاتم (٢٤٨٠): ص ٢/٤٦٩. وأخرجه الطبري في تفسيره (٥٦٨٢): ٥/٣٢٩.
 (٥) انظر: النكت والعيون: ٢/٣٦٤.
 (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٠٤٥): ص ٦/١٨٠٠-١٨٠١.
 (٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٦٧. قال مقاتل: "يعني: الطمأنينة ليزدادوا يعني لكي يزدادوا إيماناً مع
 إيمانهم يعني تصديقاً مع تصديقهم الذي أمرهم الله به في كتابه فيقولون أن يكتبوا : باسمك اللهم، ويقولون أن يكتبوا
 هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، وذلك أنه لما نزل النبي- صلى الله عليه وسلم- بالحديبية «بعثت قريش
 منهم» «٤» سهيل بن عمرو القرشي وحويطب ابن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأحنف على أن
 يعرضوا على النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي قريش له مكة من العام المقبل
 ثلاثة أيام، ففعل ذلك النبي- صلى الله عليه وسلم- وكتبوا بينهم وبينه كتاباً فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- لعلي
 بن أبي طالب- عليه السلام-: اكتب بيننا كتاباً: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو وأصحابه: ما
 نعرف هذا، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم. فهم أصحاب النبي- صلى الله عليه وسلم- ألا يقرؤا بذلك، فقال
 النبي- صلى الله عليه وسلم- لعلي عليه السلام-: اكتب ما يقولون، فكتب: باسمك اللهم. ثم قال: اكتب هذا ما
 صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة. فقال سهيل بن عمرو وأصحابه: لقد ظلمناك إن علمنا أنك رسول الله
 ونمنعك ونردك عن بيته، ولا نكتب هذا. ولكن اكتب الذي نعرف: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل
 مكة. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: يا علي، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، وأنا أشهد أني
 رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله. فهم المسلمون ألا يقرؤا أن يكتبوا هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله.
 فأنزل الله السكينه يعني الطمأنينة عليهم. فذلك قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}
 أن يقرؤا لقريش حتى يكتبوا باسمك اللهم ... إلى آخر القصة، وأنزل في قول أهل مكة لا نعرف أنك رسول الله
 ولو علمنا ذلك لقد ظلمناك حين نمنعك عن بيته. {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} أن محمد رسول الله فلا شاهد أفضل منه".
 [تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٦٧-٦٨]
 (٨) غريب القرآن: ٤١٢. وقال: "أي: السكون والطمأنينة".
 (٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٢/٢٠٣.
 (١٠) انظر: معاني القرآن: ٦/٤٩٧. وقال: "السكون والطمأنينة".
 (١١) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩/٤٣. بدون إسناد.
 (١٢) تفسير الطبري: ٢٢/٢٠٣.
 (١٣) التفسير الوسيط: ٤/١٣٥.
 (١٤) التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/٢٨٦-٢٨٧..
 (١٥) تفسير التستري: ١٤٧.

قال الجصاص: المعنى: "سكون النفس إلى الإيمان بالبصائر التي بها قاتلوا عن دين الله حتى فتحوا مكة"^(١).

والراجح- والله أعلم- أن «السكينة»، هي: السكون والطمأنينة.
قوله تعالى: {لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح : ٤]، أي: "ليزدادوا تصديقاً لله واتباعاً لرسوله مع تصديقهم واتباعهم"^(٢).

قال الثعلبي: "أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان"^(٣).
قال الضحاك: "يقينا مع يقينهم"^(٤).

قال الواحدي: " وهو أنهم كلما أمروا بشيء من الشرائع والفرائض، كالصلاة، والصيام، والصدقة صدقوا به، فازدادوا تصديقاً، وذلك السكينة التي أنزلها الله في قلوبهم"^(٥).

قال ابن عباس: "إن الله جل ثناؤه بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}، قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات وأصدقته وأكملته شهادة أن لا إله إلا الله"^(٦).

قال الطبري: "يقول: ليزدادوا بتصديقهم بما جدّد الله من الفرائض التي ألزمهموها، التي لم تكن لهم لازمة {إيماناً مع إيمانهم}، يقول: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائض التي كانت لهم لازمة قبل ذلك"^(٧).

وقال الكلبي: "هذا في أمر الحديدية حين صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق"^(٨).
قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح : ٤]، أي: "ولله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين"^(٩).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: والله جنود السموات والأرض أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه"^(١٠).

قال الزجاج: "تأويله - والله أعلم - أن جميع ما خلق الله في السموات والأرض جنود له، لأن ذلك كله يدل على أنه واحد وأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثل شيء واحد مما خلق الله في السموات والأرض. ومن الدليل أيضاً على أن معنى قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}، أي: إِنَّا أَرَشَدْنَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفَتَحْنَا لَكَ أَمْرَ الدِّينِ"^(١١).

قال النحاس: "أي: كل ما فيها يدل على أن له خالفاً وأنه واحد"^(١٢).
قال ابن الجوزي: "يريد أن جميع أهل السموات والأرض ملئك له، لو أراد نُصرة نبيه بغيركم لَفَعَلَ، ولكنه اختاركم لذلك، فاشكروه"^(١٣).

قال سهل بن عبد الله: "جنوده مختلفة، فجنوده في السماء الأنبياء، وفي الأرض الأولياء وجنوده في السماء القلوب، وفي الأرض النفوس ما سلط الله عليك فهو من جنوده وإن سلط الله

(١) أحكام القرآن: ٥٢٣/٣.

(٢) التفسير الميسر: ٥١١.

(٣) الكشف والبيان: ٤٣/٩.

(٤) حكاة عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٣/٩. بدون إسناد.

(٥) التفسير الوسيط: ١٣٥/٤.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٠٣/٢٢-٢٠٤.

(٧) تفسير الطبري: ٢٠٣/٢٢.

(٨) حكاة عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٣/٩.

(٩) التفسير الميسر: ٥١١.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(١١) معاني القرآن: ٢٠/٥.

(١٢) معاني القرآن: ٤٩٧/٦.

(١٣) زاد المسير: ١٢٨/٤.

عليك نفسك أهلك نفسك بنفسك، وإن سلط عليك جوارحك أهلك جوارحك بجوارحك، وإن سلط نفسك على قلبك قادتك إلى متابعة الهوى، وإن سلط قلبك على نفسك وجوارحك ألزمها بالأدب، وألزمها العبادة، وزينها بالإخلاص في العبودية، فهذا كله جنود الله" (١).

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح : ٤]، أي: "وكان الله عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في تدبيره وصنعه" (٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله ذا علم بما هو كائن قبل كونه، وما خلقه عاملوه، حكيماً في تدبيره" (٣).

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون" (٤)، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده" (٥).

عن أبي العالية في قوله: " {حكيم}، قال: حكيم في أمره" (٦).

القرآن

{لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)} [الفتح : ٥]
التفسير:

ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، ويمحو عنهم سيئ ما عملوا، فلا يعاقبهم عليه، وكان ذلك الجزاء عند الله نجاة من كل غم، وظفراً بكل مطلوب.

قوله تعالى: {لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح : ٥]، أي: "ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار" (٧).

قال الطبري: يقول: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، لتشكر ربك، وتحمدته على ذلك، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار" (٨).

قال مقاتل: "لكي يدخل المؤمنين والمؤمنات بالإسلام {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت البساتين" (٩).

عن السدي: " {جنات}، قال: البساتين" (١٠).

قال مجاهد: "الجنات: حوائط" (١١).

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم" (١٢).

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزع ثمره عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعاً" (١٣).

(١) تفسير التستري: ١٤٧.

(٢) التفسير الميسر: ٥١١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٣): ص ٢١٠٤/٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٥): ص ٢١٠٤/٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٤): ص ٢١٠٤/٧.

(٧) التفسير الميسر: ٥١١.

(٨) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٨/٤.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨٢٤): ص ٢٧٩٦/٩.

(١١) تفسير مجاهد: ٤٩٦.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٣٨): ص ١٩٢٩/٦.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٧٨): ص ٨٤٥/٣.

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [الفتح : ٥]، أي: "ماكثين فيها أبداً"^(١).
قال الطبري: يقول: "ماكثين فيها إلى غير نهاية"^(٢).
قال مقاتل: "لا يموتون"^(٣).
عن سعيد بن جبیر: " {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون"^(٤).
قوله تعالى: {وَيُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} [الفتح : ٥]، أي: "ويمحو عنهم سيئ ما عملوا، فلا يعاقبهم عليه"^(٥).
قال الطبري: يقول: " وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكرا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به"^(٦).
قال مقاتل: " يعني: يمحو عنهم ذنوبهم"^(٧).
قوله تعالى: {وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح : ٥]، أي: "وكان ذلك الجزاء عند الله نجاة من كل غم، وظفراً بكل مطلوب"^(٨).
قال الطبري: يقول: "وكان ما وعدهم الله به من هذه العدة، وذلك إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتهم بحسنات أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم، ظفراً منهم بما كانوا تأملوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب الله عظيم"^(٩).
قال سعيد بن جبیر: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم"^(١٠).

القرآن

{وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)} [الفتح : ٦]
التفسير:

ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين يظنون ظناً سيئاً بالله أنه لن ينصر نبيه والمؤمنين معه على أعدائهم، ولن يُظهر دينه، فعلى هؤلاء تدور دائرة العذاب وكل ما يسوءهم، وغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته، وأعدَّ لهم نار جهنم، وساءت منزلاً يصيرون إليه.

قوله تعالى: {وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} [الفتح : ٦]، أي: "ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات"^(١١).
قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وليعذب المنافقين والمنافقات، بفتح الله لك يا محمد، ما فتح لك من نصر لك على مشركي قريش، فيكتبوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاءهم الذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولي عنك في عاجل الدنيا، وصلي النار والخلود فيها في أجل الآخرة، وليعذب كذلك أيضاً المشركين والمشركات"^(١٢).

(١) التفسير الميسر: ٥١١.

(٢) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٨/٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٥٩): ص ٨٩١/٣، و(١٠٥٠٠): ص ١٨٣٣/٦.

(٥) التفسير الميسر: ٥١١.

(٦) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٨/٤.

(٨) التفسير الميسر: ٥١١.

(٩) تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٦٠): ص ٨٩١ / ٣.

(١١) التفسير الميسر: ٥١١.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٠٥/٢٢.

قال الزجاج: " كانوا يظنون أن لن يعود الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبهم، فجعل الله دائرة السوء عليهم" (١).
قال الصابوني: " وقدّمهم على المشركين لأنهم أعظم خطراً وأشر ضرراً من الكفار المجاهرين بالكفر" (٢).

قوله تعالى: {الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ} [الفتح : ٦]، أي: "الذين يظنون ظناً سيئاً بالله أنه لن ينصر نبيه والمؤمنين معه على أعدائهم، ولن يُظهر دينه" (٣).
قال الطبري: أي: " {الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ} أنه لن ينصرك، وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع" (٤).

وفي قوله تعالى: {الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ} [الفتح : ٦]، وجوه:

أحدها : هو ظنهم أن الله شريكاً (٥).
الثاني : أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه (٦).
الثالث : ظنوا أن الله لا يبعث الموتى (٧).
الرابع : أنهم ظنوا أنهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة واحدة عند الله. وهذا قول مقاتل (٨).

قال مقاتل: " وكان ظنهم حين قالوا: واللوات والعزى ما نحن وهو عند الله إلا بمنزلة واحدة، وأن محمد ألا ينصر. فبئس حين ما ظنوا" (٩).

الخامس: أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو يهزم ولا يعود ظافراً (١٠).
وحكي الزجاج عن الخليل وسيبويه، معناه: "الظانين بالله ظنّ الفساد، وهو ما ظنوا أن الرسول عليه السلام ومن معه لا يرجعون" (١١).

قال الضحاك : ظننت أسد وغطفان في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو ينهزم ولا يعود إلى المدينة سالماً، فعاد ظافراً (١٢).

قال السمعاني: " معنى ظن السوء هاهنا: هو أنهم كانوا قد ظنوا على أن أمر محمد لا يتم، ويضمحل عن قريب. ويقال: إن الرسول لما توجه إلى مكة عام الحديبية مع أصحابه معتمرين، ولم يحمل معه من السلاح إلا السيوف في القراب، قال المنافقون وسائر الكفار: إن محمداً لا يرجع عن وجهه هذا أبداً وأنه يهلك هو وأصحابه، فهو معنى: ظن السوء" (١٣).

قوله تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [الفتح : ٦]، أي: " فعلى هؤلاء تدور دائرة العذاب وكل ما يسوءهم" (١٤).

قال الطبري: يقول: " على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به" (١).

(١) معاني القرآن: ٢٠/٥.

(٢) صفوة التفسير: ٢٠٣/٣.

(٣) التفسير الميسر: ٥١١.

(٤) تفسير الطبري: ٢٠٥/٢٢.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣١٢/٥، وزاد المسير: ١٢٩/٤.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣١٢/٥، وزاد المسير: ١٢٩/٤.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣١٢/٥، وزاد المسير: ١٢٩/٤.

(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٨/٤.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٨/٤.

(١٠) انظر: زاد المسير: ١٢٩/٤.

(١١) انظر: معاني القرآن: ٢٠/٥.

(١٢) انظر: النكت والعيون: ٣١٢/٥.

(١٣) تفسير السمعاني: ١٩٢/٥.

(١٤) التفسير الميسر: ٥١١.

قال السمعاني: "أي: عليهم عاقبة الهلاك وقيل معناه: لهم سوء العاقبة لا للرسول" (٢).
 قال الزجاج: "أي: الفساد والهلاك يقع بهم" (٣).
 قال السجستاني: "أي: عليهم يدور من الدهر ما يسوءهم" (٤).
 قال أبو عبيدة: "تدور عليهم قال حميد" (٥):
 وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا" (٦).
 وقرئ: «دَائِرَةُ السُّوءِ»، بضم السين (٧).
 قوله تعالى: {وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} [الفتح : ٦]، أي: "و غضب الله عليهم، و طردهم من رحمته" (٨).
 قال الطبري: "يقول: ونالهم الله بغضب منه، وأبعدهم فأقصاهم من رحمته" (٩).
 قال القشيري: "أبعدهم عن فضله، وحقت فيهم كلمته، وما سبقت لهم- من الله سبحانه- قسمته" (١٠).
 قال الماتريدي: "أخبر - عَزَّ وَجَلَّ - أنهم استوجبوا غضب الله ولعنه بالذي كان منهم من سوء ظنهم بالله ورسوله" (١١).
 قوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح : ٦]، أي: "وأعدَّ لهم نار جهنم، وساءت منزلاً يصيرون إليه" (١٢).
 قال الطبري: "يقول: وأعدَّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات" (١٣).
 قال الماتريدي: "وأعدَّ لهم جهنم بذلك، وساءت مصيراً لهم" (١٤).
 قال مقاتل: "وَأَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ {جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، يعني: وبئس المصير" (١٥).
 قال السمعاني: "أي: بئس المنقلب" (١٦).

القرآن

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)} [الفتح : ٧]

التفسير:

والله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض يؤيد بهم عباده المؤمنين. وكان الله عزيزاً على خلقه، حكيماً في تدبير أمورهم.
 سبب النزول:

- (١) تفسير الطبري: ٢٠٥/٢٢.
- (٢) تفسير السمعاني: ١٩٢/٥.
- (٣) معاني القرآن: ٢١/٥.
- (٤) غريب القرآن: ٢٢٠.
- (٥) هو حميد بن مالك بن ربيعي بن فحاش بن قيس، من بني ربيعة، شاعر إسلامي. "معجم الأدياء" ٣/ ٢٦٧، والرجز « تَرُدُّ عَنَّا القَدْرَ المَقْدُورَا ... وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا » في: "تفسير الطبري" ٤/٤٠٤، و"تفسير القرطبي" ٦/ ٢١٧.
- (٦) مجاز القرآن: ٢١٧/٢.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.
- (٨) التفسير الميسر: ٥١١.
- (٩) تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.
- (١٠) لطائف الإشارات: ٣/ ٤٢٠.
- (١١) تأويلات أهل السنة: ٢٩٦/٩.
- (١٢) التفسير الميسر: ٥١١.
- (١٣) تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.
- (١٤) تأويلات أهل السنة: ٢٩٦/٩.
- (١٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/ ٦٩.
- (١٦) تفسير السمعاني: ١٩٢/٥.

قال مقاتل: " وأنزل الله- تعالى- في قول عبد الله بن أبي حين قال: «فأين أهل فارس والروم؟»: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ}، يعني: الملائكة {وَالْأَرْضِ}، يعني: المؤمنين. فهؤلاء أكثر من فارس والروم، {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا} في ملكه، {حَكِيمًا} في أمره. فحكم النصر للنبي- صلى الله عليه وسلم-، وأنزل في قول عبد الله بن أبي: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]، أي: محمد- صلى الله عليه وسلم- وحده، {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة : ٢١]، يقول: أقوى وأعز من أهل فارس والروم لقول عبد الله بن أبي هم أشد بأسا وأعز عزيزا" (١).

قال السمعاني: " في التفسير: أن المنافقين قالوا: وما يغني عن محمد أصحابه؟ ولئن ظفر بقومه فكيف يظفر بجميع العرب وكسرى وقبصر؟ ما وعد محمد أصحابه إلا الغرور، فأنزل الله تعالى قوله: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (٢).

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح : ٧]، أي: " والله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض يؤيد بهم عباده المؤمنين" (٣).

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: والله جنود السموات والأرض أنصارا على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم، وسار عوا إلى ذلك بالطاعة منهم له" (٤).

قال السمعاني: " معناه: أن الظفر من قبلي، والجنود كلها لي، فمن شئت أن أنصره لم يعسر ذلك علي، قل أعداؤه أو أكثر" (٥).

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح : ٧]، أي: " وكان الله عزيزًا على خلقه، حكيماً في تدبير أمورهم" (٦).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله ذا عزة، لا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه مما أراد به ممتنع، لعظم سلطانه وقدرته، حكيم في تدبيره خلقه" (٧).

قال الزجاج: " عَالِيًا حَكِيمًا فِيمَا دَبَّرَهُ" (٨).

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء" (٩)، الحكيم: في عذره وحبته إلى عباده" (١٠).

قال أبو العالية: " {عزيز} في نعمته إذا انتقم" (١١). وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك" (١٢).

عن أبي العالية: " {حكيم}، قال: حكيم في أمره" (١٣).

قال محمد بن جعفر بن الزبير " الحكيم في عذره، وحبته إلى عباده" (١٤).

قال الماتريدي: " ذكر على إثر ما ذكر {عزيرًا حكيماً}؛ ليعلم أن عزه ليس بما ذكر من الجنود الذين له في السموات والأرض، ولكنه عزيز بذاته، له العز الذاتي الأزلي" (١٥).

فوائد الآيات: [٧-١]:

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٩/٤.

(٢) تفسير السمعاني: ١٩٣/٥.

(٣) التفسير الميسر: ٥١١.

(٤) تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.

(٥) تفسير السمعاني: ١٩٣/٥.

(٦) التفسير الميسر: ٥١١.

(٧) تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٢١/٥.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٤):ص٥/١٦٦٤.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٦):ص٥/١٦٦٤.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٣):ص٥/١٦٦٤.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٦٤/٥.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٢):ص٦/١٧٦٤.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٣):ص٦/١٧٦٤.

(١٥) تأويلات أهل السنة: ٢٩٦/٩.

- ١- الذنب الذي غفر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعلوم بالضرورة أنه ليس من الكبائر في شيء وهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.
- ٢- إنعام الله على العبد بوجوب الشكر والشكر بوجوب المغفرة وزيادة الإنعام.
- ٣- بيان مكافئة الله لرسوله والمؤمنين على صبرهم وجهادهم.
- ٤- بيان أن الكافرين يحزنون ويغمون بنصر المؤمنين وعزهم فيكون ذلك عذاب لهم في الدنيا.

القرآن

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩)} [الفتح :]

التفسير:

إنا أرسلناك -أيها الرسول- شاهداً على أمتك بالبلاغ، مبيئاً لهم ما أرسلناك به إليهم، ومبشراً لمن أطاعك بالجنة، ونذيراً لمن عصاك بالعقاب العاجل والآجل؛ لتؤمنوا بالله ورسوله، وتنصروا الله بنصر دينه، وتعظموا الله، وتسبحوه أول النهار وآخره.

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح : ٨]، أي: "إنا أرسلناك -أيها الرسول- شاهداً على أمتك بالبلاغ، مبيئاً لهم ما أرسلناك به إليهم، ومبشراً لمن أطاعك بالجنة، ونذيراً لمن عصاك بالعقاب العاجل والآجل"^(١).

قال ابن كثير: "يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا}، أي: على الخلق، {وَمُبَشِّرًا}، أي: للمؤمنين، {وَنَذِيرًا}، أي: للكافرين"^(٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} يا محمد {شَاهِدًا} على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه، مما أرسلناك به إليهم من الرسالة، ومبشراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم، ونذيراً لهم عذاب الله إن هم تولوا عما جئتهم به من عند ربك"^(٣).

قال قتادة: "يقول: شاهداً على أمته على أنه قد بلغهم ومبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً من النار"^(٤).

قال سهل بن عبدالله: "شاهداً عليهم بالتوحيد، ومبشراً لهم بالمعونة والتأييد، ومحذراً عن البدع والضلالات"^(٥).

قوله تعالى: {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الفتح : ٩]، أي: "أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حقاً الإيمان، إيماناً عن اعتقاد ويقين، لا يخالطه شك ولا ارتياب"^(٦).

قال الطبري: "أي: لتؤمنوا بالله ورسوله أنتم أيها الناس"^(٧).
قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح : ٩]، أي: "وتنصروه على عدوه بالسيف، وتعظموا النبي صلى الله عليه وسلم"^(٨).

وفي تفسير قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح : ٩]، وجوه:

أحدها: معناه: تجلوه، وتعظموه. قاله ابن عباس^(٩)، والضحاك^(١٠).

(١) التفسير الميسر: ٥١١.

(٢) تفسير التستري: ٣٢٩/٥.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠٦/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٠٧/٢٢.

(٥) تفسير التستري: ١٤٧.

(٦) صفوة التفاسير: ٢٠٣/٣.

(٧) تفسير الطبري: ٢٠٧/٢٢.

(٨) بحر العلوم: ٣١٣/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٧/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٧/٢٢.

عن ابن عباس: "وَتُعَزَّرُوهُ، يعني: الإجلال، {وَتُوقَّرُوهُ}، يعني: التعظيم"^(١).
قال الضحاك: "كل هذا تعظيم وإجلال"^(٢).
قال أبو عبيدة: "تُعَزَّرُوهُ: تعظموه"^(٣).
قال ابن كثير: "وَتُعَزَّرُوهُ، قال ابن عباس^(٤)، وغير واحد^(٥): يعظموه، {وَتُوقَّرُوهُ} من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام"^(٦).
قال ابن أبي زمنين: "أي: وتنصروه وتعظموه؛ يعني: النبي صلى الله عليه وسلم"^(٧).
الثاني: وينصروه، ويفخموه. قاله قتادة^(٨)، ومقاتل^(٩)، وعن عكرمة نحوه^(١٠).
عن قتادة، قوله، "وَتُعَزَّرُوهُ"، ينصروه، {وَتُوقَّرُوهُ}، أمر الله بتسويده وتفخيمه"^(١١).
وقال قتادة: "ينصروه، ويوقروه: أي: ليعظموه"^(١٢).
قال مقاتل: "وَتُعَزَّرُوهُ، يعني: تنصروه وتعاونوه على أمره كله، {وَتُوقَّرُوهُ}، يعني: وتعظموا النبي - صلى الله عليه وسلم -"^(١٣).
وقال ابن حبان: "تشرفوه وتبجلوه وتجلوه"^(١٤).
عن عكرمة: "وَتُعَزَّرُوهُ، قال: يقاتلون معه بالسيف"^(١٥).
وروى الحجاج بن أرطاة عنه قال: "قلت لابن عباس: ما قوله: {وَتُعَزَّرُوهُ}؟ قال: الضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم - بالسيف"^(١٦).
قال الفراء: "وَتُعَزَّرُوهُ: تنصروه بالسيف. كذلك ذكره عن الكلبى"^(١٧).
قال غلام ثعلب: "التعزير: النصره بالسيف واللسان"^(١٨).
قال الزجاج: "معنى: {تُعَزَّرُوهُ}: تنصروه، يقال: عززته أعززه، أي: نصرته مرة بعد مرة.. وجاء في التفسير لتنصروه بالسيف، ونصرة النبي - صلى الله عليه وسلم - هي نصره الله عز وجل"^(١٩).
قال النحاس: "أصل التعزير - في اللغة - المنع، ومنه: عززت فلانا، أي: أنزلت به ما يمتنع من أجله من المعادة، كما تقول: نكلت به، أي: أنزلت به ما ينكل به عن العودة"^(٢٠).
الثالث: معناه: ويعظموه. قاله ابن زيد^(١)، وعلي بن عيسى^(٢).

- (١) أخرجه الطبري: ٢٠٧/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٢٠٧/٢٢.
- (٣) مجاز القرآن: ٢١٧/٢.
- (٤) تفسير الطبري (١٥٢٤٤): ص ١٦٨/١٣ - ١٦٩.
- (٥) وكذا قاله مجاهد، كما في تفسير الطبري (١٥٢٤٥): ص ١٦٩/١٣.
- (٦) تفسير ابن كثير: ٣٢٩/٧.
- (٧) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٠/٤.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٧/٢٢ - ٢٠٨.
- (٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٠/٤.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٨/٢٢.
- (١١) أخرجه الطبري: ٢٠٧/٢٢ - ٢٠٨.
- (١٢) أخرجه الطبري: ٢٠٨/٢٢.
- (١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٠/٤.
- (١٤) حكاه عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ٢٩٠/٢٠.
- (١٥) أخرجه الطبري: ٢٠٨/٢٢.
- (١٦) نقلا عن التفسير الوسيط للواحدي: ٢٩٠/٢٠.
- (١٧) معاني القرآن: ٦٥/٣.
- (١٨) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: ٤٧١.
- (١٩) معاني القرآن: ٢١/٥.
- (٢٠) معاني القرآن: ٢٨٠/٢. قال النحاس: "وروي عن سعد أنه قال: "لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام الا الحبلة والسمر، ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى على الإسلام - أي: تؤدبني وهو يرجع الى ما تقدم، أي: يمنعونني - سعيد عما أنا عليه".

عن ابن زيد، قوله: "وَتُعَزَّرُوهُ وَتُوقَّرُوهُ"، قال: الطاعة لله^(٣).
 واخرج عبدالرزاق عن قتادة، في قوله: "وَتُعَزَّرُوهُ وَتُوقَّرُوهُ"، قال: «أي: تعظموه»^(٤).
 قال الطبري: "وهذه الأقوال متقاربات المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها. ومعنى
 التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم
 والإجلال، فأما التوقير: فهو التعظيم والإجلال والتفخيم"^(٥).
 وفي عود الضمير في قوله تعالى: "وَتُعَزَّرُوهُ وَتُوقَّرُوهُ" [الفتح : ٩]، وجهان:
 أحدهما: أنها راجعة إلى الرسول، والمراد: أن يعزروه ويوقروه لأنه قد تقدم ذكرها، فجاز أن
 يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله وبعضه راجعاً إلى رسوله، قاله الضحاك^(٦)، وهو قول
 الجمهور^(٧).
 قال الماوردي: "فعلى هذا يكون تأويل: {تُوقَّرُوهُ}، أي: تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم
 والكنية"^(٨).
 قال ابن عطية: "قال الجمهور: {تُعَزَّرُوهُ وَتُوقَّرُوهُ} هما للنبي عليه السلام، {وَتُسَبِّحُوهُ}
 هي لله"^(٩).
 الثاني: أنها راجعة إلى الله تعالى، أي: "تعزروا الله وتوقروه، لأن قوله: {وَتُسَبِّحُوهُ}، راجع إلى
 الله وكذلك ما تقدمه.
 قال الماوردي: "فعلى هذا يكون تأويل قوله: {وَتُوقَّرُوهُ}، أي: تثبتوا له صحة الربوبية
 وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك"^(١٠).
 قال الزمخشري: "الضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله صلى
 الله عليه وسلم. ومن فرق الضمائر فقد أبعده"^(١١).
 قوله تعالى: {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفتح : ٩]، أي: "وتسبحوا ربكم أول النهار
 وآخره"^(١٢).
 قال الطبري: "يقول: وتصلوا لله بالغدوات والعشيات"^(١٣).
 قال ابن كثير: "أي: يسبحون الله أول النهار وآخره"^(١٤).
 قال الضحاك: "يقول: يسبحون الله رجوع إلى نفسه"^(١٥).
 قال الزجاج: "معنى: يسبحون الله، أي: يصلون له. والتسبيح -في اللغة-: تعظيم الله
 وتنزيهه عن السوء"^(١٦).
 قال السمعاني: "التسبيح بالبكرة وهو صلاة الصبح، وبالأصيل صلاة الظهر
 والعصر"^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٨/٢٢.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٢٦٩/٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٠٨/٢٢.

(٤) تفسير عبدالرزاق (٢٨٩٦): ص ٢١١/٣.

(٥) تفسير الطبري: ٢٠٨/٢٢.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣١٣/٥.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٢٩/٥.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣١٣/٥.

(٩) المحرر الوجيز: ١٢٩/٥.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ٣١٣/٥.

(١١) الكشاف: ٣٣٤/٤-٣٣٥.

(١٢) صفوة التفاسير: ٢٠٣/٣.

(١٣) تفسير الطبري: ٢٠٩/٢٢.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٩/٧.

(١٥) أخرجه الطبري: ٢٠٩/٢٢.

(١٦) معاني القرآن: ٢٢/٥.

وقرئ «وَيَسْبِحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٢).
 وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا»، «وَيُعَزَّرُوهُ»، «وَيُوقِّرُوهُ»، «وَيَسْبِحُوهُ»،
 كلهن بالياء، والباقون: بالناء، على معنى: قل لهم: إنا أرسلناك، لتؤمنوا، وقرأ علي بن أبي
 طالب وابن السميع: «وَيُعَزَّرُوهُ» بزاعين أي: تقدموا بما يكون عزاء له^(٣).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ
 أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)} [الفتح : ١٠]
 التفسير:

إن الذين يبايعونك -أيها النبي- بـ «الحديبية» على القتال إنما يبايعون الله، ويعقدون العقد معه
 ابتغاء جنته ورضوانه، يد الله فوق أيديهم، فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم
 ضمائرهم وظواهرهم، فمن نقض بيعته فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، ومن أوفى بما عاهد الله
 عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فسيعطيه
 الله ثواباً جزيلاً وهو الجنة.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح : ١٠]، أي: "إن الذين يبايعونك
 -أيها النبي- بـ «الحديبية» على القتال إنما يبايعون الله، ويعقدون العقد معه ابتغاء جنته
 ورضوانه"^(٤).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
 بالحديبية من أصحابك على أن لا يفرّوا عند لقاء العدو، ولا يولّوهم الأعداء، إنما يبايعون
 ببيعتهم إياك الله، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك"^(٥).

قال الزجاج: "أي: أخذك عليهم البيعة عقد الله عز وجل عليهم"^(٦).
 قال الماتريدي: "أجمع أهل التأويل أو عامتهم على أن المبايعة المذكورة في هذه الآية
 هي البيعة التي كانت بالحديبية، بايعوه على ألا يفرّوا إذا لقوا عدو، والمبايعة هي المعاهدة"^(٧).

عن مجاهد، قوله: "{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ}"، قال: يوم الحديبية"^(٨).
 قال قتادة: "وهم الذين بايعوا يوم الحديبية"^(٩).

قال مقاتل: "وهي بيعة الرضوان، كان المسلمون يومئذ ألفاً وأربعمائة رجل، فبايعوا
 النبي- صلى الله عليه وسلم- على أن يقاتلوا ولا يفرّوا من العدو، فقال: {إنما يبايعون الله}"^(١٠).

عن معقل بن يسار، قال: "لقد رأيتني يوم الشجرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع
 الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على
 الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر"^(١١).
 عن جابر، قال: "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية على أن لا نفر، ولم
 نبايعه على الموت"^(١).

(١) تفسير السمعاني: ١٩٤/٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٩/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٧/٢٢، وتفسير السمعاني: ١٩٣/٥، وزاد المسير: ١٢٩/٤.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٥) تفسير الطبري: ٢٠٩/٢٢.

(٦) معاني القرآن: ٢٢/٥.

(٧) تأويلات أهل السنة: ٢٩٨/٩.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٠٩/٢٢-٢١٠.

(٩) أخرجه الطبري: ٢١٠/٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٠/٤.

(١١) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ١٣٧/٤، وأخرجه مسلم في: ٣٣- كتاب الإمارة، (١٨) باب استحباب
 مبايعة الإمام، الحديث (٧٦)، ص (١٤٨٥)

عن سلمة، ابن الأكوع، قال: "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، قال يزيد قلت: يا أبا مسلم علي أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت"^(١).

عن سلمة بن الأكوع، قال: "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ثم تنحيت، فقال: يا سلمة ألا تبايع؟ قلت: قد بايعت، قال: أقبل فبايع، قال: فدوت فبايعته، ثم قلت: على ما بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت"^(٢).

عن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: "قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويهما. ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي جباها -يعني: الركبة-، فإما دعا وإما بسق فيها فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعانا إلى البيعة في أصل الشجرة فبايعه أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس، قال: «بايعني يا سلمة!» قال: قلت يا رسول الله قد بايعتك أول الناس، قال وأيضاً، قال: ورآني رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلاً^(٤) فأعطاني حجة أو درقة^(٥)، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ألا تبايع يا سلمة قال: قلت يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال: وأيضاً فبايعته الثالثة فقال: يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك، قال: قلت يا رسول الله لقبني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: إنك كالذي قال الأول^(٦): اللهم ابغني حبيباً هو أحب إلي من نفسي، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا، قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله أستقي فرسه وأحسه، وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا بعضاً أتيت شجرة فكسحت شوكتها واضطجعت في أصلها فأتاني أربعة من أهل مكة من المشركين، فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم ثم فتحو لت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي المهاجرين قتل ابن زنيم قال فاخترت سيفي، فشدت على أولئك الأربعة وهم رقد، فأخذت سلاحهم فجعلته ضعفاً في يدي ثم قلت والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي في عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له: مكرز، من المشركين يقوده على فرس مجفف حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤] الآية"^(٧).

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: "ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة ليلبغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ١٣٧/٤، وأخرجه مسلم في: ٣٣- كتاب الإمارة، (١٨) باب استحباب مبايعة الإمام، الحديث (٧٦)، ص (١٤٨٥)

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ١٣٨/٤، وأخرجه البخاري في ٦٤- كتاب المغازي، (٣٥) باب غزوة الحديبية، الحديث (٤١٦٩)، فتح الباري (٧: ٤٤٩)

(٣) دلائل النبوة للبيهقي: ١٣٨/٤، وأخرجه البخاري عن أبي عاصم في: ٩٣- كتاب الأحكام (٤٤) باب من بايع مرتين، فتح الباري (١٣: ١٩٩).

(٤) عزلاً: ضبطه بوجهين: أحدهما فتح العين مع كسر الزاي. والثاني ضمهما. وقد فسره في الكتاب بالذي لا سلاح معه. ويقال أيضاً: أعزل، وهو الأشهر استعمالاً.

(٥) حجة أو درقة: هما شبيهتان بالترس.

(٦) إنك كالذي قال الأول: الذي صفة لمحذوف. أي أنك كالقول الذي قاله الأول. فالأول، بالرفع، فاعل، والمراد به، هنا، المتقدم بالزمان. يعني أن شأنك هذا مع عمك يشبه فحوى القول الذي قاله الرجل المتقدم زمانه.

(٧) دلائل النبوة للبيهقي: ١٣٩/٤-١٤١، وهكذا رواه مسلم (١٨٠٧)، عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريباً منه.

أخاف قريشا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فبعثته إلى أبي سفيان وأشرف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قيل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظما قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: "لا نبرح حتى نناجز القوم". ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكانني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقتة، قد ضبا إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي كان من أمر عثمان باطل" (١).

وذكر ابن لهيعة عن الأسود. عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد في سياقه: "أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان بن عفان سهيل بن عمرو، وحويط بن عبد العزى، ومركز بن حفص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادة والصلح" (٢).

عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: "لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم" (٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٥/٢، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٣١/٧-٣٣٢.

(٢) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٣٢/٧.

(٣) رواه البيهقي كما نقلا عن تفسير ابن كثير: ٣٣٢/٧، ولم أجد في دلائل النبوة ولعله في غيره.

وقد روي عن حبيب بن أبي مليكة، قال: "سأل رجل ابن عمر عن عثمان فقال: شهد بدرا؟ فقال: لا، فقال: هل شهد بيعة الرضوان؟ فقال: لا، قال: فهل تولى يوم التقى الجمعان؟ قال: نعم، قال: ثم ذهب الرجل فقيل لابن عمر: إن هذا يزعم أنك عبت عثمان، قال: ردوه، قال: فردوه عليه فقال له: هل عقلت ما قلت لك؟ قال: نعم، قال: سألتني هل شهد عثمان بدرا فقلت لك: لا، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك، فضرب له بسهمه، وسألتني هل شهد بيعة الرضوان، قال: فقلت لك: لا، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى الأحزاب ليوادعونا ويسالمونا فأبوا، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع له وقال: «اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك صلى الله عليه وسلم»، ثم مسح بإحدى يديه على الأخرى فبايع له، وسألتني هل كان عثمان تولى يوم التقى الجمعان؟ قال: فقلت: نعم، وإن الله قال: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم} [آل عمران: ٧٧].

قال ابن هشام : " حدثني من أثق به عن حدثه بإسناد له، عن أبي مليكة، عن ابن عمر قال : بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى" (١).
عن الشعبي : " أن أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي" (٢).

عن الشعبي، قال : " لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي، فقال : ابسط يدك أبايعك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على ما تبايعني؟ فقال أبو سنان : على ما في نفسك" (٣).

عن سعيد بن المسيب، قال : " كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة. قال : فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم" (٤).
قال جابر : " لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له "الجد بن قيس" مختبئا تحت إبط بعيره" (٥).

عن عمرو، سمع جابرا، قال : " كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان : إنهم اختلفوا في موضعها" (٦).

عن جابر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة" (٧).

عن جابر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر". قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا : تعال فبايع. فقال : أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع" (٨).

عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من يصعد الثانية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل". فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر". فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة" (٩).

عن أبي الزبير، أنه سمع جابرا يقول : " أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة : " لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد". قالت : بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة : {وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم : ٧١]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قد قال الله : {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا} [مريم : ٧٢]" (١٠).

[١٥٥] فاذهب فاجهد على جهدي". [مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٠٤١):ص٣٦١/٦].

(١) السيرة النبوية : ٣١٦/٢.

(٢) السيرة النبوية : ٣١٦/٢.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة : ١٣٧/٤.

الخبر أخرجه أيضا الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤ : ١٩٥) (في ترجمة أبي سنان بن وهب، واسمه عبد الله، ويقال : وهب بن عبيد الله الأسدي، شهد بدرًا، وكان أول من بايع بيعة الرضوان، وبقية الخبر : قال : فتح أو شهادة، قال : نعم، فبايعه، فخرج الناس يبايعون على بيعة أبي سنان).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤١٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩) واللفظ لمسلم.

(٥) مسند الحميدي (٥٣٧/٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٦) مسند الحميدي (٥١٤/٢) وصحيح البخاري برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٧) المسند : ٣٥٠/٣.

(٨) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير : ٣٣٥/٧، وفي إسناده محمد بن ثابت العبدي، ضعفه ابن معين وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذي : " لا نعرف خدasha هذا من هو".

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).

عن جابر: "أن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية"^(١).

قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، أي: "يد الله فوق أيديهم، فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم"^(٢).

وفي قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم. قاله ابن كيسان^(٣)، وسهل بن عبدالله^(٤).

قال سهل: "قوة الله فوق قوتهم في نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم إنما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نصرته على العدو"^(٥).

قال سهل: "أي: حول الله وقوته فوق قوتهم وحركتهم، وهو قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم عند البيعة: «بايعناك على أن لا نفر ونقاتل لك»"^(٦).

قال الواحدي: "أي: ثق بنصرة الله لك، لا بنصرتهم وإن بايعوك"^(٧).

الثاني: يد الله في المنة عليهم في الهداية لبيعتهم وثوابه لهم فوق بيعتهم وطاعتهم لك. ذكره سهل بن عبدالله-أيضا-^(٨)، وعن الكلبي نحوه^(٩).

قال الكلبي: "معناه: نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة"^(١٠).

وقال القشيري: "أي: {يَدُ اللَّهِ}: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: {فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} بالوفاء حين بايعوك"^(١١).

الثالث: يَدُ اللَّهِ في الوفاء فوق أيديهم. قاله ابن عباس^(١٢)، ومقاتل^(١٣)، والفراء^(١٤).

قال الفراء: "قوله: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، بالوفاء والعهد"^(١٥).

قال مقاتل: "يد الله بالوفاء لهم بما وعدهم من الخير فوق أيديهم حين قالوا النبي- صلى

الله عليه وسلم- إنا نبايعك على ألا نفر ونقاتل فاعرف لنا ذلك"^(١٦).

الرابع: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه صلى الله عليه وسلم. حكاه الثعلبي عن السدي^(١٧)، وحكاه الطبري دون نسبة^(١٨).

قال الشافعي: "فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم طاعته"^(١٩).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

(٢) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٣) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٥/٩.

(٤) انظر: تفسير التستري: ١٤٧. وحكاه الطبري: ٢١٠/٢٢، دون نسبة.

(٥) انظر: تفسير التستري: ١٤٧. وحكاه الطبري: ٢١٠/٢٢، دون نسبة.

(٦) تفسير التستري: ١٤٧.

(٧) التفسير الوسيط: ١٣٦/٤.

(٨) انظر: تفسير التستري: ١٤٧. وحكاه الطبري في التفسير: ٢١٠/٢٢، والزجاج في معاني القرآن: ٢٢/٥، دون نسبة.

(٩) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٥/٩.

(١٠) انظر: الكشف والبيان: ٤٥/٩.

(١١) لطائف الإشارات: ٤٢٢/٣.

(١٢) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٤٥/٩. بدون إسناد.

(١٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٠/٤.

(١٤) انظر: معاني القرآن: ٦٥/٣.

(١٥) معاني القرآن: ٦٥/٣.

(١٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٠/٤.

(١٧) انظر: الكشف والبيان: ٤٥/٩. دون إسناد.

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٢١٠/٢٢.

(١٩) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٦٣/٣.

قال ابن كثير: "أي : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم كقوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ١١١]"^(١).

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سل سيفه في سبيل الله، فقد بايع الله"^(٢).

عن ابن عباس، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر : "والله لبيعته الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق، به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله"، ثم قرأ: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}"^(٣).

قوله تعالى: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح : ١٠]، أي: "فمن نقض بيعته فإنما يعود وبال ذلك على نفسه"^(٤).

قال الطبري: يقول: "فمن نكث بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه، فإنما ينقض بيعته، لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الحنة بوفائه بالبيعة، فلم يضرب بنكته غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تبارك وتعالى ناصره على أعدائه، نكث الناكث منهم، أو وفى ببيعته"^(٥).

قال ابن كثير: "أي : إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه"^(٦).

قال القشيري: "أي: عذاب النكث عائد عليه"^(٧).

قال الزجاج: "النكث -في اللغة-: نقض ما تعقده، وما تصلحه. وجاء في التفسير: ثلاثة أشياء ترجع على أهلها. أحدها النكث. والبغي والمكر. قال الله - عز وجل - {إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس : ٢٣]، والمكر قال الله عز وجل: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر : ٤٣]، وقوله: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح : ١٠]"^(٨).

عن الزهري، قال: "بلغنا: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تمكر، ولا تُعن مكرًا؛ فإن الله يقول: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، ولا تبغ ولا تُعن باغيًا، يقول الله: {إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس : ٢٣]، ولا تنكث، ولا تُعن ناكثًا؛ فإن الله سبحانه يقول: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح : ١٠]"^(٩).

عن محمد بن كعب، قال: "ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به؛ من مكر، أو بغي، أو نكث. ثم قرأ: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس : ٢٣]، {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح : ١٠]"^(١٠).

عن مكحول -من طريق العلاء بن الحارث- قال: "أربع من كُنَّ فيه كُنَّ له، وثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه؛ فأما الأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان والدعاء، والاستغفار، قال الله تعالى:

(١) تفسير التستري: ٣٢٩/٥-٣٣٠.

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٧، ورواه ابن مردويه كما في الجامع الصغير، ورمز له السيوطي بالضعف.

(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٢٣٠/٧، ورواه الترمذي في السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: "يشهد على من استلمه بالحق" ولم يذكر الآية، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن".

(٤) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٥) تفسير الطبري: ٢١٠/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٧.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٢٢/٣.

(٨) معاني القرآن: ٢٢/٥.

(٩) تفسير إسحاق البستي(٤٢٩):ص١٧٥/٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٠٢٠):ص٣١٨٧/١٠.

{ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} [النساء: ١٤٧]، وقال: {وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون} [الأنفال: ٣٣]، وقال: {ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم} [الفرقان: ٧٧]، وأما الثلاث اللاتي عليه، فالمكر، والبغي، والنكت، قال الله تعالى: {ومن نكت فإنما ينكت على نفسه} [الفتح: ١٠]، وقال: {ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله}، وقال: {إنما بغيكم على أنفسكم} [يونس: ٢٣]"^(١).

قوله تعالى: {وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ١٠]، أي: "ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فسيعطيه الله ثوابًا جزيلا وهو الجنة"^(٢).

قال الطبري: يقول: "ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم على أعدائه، فسيعطيه الله ثوابا عظيما، وذلك أن يدخله الجنة جزاء له على وفائه بما عاهد عليه الله، ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأس بالمؤكدة من الأيمان"^(٣).

قال القشيري: "أي: من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجرا عظيما"^(٤).

عن قتادة: "فسيؤتيه أجرا عظيما، وهي الجنة"^(٥).

قال الواحدي: "يعني: الجنة فما فوقها"^(٦).

قال ابن كثير: "أي: ثوابًا جزيلا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسائة. والأوسط أصح"^(٧).

عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة"^(٨).

وقال جابر: "كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم"^(٩).

وفي رواية: "ف قيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا"^(١٠).

وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا "خمس عشرة مائة"^(١١).

وفي حديث قتادة: "قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة"^(١٢).

قال البيهقي: "هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة"^(١٣).

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ / ١٨١ - ١٨٢، وابن عساكر في تاريخه ٦٠ / ٢٢٥. وفي الدر عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والبغي والنكت، قال الله: {إنما بغيكم على أنفسكم} [يونس: ٢٣].

(٢) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٣) تفسير الطبري: ٢١٠/٢٢.

(٤) لطائف الإشارات: ٤٢٢/٣.

(٥) أخرجه الطبري: ٢١٠/٢٢.

(٦) التفسير الوسيط: ١٣٦/٤.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٧.

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(٩) صحيح البخاري برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(١٠) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٦٣٩).

(١١) صحيح البخاري برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

(١٢) صحيح البخاري برقم (٤١٥٣).

(١٣) دلائل النبوة للبيهقي: ٩٧/٤.

عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، قالاً: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمئة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة"^(١).

فوائد الآيات: [٨-١٠]:

- ١- تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والإعلان عن شرفه وعلو مقامه.
- ٢- وجوب الإيمان بالله ورسوله ووجوب نصرته الرسول وتعظيمه -صلى الله عليه وسلم-.
- ٣- وجوب تسبيح الله وهو تنزيهه عن كل ملا يليق بجلاله وكماله مع الصلاة ليلاً ونهاراً.
- ٤- وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقض العهد ونكثه.

القرآن

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [الفتح : ١١]

التفسير:

سيقول لك -أيها النبي- الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك إلى «مكة» إذا عاتبتهم: شغلنا أموالنا وأهلونا، فاسأل ربك أن يغفر لنا تخلفنا، يقولون ذلك بالسنتهم، ولا حقيقة له في قلوبهم، قل لهم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم شرّاً أو خيراً؟ ليس الأمر كما ظن هؤلاء المنافقون أن الله لا يعلم ما انطوت عليه بواطنهم من النفاق، بل إنه سبحانه كان بما يعملون خبيراً، لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه.

سبب النزول:

قال مقاتل: "وذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- مر بهم فاستنفرهم، فقال بعضهم لبعض: إن محمداً وأصحابه أكلة رأس لأهل مكة لا يرجع هو وأصحابه أبداً فآين تذهبون؟ أتقتلون أنفسكم؟ انتظروا حتى تنظروا ما يكون من أمره، فأنزل الله- عز وجل- لقولهم له قالوا: {شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا}"^(٢).

قوله تعالى: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} [الفتح : ١١]، أي: "سيقول لك -أيها النبي- الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك إلى «مكة» إذا عاتبتهم"^(٣).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: سيقول لك يا محمد الذين خلفهم الله في أهلهم عن صحبتك، والخروج معك في سفرك الذي سافرت، ومسيرك الذي سرت إلى مكة معتمراً، زائراً بيت الله الحرام إذا انصرفت إليهم، فعاتبتهم على التخلف عنك"^(٤).

قال مقاتل: "وهم مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع، وكانت منازلهم بين مكة والمدينة"^(٥).

قال الفراء: أي: "الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْحَدِيثِ.. وهم أعراب: أسلم، وجهينة، ومزينة، وغفار- ظنوا أن لن ينقلب رسول الله صلى الله عليه، فتخلفوا"^(٦).
قال الحسن: "يعني: المنافقين المتخلفين عن الجهاد"^(٧).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٨/٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧١/٤.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢١١/٢٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧١-٧٠/٤.

(٦) معاني القرآن: ٦٥/٣.

(٧) حكاة عنه ابن أبي زمنين في التفسير: ٢٥٢/٤.

قوله تعالى: {شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} [الفتح : ١١]، أي: "شغلنا أموالنا وأهلونا، فاسأل ربك أن يغفر لنا تخلفنا"^(١).

قال الطبري: أي: "شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا، وإصلاح معاشنا وأهلونا، فاستغفر لنا ربنا لتخلفنا عنك.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عنه حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر العرب ومن حول مدينته من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه حذرا من قومه قريش أن يعرضوا له الحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم بالعمرة، وساق معه الهدى، ليعلم الناس أنه لا يريد حربا، فتناقل عنه كثير من الأعراب، وتخلفوا خلفه فهم الذين عسى الله تبارك وتعالى بقوله: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا}... الآية"^(٢).

عن مجاهد، قوله: "{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا}" قال: أعراب المدينة: جهينة ومزينة، استتبعهم لخروجه إلى مكة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه، فقتلوا أصحابه فنقاتلهم! فاعتلوا بالشغل"^(٣).

قال الزجاج: "{شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا}"، أي: ليس لنا من يقوم بها، {وَأَهْلُونَا}، أي: وشغلنا أهلونا، ليس لنا من يخلفنا فيهم"^(٤).

قال النحاس: "أي: ليس لنا من يحفظ أموالنا ويقوم بأهلينا"^(٥).

قال ابن أبي زمنين: أي: "خفنا عليهم الضيعة، فذلك الذي منعنا أن نكون معك في الجهاد"^(٦).

قال سهل: "اعتذروا به، فحكاه الله لك لتعلم أن الإقبال على الله عز وجل بترك الدنيا وما فيها، فإنها تشغل عن الله ألا ترى المنافقين كيف اعتذروا بقولهم: {شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا}"^(٧).

قوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح : ١١]، أي: "يقولون ذلك بألسنتهم، ولا حقيقة له في قلوبهم"^(٨).

قال الطبري: "قال الله جل ثناؤه مكذبهم في قيلهم ذلك: يقول هؤلاء الأعراب المخلفون عنك بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وذلك مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار لهم، يقول: يسألونه بغير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من معصية الله في تخلفهم عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسير معه"^(٩).

قال مقاتل: "لا يباليون استغفر لهم النبي- صلى الله عليه وسلم- أم لا"^(١٠).

قال ابن كثير: "ذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة"^(١١).

قال ابن أبي زمنين: "أي: يعتذرون بالباطل"^(١٢).

قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} [الفتح : ١١]، أي: "قل لهم: فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم شرًّا أو خيرا؟"^(١٣).

(١) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٢) تفسير الطبري: ٢١١/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢١٢/٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٢٣/٥.

(٥) معاني القرآن: ٥٠٢/٦.

(٦) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٢/٤.

(٧) تفسير التستري: ١٤٨.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٩) تفسير الطبري: ٢١١/٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧١/٤.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

(١٢) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٢/٤.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٢.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه: قل لهؤلاء الأعراب الذين يسألونك أن تستغفر لهم تخلفهم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعاً ببنتميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شر، والله لا يعازره أحد، ولا يغالبه غالب"^(١).

قال مقاتل: " {إن أراد بكم ضراً}، يعنى: الهزيمة، {أو أراد بكم نفعاً}، يعنى: الفتح والنصر، .. يقول: فمن يملك دفع الضر عنكم، أو منع النفع غير الله"^(٢).

قال ابن أبي زمنين: " {أراد بكم ضراً}، أن يهلككم بنفاقكم فيدخلكم النار، {أو أراد بكم نفعاً}، أن يرحمكم بإيمان يمن به عليكم، وقد أخبر نبيه بعد هذه الآية أنه لا يتوب عليهم في قوله: {لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [المنافقون : ٦]"^(٣).

قال ابن كثير: " أي : لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس"^(٤).
قوله تعالى: {بَلْ كَانِ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [الفتح : ١١]، أي: " ليس الأمر كما ظن هؤلاء المنافقون أن الله لا يعلم ما انطوت عليه بواطنهم من النفاق، بل إنه سبحانه كان بما يعملون خبيراً، لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه"^(٥).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يظن هؤلاء المنافقون من الأعراب أن الله لا يعلم ما هم عليها منطون من النفاق، بل لم يزل الله بما يعملون من خير وشر خبيراً، لا تخفى عليه شيء من أعمال خلقه، سرها وعلانياتها، وهو محصياها عليهم حتى يجازيهم بها"^(٦).
قال مقاتل: " {خبيراً} في تخلفكم وقولكم : إن محمداً وأصحابه كلفوا شيئاً لا يطيقونه، ولا يرجعون أبداً"^(٧).

قال ابن كثير: " أي: وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتونا وتابعتونا"^(٨).

القرآن

{بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [الفتح : ١٢]
التفسير:

وليس الأمر كما زعمتم من انشغالكم بالأموال والأهل، بل إنكم ظننتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه سيهلكون، ولا يرجعون إليكم أبداً، وحسن الشيطان ذلك في قلوبكم، وظننتم ظناً سيئاً أن الله لن ينصر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أعدائهم، وكنتم قوماً هلكى لا خير فيكم.

قوله تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [الفتح : ١٢]، أي: " وليس الأمر كما زعمتم من انشغالكم بالأموال والأهل، بل إنكم ظننتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه سيهلكون، ولا يرجعون إليكم أبداً"^(٩).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لهؤلاء الأعراب المعتذرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من سفره إليهم بقولهم: {شَعَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا} ما تخلفتم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شخص عنكم، وقعدتم عن صحبتته من أجل شغلكم بأموالكم

(١) تفسير الطبري: ٢٢/٢١١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٧١.

(٣) تفسير ابن أبي زمنين: ٤/٢٥٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٧/٣٣٧.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٦) تفسير الطبري: ٢٢/٢١١.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٧١.

(٨) تفسير ابن كثير: ٧/٣٣٧.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٢.

وأهلبيكم، بل تخلفتم بعده في منازلكم، ظنا منكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعون إليكم أبدا باستئصال العدو إياهم" (١).

قال ابن كثير: "أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}، أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتتأصل شأفتهم وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخير" (٢).

قال الزجاج: "أعلم الله - عز وجل - أنهم تخلفوا عن الخروج مع النبي - صلى الله عليه وسلم - بظنهم ظن السوء، فأطلع الله نبيه على ذلك" (٣).

قال قتادة: "ظنوا بنبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك، وأنهم سيهلكون، فذلك الذي خلفهم عن نبي الله صلى الله عليه وسلم" (٤).

قال ابن جريج: "نافق القوم" (٥).

قوله تعالى: {وَرَبُّنَا الَّذِي فِي قُلُوبِكُمْ} [الفتح: ١٢]، أي: "وحسن الشيطان ذلك في قلوبكم" (٦).

قال الطبري: أي: "وحسن الشيطان ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم حتى حسن عندكم التخلف عنه، ففعدتم عن صحبتته" (٧).

قوله تعالى: {وَوَدَّعَيْنَا لَظَنَ السَّوْءِ} [الفتح: ١٢]، أي: "وظننتم ظنا سيئا أن الله لن ينصر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أعدائهم" (٨).

قال الطبري: "يقول: وظننتم أن الله لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدو سيقهرورنهم ويغلبونهم فيقتلونهم" (٩).

قال مقاتل: "حين زين لهم في قلوبهم وأياسهم أن محمدا وأصحابه لا يرجعون أبدا نظيرها في الأحزاب: {وَوَدَّعَيْنَا لَظَنَ السَّوْءِ} [الأحزاب: ١٠]، يعني: الإياسة من النصير" (١٠).

عن ابن جريج: "وظننتم ظن السوء" أن لن ينقلب الرسول" (١١).

قوله تعالى: {وَوَدَّعَيْنَا لَظَنَ السَّوْءِ} [الفتح: ١٢]، أي: "وكنتم قوما هلكي لا خير فيكم" (١٢).

قال الطبري: "يقول: وكنتم قوما هلكي لا يصلحون لشيء من خير" (١٣).

قال مقاتل: "يعني: هلكي بلغة عمان، مثل قوله: {وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ} [إبراهيم: ٢٨]، أي: دار الهلاك، ومثل قوله: {تَجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]، يعني: لن تهلك" (١٤).

قال ابن كثير: "قوما بورا"، أي: هلكي" (١٥).

عن مجاهد، قوله: "وَوَدَّعَيْنَا لَظَنَ السَّوْءِ" قال: هالكين" (١٦).

عن قتادة، قوله: "وَوَدَّعَيْنَا لَظَنَ السَّوْءِ" قال: فاسدين" (١).

(١) تفسير الطبري: ٢١٣/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

(٣) معاني القرآن: ٢٣/٥.

(٤) أخرجه الطبري: ٢١٣/٢٢.

(٥) الدر المنثور: ٥١٩/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٧) تفسير الطبري: ٢١٣/٢٢.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٩) تفسير الطبري: ٢١٣/٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧١/٤.

(١١) الدر المنثور: ٥١٩/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٢.

(١٣) تفسير الطبري: ٢١٣/٢٢.

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٢-٧١/٤.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

(١٦) أخرجه الطبري: ٢١٤/٢٢.

قال ابن عباس: "البور -في لغة أزد عمان-: الفاسد"^(٢).
 قال الزجاج: "أي: هالكين عند الله - عز وجل - فاسدين في علمه"^(٣).
 قال ابن زيد: "البور: الذي ليس فيه من الخير شيء"^(٤).
 قال السمعاني: "قيل: بورا: فاسدة قلوبهم، لا محسنين ولا متقين"^(٥).
 قال الفراء: "البور في كلام العرب: لا شيء، يقال: أصبحت أعمالهم بورا، ومساكنهم قبورا"^(٦).
 قال ابن أبي زمنين: "البور في بعض اللغات: الفاسد، يقال: أصبحت أعمالهم بورا؛ أي: مبطلة، وأصبحت ديارهم بورا؛ أي: معطلة خرابا"^(٧).

القرآن

{وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣)} [الفتح : ١٣]
 التفسير:

ومن لم يصدق بالله وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ويعمل بشرعه، فإنه كافر مستحق للعقاب، فإننا أعدنا للكافرين عذاب السعير في النار.
 قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الفتح : ١٣]، أي: "ومن لم يصدق بالله وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ويعمل بشرعه، فإنه كافر مستحق للعقاب"^(٨).
 قال مقاتل: "يعني: بصدق بتوحيد الله ورسوله محمدا- صلى الله عليه وسلم-"^(٩).
 قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين من الأعراب، ومن لم يؤمن أيها الأعراب بالله ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدق على ما أخبر به، ويقر بما جاء به من الحق من عند ربه"^(١٠).
 قال ابن كثير: "أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله"^(١١).
 قوله تعالى: {فإننا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا} [الفتح : ١٣]، أي: "فإننا أعدنا للكافرين عذاب السعير في النار"^(١٢).
 قال الطبري: يقول: "فإننا أعدنا لهم جميعا سعيرا من النار تستعر عليهم في جهنم إذا وردوا يوم القيامة؛ يقال من ذلك: سعرت النار: إذا أوقدتها، فأنا أسعرها سعرا؛ ويقال: سعرتها أيضا إذا حرقتها. وإنما قيل للمسعر مسعرا، لأنه يحرك به النار، ومنه قولهم: إنه لمسعر حرب: يراد به موقدها ومهيجها"^(١٣).
 قال ابن كثير: أي: "فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر"^(١٤).
 قال مقاتل: {سعيرا} يعني: وقودا"^(١).

(١) أخرجه الطبري: ٢١٤/٢٢.

(٢) رواه الفراء في معاني القرآن: ٦٦/٣.

(٣) معاني القرآن: ٢٣/٥.

(٤) أخرجه الطبري: ٢١٤/٢٢.

(٥) تفسير السمعاني: ١٩٦/٥.

(٦) رواه الفراء في معاني القرآن: ٦٦/٣.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٢/٤.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٢/٤.

(١٠) تفسير الطبري: ٢١٤/٢٢.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٢.

(١٣) تفسير الطبري: ٢١٤/٢٢.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

عن أبي مالك قوله: " {سعيرا}، يعني: وقوداً" (٢).
قال سعيد بن جبير: "السعير: وادي من فيح في جهنم" (٣).
قال ابن عباس: "السعير: هو الطبقة السادسة من جهنم" (٤).

القرآن

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا
[١٤ : الفتح : ١٤]}

التفسير:

ولله ملك السموات والأرض وما فيهما، يتجاوز برحمته عن من يشاء فيستر ذنبه، ويعذب بعدله من يشاء. وكان الله سبحانه وتعالى غفوراً لمن تاب إليه، رحيماً به.
قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح : ١٤]، أي: "ولله ملك السموات والأرض وما فيهما" (٥).

قال الطبري: يقول: "ولله سلطان السموات والأرض" (٦).
قال مقاتل: "فعظم نفسه وأخبر أنه غني عن عباده" (٧).
قال ابن كثير: "بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض" (٨).
قوله تعالى: {يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [الفتح : ١٤]، أي: "يتجاوز برحمته عن من يشاء فيستر ذنبه، ويعذب بعدله من يشاء" (٩).

قال مجاهد: "يعفو لمن يشاء الكبير من الذنوب، يعذب من يشاء على الصغير" (١٠).
قال سفيان: "يعفو لمن يشاء العظيم، ويعذب من يشاء على الصغير" (١١).
قال الطبري: يقول: "وهذا من الله جل ثناؤه حتّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله يعفو للتائبين" (١٢).

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفتح : ١٤]، أي: "وكان الله سبحانه وتعالى غفوراً لمن تاب إليه، رحيماً به" (١٣).
قال الطبري: "يقول: ولم يزل الله ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم" (١٤).
قال ابن كثير: "أي: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه" (١٥).

-
- (١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٢/٤.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٨٩): ص ٩٨٢/٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٩٠): ص ٩٨٢/٣.
(٤) حكاه عنه السمعاني في التفسير: ١٩٦/٥. وفي حكي الواحدي في التفسير البسيط ٤٣٢/٢٢، عن ابن عباس في تفسير قوله: {سَأْصَلِّيهِ سَقَرًا} [المدثر: ٢٦]، قال: "وهي الطبقة السادسة من جهنم". وحكي أيضا في المصدر نفسه صفحة: ١٢٣/٢١، عن عطاء، قال: "سقر الطبقة السادسة من جهنم".
(٥) التفسير الميسر: ٥١٢.
(٦) تفسير الطبري: ٢١٤/٢٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٢/٤.
(٨) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.
(٩) التفسير الميسر: ٥١٢.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٦٧)، و (٣٠٦٩): ص ٥٧٥/٢.
(١١) تفسير مجاهد: ٣٠٤، وتفسير ابن المنذر (١٧٢): ص ٩٨/١.
(١٢) تفسير الطبري: ٢١٥/٢٢.
(١٣) التفسير الميسر: ٥١٢.
(١٤) تفسير الطبري: ٢١٥/٢٢.
(١٥) تفسير ابن كثير: ٣٣٧/٧.

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب ، ويرحم العباد ، على ما فيهم" (١).

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس: " أن الله تبارك وتعالى إنما سمي نفسه «العفو»، ليعفو، و«الغفور»، ليغفر" (٢).

فوائد الآيات: [١٠-١٤]:

١- إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك دال على أنه كلام الله أوحاه إلى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- لا يملك النفع ولا الضر على الحقيقة إلا الله ولذا وجب أن لا يطمع إلا فيه، ولا يرهب إلا منه.

٣- حرمة ظن السوء في الله عز وجل، ووجوب حسن الظن به تعالى.

٤- الكفر موجب لعذاب النار، ومن تاب تاب الله عليه، ومن طلب المغفرة بصدق غفر له.

٥- ذم التخلف عن المسابقة في الخيرات والمنافسة في الصالحات.

القرآن

{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُؤْتِنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)}

[الفتح : ١٥]

التفسير:

سيقول المخلفون، إذا انطلقت -أيها النبي- أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها، اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»، يريدون أن يغيروا بذلك وعد الله لكم. قل لهم: لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا، فسيقولون: ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسداً منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة، وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيراً.

قوله تعالى: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ} [الفتح : ١٥]، أي: " سيقول المخلفون، إذا انطلقت -أيها النبي- أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها، اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»" (٣).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سيقول يا محمد المخلفون في أهلكم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبتك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة {لِتَأْخُذُوهَا} وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر {ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ} إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها" (٤).

قال ابن أبي زمنين: " وهذا حين أرادوا أن يخرجوا إلى خيبر أحبوا الخروج ليصيبوا من الغنيمة، وقد كان الله وعدّها النبي صلى الله عليه وسلم فلم يترك صلى الله عليه وسلم أحداً من المنافقين يخرج معه إلى خيبر أمره الله بذلك، وإنما كانت لمن شهد بيعة الرضوان يوم" (٥).

قال القشيري: " وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خيبر، وأنّ فيها سيظفر بأعدائه، فلما هم بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة" (٦).

(١) أخرجه الطبري (٧٨٢٢): ص ٢٠٣/٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٧٩): ص ٩٦٣/٣.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢١٥/٢٢.

(٥) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٣/٤.

(٦) لطائف الإشارات: ٤٢٥/٣.

قال مجاهد: " ورجع النبي صلى الله عليه وسلم وقد وعده الله عز وجل مغنم كثيرة، وعجل له خير، وقال المخلفون: ذرونا نتبعكم، وهي المغنم التي قال الله عز وجل: {إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا نتبعكم} [الفتح: ١٥]"^(١).

قال سفيان: " أعراب مزينة وجهينة"^(٢).
قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥]، أي: " يريدون أن يغيروا بذلك وعد الله لكم"^(٣).

قال الطبري: " يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئا"^(٤).

وفي قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥]، وجهان من التفسير: أحدهما: ما وعد الله نبيه من النصر والفتح حين ظنوا ظن السوء بأنه يهلك أو لا يظفر، قاله مجاهد^(٥)، وقتادة^(٦)، ومقسم^(٧).

قال الزمخشري: أي: " أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعرضهم من مغنم مكة مغنم خيبر إذا قفلوا مواعين لا يصيبون منهم شيئا"^(٨).

قال مجاهد: " رجع، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة، فوعده الله مغنم كثيرة، فعجلت له خير، فقال المخلفون: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} وهي المغنم ليأخذوها، التي قال الله جل ثناؤه: {إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا} وعرض عليهم قتال قوم أولي بأس شديد"^(٩).

قال مقسم: "لما وعدهم الله أن يفتح عليهم خيبر، وكان الله قد وعدها من شهد الحديبية لم يعط أحدا غيرهم منها شيئا، فلما علم المنافقون أنها الغنيمة قالوا: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}، يقول: ما وعدهم"^(١٠).

قال قتادة: " وهم الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية. ذكر لنا أن المشركين لما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية عن المسجد الحرام والهدى، قال المقداد: يا نبي الله، إنا والله لا نقول كالملا من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون؛ فلما سمع ذلك أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم تبايعوا على ما قال؛ فلما رأى ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا، ورجع من عامه ذلك"^(١١).

الثاني: يعني: قوله: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة: ٨٣]، حين سأله الخروج معه لأجل المغنم بعد امتناعهم منه وظن السوء، قاله ابن زيد^(١٢)، وبه قال الزجاج^(١٣).

قال الزجاج: " ولو كان الكلام نهيا لقال: قل لا تتبعونا"^(١).

(١) تفسير مجاهد: ٦٠٧.

(٢) تفسير إسحاق البستي (٩٢٢): ص ٣٦٨/٢.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢١٥/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٢١٥/٢٢-٢١٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢١٦/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٢١٦/٢٢.

(٨) الكشف: ٣٣٧/٤.

(٩) أخرجه الطبري: ٢١٥/٢٢-٢١٦.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢١٦/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢١٦/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢١٦/٢٢-٢١٧.

(١٣) انظر: معاني القرآن: ٢٣/٥-٢٤.

قال ابن زيد: "أرادوا أن يغيروا كلام الله الذي قال لنبية صلى الله عليه وسلم ويخرجوا معه، وأبى الله ذلك عليهم ونبية صلى الله عليه وسلم"^(٢).

قال الطبري: "وهذا الذي قاله ابن زيد قول لا وجه له، لأن قول الله عز وجل: ﴿فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إنما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك، وعُني به الذين تخلفوا عنه حين توجه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة أيضا، فكيف يجوز أن يكون الأمر على ما وصفنا معنيا بقول الله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ وهو خير عن المتخلفين عن المسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ شخص معتمرا يريد البيت، فصده المشركون عن البيت، الذين تخلفوا عنه في غزوة تبوك، وغزوة تبوك لم تكن كانت يوم نزلت هذه الآية، ولا كان أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، فإذا كان ذلك كذلك، فالصواب من القول في ذلك: ما قاله مجاهد وقَتادة"^(٣).

وقرى «كلم الله» بغير ألف، بمعنى جمع كلمة^(٤).
قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح : ١٥]، أي: "قل لهم: لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا"^(٥).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد: لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم لقتالهم، كذا قال الله لنا من قبل مَرَجَعْنَا إِلَيْكُمْ، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر، لأن غنيمتها لغيركم"^(٦).

قال قتادة: "أي: إنما جعلت الغنيمة لأهل الجهاد، وإنما كانت غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب"^(٧).

قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونُنَا﴾ [الفتح : ١٥]، أي: "فسيقولون: ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسداً منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة"^(٨).

قال الطبري: "أي: أن نصيب معكم مغنما إن نحن شهدنا معكم، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم"^(٩).

قال ابن أبي زمنين: "أي: إنما تمنعوننا من الخروج معكم للحسد"^(١٠).
قال القشيري: "فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حسداً لنا وليس هذا من قول الله! فأنزل الله تعالى ذلك لتكذيبهم، وليبين حكمه ألا يستصحبهم فهم أهل طمع، وكانت عاقبتهم أنهم لم يجدوا مرادهم، وردوا بالمذلة وافترض أمرهم"^(١١).

عن ابن زيد، قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونُنَا﴾، أن نصيب معكم غنائم"^(١٢).

(١) معاني القرآن: ٢٤/٥.

(٢) أخرجه الطبري: ٢١٦/٢٢-٢١٧.

(٣) تفسير الطبري: ٢١٧/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢١٧/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٦) تفسير الطبري: ٢١٧/٢٢-٢١٨.

(٧) أخرجه الطبري: ٢١٨/٢٢.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٩) تفسير الطبري: ٢١٨/٢٢.

(١٠) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٣/٤.

(١١) لطائف الإشارات: ٤٣٥/٣.

(١٢) أخرجه الطبري: ٢١٨/٢٢.

قوله تعالى: {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الفتح : ١٥]، أي: "وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيراً"^(١).
 قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم إنما تمنعونهم من اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنماً، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وعليهم من أمر الدين إلا قليلاً يسيراً، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسول الله والمؤمنين به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذكره أنه حرمهم غنائم خيبر، إنما تمنعوننا من صحبتكم إليها لأنكم تحسدوننا"^(٢).
 قال الزمخشري: أي: "لا يفهمون إلا فهماً قليلاً وهو فطنتهم لأمر الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}"^(٣).
 قال الماتريدي: "الفقه: هو الاستدلال بما عرفوه وشهدوه على الذي لم يعلموه وغاب عنهم؛ يخبر أن هؤلاء لا يعرفون الاستدلال، وقال بعضهم: الفقه هو معرفة الشيء بنظيره الدال على غيره"^(٤).
 فوائد الآية الكريمة:

- ١- وعد الله رسوله والمؤمنين بغنائم خيبر وهم في طريقهم من الحديبية إلى المدينة وإنجازه لهم دال على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته وكلها موجبة للإيمان والتوحيد وحب الله والرغبة إليه والرغبة منه.
- ٢- بيان حيرة الكافر واضطراب نفسه وتخطب قوله وعمله.
- ٣- ذم الجهل وتقبیحه إنه ينس الوصف بوصف به المرء، ولذا لا يرضاه حتى الجاهل بنفسه فلو قلت لجاهل: يا جاهل لا تفعل كذا أو لا تقل كذا.. لغضب عليك.

القرآن

{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)} [الفتح : ١٦] :
 التفسير:

قل للذين تخلفوا من الأعراب - وهم البدو - عن القتال: سُدُّعُونَ إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال، تقاتلونهم أو يسلمون من غير قتال، فإن تطيعوا الله فيما دعاكم إليه من قتال هؤلاء القوم يؤتكم الجنة، وإن تعصوه كما فعلتم حين تخلفتم عن السير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «مكة»، يعذبكم عذاباً موجعاً.

قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح : ١٦]، أي: "قل للذين تخلفوا من الأعراب - وهم البدو - عن القتال: سُدُّعُونَ إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال"^(٥).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم {قُلْ} يا محمد {لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ} عن المسير معك، {سُدُّعُونَ إِلَى} قتال {قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ} في القتال {شَدِيدٍ}"^(٦).

قال ابن الجوزي: أي: "إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فسُدُّعُونَ إلى جهاد قوم أولي بأس شديد"^(٧).

(١) التفسير الميسر: ٥١٢.

(٢) تفسير الطبري: ٢١٨/٢٢.

(٣) الكشاف: ٣٣٨/٤.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٣٠٤/٩.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٦) تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

قال ابن عطية: "أمر الله نبيه عليه السلام بالتقدمة إلى هؤلاء المخلفين بأنهم سيؤمرون بقتال عدو بئس، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام، وإلا فلم يكونوا أهلاً لهذا الأمر"^(٢).

قال الزجاج: "المعنى: أن كل من ظاهره الإسلام فعلى أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم إلى الجهاد، والصحابة لم يطلعوا في وقت الجهاد على من يقاتل ومن لا يقاتل، ولا على من ينافق ومن لا ينافق، لأن الإظهار على ذلك من آيات الأنبياء عليهم السلام"^(٣).

واختلف أهل التفسير في القوم المشار إليهم في قوله تعالى: {سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح : ١٦]، على أقوال:

أحدها : أنهم أهل فارس ، قاله ابن عباس^(٤)، ومجاهد^(٥)، وعطاء بن أبي رباح^(٦)، وعطاء الخراساني^(٧)، وعبد الرحمن بن أبي ليلى^(٨)، وابن جريج^(٩)، ومجاهد^(١٠).

قال ابن جريج: "دعاهم عمر رضي الله عنه إلى قتال فارس"^(١١).

قال القشيري: "قيل هم أهل فارس- وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربههم فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر"^(١٢).

الثاني : أنهم الروم. قاله كعب^(١٣).

قال ابن عطية: "وهم الذين خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة"^(١٤).

قال السمعاني: "ومعهم الملحمة الكبرى في آخر الزمان"^(١٥).

الثالث : فارس والروم ، قاله الحسن^(١٦)، ومجاهد^(١٧)، وعبد الرحمن بن أبي ليلى^(١٨)، وابن زيد^(١٩).

قال الحسن: "دُعُوا إِلَى فِارِسٍ وَالرُّومِ"^(٢٠).

قال الزجاج: "وذلك في أيام أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما ومن بعدهم"^(٢١).

الرابع : أنهم أهل الأوثان. رواه ليث عن مجاهد^(٢٢).

(١) زاد المسير: ١٣١/٤.

(٢) المحرر الوجيز: ١٣٢/٥.

(٣) معاني القرآن: ٢٤/٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

(٦) حكاه عنه الثعلبي: ٤٦/٩، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

(٧) حكاه عنه الثعلبي: ٤٦/٩، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

(٨) حكاه عنه الثعلبي: ٤٦/٩، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

(٩) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

(١٠) حكاه عنه الثعلبي: ٤٦/٩. بدون إسناد.

(١١) حكاه عنه البيهقي في التفسير: ٣٠٣/٧. بدون إسناد.

(١٢) لطائف الإشارات: ٤٢٥/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.

(١٤) المحرر الوجيز: ١٣٢/٥.

(١٥) تفسير السمعاني: ١٩٨/٥.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

(١٧) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

(١٩) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩/٢٢.

(٢٠) أخرجه الطبري: ٢١٩/٢٢.

(٢١) معاني القرآن: ٢٤/٥.

(٢٢) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٢/٤. بدون إسناد.

الخامس : هوازن. قاله عكرمة^(١).
السادس : هوازن وثقيف. قاله سعيد بن جبير^(٢)، وعكرمة^(٣)، وقتادة^(٤).
قال قتادة: " فدعوا يوم حنين إلى هوازن وثقيف فمنهم من أحسن الإجابة ورغب في
الجهاد"^(٥).

السابع : هوازن وغطفان يوم حنين. قاله قتادة^(٦).
الثامن : بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب ، قاله الزهري^(٧)، ومقاتل^(٨).
قال مقاتل: " يعني: أهل اليمامة، بني حنيفة: مسيلمة بن حبيب الكذاب الحنفي وقومه،
دعاهم أبو بكر- رضي الله عنه- إلى قتال أهل اليمامة يعني هؤلاء الأحياء الخمسة جهينة
ومزينة وأشجع وغفار وأسلم"^(٩).

قال السمعاني: " أصح الأقاويل أنهم بنو حنيفة، لأن الله تعالى يقول: {تقاتلونهم أو
يسلمون}، ومعناه: أو يسلموا، وهذا إنما يكون في المرتدين الذين لا يجوز أخذ الجزية منهم،
فإنما المجوس والنصارى فيجوز أخذ الجزية منهم.. وكان ذلك الحرب حربا شديدا على
المسلمين، استشهد فيه كثير من الصحابة، ويقال: استشهد فيه سبعمائة نفر من أصحاب رسول
الله فيهم زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وعكاشة بن محصن"^(١٠).

قال رافع بن خديج: " والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى: {ستدعون إلى قوم أولي
بأس شديد}، فلا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم
هم"^(١١).

قال الماتريدي: " قوله - تعالى - : {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا}؛ يدل على إمامة أبي بكر - رضي
الله عنه - لأنه كان الداعي إلى حرب أهل الردة"^(١٢).

قال القشيري: " جاء في التفسير أنهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة- وقد دعاهم أبو بكر
وحاربهم، فالآية تدل على إمامته"^(١٣).

التاسع : أنهم قوم لم يأتوا بعد ، قاله أبو هريرة^(١٤)، والزهري^(١٥).
قال أبو هريرة: " لم تأت هذه الآية"^(١٦).

العاشر: أنهم البارزون، أي: الأكراد. قاله أبو هريرة^(١٧).
عن ابن أبي خالد عن أبيه قال : "نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله صلى الله
عليه وسلم : «تقاتلون قوماً نعالهم الشَّعْرُ»، قال : هم البارزون، يعني: الأكراد"^(١٨).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٥) أخرجه الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.
 - (٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣-٧٢/٤.
 - (٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣-٧٢/٤.
 - (١٠) تفسير السمعاني: ١٩٩-١٩٧/٥.
 - (١١) نقلا عن: الكشف والبيان: ٤٦/٩.
 - (١٢) تأويلات أهل السنة: ٥٤٢/٣.
 - (١٣) لطائف الإشارات: ٤٢٥/٣.
 - (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.
 - (١٥) رواه عنه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٣٩-٣٣٨/٧.
 - (١٦) أخرجه الطبري: ٢٢١/٢٢.
 - (١٧) رواه عنه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.
 - (١٨) رواه عنه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧، وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الأنف، كان وجوههم المجان المطرقة". قال سفيان : هم الترك" (١).
قال الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحروب، ولم يوضع لنا الدليل من خير ولا عقل على أن المعنى بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عني بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عني بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جل ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد" (٢).

قال السمعاني: " فإن قيل: ذكر في هذه الآية قوله: {سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح : ١٦]، وقال في آية أخرى: {لَنْ تَحْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة : ٨٣]، وإنما قاتلوا مع أبي بكر وعمر ولم يقاتلوا مع الرسول" (٣).
قوله تعالى: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ} [الفتح : ١٦]، أي: " تقاتلونهم أو يسلمون من غير قتال" (٤).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره للمخلفين من الأعراب تقاتلون هؤلاء الذين تدعون إلى قتالهم، أو يسلمون من غير حرب ولا قتال" (٥).

قال ابن أبي زمنين: " أي: تقاتلونهم على الإسلام" (٦).
قال البيضاوي: " أي: يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير" (٧).
قال ابن كثير: " يعني : يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصره عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار" (٨).
وقرى: «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يَسَلِّمُوا» (٩).

قوله تعالى: {فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا} [الفتح : ١٦]، أي: " فإن تطيعوا الله فيما دعاكم إليه من قتال هؤلاء القوم يؤتكم الجنة" (١٠).

قال الطبري: " فإن تطيعوا الله في إجابته إياه إذا دعاكم إلى قتال هؤلاء القوم الأولي البأس الشديد، فتجيبوا إلى قتالهم والجهاد مع المؤمنين، يعطكم الله على إجابته إياه إلى حربهم الجنة، وهي الأجر الحسن" (١١).

قال الزجاج: " أي: إن تبتم وتركتم النفاق وجاهدتم. يؤتكم الله أجرا حسنا" (١٢).
قال مقاتل: " {فإن تطيعوا} أبا بكر إذا دعاكم إلى قتالهم {يؤتكم الله أجرا حسنا} في الآخرة، يعني: جزاء كريما في الجنة" (١).

المخرمي كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.
(١) رواه عنه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخاري في صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهري بإسناده : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كان وجوههم المجان المطرقة" ورواه البخاري في صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبي هريرة بنحوه.
(٢) تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.
(٣) تفسير السمعاني: ١٩٩/٥.
(٤) التفسير الميسر: ٥١٣.
(٥) تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.
(٦) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٢/٤.
(٧) تفسير البيضاوي: ١٢٩/٥.
(٨) تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.
(١٠) التفسير الميسر: ٥١٣.
(١١) تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢.
(١٢) معاني القرآن: ٢٤/٥.

قال القشيري: "فإن أطعتم استوجبتم الثواب، وإن تخلفتم استحققتكم العقاب"^(٢).
قال ابن كثير: "فإن طيعوا"، أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه،
{يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا}^(٣).

قوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٦]، أي: "وإن تعصوه كما فعلتم حين تخلفتم عن السير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «مكة»، يعذبكم عذابًا موجعًا"^(٤).

قال الطبري: "يقول: وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته وتخالفوا أمره، فنتركوا قتال الأولي البأس الشديد إذا دُعيتم إلى قتالهم كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، من قبل أن تُدعوا إلى قتال أولي البأس الشديد {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} يعني: وجيعا، وذلك عذاب النار على عصيانكم إياه، وترككم جهادهم وقتالهم مع المؤمنين"^(٥).

قال الزجاج: "وإن توليتم فأقمتم على نفاقكم، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما توليتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذبكم عذابا أليما"^(٦).

قال البغوي: "وإن تتولوا {تعرضوا {كما توليتم من قبل} عام الحديبية، {يعذبكم عذابا أليما} وهو النار"^(٧).

عن الكلبي: "وإن تتولوا كما توليتم من قبل، قال: يوم الحديبية"^(٨).

قال ابن كثير: "يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم"^(٩).

القرآن

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)} [الفتح:
١٧]

التفسير:

ليس على الأعمى منكم -أيها الناس- إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم، في أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين؛ لعدم استطاعتهم. ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن الجهاد مع المؤمنين، يعذبه عذابًا مؤلماً موجعاً.
سبب النزول:

عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه-؛ قال: "كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإني لو اضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال؛ إذ جاء أعمى، فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر؟! فنزلت: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٧]"^(١٠). [ضعيف]

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٢/٤-٧٣.

(٢) لطائف الإشارات: ٤٢٥/٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٥) تفسير الطبري: ٢٢١/٢٢-٢٢٢.

(٦) معاني القرآن: ٢٤/٥.

(٧) تفسير البغوي: ٢٠٣/٧.

(٨) نقلا عن: تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٢/٤.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.

(١٠) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٥٥ رقم ٤٩٢٦) من طريق لوين ثنا محمد بن جابر عن أبي فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد بن ثابت به.

وقال البغوي: " فلما نزلت هذه الآية [قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ] بأس شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح : ١٦]]، قال أهل الزمان: كيف بنا يا رسول الله؟ فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ} [الفتح : ١٧]"^(١).

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ} [الفتح : ١٧]، أي: "ليس على الأعمى منكم -أيها الناس- إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم، في أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين؛ لعدم استطاعتهم"^(٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوهم، للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها"^(٣). قال البغوي: "يعني: في التخلف عن الجهاد"^(٤).

قال الزمخشري: "نفي الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات في التخلف عن الغزو"^(٥). قال ابن كثير: "ذكر الأعداء في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطراً أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ"^(٦).

عن ابن زيد، قول: "{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ}"، قال: في الجهاد في سبيل الله"^(٧).

عن الضحاك، قوله: "{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ}"، ... الآية، يعني في القتال"^(٨). عن قتادة: "{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ}"، قال: هذا كله في الجهاد"^(٩).

قال قتادة: "ثم عذر الله أهل العذر من الناس، فقال: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ}"^(١٠).

قال ابن عطية: "لما بالغ عز وجل في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة لجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع، عقب ذلك بأن عذر أهل الأعداء من العرج والعمى والمرض جملة ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالفرض متوجه بحسب الوسع، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أحرى الناس بالصبر وأن لا يفر، وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية"^(١١).

وهذا سند ضعيف؛ فيه محمد بن جابر اليمامي؛ قال الحافظ في "التقريب" (١٤٩ / ٢): "صدوق، ذهب كتبه؛ فسأه حفظه، وخط كثيراً، وعمي؛ فصار يلقن".

قال الحافظ الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠٧ / ٧): "فيه محمد بن جابر السحيمي وهو ضعيف يكتب حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح". اهـ.

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٥٢١ / ٧): "أخرج الطبراني بسند حسن".

(١) تفسير البغوي: ٢٠٣/٧.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٣) تفسير الطبري: ٢٢٢/٢٢.

(٤) تفسير البغوي: ٢٠٣/٧.

(٥) الكشف: ٣٣٩/٤.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٢٢/٢٢-٢٢٣.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٢٣/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٢٢/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٢٢/٢٢.

(١١) المحرر الوجيز: ١٣٣/٥.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح : ١٧]، أي: "ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ومن يطع الله ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء الله من أهل الشرك، وإلى القتال مع المؤمنين ابتغاء وجه الله إذا دعي إلى ذلك، يُدخله الله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار"^(٢).

قال عطاء بن ابي رباح: "طاعة الله: إتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته"^(٣).

عن السدي: "جنات، قال: البساتين"^(٤).

قال مجاهد: "الجنات: حوائط"^(٥).

عن أبي مالك قوله: "تجري من تحتهم الأنهار"، يعني: تحت منازلهم وأرضهم"^(٦). قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزلت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعاً"^(٧).

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح : ١٧]، أي: "ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن الجهاد مع المؤمنين، يعذبه عذاباً مؤلماً موجعاً"^(٨).

قال الطبري: "يقول: ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن قتال أهل الشرك بالله إذا دعي إليه، ولم يستجب لدعاء الله ورسوله يعذبه عذاباً موجعاً، وذلك عذاب جهنم يوم القيامة"^(٩).

قال ابن كثير: "وَمَنْ يَتَوَلَّ" أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش {يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} في الدنيا بالمدلة، وفي الآخرة بالنار"^(١٠).

قال أبو العالية: "الأليم: الموجع في القرآن كله"^(١١)، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك"^(١٢).

قرأ الجمهور من القراء: «يدخله» بالياء. وقرأ ابن عامر ونافع وأبو جعفر والأعرج والحسن وشيبة وقتادة: «ندخله» بالنون، وكذلك «نعذبه» و: «يعذبه»"^(١٣).

فوائد الآيتين: [١٦-١٧]:

- ١- مشروعية الاختبار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات.
- ٢- بيان أن غزوا الإسلام ينتهي إلى أحد أمرين إسلام الأمة المغزوة أو دخولها في الذمة بإعطائها الجزية بالحكم الإسلامي وسياسته.
- ٣- دفع الإثم والحرَج في التخلف عن الجهاد لعذر العمى أو العرج أو المرض.
- ٤- بيان وعد الله ووعيده لمن أطاعه ولمن عصاه، الوعد بالجنة. والوعيد بالنار.

القرآن

(١) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٢) تفسير الطبري: ٢٢٣/٢٢.

(٣) تفسير القرآن من الجامع لان وهب (١٢): ص ١٢/٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨٢٤): ص ٢٧٩٦/٩.

(٥) تفسير مجاهد: ٤٩٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٣٨): ص ١٩٢٩/٦.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٧٨): ص ٨٤٥/٣.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٩) تفسير الطبري: ٢٢٣/٢٢.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٣٩/٧.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٥١): ص ٨٢٣/٣.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٥١): ص ٨٢٣/٣.

(١٣) انظر: الكشاف: ٣٣٩/٤، والمحرر الوجيز: ١٣٣/٥.

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)} [الفتح : ١٨-١٩]

التفسير:

لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك -أيها النبي- تحت الشجرة -وهذه هي بيعة الرضوان في «الحديبية» - فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الإيمان والصدق والوفاء، فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبت قلوبهم، وعوضهم عما فاتهم بصلح «الحديبية» فتحاً قريباً، وهو فتح «خيبر»، ومغانم كثيرة تأخذونها من أموال يهود «خيبر». وكان الله عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيماً في تدبير أمور خلقه.

قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح : ١٨]، أي: "لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك -أيها النبي- تحت الشجرة -وهذه هي بيعة الرضوان في «الحديبية»" (١).

قال مقاتل: "يقول: رضي ببيعتهم إياك" (٢).

قال الطبري: "حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة" (٣).

قال قتادة: "بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- على أن لا يفرّوا، وهم يومئذ ألف وأربع مائة، وبايعوه على أن لا يفرّوا" (٤).

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو تحت شجرة سمره فبايعناه فذلك قوله: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فبايع لعثمان رضي الله عنه إحدى يديه على الأخرى. فقال الناس: هنيئاً لابن عفان رضي الله عنه يطوف بالبيت ونحن هاهنا فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف» (٥).

عن عكرمة مولى ابن عباس: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليهم، ولكنني أدلك على رجل هو أعزّ بها مني عثمان بن عفان، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمة، فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابته، فحمله بين يديه، ثم ردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحتسبته قريش عندها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قُتل" (٦).

(١) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سيمان: ٧٣/٤.

(٣) تفسير الطبري: ٢٢٣/٢٢.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٠٤): ص ٢١٣/٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٥٩٦): ص ٣٣٠٠/١٠، وكما في تفسير ابن كثير: ٣٤٠/٧، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٩٠/١) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمي في المجمع (٨٤/٩) : "فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف".

(٦) أخرجه الطبري: ٢٢٤/٢٢.

عن عبد الله بن أبي بكر: "أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: لا تَبْرَحْ حتى تُنَاجِزَ القَوْمَ، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الموت فكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبايعنا على الموت، ولكنه بايعنا على أن لا نفر، فبايع رسول الله الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، كان جابر بن عبد الله يقول: لكأنني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقتة، قد اختبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذي ذُكر من أمر عثمان باطل" (١).

عن جابر قال: "كنا أصحاب الحُدَيْبِيَّةِ أربع عشرة مئة" (٢).
وقال ابن عباس: "كان أهل البيعة تحت الشجرة ألفا وخمس مئة وخمسة وعشرين" (٣).
قال قتادة: "الذين بايعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة، فجعلت لهم مغام خير كانوا يومئذ خمس عشرة مئة، وبايعوا على أن لا يفرّوا عنه" (٤).
وقال عبد الله بن أبي أوفى: "كانوا يوم الشجرة ألفا وثلاث مئة، وكانت أسلم يومئذ من المهاجرين" (٥).

قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح : ١٨]، أي: "فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الإيمان والصدق والوفاء" (١).
وفي قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح : ١٨]، وجهان:

- (١) أخرجه الطبري: ٢٢٥/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٢٢٧/٢٢.
- (٣) أخرجه الطبري: ٢٢٧/٢٢.
- (٤) أخرجه الطبري: ٢٢٧/٢٢.
- (٥) أخرجه الطبري: ٢٢٧/٢٢.
- (٦) التفسير الميسر: ٥١٣.

أحدهما : من صدق النية والإخلاص، قاله الطبري^(١)، والزجاج^(٢)، والنحاس^(٣).
قال الزجاج: "أي: علم أنهم مخلصون"^(٤).
قال الطبري: "فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت
الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك"^(٥).
قال الجصاص: "أخبر أنه علم من قلوبهم صحة البصيرة وصدق النية، وأن ما أبطنوه
مثل ما أظهره"^(٦).
الثاني : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت، قاله مقاتل^(٧).
قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} [الفتح : ١٨]، أي: "فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبتت
قلوبهم"^(٨).
قال الطبري: "يقول: فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن
بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له"^(٩).
عن قتادة، قوله: "فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ، أي: الصبر والوقار"^(١٠).
قوله تعالى: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح : ١٨]، أي: "وعوّضهم عمّا فاتهم بصلح
«الحديبية» فتحًا قريبًا، وهو فتح «خيبر»"^(١١).
قال الطبري: "يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة
بقتالهم أهلها فتحا قريبًا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر"^(١٢).
عن ابن أبي ليلى: "وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، قال: خيبر"^(١٣).
عن قتادة: "وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وهي خيبر"^(١٤). وفي رواية: "بلغني أنها خيبر"^(١٥).
عن الشعبي: "وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، قال: فتح خيبر"^(١٦).
قوله تعالى: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} [الفتح : ١٩]، أي: "ومغانم كثيرة تأخذونها من
أموال يهود «خيبر»"^(١٧).
قال الطبري: يقول: "وأثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت
الشجرة، مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحا قريبًا، معه
مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون
غيرهم"^(١٨).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٧/٢٢.
 - (٢) انظر: معاني القرآن: ٢٥/٥.
 - (٣) انظر: معاني القرآن: ٥٠٦/٦.
 - (٤) معاني القرآن: ٢٥/٥.
 - (٥) تفسير الطبري: ٢٢٧/٢٢.
 - (٦) أحكام القرآن: ٥٢٤/٣.
 - (٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣/٤.
 - (٨) التفسير الميسر: ٥١٣.
 - (٩) تفسير الطبري: ٢٢٧/٢٢-٢٢٨.
 - (١٠) أخرجه الطبري: ٢٢٨/٢٢.
 - (١١) التفسير الميسر: ٥١٣.
 - (١٢) تفسير الطبري: ٢٢٨/٢٢.
 - (١٣) أخرجه الطبري: ٢٢٨/٢٢.
 - (١٤) أخرجه الطبري: ٢٢٨/٢٢.
 - (١٥) أخرجه الطبري: ٢٢٨/٢٢.
 - (١٦) الدر المنثور: ٥٢٣/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد.
 - (١٧) التفسير الميسر: ٥١٣.
 - (١٨) تفسير الطبري: ٢٢٨/٢٢.

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح : ١٩]، أي: "وكان الله عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيماً في تدبير أمور خلقه"^(١).
 قال الطبري: "يقول: وكان الله ذا عزة ممن انتقامه ممن انتقم من أعدائه، حكيماً في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه"^(٢).
 قال مقاتل: " {عزيزا}، يعني: منيعا، {حكيما}، في أمره، فحكم على أهل خيبر القتل والسبي"^(٣).
 قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"^(٤)، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده"^(٥).
 قال أبو العالية: " {عزيز} في نعمته إذا انتقم"^(٦). وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك^(٧).
 عن أبي العالية: " {حكيما}، قال: حكيماً في أمره"^(٨).
 قال محمد بن جعفر بن الزبير " الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده"^(٩).
 فوائد الآيتين: [١٨-١٩]:

- ١- بيان فضل أهل بيعة الرضوان وكرامة الله لهم برضاه عنهم.
- ٢- ذكاء عمر وقوة فراسته إذ أمر بقطع الشجرة خشية أن تعبد، وكم عبتت من أشجار في أمة الإسلام في غيبة العلماء وأهل القرآن.
- ٣- مكافأة الله تعالى للصادقين الصابرين المجاهدين من عباده المؤمنين بخير الدنيا والآخرة.

القرآن

{وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الدُّبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) } [الفتح :]
 التفسير:

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدرها الله لكم فعجل لكم غنائم «خير»، وكف أيدي الناس عنكم، فلم ينلكنم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»، ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، وتستدلون على أن الله حافظكم وناصركم، ويرشدكم طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه. وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدرُوا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد من وقوع ما وعد به. وكان الله على كل شيء قديراً لا يعجزه شيء. ولو قاتلكم كفار قريش ب «مكة» لانهمزوا عنكم وولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال، ثم لا يجدون لهم من دون الله ولياً يواليهم على حربكم، ولا نصيراً يعينهم على قتالكم.

(١) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٢) تفسير الطبري: ٢٢٨/٢٢.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣/٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٤): ص ١٦٦٤/٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٦): ص ١٦٦٤/٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٣٣): ص ١٦٦٤/٥.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٦٤/٥.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٢): ص ١٧٦٤/٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٤٣): ص ١٧٦٤/٦.

قوله تعالى: {وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [الفتح : ٢٠]، أي: "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدرها الله لكم"^(١).
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لأهل بيعة الرضوان: {وَعَدَّكُمْ اللَّهُ} أيها القوم، {مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا}"^(٢).

وفي قوله تعالى: {وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [الفتح : ٢٠]، وجهان: أحدهما: هي مغانم خيبر، قاله زيد بن أسلم وابنه^(٣)، ومقاتل^(٤). قال ابن عطية: "هذه إشارة إلى البيعة والتخلص من أمر قريش"^(٥). الثاني: هو كل مغنم غنمه المسلمون، قاله مجاهد^(٦). قال مجاهد: "المغانم الكثيرة التي وعدوا: ما يأخذونها إلى اليوم"^(٧). قال ابن عطية: "الآية مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ويأخذونها إلى يوم القيامة"^(٨).

قال الطبري: "فهي سائر المغانم التي غنمها الله بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطان، وفارس، والروم، وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر، لأن الله أخبر أنه عجل لهم هذه التي أنابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذ بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن لا يفرّوا عنه، ولا شك أن التي عجلت لهم غير التي لم تُعجل لهم"^(٩).

قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} [الفتح : ٢٠]، أي: "فَعَجَّلَ لَكُمْ غَنَائِمَ «خَيْبَر»"^(١٠).
وفي قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} [الفتح : ٢٠]، وجهان: أحدهما: مغانم خيبر، قاله مجاهد^(١١)، وقتادة^(١٢).

قال عطية: "فتح خيبر"^(١٣).
قال عطاء الخراساني: "يُقَالُ: خَيْبِرٌ. وَيُقَالُ أَيْضًا: فَدَكٌ"^(١٤).
الثاني: صلح الحديبية، قاله ابن عباس^(١٥).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أنابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحا أقرب من بيعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها"^(١٦).

(١) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٢) تفسير الطبري: ٢٢٩/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣/٤.

(٥) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٠/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٢٠/٢٢.

(٨) المحرر الوجيز: ١٣٤/٥.

(٩) تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢-٢٣١.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢.

(١٣) الدر المنثور: ٥٢٥/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(١٤) أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه (تفسير عطاء) ص ١٢٠.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢.

(١٦) تفسير الطبري: ٢٣٠/٢٢.

قوله تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} [الفتح : ٢٠]، أي: "وكفَّ أيدي الناس عنكم، فلم ينلکم سوء مما كان أعداؤکم أضمره لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»" (١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لأهل بيعة الرضوان: وكفَّ الله أيدي المشركين عنكم" (٢).

قال ابن كثير: "أي: لم ينلکم سوء مما كان أعداؤکم أضمره لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهرکم عن عيالکم وحریمکم" (٣).

وفي قوله تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} [الفتح : ٢٠]، ثلاثة وجوه: أحدها: أنهم اليهود، كف أيديهم عن بيوتهم، وعيالهم بالمدينة عند خروجهم إلى الحديبية وخيبر. قاله قتادة (٤).

واختاره الطبري، قائلا: "والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كفَّ الله أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} فعلم بذلك أن الكفَّ الذي ذكره الله تعالى في قوله: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} غير الكفَّ الذي ذكره الله بعد هذه الآية في قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} (٥).

الثاني: أنهم أهل مكة، كف أيديهم عن المدينة عند خروجهم إلى الحديبية. قاله الثعلبي (٦). الثالث: يعني: وكف اليهود من خيبر، وحلفاءهم من أسد، وغطفان، عن بيضتكم، وعيالكم، وأمواکم بالمدينة، وذلك أن مالك بن عوف النصري، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معهما من بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة أهل خيبر فقفز الله تعالى في قلوبهم الرعب فانصرفوا. حكاه الثعلبي عن قتادة (٧).

قال ابن عطية: "يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منها، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي وكانت قد أمكنتهم فرصة فكفهم الله عن ذراري المسلمين وأمواهم، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله ينصرهم ويلطف لهم" (٨).

قوله تعالى: {وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} [الفتح : ٢٠]، أي: "ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، وتستدلون على أن الله حافظكم وناصرکم" (٩).

قال الطبري: "يقول: وليكون كفه تعالى ذكره أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به فيعلموا أن الله هو المتولي حياتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأمواهم وأهليهم بالحفظ وحسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه" (١٠).

قال قتادة: "يقول: وذلك آية للمؤمنين، كفَّ أيدي الناس عن عيالهم" (١١). قال الثعلبي: "ولتكون هزيمتهم، وسلامتكم آية للمؤمنين ليعلموا أن الله هو المتولي حياتهم، وحرستهم في مشهدهم ومغيبهم" (١).

(١) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣١/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٣١/٢٢.

(٥) تفسير الطبري: ٢٣١/٢٢.

(٦) انظر: الكشف والبيان: ٤٨/٩.

(٧) انظر: الكشف والبيان: ٤٨/٩، والنكت والعيون: ٣١٨/٥.

(٨) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٣.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٣٢/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٣٢/٢٢.

قال ابن كثير: "أي : يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال : {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة : ٢١٦]"^(٢).

قوله تعالى: {وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح : ٢٠]، أي: "ويرشدكم طريقا مستقيما لا اعوجاج فيه"^(٣).

قال الطبري: "يقول: ويسدّدكم أيها المؤمنون طريقا واضحا لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكّلوا عليه في جميعها، ليجوّطكم حيّاطته إياكم في مسيركم إلى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أنفسكم وأهلكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم، إذ وثقتم في مسيركم هذا"^(٤).

قال ابن كثير: "أي : بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقكم رسوله"^(٥). قال الثعلبي: "وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} طريق التوكّل، والتفويض حتى تثقوا في أموركم كلها بربكم، وتتوكّلوا عليه، وقيل: يثبتكم على الإسلام، ويزيدكم بصيرة ويقينا بصلح الحديبية، وفتح خيبر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة الحديبية إلى المدينة، أقام بها بقية ذي الحجة، وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى خيبر، واستخلف على المدينة سماع بن عرفطة الغفاري"^(٦).

قوله تعالى: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا} [الفتح : ٢١]، أي: "وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد من وقوع ما وعد به"^(٧).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ووعدكم أيها القوم ربكم فتح بلدة أخرى لم تقدروا على فتحها، قد أحاط الله بها لكم حتى يفتحها لكم"^(٨).

قال ابن كثير: "أي : وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسّرّها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون"^(٩). وفي قوله تعالى: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا} [الفتح : ٢١]، ثلاثة أقوال: أحدها : هي أرض فارس والروم . قاله ابن عباس-في رواية-^(١٠)، وابن أبي ليلي^(١١)، والحسن^(١٢).

قال ابن عطية: "وهذا ضعيف، وإنما الإشارة إلى العدو الأخصر"^(١٣).

وروي عن مجاهد، قوله: "وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}، ما فتحوا حتى اليوم"^(١٤).

وقال ابن عباس: "هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم"^(١٥).

(١) الكشف والبيان: ٤٨/٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٤) تفسير الطبري: ٢٣٢/٢٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(٦) الكشف والبيان: ٤٨/٩.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٨) تفسير الطبري: ٢٣٢/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٣/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٣-٢٣٢/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٣/٢٢.

(١٣) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

(١٤) أخرجه الطبري: ٢٣٣/٢٢.

(١٥) رواه أبو داود الطيالسي كما في تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧، ورواه ابن الجعد في مسنده (١٥٠٧): ص ٢٢٥،

الثاني : هي أرض خيبر ، قاله ابن عباس-في رواية أخرى-(^١)، والضحاك(^٢)، وابن زيد(^٣)، وابن إسحاق(^٤) .

قال الضحاك: " يعني خيبر، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، فقال: ولا تُمننوا ولا تَعْلُوا، ولا تَقْتُلُوا وليدًا"(^٥) .

عن ابن زيد، قوله: " {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}، قال: خيبر، قال: لم يكونوا يذكرونها ولا يرجونها حتى أخبرهم الله بها"(^٦) .

قال ابن كثير: " وهذا على قوله في قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} إنها صلح الحديبية"(^٧) .
الثالث : هي مكة ، قاله قتادة(^٨) .

قال قتادة: " بلغنا أنها مكة"(^٩) .

قال ابن عطية: " وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد، وقوله: قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا معناه بالقدرة والقهر لأهلها، أي قد سبق في علمه ذلك وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها"(^{١٠}) .

قال الطبري: " وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله

أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، أنه محيط بقرية لم

يقدرُوا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقوم لم يقدرُوا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها

فتعدرت عليهم، فأما وهم لم يروموا فتعدرت عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدرُوا عليها. فإذا كان ذلك

كذلك، وكان معلوما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر

لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشا ولا سرية، علم أن المعنى بقوله: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا

عَلَيْهَا} غيرها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعدرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله

تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم"(^{١١}) .

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الفتح : ٢١]، أي: " وكان الله على كل

شيء قديرًا لا يعجزه شيء"(^{١٢}) .

قال الطبري: يقول: " وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء ذا قدرة، لا يتعدر عليه

شيء شاءه"(^{١٣}) .

قال ابن إسحاق: " أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو

قدير"(^{١٤}) .

قوله تعالى: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأُدْبَارَ} [الفتح : ٢٢]، أي: " ولو قاتلكم كفار

قريش بـ «مكة» لانهمزوا عنكم ولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال"(^{١٥}) .

بلفظ: « ما فتح الله من هذه الفتوح» .

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٥) أخرجه الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٦) أخرجه الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧ .

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(٩) أخرجه الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(١٠) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥ .

(١١) تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٣ .

(١٣) تفسير الطبري: ٢٣٤/٢٢ .

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٢١٤):ص٥٩/١ .

(١٥) التفسير الميسر: ٥١٣ .

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله أيها المؤمنون بمكة لانهمزوا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم من قرنه في الحرب"^(١).

قال ابن كثير: "يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين : بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولأنهم جيش الكفار فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين"^(٢).

عن قتادة، قوله: "{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ}"، يعني: كفار قريش"^(٣). قال ابن عطية: "إشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة.. وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين"^(٤).

قوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الفتح : ٢٢]، أي: "ثم لا يجدون لهم من دون الله وليا يواليهم على حربكم، ولا نصيرا يعينهم على قتالكم"^(٥).

قال الطبري: "يقول: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، وليا يواليهم على حربكم، ولا نصيرا ينصرهم عليكم، لأن الله تعالى ذكره معكم، ولن يغلب حزب الله ناصره"^(٦).

قال قتادة: "قال الله: {ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} ينصرهم من الله"^(٧).

القرآن

{سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)} [الفتح : ٢٣]

التفسير:

سنة الله التي سنّها في خلقه من قبل بنصر جنده وهزيمة أعدائه، ولن تجد -أيها النبي- لسنة الله تغييرا.

قوله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ} [الفتح : ٢٣]، أي: "سنة الله التي سنّها في خلقه من قبل بنصر جنده وهزيمة أعدائه"^(٨).

قال محمد بن إسحاق: "يعني: قريشًا في المواطن التي كانت قبل ذلك"^(٩).

قال القشيري: "أي: سنة الله خذلانهم"^(١٠).

قال الطبري: يقول: "سننت فيهم الهزيمة والخذلان"^(١١).

قال الشوكاني: أي: "طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه"^(١٢).

قال الماتريدي: "أي: جعل عاقبة الأمر للمؤمنين"^(١٣).

قال ابن كثير: "أي : هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر

(١) تفسير الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(٤) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٦) تفسير الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٩) تفسير إسحاق البستي (٩٣٧): ص ٣٧٣/٢.

(١٠) لطائف الإشارات: ٤٢٨/٣.

(١١) تفسير الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(١٢) فتح القدير: ٦١/٥.

(١٣) تأويلات أهل السنة: ٣٠٧/٩.

بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعددهم^(١).

قال ابن عطية: "إشارة إلى وقعة بدر، وقيل إشارة إلى عادة الله من نصر الأنبياء قديماً"^(٢).

قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح : ٢٣]، أي: "ولن تجد -أيها النبي- لسنة الله تغييراً"^(٣).

عن محمد بن إسحاق: "يقول: الذي وعد من النصر"^(٤).

قال يحيى: "لا تبدل بها غيرها"^(٥).

قال القشيري: "أي: ولن تجد لسنة الله تحويلاً"^(٦).

قال السمعاني: أي: تغييراً"^(٧).

قال الطبري: يقول: "ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال"^(٨).

قال الشوكاني: أي: "لن تجد لها تغييراً، بل هي مستمرة ثابتة"^(٩).

قال الماتريدي: "في أمتك، ولكن جعل عاقبة الأمر لهم كما جعل عاقبة الأمر في سائر الأمم للمؤمنين"^(١٠).

قال ابن فورك: "السنة التي أراد الله أن يسنها في عباده، لا يتهدى لأحد تغييرها ولا قلبها عن وجهها"^(١١).

قال ابن جريج: "سنة الله في الذين خلوا من قبل أن لن يُقَاتِلَ أَحَدٌ نَبِيَّهَ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ؛ فَقَتَلَهُ أَوْ رَعَبَهُ فَانْهَزَمَ، وَلَنْ يَسْمَعَ بِهِ عَدُوٌّ إِلَّا انْهَزَمُوا وَاسْتَسَلَمُوا"^(١٢).

قال ابن عباس في هذه الآية: "يريد: هذه سنتي في أهل طاعتي وأوليائي، وهذه سنتي في أعدائي وأهل معصيتي، يريد: أنصر أوليائي وأخذل أهل معصيتي"^(١٣).

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)} [الفتح : ٢٤]

التفسير:

وهو الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ «مكة» من بعد ما قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا تَحْتَ سُلْطَانِكُمْ، وَكَانَ اللهُ بِأَعْمَالِكُمْ بَصِيرًا، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك، " أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣٤١/٧.

(٢) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٤) تفسير إسحاق البستي (٩٣٧): ص ٣٧٣/٢.

(٥) تفسير يحيى بن سلام: ٧٩٧/٢.

(٦) لطائف الإشارات: ٤٢٨/٣.

(٧) تفسير السمعاني: ٣٠٨/٤.

(٨) تفسير الطبري: ٢٣٥/٢٢.

(٩) فتح القدير: ٦١/٥.

(١٠) تأويلات أهل السنة: ٣٠٧/٩.

(١١) تفسير ابن فورك: ١٢٣/٢.

(١٢) الدر المنثور: ٥٢٥/٧، وعزاه على ابن المنذر.

(١٣) التفسير البسيط: ٣١٠/٢٠، والتفسير الوسيط: ١٤/٤، للواحي.

سَلِمَا فَاسْتَحْيَاهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]»^(١).

وروي عن عبد الله بن مغفل المزني، قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى: في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ". فأخذ سهيل بن عمرو بيده، فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: " اكتب باسمك اللهم ". فكتب: " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة ". فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: " اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله "، فكتب. فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فناروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ الله عز وجل بأبصارهم، فقدمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل جننتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانا؟ " فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}»^(٢).

وعن ابن أبيزى؛ قال: "لما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالهدى وانتهى إلى ذي الحليفة؛ قال له عمر: يا نبي الله! تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع، قال: فبعث إلى المدينة فلم يدع بها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملة، فلما دنا من مكة؛ منعه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى؛ فأتاه عينه: أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج علينا في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: "يا خالد! هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل"، فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله؛ فيومئذ سمي سيف الله، يا رسول الله! ارم بي حيث شئت، فبعثه على خيل؛ فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة حتى أدخله حيطان مكة؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} إلى قوله: {عَذَابًا أَلِيمًا}، قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم؛ كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم، وقوله: {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}، يقول -تعالى- ذكره -: وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصير لا يخفى عليه منها شيء»^(٣). [ضعيف جداً]

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٣٣/١٨٠٨) ص ١٤٤٢. وأبو داود في الجهاد (٢٦٨٨) والترمذي في التفسير (٣٢٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه النسائي في التفسير (٥٣٠). وأحمد في مسنده (٣/١٢٠، ١٢٤، ٢٩٠)، وابن جرير (٢٦/٥٩)، وزاد السيوطي نسبه في الدر (٦/٧٥) لابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل. (٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٨٠٠): ص ٣٥٤/٢٧-٣٥٥، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٤٦٠-٤٦١) وصححه وأقره الذهبي.

وأخرجه الطبري في التفسير: (٢٣٦/٢٢-٢٣٧)-كما سيأتي-، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٤٥) وقال: "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح".

(٣) أخرجه الطبري: ٢٣٩/٢٢: ثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبيزى. وسنده ضعيف جداً؛ لضعف ابن حميد، وإرساله.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣٤٣/٧): "وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدًا لم يكن أسلم؛ بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقدم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه، ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسبق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا في جيش عرمرم، فهذا السياق فيه خلل، وقد وقع فيه شيء فليتأمل، والله أعلم".

وقال الحافظ ابن حجر في "الكاف الشاف" (ص ١٥٣): "والحديث في صحته نظر".

وقال قتادة: " قوله: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ } الآية؛ قال: بطن مكة: الحديبية، يقال له «ابن زُئيم»^(١): اطلع الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيلاً فأتوه باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل لكم عليّ عهد؟ هل لكم عليّ ذمة، قالوا: لا فأرسلهم، فأنزل الله في ذلك القرآن: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ } ... إلى قوله { بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }^(٢).
قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ } [الفتح : ٢٤]، أي: وهو الذي كَفَّ أَيْدِي المَشْرِكِينَ عَنْكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ «مَكَّة»^(٣).

قال الطبري: " يعني: أن الله كَفَّ أَيْدِي المَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا خَرَجُوا عَلَى عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالْحَدِيبِيَّةِ يَلْتَمِسُونَ غِرَّتَهُمْ لِيَصِيبُوا مِنْهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَى بِهِمْ أُسْرَى، فَخَلَى عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَقْتُلْهُمْ فَقَالَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ هُوَ لَاءِ المَشْرِكِينَ عَنْكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ"^(٤).
قال الشوكاني: أي: كَفَّ أَيْدِي المَشْرِكِينَ عَنِ المَسْلَمِينَ وَأَيْدِي المَسْلَمِينَ عَنِ المَشْرِكِينَ لَمَّا جَاءُوا يَصُدُّونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ عَنِ البَيْتِ عَامِ الحَدِيبِيَّةِ، وَهِيَ: المَرَادُ بِبَطْنِ مَكَّةَ"^(٥).

قال ابن كثير: " هذا اِمْتِنَانٌ مِنَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ حِينَ كَفَّ أَيْدِي المَشْرِكِينَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ سُوءٌ، وَكَفَّ أَيْدِي المُؤْمِنِينَ مِنَ المَشْرِكِينَ فَلَمْ يَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، بَلْ صَانَ كَلَامًا مِنَ الفَرِيقَيْنِ، وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ صِلْحًا فِيهِ خَيْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَةِ"^(٦).

قوله تعالى: { مِنْ بَعْدِ أَنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } [الفتح : ٢٤]، أي: " من بعد ما قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا تَحْتَ سُلْطَانِكُمْ"^(٧).

قال ابن جزى: " يعني: من بعد ما أخذتموهم أسارى"^(٨).
وفي قوله تعالى: { مِنْ بَعْدِ أَنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ } [الفتح : ٢٤]، وجوه من التفسير: أحدها : أظفركم عليهم بفتح مكة. ذكره الماوردي^(٩).

قال الماوردي: " وتكون، هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحاً لقوله: { كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ }"^(١٠).

قال القرطبي: " الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة"^(١١).

الثاني : أظفركم عليهم بقضاء العمرة التي صدوكم عنها. ذكره الماوردي^(١٢).
الثالث : أظفركم عليهم بما روي ثابت عن أنس: " أن ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوه، فأخذهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعتقهم، فأنزل الله: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ }

وذكره السيوطي في " الدر المنثور " (٧ / ٥٣٣) وزاد نسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

(١) في تفسير الطبري: «رهم»، قال المحقق: لعل فيه سقطاً، وفي تفسير ابن كثير: ٣٤٣/٧ «ابن زُئيم».

(٢) أخرجه الطبري: ٢٣٨/٢٢. مرسل صحيح الإسناد. وذكره السيوطي في " الدر المنثور " (٧ / ٥٢٧) وزاد

نسبته لعبد بن حميد

(٣) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٤) تفسير الطبري: ٢٣٦/٢٢.

(٥) فتح القدير: ٦١/٥.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٤٢/٧.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٣.

(٨) التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٩٠/٢.

(٩) انظر: النكت والعيون: ٣١٨/٥.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ٣١٨/٥.

(١١) تفسير القرطبي: ٢٨٢/١٦.

(١٢) انظر: النكت والعيون: ٣١٨/٥.

... إلى آخر الآية^(١). وروي عن عبد الله بن مغفل^(٢)، وابن أبيزى^(٣)، وقتادة^(٤) سياقات قريبة من قول أنس، كما أشرنا إليها في سبب نزول الآية.

وقال مجاهد: "أقبل معتمرا نبي الله، فأخذ أصحابه ناسا من أهل الحرم غافلين، فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك الإظفار ببطن مكة"^(٥).

قال محمد بن إسحاق: "كان رسول الله صلى الله عليه ظفر بهم وتجاوز عنهم، وكانوا أربعين رجلاً من قریش خرجوا يتجسسون الأخبار، ورسول الله صلى الله عليه بالحديبية فأخذوا فأتي بهم فتجاوز عنهم"^(٦).

وروي عن محمد بن إسحاق قال: "حدثني -من لا أتهم- عن عكرمة، مولى ابن عباس، أن قریشا كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعفا عنهم، وخلي سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل. قال ابن حميد، قال سلمة، قال ابن إسحاق: ففي ذلك قال: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} ... الآية"^(٧).

وقال مقاتل: "ببطن مكة": يوم الحديبية، يعني: ببطن أرض مكة كلها والحرم كله مكة {من بعد أن أظركم عليهم}، وقد كانوا خرجوا يقاتلون النبي -صلى الله عليه وسلم- فهزمهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالطعن والنبل حتى أدخلهم بيوت مكة"^(٨).

قال الواحدي: "يريد: أن الظفر كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- على أهل مكة، والمعنى: أن الله تعالى يذكر منته بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتتلا، وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح، وسلم للرجل من بينه وبينه قرابة، ومن هو مؤمن من أهل مكة أن يصاب، وهذا قول عامة المفسرين"^(٩).

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح : ٢٤]، أي: "وكان الله بأعمالكم بصيراً، لا تخفى عليه خافية"^(١٠).

قال الشوكاني: أي: "لا يخفى عليه من ذلك شيء"^(١١).

قال الطبري: يقول: "وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيراً لا يخفى عليه منها شيء"^(١٢).

قال ابن عطية: "الآية تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يبصر عمله أصلحه"^(١٣).

فوائد الآيات: [٢٠-٢٤]:

١- صدق وعد الله لأصحاب رسوله في الغنائم التي وعدوا بها فتحقت كلماته بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي غنائم فارس والروم.

٢- كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين الأولى ما هم به اليهود من غارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة النبوية، والثانية ما هم به رجال من المشركين للفتك

(١) أخرجه الطبري: ٢٣٨/٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٦/٢٢-٢٣٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٩/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٨/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٣٧/٢٢، وانظر: تفسير مجاهد: ٥٧/٤.

(٦) تفسير إسحاق البستي (٩٣٩): ص ٣٧٤/٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٣٧/٢٢.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤.

(٩) التفسير البسيط: ٣١٢/٢٠.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٣.

(١١) فتح القدير: ٦١/٥.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٣٩/٢٢.

(١٣) المحرر الوجيز: ١٣٥/٥.

بالمؤمنين ليلاً بالحديبية إذ مكن الله منهم رسوله والمؤمنين، ثم عفا عنهم رسول الله وأطلق سراحهم فكان ذلك مساعداً قويا على تحقيق صلح الحديبية.

٣- بيان سنة الله في أنه ما تقاتل أولياء الله مع أعدائه إلا نصر الله أولياءه على أعدائه.

القرآن

{هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَكَلِمَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)} [الفتح : ٢٥]

التفسير:

كفار قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدوكم يوم «الحديبية» عن دخول المسجد الحرام، ومنعوا الهدى، وحبسوه أن يبلغ محل نحره، وهو الحرم. ولولا رجال مؤمنون مستضعفون ونساء مؤمنات بين أظهر هؤلاء الكافرين بـ «مكة»، يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم لم تعرفوهم؛ خشية أن تطوؤهم بجيشكم فتقتلوهم، فيصيبكم بذلك القتل إثم وعيب وغرامة بغير علم، لكننا سلطناكم عليهم؛ ليدخل الله في رحمته من يشاء فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، لو تميز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات عن مشركي «مكة» وخرجوا من بينهم، لعذبنا الذين كفروا وكذبوا منهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

سبب النزول:

عن أبي جمعة -رضي الله عنه-؛ قال: "قاتلت النبي - صلى الله عليه وسلم - أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفيها أنزلت: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ} (١) [حسن]."

قوله تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح : ٢٥]، أي: "كفار قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدوكم يوم «الحديبية» عن دخول المسجد الحرام" (٢).

قال مقاتل: "هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا" يعني: كفار مكة، {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أن تطوفوا به" (٣).

قال الطبري: يقول: "هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام" (٤).

قال ابن كثير: "أي: هم الكفار دون غيرهم، {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر" (٥).

(١) أخرجه أبو يعلى في "المسند" (٣/ ١٢٩ رقم ١٥٦٠)، و"المفاريذ" (ص ٧١، ٧٢ رقم ٧٢) -ومن طريقه ابن الأثير في "أسد الغابة" (٥/ ٥٢، ٥٣) -، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٢٩٠ رقم ٢٢٠٤، ٣/ ٢٤ رقم ٢٥٤٣) -وعنه أبو نعيم في "معرفه الصحابة" (٢/ ٦١١ رقم ١٦٦٠) -، وابن قانع في "معجم الصحابة" (١/ ١٨٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٠٨)، وابن عبد البر وأبو موسى المدني؛ كما في "أسد الغابة" (٥/ ٥٣) من طريق أبي سعيد مولى بني هاشم عن أبي خلف عن عبد الله بن عوف؛ قال: سمعت أبا جمعة به.

قلنا: وسنده حسن -إن شاء الله- قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٧): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات".

وقال في (٩/ ٣٩٨): "رواه أبو يعلى ورجاله ثقات".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٤) بعد أن زاد نسبه للحسن بن سفيان وابن المنذر والبارودي وابن مردويه: "بسند جيد".

(٢) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤.

(٤) تفسير الطبري: ٢٣٩/٢٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٤٤/٧.

قوله تعالى: {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ} [الفتح : ٢٥]، أي: "ومنعوا الهدى، وحبسوه أن يبلغ محل نحره، وهو الحرم"^(١).

قال الطبري: يقول: "وصدوا الهدى محبوساً عن أن يبلغ محل نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره"^(٢).

قال مقاتل: "وصدوا الهدى في عمرتك يوم الحديبية {مَعْكُوفًا}، يعني: محبوساً، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحديبية في عمرته مائة بدنة، ويقال سبعين بدنة فمنعوه أن يبلغ الهدى محله، يعني: منحره"^(٣).

قال ابن كثير: "أي : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله، وهذا من بغيةم وعنادهم، وكان الهدى سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه"^(٤).

قال ابن زيد: "كان الهدى بذى طوى، والحديبية خارجة من الحرم، نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غوّرت قريش عليه الماء"^(٥).

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما، قالوا: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا وساق الهدى معه سبعين بدنة وكان الناس سبع مئة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة"^(٦).

عن قتادة: "هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا، أي: محبوساً {أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ}، وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه معتمرين في ذي القعدة، ومعهم الهدى، حتى إذا كانوا بالحديبية، صدّهم المشركون، فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك، ثم يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب، ولا يخرج بأحد من أهلها، فنحروا الهدى، وحلقوا، وقصّروا، حتى إذا كان من العام المقبل، أقبل نبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فجروا عليه حين ردّوه، فأقصه الله منهم فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردّوه فيه، فأنزل الله: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}"^(٧).

عن إياس من سلمة بن الأكوع، عن أبيه، قال: "بعثت قريش سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزّي، وحفص بن فلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليصالحوه فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو، قال: قد سهّل الله لكم من أمركم، القوم ماثون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهدى، وأظهروا التلبية، لعلّ ذلك يلين قلوبهم، فلبوا من نواحي العسكر حتى ارتجّت أصواتهم بالتلبية، فجاءوا فسألوه الصلح؛ قال: فبينما الناس قد توادعوا وفي المسلمين ناس من المشركين، قال: فقيل به أبو سفيان؛ قال: وإذا الوادي يسيل بالرجال؛ قال: قال إياس، قال سلمة: فجئت بستة من المشركين متسلحين أسوقهم، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فأتيت بهم النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يسلب ولم يقتل وعفا؛ قال: فشددنا على من في أيدي المشركين منا، فما تركنا في أيديهم منا رجلا إلا استنقذناه؛ قال: وغلبنا على من في أيدينا منهم؛ ثم إن قريشا بعثوا سهيل بن عمرو، وحويطبا، فولوا صلحهم، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا في صلحه؛ فكتب عليّ بينهم: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا، صالحهم على أنه لا إهلال ولا امتلال، وعلى أنه من قديم مكة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حاجا أو معتمرا، أو

(١) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣٩/٢٢.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٤٤/٧.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٤٩/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٤٠-٢٣٩/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٤٠/٢٢.

يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله؛ ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله؛ وعلى أنه من جاء محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قريش فهو إليهم رُدٌّ، ومن جاءهم من أصحاب محمد فهو لهم. فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَاءَهُمْ مِثْلًا فَبَعْدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ فَعَلِمَ اللهُ الْإِسْلَامَ مِنْ نَفْسِهِ، جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا. فصالحوه على أنه يعتمر في عام قابل في هذا الشهر، لا يدخل علينا بخيل ولا سلاح، إلا ما يحمل المسافر في قرابه، يثوي فينا ثلاث ليال، وعلى أن هذا الهدى حيثما حسناه محله لا يقدمه علينا. فقال لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَحْنُ نَسُوفُهُ وَأَنْتُمْ تَرُدُّونَ وَجُوهَهُ، فسار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الهدى وسار الناس" (١).

عن ابن عمر، قال: "كان الهدى دون الجبال التي تطلع على وادي الثنية عرض له المشركون، فردوا وجوهه؛ قال: فحضر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهدى حين حبسوه، وهي الحديبية، وحلق، وتأسى حين به أناس حين رأوه حلق، وتربص آخرون، فقالوا: لعنا نظوف بالبيت، فقال رسول الله: رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ، قِيلَ: والمقصرين، قال: رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ، قِيلَ: والمقصرين، قال: والمُقَصِّرِينَ" (٢).

عن مجاهد: "أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتمر ثلاث عمر، كلها في ذي القعدة، يرجع في كلها إلى المدينة، منها العمرة التي صد فيها الهدى، فحضره في محله، عند الشجرة، وشارطوه أن يأتي في العام المقبل معتمرا، فيدخل مكة، فيطوف بالبيت ثلاثة أيام، ثم يخرج، ولا يحبسونه عنه أحدا قدم معه، ولا يخرج من مكة بأحد كان فيها قبل قدومه من المسلمين؛ فلما كان من العام المقبل دخل مكة، فأقام بها ثلاثا يطوف بالبيت؛ فلما كان اليوم الثالث قريبا من الظهر، أرسلوا إليه: إن قومك قد آذاهم مقامك، فثوي في الناس: لا تغرب الشمس وفيها أحد من المسلمين قدم مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٣).

عن المسور بن مخرمة، قال: "خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحديبية في بضع عشرة مئة من أصحابه، حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش، وسار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من فعيقان، أتاه عينه الخزاعي، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أشيروا علي، أترُونَ أن نَمِيلَ على دَرَارِي هُوَلاء الَّذِينَ أَعَاثُوهُمْ فَنُصِيبُهُمْ، فَإِنْ فَعَدُوا فَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْرُورِينَ وَإِنْ لَحُوا تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللهُ؟ أَمْ تَرُونَ أَنَا نَوْمُ الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَا؟" فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله: إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه؛ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَرَوْحُوا إِذَا؛ وكان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورا لأصحابه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيْعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هو بقثرة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا كان بالثنية التي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بركت به راحلته؛ فقال الناس: حَلْ حَلْ، فقال: ما حَلْ؟ فقالوا: حَلَّتِ الْقِصَافُ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما حَلَّتْ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ، وَلَكِنَّهَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ بِهَا حُرْمَاتِ اللهِ إِلَّا أُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زُجِرَتْ فَوُثِّبَتْ فَعُدِلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيبِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، إِنَّمَا يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبِثْ النَّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ، فَشَكِّيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطَشَ، فَنَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ

(١) أخرجه الطبري: ٢٤٠/٢٢-٢٤١.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٤١/٢٢-٢٤٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٤٢/٢٢.

أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرِّيِّ حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك جاء بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعي في نفر من خُرَاعَة، وكانوا عبية نصح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لُؤَيِّ، وعامر بن لُؤَيِّ، قد نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقَاتِلِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ فَرِيشَا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، أَوْ لِيُفِذَنَ اللهُ أَمْرَهُ فَقَالَ بُدَيْلُ: سَنبَلِغُهُمْ مَا تَقُولُ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَرِيشًا، فَقَالَ: إِنَّا جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا؛ قَالَ سَفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَنْ تَحَدِّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذُوو الرَّاْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ؛ يَقُولُ: قَالَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ النَّقْفِيُّ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ أَلَسْتُمْ بِالْوُلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: أَوْلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ تَتَهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عَكَظٍ، فَلَمَّا بَلَحُوا عَلَيَّ جِئْتُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رِشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي أَنَّهُ؛ فَقَالُوا: إِنَّهُ، فَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ مَقَالَتِهِ لِبُدَيْلٍ؛ فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ قَوْمَكَ، فَهَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتِنَاحَ أَصْلِهِ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى وَجُوهًا وَأُوبَاشًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، وَاللَّاتُ: طَاغِيَةٌ تُقَيِّفُ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَ، أَنْحَنُ نَفْرًا وَنَدَعُهُ؟ فَقَالَ: مِنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبِنَتِكَ؛ وَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلِمًا كَلِمَةً أَخَذَ بِلِحِيَّتِهِ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شَعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ وَمَعَهُ السِّيفُ، وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ؛ فَكَلِمًا أَهْوَى عُرْوَةُ إِلَى لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضَرَبَ يَدَهُ بِنَصْلِ السِّيفِ، وَقَالَ: أَحْرَ يَدِكَ عَنْ لِحْيَتِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَغِيرَةُ بْنُ شَعْبَةَ، قَالَ: أَيُّ غَدْرٍ أَوْلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ. وَكَانَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شَعْبَةَ صَحْبٌ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَقَتَّلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْأَلَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ قِيلْنَا، وَأَمَّا الْمَالُ فَإِنَّهُ مَالٌ غَدْرٌ لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. وَإِنْ عُرْوَةُ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِهِ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَكَرَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يَحْدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتَ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتَ عَلَى قَيْصَرَ وَكُسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا؛ وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نَخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَكَرَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمْرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا عِنْدَهُ خَفُوا أَصْوَاتَهُمْ، وَمَا يَحْدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رِشْدٍ فَاقْبَلُوهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ: دَعُونِي أَنَّهُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ؛ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَذَا فَلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمِ يَعْظُمُونَ الْبَدْنَ، فَابْعَثُوا لَهُ، فَبَعَثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ قَوْمٌ يَلْبُونَ؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصْدُوا عَنِ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي أَنَّهُ، فَقَالُوا إِنَّهُ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ؛ فَجَاءَ فَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَكْلِمُهُ، إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ أَيُّوبُ، قَالَ عَكْرِمَةُ: إِنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَجَاءَ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ نَكْتَبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا؛ فَدَعَا الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكْتُبْ: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ، فَقَالَ: مَا الرَّحْمٰنُ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللّٰهِ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وَسَلَّمَ: اَكْتَبْتُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ: اَكْتَبْتُ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ سَهِيلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اَكْتَبْتُ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، وَلَكِنْ اَكْتَبْتُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؛ قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ بِهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ أَيَّاهَا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَتَطُوفُ بِهِ؛ قَالَ سَهِيلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أَخَذْنَا ضِعْطَةً، وَلَكِنْ لَكَ مِنَ الْعَامِ الْمَقْبَلِ، فَكُتِبَ فَقَالَ سَهِيلٌ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ إِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سَبِحَانَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذَا جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قِيُودِهِ، قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سَهِيلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَجْرُهُ لِي، فَقَالَ: مَا أَنَا بِمَجِيرِهِ لَكَ، قَالَ: بَلَى فَاغْفِرْ لِي، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ؛ قَالَ صَاحِبُهُ مَكْرُزٌ وَسَهِيلٌ إِلَى جَنْبِهِ: قَدْ أَجْرَنَاهُ لَكَ؛ فَقَالَ أَبُو جَنْدَلُ أَيُّ مَعَاشِرِ الْمُسْلِمِينَ، أُرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جُنْتُ مُسْلِمًا؟ أَلَا تَرُونَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ كَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ: وَاللَّهِ مَا شَكَّكَتْ مِنْذُ أُسْلِمْتَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نَعطَى الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي، قُلْتُ: أَلَسْتُ تَتَحَدَّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ، فَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَخْبِرْتِكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَتَطَوَّفُ بِهِ؛ قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نَعطَى الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، فَاسْتَمْسَكَ بِغُرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ؛ قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كَانَ يَحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، فَأَخْبِرْتِكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامُ؟ قَالَ: لَا قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَتَطَوَّفُ بِهِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عَمْرُ: فَعَمَلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قِصَّتِهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: فُؤِمُوا فَاغْفِرُوا ثُمَّ احْلِفُوا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنَّا رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَحَبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجَ، ثُمَّ لَا تَكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بَدَنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقُكَ، فَقَامَ فَخَرَجَ فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى نَحَرَ بَدَنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ؛ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَغَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا؛ ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ حَتَّى بَلَغَ {بِعِصْمِ الْكُوفَرِ}، قَالَ: فَطَلَّقَ عَمْرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ؛ قَالَ: فَنَهَاهُمْ أَنْ يَرُدُّوهُنَّ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرُدُّوا الصِّدَاقَ حِينَئِذٍ؛ قَالَ رَجُلٌ لِلزُّهْرِيِّ: أَمِنْ أَجْلِ الْفُرُوجِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمِيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ، رَجُلٌ مِنْ قَرِيْشٍ، وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلَ فِي طَلْبِهِ رَجُلَانِ، فَقَالَا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ذَا الْحَلِيفَةِ، فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرَ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرِبْتُ بِهِ وَجَرِبْتُ؛ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرْنِي أَنْظِرْ إِلَيْهِ فَمَا كُنْتُمْ مِنْهُ، فَضْرِبْهُ بِهِ حَتَّى يَبْرُدَ وَفَرِّ الْآخَرَ حَتَّى آتِيَ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَى هَذَا دُعْرًا، فَقَالَ: وَاللَّهِ قَتَلَ صَاحِبِي، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ وَرَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَغَاثَنِي اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلٌ أُمَّهُ مِسْعَرُ حَرْبٌ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ؛ فَلَمَّا سَمِعَ عَرَفَ أَنَّهُ سِيرَدَهُ إِلَيْهِمْ؛ قَالَ: فَخَرَجَ حَتَّى آتَى سَيْفَ الْبَحْرِ، وَتَقَلَّتْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قَرِيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أُسْلِمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعَيْرٍ خَرَجَتْ لِقَرِيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قَرِيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنَاشِدُونَهُ اللَّهَ وَالرَّحْمَ لِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ

فأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ}، حتى بلغ {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}، وكانت حميتهم أنهم لم يقرّوا أنه نبي، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت^(١).
 قوله تعالى: {وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ} [الفتح : ٢٥]، أي: "ولولا رجال مؤمنون مستضعفون ونساء مؤمنات بين أظهر هؤلاء الكافرين بـ «مكة»، يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم لم تعرفوهم؛ خشية أن تطؤوهم بجيشكم فتقتلوهم، فيصيبكم بذلك القتل إثم وعيب وغرامة بغير علم"^(٢).
 قال الطبري: يقول: "ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون بالله أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم لأذن الله لكم أيها المؤمنون في دخول مكة، ولكنه حال بينكم وبين ذلك"^(٣).
 قال ابن كثير: "أي : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ؛ ولهذا قال : {لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ}، أي : إثم وغرامة {بَغَيْرِ عِلْمٍ}"^(٤).
 قال قتادة: "هذا حين رد محمد وأصحابه أن يدخلوا مكة، فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يؤذوا أو يوطئوا بغير علم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم"^(٥).
 قال جنيد بن سبع : "قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفيما نزلت : {وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ} قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين"^(٦).
 وفي قوله تعالى: {وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ} [الفتح : ٢٥]، وجهان من التفسير:
 أحدهما : أن تطؤوهم بخيلكم وأرجلكم فتقتلوهم، قاله ابن أبيزى^(٧)، وابن عباس^(٨)، وبه قال الطبري^(٩).
 الثاني : لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم يعلموهم أن يطئوا آباءهم فيهلك أبنائهم، قاله الضحاك^(١٠).
 وفي قوله تعالى: {تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ} [الفتح : ٢٥]، وجوه:
 أحدها : الإثم بغير علم، قاله ابن زيد^(١١).
 الثاني : غرم الدية، قاله ابن إسحاق^(١٢)، والفراء^(١٣).
 عن ابن إسحاق: "فَتُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ} فتخرجوا ديتته، فأما إثم فلم يحسبه عليهم"^(١٤).

- (١) أخرجه الطبري: ٢٤٢/٢٢-٣٤٧.
- (٢) التفسير الميسر: ٥١٤.
- (٣) تفسير الطبري: ٢٤٩/٢٢-٢٥٠.
- (٤) تفسير ابن كثير: ٣٤٤/٧.
- (٥) أخرجه الطبري: ٢٤٩/٢٢.
- (٦) المعجم الكبير للطبراني: ٢٩٠/٢.
- (٧) أخرجه الطبري: ٢٣٩/٢٢.
- (٨) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٩/٢٢.
- (١٠) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥، وتفسير القرطبي: ٢٨٥/١٦.
- (١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٩/٢٢-٢٥٠.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٠/٢٢.
- (١٣) انظر: معاني القرآن: ٦٨/٣.
- (١٤) أخرجه الطبري: ٢٥٠/٢٢.

قال الزجاج: " قيل: لولا أن يقتلوا منهم قوما مؤمنين خطأ فتلزمكم الديات، والمعنى - والله أعلم - لولا كراهة أن يلحقكم عنت بأن قتلتم من هو على دينكم إذ أنتم مختلطون بهم لعذبتا الذين كفروا منهم عذابا أليما"^(١).

قال الواحدي: " أما غرم الدية فهو قول محمد بن إسحاق بن يسار، وهو غلط لأن الله تعالى لم يوجب على قاتل المؤمن خطأ في دار الحرب الدية، وإنما أوجب الكفارة في قوله: {قَاتِلْ كَانٍ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ} [النساء: ٩٢]، فالصحيح أن يقال: غرم الكفارة"^(٢).

الرابع: الشدة، قاله قطرب^(٣).
الخامس: الغم. حكاه الماوردي^(٤).
السادس: كفارة قتل الخطأ، قاله الكلبي^(٥)، والطبري^(٦).

قال الطبري: " المعرّة: هي المفعلة من: العرّ، وهو الجرب"^(٧)، وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تعرّون بها، يلزمكم من أجلها كفارة قتل الخطأ، وذلك عتق رقبة مؤمنة، من أطاق ذلك، ومن لم يطق فصيام شهرين، وإنما اخترت هذا القول..، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه الكفارة دون الدية، فقال: {قَاتِلْ كَانٍ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} لم يوجب على قاتله خطأ دية"^(٨).

السابع: أن المعرّة: العيب. قاله ابن قتيبة^(٩)، والنحاس^(١٠).

قال النحاس: " يقول المشركون قتلوا أهل دينهم ولو فعلتم لأدخلهم الله في رحمته"^(١١).
قال ابن قتيبة: " كان بمكة قوم مؤمنون مختلطون بالمشركين غير متميزين ولا معروفين الأماكن، فلما صد المشركون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن المسجد الحرام وعكفوا الهدي أن يبلغ محله. قال الله سبحانه: لولا أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعرفونهم فتطؤهم لو دخلتموها، أي تقتلوهم ليدخلهم الله في رحمته لو فعلتم فتصيبكم من قتلهم بغير علم معرّة، أي: يعيبكم المشركون بذلك ويقولون: قد قتلوا أهل دينهم وعذبوهم كما فعلوا بنا، وتلزمكم الديات"^(١٢).

قوله تعالى: {لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [الفتح: ٢٥]، أي: " لكنّا سلطناكم عليهم؛ ليدخل الله في رحمته من يشاء فيمنّ عليهم بالإيمان بعد الكفر"^(١٣).

قال الطبري: " يقول: ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها، وحذف جواب لولا استغناء بدلالة الكلام عليه"^(١٤).

قال ابن كثير: " أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام"^(١٥).

(١) معاني القرآن: ٢٧/٥.

(٢) التفسير البسيط: ٣١٦/٢٠.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٠/٢٢.

(٧) في مجاز القرى أن لأبي عبيدة: ٢١٧/٢: " جناية كجناية العرّ وهو الجرب".

(٨) تفسير الطبري: ٢٥٠/٢٢.

(٩) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢١٥.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٥١٠/٦.

(١١) معاني القرآن: ٥١٠/٦.

(١٢) تأويل مشكل القرآن: ٢١٥.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٤.

(١٤) تفسير الطبري: ٢٥٠/٢٢.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٣٤٤/٧.

قال مقاتل: "منهم: عياش بن أبي ربيعة، وأبو جندل ابن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام بن المغيرة، كلهم من قريش وعبد الله بن أسد الثقفي" (١).
قوله تعالى: {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح : ٢٥]، أي: "لو تميز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات عن مشركي «مكة» وخرجوا من بينهم، لعذبنا الذين كفروا وكذبوا منهم عذابًا مؤلمًا موجعًا" (٢).

قال الفراء: أي: "لو تميز وخلص الكفار من المؤمنين، لأنزل الله بهم القتل والعذاب" (٣).
قال الطبري: "يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم، لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل" (٤).

قال مقاتل: "يقول: لو اعتزل المؤمنون الذين بمكة من كفارهم {لعذبنا الذين كفروا منهم}، يعني: كفار مكة {عذابا أليما}، يعني: وجيعا وهو القتل بالسيف" (٥).
قال ابن كثير: "أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم {لعذبنا الذين كفروا منهم} عذابا أليما، أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا" (٦).

عن الضحاك، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}، يعني: أهل مكة كان فيهم مؤمنون مستضعفون: يقول الله لولا أولئك المستضعفون لو قد تزَيَّلُوا، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما" (٧).

قال أبو عبيدة: " {لَوْ تَزَيَّلُوا} : لو انمازوا" (٨).
عن قتادة، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا} ... الآية، إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار" (٩).
عن ابن زيد، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا} : لو تفرقوا، فتفرق المؤمن من الكافر، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما" (١٠).

قال ابن عباس: "يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم" (١١).

القرآن

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)}

[الفتح : ٢٦]

التفسير:

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأتفة الأنفة الجاهلية؛ لئلا يقرؤا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك امتناعهم أن يكتبوا في صلح «الحديبية» «بسم الله الرحمن الرحيم» وأبوا أن يكتبوا «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فأنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين معه، وألزمهم قول «لا إله إلا الله» التي هي رأس كل تقوى، وكان الرسول صلى الله

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٣) معاني القرآن: ٦٨/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٢٥٠/٢٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٤٤/٧.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٥١/٢٢.

(٨) مجاز القرآن: ٢١٧/٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٥١/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٥١/٢٢.

(١١) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٤٥/٧.

عليه وسلم والمؤمنون معه أحق بكلمة التقوى من المشركين، وكانوا كذلك أهل هذه الكلمة دون المشركين. وكان الله بكل شيء عليماً لا يخفى عليه شيء. سبب النزول:

عن الأجلح؛ قال: "كان حمزة بن عبد المطلب رجلاً حسن الشعر، حسن الهيئة، صاحب صيد، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر على أبي جهل فولع به وآذاه، فرجع حمزة من الصيد وامرأتان تمشيان خلفه؛ فقالت إحداهما: لو علم ذا ما صنع بآبئ أخيه؛ أقصر عن مشيته؛ فالتفت إليهما، فقال: وما ذاك؟ قالت: أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا، فدخلته الحمية، فجاء حتى دخل المسجد وفيه أبو جهل فعلا رأسه بقوسه، ثم قال: ديني دين محمد إن كنتم صادقين، فامنعوني؛ فقامت إليه قريش، فقالوا: يا أبا يعلى؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾؛ قال: حمزة بن عبد المطلب" (١). [ضعيف] قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، أي: "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأنفة الأنفة الجاهلية؛ لئلا يقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم" (٢).

وفي «حمية الجاهلية»، ثلاثة أقوال:

أحدها: العصبية لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، والأنفة من أن يعبدوا غيرها، قاله ابن بحر (٣).

الثاني: أنهم لم يقرّوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت، قال الزهري (٤). قال ابن كثير: "وذلك حين أبوا أن يكتبوا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»" (٥).

قال الطبري: يعني: "حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع إن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه: محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه ذلك.. وقال {حمية الجاهلية}، لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله" (٦).

عن سعيد بن المسيب: "أن أبا هريرة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». وأنزل الله في كتابه، فذكر قوما استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال الله ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا»، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية، يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدة»" (٧).

الثالث: حموا أنفاً أن يدخلها عليهم رسول الله صلى الله عليه. قاله مقاتل (٨)، والفرء (٩).

قال مقاتل: "وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قدم عام الحديبية في ذي القعدة معتمراً ومعه الهدى، فقال كفار مكة: قتل آباءنا وإخواننا ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا ونساءنا،

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٢٠/٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٢/٢٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٤٥/٧.

(٦) تفسير الطبري: ٢٥١/٢٢ - ٢٥٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٥٢/٢٢.

(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤ - ٧٦.

(٩) انظر: معاني القرآن: ٦٨/٣.

وتقول العرب: إنه دخل على رجم أنافنا، والله لا يدخلها أبدا علينا، فتلك الحمية التي في قلوبهم (١)»

عن أبي بن كعب: " أنه كان يقرأ: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح : ٢٦]، ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال : إنك لتعلم أنني كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمني مما علمه الله. فقال عمر : بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فأقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله" (٢).

قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح : ٢٦]، أي: "فأنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين معه" (٣).

قال الطبري: يقول: "فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين، إذ حمى الذين كفروا حمية الجاهلية، ومنعواهم من الطواف بالبيت، وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله" (٤).

قال الزجاج: "أنزل الله عليهم الوقار والهيبة" (٥).

وقال الفراء: "يقول: أذهب الله عن المؤمنين أن يدخلهم ما دخل أولئك من الحمية، فيعصوا الله ورسوله" (٦).

قوله تعالى: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح : ٢٦]، أي: "وألزمهم قول «لا إله إلا الله» التي هي رأس كل تقوى" (٧).

قال الطبري: "يقال: ألزمهم قول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار، وأليم العذاب" (٨).

وفي قوله تعالى: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح : ٢٦]، وجوه:

أحدها: أنها قول لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس (٩)، وجماعة، وهو يروي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- (١٠).

قال ابن عباس: "يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، فهي كلمة التقوى، يقول: فهي رأس التقوى" (١١).

وقال عطاء الخراساني: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" (١٢).

قال مقاتل: "يعني: كلمة الإخلاص، وهي- لا إله إلا الله- (١٣).

عن مجاهد: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله" (١٤).

قال قتادة: "وهي: شهادة إن لا إله إلا الله" (١٥).

قال عكرمة: "شهادة أن لا إله إلا الله" (١٦).

قال الضحاك، وابن زيد: "هي لا إله إلا الله" (١٧).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٥/٤-٧٦.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٤٦/٧.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٤) تفسير الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(٥) معاني القرآن: ٢٧/٥.

(٦) معاني القرآن: ٦٨/٣.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٨) تفسير الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٦/٤.

(١٤) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(١٥) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(١٦) أخرجه الطبري: ٢٥٥/٢٢.

عن عمرو بن ميمون: "أنه كان يقول في هذه الآية {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله"^(٢).

عن عمرو بن ميمون: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله"^(٣).

عن علي-رضي الله عنه-، قوله: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله"^(٤).
عن عليّ الأزدي، قال: "كنت مع ابن عمر بين مكة ومنى بالمأزمين، فسمع الناس يقولون: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال: هي هي، فقلت: ما هي؟ قال: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} الإخلاص {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}"^(٥).

عن الطفيل، عن أبيه، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: «لا إله إلا الله»"^(٦).

قال مقاتل: "يعني: كلمة الإخلاص وهي- لا إله إلا الله-"^(٧).

الثاني : أنها: قول: «لا إله إلا الله، والله أكبر». وهذا مروى عن علي بن أبي طالب-أيضا^(٨)، وابن عمر^(٩).

الثالث : أنها قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. قاله عطاء^(١٠).

وعن المسور: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} قال : لا إله إلا الله، وحده لا شريك له"^(١١).

الرابع : الإخلاص ، قاله مجاهد^(١٢).

عن مجاهد: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: الإخلاص"^(١٣)، وفي رواية: "كلمة الإخلاص"^(١٤).

الخامس : أنها: قول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قاله الزهري^(١٥).

السادس: أنها: لا إله إلا الله والجهاد في سبيله. قاله سعيد بن جبیر^(١٦).

السابع: قولهم: «سمعنا وأطعنا» بعد خوضهم . وسميت كلمة التقوى لأنهم يتقون بها غضب الله. حكاه الماوردي^(١٧).

قوله تعالى: {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} [الفتح : ٢٦]، أي: "وكان الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه أحق بكلمة التقوى من المشركين، وكانوا كذلك أهل هذه الكلمة دون المشركين"^(١٨).

قال ابن كثير: "كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها"^(١٩).

(١) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٥٤/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٦/٤.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٥٣/٢٢.

(٩) رواه الثوري كما في تفسير ابن كثير: ٣٤٦/٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٦/٢٢.

(١١) رواه يونس بن بكير، كما في تفسير ابن كثير: ٣٤٦/٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٥/٢٢.

(١٦) حكاه عنه ابن كثير في التفسير: ٣٤٦/٧.

(١٧) انظر: النكت والعيون: ٣٢١/٥.

(١٨) التفسير الميسر: ٥١٤.

(١٩) تفسير ابن كثير: ٣٤٦/٧.

قال الطبري: يقول: " وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والمؤمنون أحقّ بكلمة التقوى من المشركين وأهلها: يقول: وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون أهل كلمة التقوى دون المشركين" (١).

قال الزجاج: " أي: كانوا أحقّ بها من غيرهم، لأن الله - جل وعز - اختار لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ولدينه أهل الخير ومستحقه، ومن هو أولى بالهداية من غيره" (٢).
قال قتادة: " وكان المسلمون أحقّ بها، وكانوا أهلها: أي التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله" (٣).

وفي قراءة عبدالله: «وكانوا أهلها وأحقّ بها» (٤).
قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح: ٢٦]، أي: " وكان الله بكل شيء عليمًا لا يخفى عليه شيء" (٥).

قال ابن كثير: " أي: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر" (٦).
قال الطبري: يقول: " ولم يزل الله بكل شيء ذا علم، لا يخفى عليه شيء هو كائن، ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخولكم مكة في سفرتكم هذه" (٧).
فوائد الآيتين: [٢٥-٢٦]:

١- بيان حكم المحصر وهو من منع من دخول المسجد الحرام وهو محرم بحج أو بعمره فإنه يتحلل بذبح هدي ويعود إلى بلاده، ويذبح الهدي حيث أحصر، وليس واجبا إدخاله إلى الحرم.

٢- الأخذ بالحيطه في معاملة المسلمين حتى لا يؤدي مؤمن أو مؤمنة بغير علم.

٣- بيان أن كلمة التقوى هي لا إله إلا الله.

٤- الإشارة إلى ما أصاب المسلمين من ألم نفسي من جراء الشروط القاسية التي اشترطها ممثل قريش ووثيقة الصلح. وهذا نص الوثيقة وما تحمله من شروط لم يقدر عليها إلا رسول الله بما آتاه الله من العلم والحكمة والحلم والصبر والوقار، ولما أنزل الله ذلك على المؤمنين من السكينة فحملوها وارتاحت نفوسهم لها نص الوثيقة: (ورد أن قريشا لما نزل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحديدية بعثت إليه ثلاثة رجال هم سهيل بن عمرو القرشي، وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرجع من عامه ذلك على أن يخلي له قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام فقبل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي بن أبي طالب أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا: ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم، فكتب ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتب ما يريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا وتم الصلح على ثلاثة أشياء هي:

أ- أن من أتاهم من المشركين مسلماً ردوه إليهم.

ب- أن من أتاهم من المسلمين لم يردوه إليهم.

(١) تفسير الطبري: ٢٥٦/٢٢.

(٢) معاني القرآن: ٢٨/٥.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٥٦/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٦/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٤٦/٧.

(٧) تفسير الطبري: ٢٥٦/٢٢.

ت- أن يدخل الرسول والمؤمنون مكة من عام قابل ويقيمون بها ثلاثة أيام لا غير ولا يدخلها بسلاح. فلما فرغ من الكتاب قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا فنحروا ثم احلقوا.

القرآن

{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} {٢٧} [الفتح : ٢٧]

التفسير:

لقد صدق الله رسوله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - رؤياه التي أراها إياه بالحق أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا تخافون أهل الشرك، محلقين رؤوسكم ومقصرين، فعلم الله من الخير والمصلحة -في صرفكم عن «مكة» عامكم ذلك ودخولكم إليها فيما بعد- ما لم تعلموا أنتم، فجعل من دون دخولكم «مكة» الذي وعدتم به، فتحًا قريبًا، وهو هدنة «الحديبية» وفتح «خير».

سبب النزول:

عن مجاهد؛ قال: "أري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بالحديبية أنه يدخل مكة وهو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فقال له أصحابه -حين نحر بالحديبية-: أين رؤياك يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟! فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ} إلى قوله: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}؛ يعني: النحر بالحديبية، ثم رجعوا ففتحوا خيبر، ثم اعتمر بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة"^(١).

وروي عن عطاء؛ "خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - معتمرًا، حتى أتى الحديبية، فخرجت إليه قريش، فردوه عن البيت، حتى كان بينهم كلام وتنازع؛ حتى كاد يكون بينهم قتال، قال: فبايع النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، وعدتهم ألف وخمسة مئة تحت الشجرة، وذلك يوم بيعة الرضوان، فقاضاهم النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقالت قريش: نقاضيك على أن تنحر الهدى مكانه، وتطلق وترجع، حتى إذا كان العام المقبل؛ نخلي لك مكة ثلاثة أيام، ففعل. قال: فخرجوا إلى عكاظ، فأقاموا فيها ثلاثًا، واشترطوا عليه أن لا يدخلها بسلاح إلا بالسيف، ولا تخرج بأحد من أهل مكة إن هرج معك، فنحر الهدى مكانه وحلق ورجع، حتى إذا كان في قابل تلك الأيام؛ دخل مكة، وجاء بالبدن معه، وجاء الناس معه، فدخل المسجد الحرام؛ فأنزل الله عليه: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}، قال: وأنزل عليه: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤]، فإن قاتلوكم في المسجد الحرام فقاتلوهم، فأحل لهم إن قاتلوهم في المسجد الحرام أن يقاتلوهم. فاتاه أبو جندل بن سهل بن عمرو، وكان موثقًا، أوثقه أبوه، فرده إلى أبيه"^(٢).

قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [الفتح : ٢٧]، أي: "لقد صدق الله رسوله محمدًا - صلى الله

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥٩/٢٢)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٦٤) من طرق عن ابن أبي نجيح عنه به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٣٨/٧) وزاد نسبه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٤٣٤ / ١٤) - (٤٣٥ / ٤٣٥) : حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عطاء به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. الثانية: أشعث بن سوار؛ ضعيف.

عليه وسلم - رؤياه التي أراها إياه بالحق أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا تخافون أهل الشرك، محلّقين رؤوسكم ومقصرين" (١).

قال الطبري: يقول: " لقد صدق الله رسوله محمدا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرا بعضهم رأسه، ومحلّقا بعضهم" (٢).

قال ابن عباس: " هو دخول محمد صلى الله عليه وسلم البيت والمؤمنون، محلّقين رؤوسهم ومقصرين" (٣).

قال مجاهد: " أرى بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم؟" (٤).

قال قتادة: " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يطوف بالبيت وأصحابه، فصَدّق الله رؤياه، فقال: {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} ... حتى بلغ: {لَا تَخَافُونَ} " (٥).
قال قتادة: " أرى في المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام، وأنهم آمنون محلّقين رؤوسهم ومقصرين" (٦).

قال ابن زيد: " قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ»، فلما نزل بالحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: {لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}، فقرأ حتى بلغ: {وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} إني لم أراه يدخلها هذا العام، وليكون ذلك" (٧).

قال ابن إسحاق: " لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أريها أنه سيدخل مكة آمنة لا يخاف، يقول: محلّقين ومقصرين لا تخافون" (٨).

قال ابن كثير: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: "بلى، فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا" قال: لا قال: "فإنك أتته ومطوف به". وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضا حدو الفدة بالفدة؛ ولهذا قال تعالى: {لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}، وقوله: {آمِنِينَ}، أي: في حال دخولكم. وقوله: {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمتهم لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رحم الله المحلّقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "رحم الله المحلّقين". قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "رحم الله المحلّقين". قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "رحم الله المحلّقين" في الثالثة أو الرابعة" (٩).

(١) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٢) تفسير الطبري: ٢٥٧/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٥٧/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٥٧/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٥٧/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٥٨/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٥٨/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٥٨/٢٢.

(٩) صحيح البخاري برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن كثير: "...وقوله: {لَا تَخَافُون} (١): حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سيماك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيال وال سلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرمح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: "وما ذاك؟" قال: دخلت: علينا بالسلاح والقسي والرمح. فقال: "لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج"، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقته رسول الله صلى الله عليه وسلم يقودها، وهو يقول (٢):

باسم الذي لا دين إلا دينه... باسم الذي محمدٌ رسوله
 خَلُّوا بني الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ... اليوم نضربكم على تأويله
 كما ضربناكم على تنزيله... ضرباً يزيلُ الهام (٣) عَنْ مَوِيلِهِ
 وَيُذْهِلُ الخليل عن خليله... قد أنزل الرحمن في تنزيله
 في صُحُفٍ تتلى على رسوله... بأن خير القتل في سبيله
 يا رب إني مؤمن بقبيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة (٤).

وفي قوله تعالى: {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ} [الفتح: ٢٧]، ثلاثة وجوه: أحدها: أن «إن» بمعنى: «إذ»، والمعنى: إذ شاء الله، كقوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٢٧٨]، {إِنْ أَرَدَنْ تَحْصُنَا} [النور: ٣٣]. وهذا قول أبي عبيدة (٥)، واختاره القشيري (١).

(١) قال الصابوني: "وليس فيه تكرارٌ لأن المراد آمنين وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج". [صفوة التفاسير: ٢١٠/٣]

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية (٢٣٥)، وفي الأدب برقم (٢٨٥٢)، والنسائي السنن (٢٨٧٣): ص ٢٠٢/٥، وفي بعض الروايات: "فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر فقال صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضج النبل".

(٣) الهام: جمع هامة وهو الرأس هنا. ومقبلة: مستعار من موضع القائلة، ويريد الأعناق.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٥٦/٧-٣٥٧.

(٥) ولم أجد في مجاز القرآن، ونسبه إليه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٤/٩، والبيهقي في التفسير: ٣٢٣/٧، وابن الجوزي في "زاد المسير" ٤٤٣/٧ والقرطبي ٢٩٠/١٦، وأبو حيان في "البحر المحيط" ١٠١/٨، والواحدي في "الوسيط" ٤/٤٥٥، وقال النحاس في "إعراب القرآن" ٤/٢٠٤: (وقد زعم بعض أهل اللغة أن

الثاني : أن الاستثناء من الدخول، ومعناه: إن شاء الله في دخول جميعكم أو بعضكم، ولأنه علم أن بعضهم يموت، قاله الحسين بن الفضل^(١)، وحكاه النحاس وحسنه^(٢).
قال الحسين بن الفضل: "يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول، لأن بين الرؤيا وتصديقها سنة، ومات في تلك السنة ناس فمجاز الآية: لتدخلن المسجد الحرام كلكم إن شاء الله"^(٤).

قال النحاس: "ومن حسن ما فيه: أن يكون الاستثناء لمن قتل منهم أو مات"^(٥).
الثالث : أن الاستثناء واقع على الأمن لا على الدخول، لأن الدخول لم يكن فيه شك، كقول النبي صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(٦)، فالاستثناء راجع إلى اللحوق لا إلى الموت. حكاه النحاس^(٧)، والبغوي^(٨).

الرابع : أن قوله: {لَتَدْخُلَنَّ} [الفتح : ٢٧] من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حكاية عن رؤياه، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، وإنما استثنى مع علمه بدخولها بإخبار الله تعالى، تأدبا بأداب الله^(٩)، حيث قال له: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا} (٢٣) {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ} [الكهف : ٢٣-٢٤]. هذا قول ابن كيسان^(١٠)، وحسنه الواحدي^(١١).

قال الواحدي: "والاستثناء بالمشيئة على هذا القول حسن، لأنه من كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، ثم معنى الاستثناء بالمشيئة يجوز أن يعود إلى الدخول، ويجوز أن يعود إلى الأمن، أي: لتدخلنه إن شاء الله الدخول، أو لتدخلنه آمنين إن شاء الله الأمن"^(١٢).
الخامس: معناه: لتدخلن إن أمركم الله، فالمشيئة هاهنا بمعنى الأمر؛ لأنه إذا شاء أمر. ذكره الزجاج^(١٣).

السادس: أن يكون {إن شاء الله} على ما أمر الله به في كل ما يتوقع فقال: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا} (٢٣) {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} (٢) [الكهف: ٢٣]، ذكره الزجاج^(١٤).
وهذا معنى ما روي عن أبي العباس أنه سئل عن هذا، فقال: "استثنى الله فيما يعلم، ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون"^(١٥).

المعنى لتدخلن المسجد الحرام إذ شاء الله وزعم أنه مثل قوله: {وَدَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} وأن مثله: {وإنا إن شاء الله بكم لاحقون} وهذا قول لا يعرج عليه ولا يعرف أحد من النحويين (إن) بمعنى (إذ) وإنما تلك (أن) فَعَلْتُ وبينهما فصل في اللغة والأحكام عند الفقهاء والنحويين). وقال ابن عطية: وقال قوم: إن بمعنى إذ فكأنه قال: إذ شاء الله، وهذا حسن في معناه، ولكن كون إن بمعنى إذ غير موجود في لسان العرب. انظر: "المحرر الوجيز" لابن عطية ١٥ / ١٢٠.

(١) انظر: لطائف الإشارات: ٤٣٢/٣.
(٢) حكاه عنه البغوي في التفسير: ٣٢٣/٧.
(٣) انظر: إعراب القرآن: ١٣٦/٤ وحكاه الماوردي عن بعضهم: انظر: النكت والعيون: ٣٢٢/٥.
(٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٤/٩، والبغوي في التفسير: ٣٢٣/٧.
(٥) إعراب القرآن: ١٣٥/٤-١٣٦.
(٦) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم: (٩٧٥) : ٢ / ٦٧١.

(٧) انظر: إعراب القرآن: ١٣٥/٤.
(٨) انظر: تفسير البغوي: ٣٢٣/٧.
(٩) أي: قالها على جهة تنبيههم إلى التأدب بتقديم المشيئة في خطابهم.
(١٠) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٤/٩، والبغوي في التفسير: ٣٢٣/٧.
(١١) التفسير البسيط: ٣٢٢/٢٠، وقال الثعلبي: "يجوز أن يكون الاستثناء واقعا على الخوف والأمن، لا على الدخول..". [الكشف والبيان: ٦٤/٩].
(١٢) التفسير البسيط: ٣٢٢/٢٠.
(١٣) معاني القرآن: ٢٨/٥.
(١٤) معاني القرآن: ٢٨/٥.
(١٥) نقلا عن: التفسير البسيط للواحدي: ٣٢٣/٢٠، وذكر ذلك ابن الجوزي في "زاد المسير" ٧ / ٤٤٣، والقرطبي في "التفسير": ١٦ / ٢٩٠ عن ثعلب.

قال سهل بن عبدالله: " قيل: ما هذا الاستثناء؟ قال: هذا تعليم للعباد وتأديب لهم بشدة الافتقار إليه في كل وقت وحال وتأكيد، فإن الحق إذا استثنى مع كمال علمه لم يكن لأحد من عباده مع قصور علمهم أن يحكم في شيء من غير استثناء" (١).

قال ابن كثير: قوله: " {لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ} : لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء" (٢).

قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} [الفتح : ٢٧]، أي: "فعلم الله من الخير والمصلحة -في صرفكم عن «مكة» عامكم ذلك ودخولكم إليها فيما بعد- ما لم تعلموا أنتم" (٣).

قال الطبري: يقول: "فعلم الله جل ثناؤه ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطنوهم بالخيل والرجل، فأصابتهن منهم معرفة بغير علم، فردّهم الله عن مكة من أجل ذلك" (٤).

قال الثعلبي: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} أن الصلاح كان في الصلح، وهو قوله: {وَلَوْ لَأَنَّ رَجَالَ مُؤْمِنُونَ..} [الفتح : ٢٥] الآية" (٥).

قال الفراء: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} من تأخير تأويل الرويا" (٦).

قال السمعاني: " أي: وقت ظهور الرويا" (٧).

قال مقاتل: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} أنه يفتح عليهم خبير قبل ذلك" (٨).

قال ابن أبي زمنين: أي: "فتح خبير" (٩).

عن ابن عباس، قوله: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}، يقول: إن ذلك الدخول أي سنة؟ ولم تعلموا أنتم" (١٠).

قال ابن زيد: "ردّه لمكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات، وأخره ليدخل الله في رحمته من يشاء من يريد أن يهديه" (١١).

قوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح : ٢٧]، أي: "فجعل من دون دخولكم «مكة» الذي وعدتم به، فتحًا قريبًا، وهو هدنة «الحديبية» وفتح «خبير»" (١٢).

وفي قوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح : ٢٧]، ثلاثة وجوه: أحدها: أنه الصلح الذي جرى بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقريش بالحديبية، قاله مجاهد (١٣)، والزهري (١٤)، وابن إسحاق (١٥).

قال مجاهد: "يعني: النحر بالحديبية، ثم رجعوا ففتحوها خبير، ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة" (١٦).

- (١) تفسير التستري: ١٤٨.
- (٢) تفسير ابن كثير: ٣٥٦/٧.
- (٣) التفسير الميسر: ٥١٤.
- (٤) تفسير الطبري: ٢٥٨/٢٢.
- (٥) الكشف والبيان: ٦٤/٩.
- (٦) معاني القرآن: ٦٧/٣.
- (٧) تفسير السمعاني: ٢٠٧/٥.
- (٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٧/٤.
- (٩) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٨/٤.
- (١٠) حكاه عنه الماتريدي في تأويلات أهل السنة: ٣١٤/٩.
- (١١) أخرجه الطبري: ٢٥٨/٢٢.
- (١٢) التفسير الميسر: ٥١٤.
- (١٣) انظر: تفسير مجاهد: ٦٠٨.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٩/٢٢.
- (١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٩/٢٢.
- (١٦) تفسير مجاهد: ٦٠٨.

عن الزهري، قوله: "{فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}"، يعني: صلح الحُدَيْبِيَّة، وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث ألتقى الناس؛ فلما كانت الهدنة وضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السننين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر"^(١).

قال الثعلبي: "أي: "{فَجَعَلَ مِنْ دُونِ دُخُولِهَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَحْقِيقَ رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ فَتْحًا قَرِيبًا وَهُوَ صَلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَنْ أَكْثَرِ الْمَفْسُرِينَ}"^(٢).
الثاني: أنه فتح خيبر. قاله ابن زيد^(٣).

عن ابن زيد، قوله: "{فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}"، قال: خيبر، حين رجعوا من الحُدَيْبِيَّة، فتحها الله عليهم، فقسمها على أهل الحُدَيْبِيَّة كلهم إلا رجلاً واحداً من الأنصار، يقال له: أبو دجانة سماك بن خرشة، كان قد شهد الحُدَيْبِيَّة وغاب عن خيبر"^(٤).
الثالث: فتح مكة، قاله الضحاك^(٥).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه جعل لرسوله والذين كانوا معه من أهل بيعة الرضوان فتحاً قريباً من دون دخولهم المسجد الحرام، ودون تصديقه رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلح الحُدَيْبِيَّة وفتح خيبر دون ذلك، ولم يخص الله تعالى ذكره خبره ذلك عن فتح من ذلك دون فتح، بل عم ذلك، وذلك كله فتح جعله الله من دون ذلك.

والصواب أن يعمه كما عمه، فيقال: جعل الله من دون تصديقه رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخوله وأصحابه المسجد الحرام محلّقين رعوسهم ومقصرين، لا يخافون المشركين صلح الحُدَيْبِيَّة وفتح خيبر"^(٦).

القرآن

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)}

[الفتح : ٢٨]

التفسير:

هو الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، بالبيان الواضح ودين الإسلام؛ ليُعَلِّمَهُ عَلَى الْمَلِكِ كُلِّهَا، وَحَسْبُكَ -أيها الرسول- بالله شاهداً على أنه ناصرٌ دينك ومظهر دينك على كل دين.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ} [الفتح : ٢٨]، أي: "هو الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، بالبيان الواضح ودين الإسلام"^(٧).

قال الطبري: يعني: "الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالبيان الواضح، ودين الحق، وهو الإسلام؛ الذي أرسله داعياً خلقه إليه"^(٨).

قال ابن كثير: "أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل"^(٩).

(١) تفسير مجاهد: ٦٠٨.

(٢) الكشف والبيان: ٦٤/٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٩/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٥٩/٢٢.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٢٢/٧.

(٦) تفسير الطبري: ٢٦٠-٢٥٩/٢٢.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٨) تفسير الطبري: ٢٦٠/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٦٠/٧.

قال السعدي: {بِالْهُدَى} الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر، {وَدِينِ الْحَقِّ} أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار" (١).

قوله تعالى: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [الفتح : ٢٨]، أي: "لِيُعْلِيَهُ عَلَى الْمَلَلِ كُلِّهَا" (٢).

قال مقاتل: "يعني: على ملة أهل الأديان كلها، ففعل الله ذلك به حتى قتلوا وأقروا بالخراج، وظهر الإسلام على أهل كل دين" (٣).

قال الطبري: يعني: "ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها، غير دين الله الذي بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم، ويظهر الإسلام على الأديان كلها" (٤).

قال ابن كثير: "أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم ومليين ومشركين" (٥).

قال السعدي: {لِيُظْهِرَهُ} بما بعثه الله به {عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} بالحجة والبرهان، ويكون داعيا لإخضاعهم بالسيف والسنان" (٦).

قال الفراء: "يقال: لا تذهب الدنيا حتى يغلب الإسلام على أهل كل دين، أو يؤدوا إليهم الجزية، فذلك قوله {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}" (٧).

عن مجاهد: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، قال: "لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا الإسلام وحتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد، والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير فهو قوله: ليظهره على الدين كله" (٨).

وروي عن الضحاك، أنه قال: "يظهر الإسلام على الدين كل دين" (٩).

عن أبي جعفر: "ليظهره على الدين كله"، قال: إذا خرج عيسى عليه السلام، اتبعه أهل كل دين" (١٠).

عن أبي هريرة، أن النبي -صلي الله عليه وسلم- قال: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده، لتنتفنن كنوزهما في سبيل الله" (١١).

قال عبدالله بن مسعود: "إذا أنزل عليهم ابن مريم لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام. قال: فذلك قوله عز وجل: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}" (١٢).

قوله تعالى: {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [الفتح : ٢٨]، أي: "وحسبك -أيها الرسول- بالله شاهداً على أنه ناصرك ومظهر دينك على كل دين" (١٣).

(١) تفسير السعدي: ٧٩٥.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٧/٤.

(٤) تفسير الطبري: ٢٦٠/٢٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦٠/٧.

(٦) تفسير السعدي: ٧٩٥.

(٧) معاني القرآن: ٦٨/٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٧٢): ص ١٧٨٦/٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٧٢): ص ١٧٨٦/٦.

(١٠) أخرجه الطبري (١٦٦٤٦): ص ٢١٥/١٤.

(١١) المسند (٧١٨٤): ص ٣٥/٧.

(١٢) الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان ونافع بن أبي نعيم القارئ ومسلم بن خالد الزنجي وعطاء

الخراساني برواية أبي جعفر الترمذي (١٠٢): ص ٦٢.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٤.

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: أشهدك يا محمد ربك على نفسه، أنه سيظهر الدين الذي بعثك به وحسبك به شاهداً.. وهذا إعلام من الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه، أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان، مسليهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن، بانصرافهم عن مكة قبل دخولهموها، وقيل طوافهم بالبيت" (١).

قال الحسن: " يقول: أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله" (٢).

قال ابن كثير: " أي: أنه رسوله، وهو ناصره" (٣).

قال مقاتل: " فلا شاهد أفضل من الله- تعالى- بأن محمداً- صلى الله عليه وسلم- رسول الله، فلما كتبوا الكتاب يوم الحديبية، وكان كتبه علي بن أبي طالب- عليه السلام- فقال سهيل بن عمرو وحو يطب بن عبد العزى: لا نعرف أنك رسول الله، ولو عرفنا ذلك لقد ظلمناك إذا حين نمنعك عن دخول بيته. فلما أنكروا أنه رسول الله، أنزل الله- تعالى-: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، {وَالَّذِينَ هُمْ} إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ" (٤).

فوائد الآيتين: [٢٧-٢٨]:

١- تقرير أن رؤيا الأنبياء حق.

٢- تعبير الرؤيا قد يتأخر سنة أو أكثر.

٣- مشروعية الحلق والتقصير للتحلل من الحج أو العمرة وإن الحلق أفضل لتقدمه.

٤- مشروعية قول إن شاء الله في كل قول أو عمل يراد به المستقبل.

٥- الإسلام هو الدين الحق وما عداه فباطل.

القرآن

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)} [الفتح : ٢٩]

التفسير:

محمد رسول الله، والذين معه على دينه أشداء على الكفار، رحماء فيما بينهم، تراهم ركعاً سجداً لله في صلاتهم، يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة، ويرضى عنهم، علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة، هذه صفتهم في التوراة. وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك، وشدت الزرع، فقوي واستوى قائماً على سيقانه جميلاً منظره، يعجب الزرّاع؛ ليغيب بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، مغفرة لذنوبهم، وثواباً جزيلاً لا ينقطع، وهو الجنة.

قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} [الفتح : ٢٩]، أي: " هذا الرسول المسمّى محمداً هو رسول الله حقاً لا كما يقول المشركون" (٥).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: محمد رسول الله" (٦).

قال ابن كثير: " يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل" (١).

(١) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٦١/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٦٠/٧.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٧/٤.

(٥) صفوة النقايسير: ٢١١/٣.

(٦) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.

قال مقاتل: " ثم قال- تعالى- للذين أنكروا أنه رسول : {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} "(٢). قوله تعالى: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح : ٢٩]، أي: " والذين معه على دينه أشداء على الكفار، رحماء فيما بينهم" "(٣). قال الطبري: يقول: " وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه، غليظة على الكفار قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم" "(٤). قال مقاتل: " {وَالَّذِينَ مَعَهُ} من المؤمنين {أشِدَّاءُ}، يعني: غلظاء {عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، يقول متوادين بعضهم لبعض" "(٥). قال الزجاج: " وصفهم الله بأن بعضهم متحنن على بعض، وأن عليهم السكينة والوقار، وبعضهم يخلص المودة لبعض، وهم أشداء على الكفار" "(٦). قال السعدي: " يخبر تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم {أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق" "(٧). قال ابن كثير: " تنى بالثناء على أصحابه فقال: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، كما قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة : ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيفا براء بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة : ١٢٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر» "(٨)، وقال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه» "(٩)" "(١٠). عن قتادة: " {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض" "(١١). عن ابن عباس، قوله: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، أصحابه مثلهم، يعني: نعتهم مكتوبا في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق السموات والأرض" "(١٢). قوله تعالى: {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح : ٢٩]، أي: " تراهم ركعاً سجداً لله في صلاتهم" "(١٣). قال مقاتل: " يقول إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل ركوع وسجود في الصلوات" "(١٤).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٦٠/٧.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٨-٧٧/٤.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٤) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٨/٤.

(٦) معاني القرآن: ٢٨/٥.

(٧) تفسير السعدي: ٧٩٥.

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٠١١) ومسلم فس صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٩) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٦٠/٧-٣٦١.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٦١/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٥.

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٨/٤.

قال الفراء: أي: "في الصلاة"^(١).
قال الطبري: "يقول: تراهم ركعا أحيانا لله في صلاتهم سجدا أحيانا"^(٢).
قال ابن كثير: "وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال"^(٣).
قال السعدي: "وأما معاملتهم مع الخالق فإنك {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود"^(٤).
قوله تعالى: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} [الفتح : ٢٩]، أي: "يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة، ويرضى عنهم"^(٥).
قال الطبري: "يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضا، فضلا من الله، وذلك رحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم، فيدخلهم جنته، وأن يرضى عنهم ربهم"^(٦).
قال ابن أبي زمنين: "يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا" "بالصلاة والصوم والدين كله"^(٧).
قال السعدي: "يَبْتَغُونَ} بتلك العبادة {فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه"^(٨).
قال ابن كثير: "ووصفهم بالإخلاص فيها"^(٩)، عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة : ٧٢]"^(١٠).
قوله تعالى: {سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح : ٢٩]، أي: "علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة"^(١١).
قال الطبري: "يقول: علامتهم في وجوههم من أثر السجود في صلاتهم"^(١٢).
قال السعدي: "أي: قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم"^(١٣).
وفي قوله تعالى: {سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح : ٢٩]، وجوه من التفسير:
أحدها: أنه ثرى الأرض وندى الطهور، قاله سعيد بن جبير^(١٤)، وعكرمة^(١٥).
قال عكرمة: "هو أثر التراب"^(١٦).
قال مالك: "يقال ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود"^(١٧).

- (١) معاني القرآن: ٦٨/٣.
- (٢) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.
- (٣) تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.
- (٤) تفسير السعدي: ٧٩٥.
- (٥) التفسير الميسر: ٥١٥.
- (٦) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.
- (٧) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٥٨/٤.
- (٨) تفسير السعدي: ٧٩٥.
- (٩) أي في صلاتهم.
- (١٠) تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.
- (١١) التفسير الميسر: ٥١٥.
- (١٢) تفسير الطبري: ٢٦١/٢٢.
- (١٣) تفسير السعدي: ٧٩٥.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٤/٢٢.
- (١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٤/٢٢.
- (١٦) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.
- (١٧) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢٦٨): ص ١٣٥/٢.

قال الأوزاعي: "بلغني أنه ما حملت جباههم من الأرض"^(١).
قال أبو العالبي: "يسجدون على التراب لا على الأثواب"^(٢).
قال الثعلبي: "وبلغنا في بعض الأخبار إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا نار أنضجي، يا نار أحرقي، وموضع السجود فلا تقربي"^(٣).
الثاني: أن ذلك علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدنيا. قاله ابن عباس^(٤)، والحسن^(٥)، وعطية العوفي^(٦)، والزهري^(٧). وآخرون.
قال ابن عباس: "صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة"^(٨).
قال الحسن: "بياضا في وجوههم يوم القيامة"^(٩).
قال خالد الحنفي: "يعرف ذلك يوم القيامة في وجوههم من أثر سجودهم في الدنيا، وهو كقوله: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}"^(١٠).
قال عطية: "مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة أشد وجوههم بياضا"^(١١).
قال شهر بن حوشب: "تكون مواضع السجود من وجوههم، كالقمر ليلة البدر"^(١٢).
وعن مقاتل بن حيان، قوله: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"، قال: النور يوم القيامة"^(١٣).
قال الزجاج: "أي: في وجوههم علامة السجود، وهي علامة الخاشعين لله المصلين"^(١٤).
الثالث: أنهم يُبْعَثُونَ غُرّاً محجلين من أثر الطهور، ذكره الزجاج^(١٥).
قال الزجاج: "قيل: يبعثون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الطهور، وهذا يجعله الله لهم يوم القيامة علامة وهي السيماء يبين بها فضلهم على غيرهم"^(١٦).
الرابع: أن ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، يرى من ذلك عليهم في الدنيا.
عن ابن عباس، قوله: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ"، قال: السَّمْتُ الْحَسَنُ"^(١٧).
عن ابن عباس، قوله: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"، قال: أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وسخنته وسمته وخشوعه"^(١٨).
وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة"^(١٩).

(١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٣٩/٤.

(٢) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٣) الكشف والبيان: ٦٦/٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٢/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٦٣/٢٢-٢٦٤.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٢/٢٢، والنكت والعيون: ٣٢٣/٥.

(٧) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٦٢/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٦٣/٢٢-٢٦٤.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٦٢/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٦٢/٢٢.

(١٢) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(١٣) أخرجه الطبري: ٢٦٢/٢٢.

(١٤) معاني القرآن: ٢٩/٥.

(١٥) انظر: معاني القرآن: ٢٩/٥.

(١٦) معاني القرآن: ٢٩/٥.

(١٧) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٨) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٩) المسند (١/٢٩٦) وسنن أبي داود برقم (٤٧٧٦).

قال ابن كثير: "فالصحابة - رضي الله عنهم - خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهدبهم"^(١).
الخامس: أن ذلك من أثر صلاة الليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم. قاله سفيان^(٢)، وآخرون.

قال سفيان الثوري: "يصلون بالليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم، بيانه: قوله: صلى الله عليه وسلم: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(٣)^(٤).
قيل للحسن رحمه الله: "ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره نورا"^(٥).
وقال السدي: "الصلاة تحسن وجوههم"^(٦).
قال عطاء الخراساني: "دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمسة"^(٧).

- (١) تفسير ابن كثير: ٣٦٢/٧.
(٢) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.
(٣) سنن ابن ماجه (١٣٣٣): ص ٤٢٢/١. باطل مرفوعا، والصواب أنه من كلام شريك، قال محمد بن عبد الله بن نمير - كما في "الكامل" لابن عدي في ترجمة ثابت ٢/ ٥٢٦ - : باطل، شبه على ثابت، وذلك أن شريكا كان مزاحا، وكان ثابت رجلا صالحا، فيشتبه أن يكون ثابت دخل على شريك، وكان شريك يقول: الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، فالتفت فرأى ثابتا، فقال يمازحه: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت لغفلته أن هذا الكلام الذي قال شريك هو من الإسناد الذي قرأه، فحملة على ذلك، وإنما ذلك قول شريك، والإسناد الذي قرأه منته معروف. قلنا: وثابت بن موسى كان ضريرا عبدا، وهو ضعيف الحديث أيضا، وأبو سفيان: هو طلحة بن نافع.
وأخرجه العقيلي في ترجمة ثابت من "الضعفاء" ١/ ١٧٦، وابن حبان في ترجمته من "المجروحين" ١/ ٢٠٧، وابن عدي في ترجمته أيضا من "الكامل" ٢/ ٥٢٦، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٤٠٨ - ٤١١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٣٠٩٥)، وابن الجوزي في "الموضوعات" ٢/ ١٠٩ من طريق ثابت بن موسى، بهذا الإسناد.
وأخرجه القضاعي في "مسند الشهاب" (٤١٥)، وابن الجوزي في "الموضوعات" ٢/ ١٠٩ و ١١٠ من طرق عن شريك، به، ومدار هذه الطرق على الضعفاء والمجاهيل والكذابين. قال ابن حبان في "المجروحين" ١/ ٢٠٧: سرق هذا من ثابت جماعة ضعفاء، وحدثوا به عن شريك. وقال مثله ابن عدي.
وروي من غير حديث شريك عن الأعمش:
فأخرجه القضاعي (٤١٧)، وابن الجوزي ٢/ ١٠٩ من طريق محمد بن ضرار ابن ربحان، عن أبيه، عن أبي العنابية الشاعر، عن الأعمش، به. وقال ابن الجوزي: محمد بن ضرار وأبوه مجهولان.
وأخرجه القضاعي (٤١٦) من طريق جرير بن عبد الحميد، و (٤١٥) من طريق حسين بن حفص، و (٤١٥) أيضا من طريق سفيان الثوري، ثلاثتهم عن الأعمش، به. وفي الأسانيد إليهم غير واحد ممن لم نقف له على ترجمة.
وأخرجه القضاعي (٤١٣) من طريق عبد الرزاق، عن الثوري وابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر. وفي إسناده من لم نقف لهم على ترجمة، ونص السخاوي في "فتح المغيب" أن هذه الطريق مسروقة مركبة.
وفي الباب عن أنس:
أخرجه القضاعي في "مسند الشهاب" (٤١٤)، والصيداوي في "معجم الشيوخ" ١/ ١٦٠ من طريق جبارة بن المغلس، عن كثير بن سليم، عن أنس. وجبارة وكثير ضعيفان.
وأخرجه ابن الجوزي في "الموضوعات" ٢/ ١١٠ من طريق حكام بنت عثمان ابن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس. وحكام تروي عن أبيها أحاديث بواطيل ليس لها أصل.
قال السخاوي في "المقاصد الحسنة" ص ٤٢٦: قال ابن طاهر: ظن القضاعي أن الحديث صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور لأنه لم يكن حافظا. انتهى. واتفق أئمة الحديث ابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل عليه.
(٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.
(٥) مختصر إقيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، بو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المرزوي: ٥٨.
(٦) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.
(٧) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٦/٩.

وقال بعضهم : "إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس"^(١).

وقال بعض السلف : "من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار"^(٢).

عن جابر قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار"^(٣).

وقال أمير المؤمنين عثمان : "ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وقلّلت لسانه"^(٤).

وروي عن قتادة: "سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"، يقول: عَلَامَتُهُمُ الصَّلَاةُ أَوْ أَعْلَمَتَهُمُ الصَّلَاةُ"^(٥). وفي رواية: "نَعْتُوا بِالصَّلَاةِ"^(٦)، قال النحاس: أي: يعرفون بالصلاة"^(٧).

قال ابن كثير: "الغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال : «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته»"^(٨).

عن جندب بن سفيان البجلي قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر"^(٩).

عن أبي سعيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائننا ما كان"^(١٠).

السادس : الخشوع والتواضع، قاله مجاهد^(١١).

وروي عن مجاهد، في هذه الآية: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: السَّخْنَةُ^(١٢)"^(١٣).

عن منصور، عن مجاهد: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال : الخشوع. قلت :

ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون"^(١٤).

وفي رواية: " عن مجاهد، في قوله: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: هو الخشوع، فقلت: هو أثر السجود، فقال: إنه يكون بين عينيه مثل ركبة العنز وهو كما شاء الله"^(١٥).

السابع : هو أن يسهر الليل فيصبح مصفراً ، قاله الحسن^(١٦)، والضحاك^(١٧)، والفرء^(١٨). قال عطية: "تهيج في الوجه من سهر الليل"^(١٩).

(١) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.

(٢) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.

(٣) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٣). قال ابن وكثير: ٣٦١/٧: "الصحيح أنه موقوف".

(٤) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٦٥/٢٢.

(٦) حكاه عنه النحاس في "معاني القرآن": ٥١٥/٦.

(٧) معاني القرآن: ٥١٥/٦.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.

(٩) المعجم الكبير (١٧١/٢) قال ابن كثير: ٣٦٢/٧: "العرزمي متروك". وفيه حامد بن آدم كذاب.

(١٠) المسند (٢٨/٣).

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٢) السحنة -يفتح فسكون-: الهيئة واللون والحال، وبشرة الوجه والمنظر.

(١٣) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٤) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٦١/٧.

(١٥) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(١٧) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩، والماوردي في النكت والعيون: ٣٢٣/٥.

(١٨) انظر: معاني القرآن: ٦٩/٣.

وقال سمرة بن عطية: هو البهج، والصفرة في الوجوه، وأثر السهرة^(٢).

قال الحسن: "إذا رأيتهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى"^(٣).

وقال الضحاك: أما إنه ليس بالندب في الوجوه، ولكنه الصفرة^(٤).

الثامن: أنه الوقار، والبهاء. قاله ابن جريج^(٥).

قال النحاس: "أصح ما قيل فيه أنهم يوم القيامة يعرفون بالنور الذي في وجوههم"^(٦).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخص ذلك على وقت دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وأثار أداء فرائضه وتطوعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الغرة في الوجه والتجليل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود"^(٧).

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ} [الفتح: ٢٩]، أي: "هذه صفتهم في التوراة"^(٨).

قال مقاتل: "يقول ذلك الذي ذكر من نعت أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- في

التوراة"^(٩).

قال يحيى بن سلام: "يعني: شبههم في التوراة"^(١٠).

قال الطبري: "يقول: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفة أتباع محمد صلى الله عليه

وسلم الذين معه صفتهم في التوراة"^(١١).

قال ابن كثير: "قال مالك- رحمه الله-: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين

فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ}"^(١٢).

قوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ كَمَثَلِهِمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ

يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩]، أي: "وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك، وشدت الزرع، فقوي واستوى قائماً على سيقانه جميلاً منظره، يعجب الزرع؛ ليغيب بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرتهم الكفار"^(١٣).

قال الطبري: "يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه،

فقواه وأعانه، فغلظ الزرع، {فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ}، جمع ساق، وساق الزرع والشجر: حاملته،

يعجب هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحسن نباته، وبلوغه وانتهاؤه

الذين زرعه {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، يقول: فكذلك مثل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه،

(١) أخرجه الطبري: ٢٦٤/٢٢.

(٢) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٣) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٥) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٥/٩.

(٦) إعراب القرآن: ١٣٦/٤.

(٧) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢٢.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٤.

(٩) تفسير مقاتل بن سيمان: ٧٨/٤.

(١٠) التصاريح لتفسير القرآن مما اشتهبت أسماؤه وتصرفت معانيه: ٢٥٣.

(١١) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢٢.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٢/٧.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٥.

واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغلظ أمرهم كهذا الزرع الذي وصف جلّ ثناؤه صفته، فإن الله تعالى فعل ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار^(١).

قال الفراء: "«شطّوه» : السنبل تنبت الحبة عشرا وثمانيا وسبعا، فيقوى بعضه ببعض، فذلك قوله: {فَأَزْرَهُ}، فأعانه وقواه، فاستغلظ ذلك فاستوى، ولو كانت واحدة لم تقم على ساق، وهو مثل ضربه الله عز وجل للنبي صلى الله عليه إذ خرج وحده ثم قواه بأصحابه، كما قوى الحبة بما نبت منها. أزرت، أوأزره، مؤازرة: قويته، وعاونته، وهي المؤازرة"^(٢).

قال أبو عبيدة: " {أَخْرَجَ شَطَأَهُ} : أخرج فراخه، يقال: قد أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا فرّخ، {فَأَزْرَهُ} : ساواه، صار مثل الأم. {فَاسْتَعْلَظَ} : غلظ، {فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ} : الساق حاملة الشجرة"^(٣).

قال ابن كثير: " أي : فكذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله، في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال : لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. وواقفه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم"^(٤).

قال السعدي: " كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، ففوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، [ص: ٧٩٦] كالزرع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال"^(٥).

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ} [الفتح: ٢٩]، قولان:

أحدهما : أن مثلهم في التوراة بأن سيماهم في وجوههم. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه. قاله الضحاك^(٦)، وقتادة^(٧).

عن الضحاك: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} ... إلى قوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ}، ثم قال: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ}... الآية"^(٨).
عن الضحاك، في قوله: " {سِيَمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ}، يعني: السيماء في الوجوه مثلهم في التوراة، وليس بمثلهم في الإنجيل، ثم قال عز وجل: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ} ... الآية، هذا مثلهم في الإنجيل"^(٩).

عن الضحاك في قول الله: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} ... الآية، قال: هذا مثلهم في التوراة، ومثل آخر في الإنجيل {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ} - الآية"^(١٠).

عن قتادة: " {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ}، أي: هذا المثل في التوراة، {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ}، فهذا مثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنجيل"^(١١).

(١) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢٢-٢٧٠. [باختصار]

(٢) معاني القرآن: ٦٩/٣.

(٣) مجاز القرآن: ٢١٨/٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٦٢/٧.

(٥) تفسير السعدي: ٧٩٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٦٦/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٦٦/٢٢.

الثاني : أن كلا الأمرين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل. وهذا قول مجاهد^(١).
قال أبو عبيدة: "العرب قد تبدأ بالشيء ثم تجيء ما يكون قبله بعده، قال لبيد^(٢):
فوضعت رحلى والقراب ونمرقى ... ومكانهن الكور والنسعان"^(٣).

قال الطبري: "وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة، غير
مثلهم في الإنجيل، وإن الخبر عن مثلهم في التوراة متناه عند قوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ}،
وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في التوراة والإنجيل واحد، لكان التنزيل:
ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله: {سَيِّمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، حتى يكون ذلك خيرا عن أن ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وفي
مجيء الكلام بغير واو في قوله: {كَزَّرَعُ} دليل بَيِّنٌ على صحة ما قلنا، وأن قولهم: {وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ} خبر مبتدأ عن صفتهم التي هي في الإنجيل دون ما في التوراة منها"^(٤).

قال الطبري: "وإنما مثلهم بالزرع المشطى، لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم
عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر
عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي"^(٥).

قال مقاتل: "فأما شطأه فهو محمد - صلى الله عليه وسلم - خرج وحده كما خرج النبت
وحده، وأما الوايلة التي تنبت حول الشطأة فاجتمعت فهم المؤمنون كانوا في قلة كما كان أول
الزرع دقيقا، ثم زاد نبت الزرع فغلظ فأزره فاستغلظ كما أزر المؤمنون بعضهم بعضا حتى إذا
استغلظوا واستوا على أمرهم كما استغلظ هذا الزرع فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ
بهم الكفار فكما يعجب الزراع حسن زرعه حين استوى قائما على سوقه، فكذلك يغيظ الكفار
كثرة المؤمنين واجتماعهم"^(٦).

قال الماوردي: "ووجه ضرب المثل بهذا الزرع الذي أخرج شطأه، هو أن النبي -
صلى الله عليه وسلم - حين بدأ بالدعاء إلى دينه كان ضعيفا، فأجابه الواحد حتى كثر جمعه
وقوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه وأفراخه فكان
هذا من أصح مثل وأوضح بيان"^(٧).

قال ابن عباس: "فهو مثل ضربه لأهل الكتاب إذا خرج قوم يثبتون كما يثبت الزرع
فيبلغ فيهم رجال يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم يغلظون، فهم أولئك الذين كانوا
معهم وهو مثل ضربه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم يقول: بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم
وحده، ثم اجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيرا، ويستغلظون، ويغيظ الله بهم
الكفار"^(٨).

عن خيثمة، قال: "بيننا عبد الله يقرئ رجلا عند غروب الشمس، إذ مرَّ بهذه الآية
{كَزَّرَعُ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، قال: أنتم الزرع، وقد دنا حصادكم"^(٩).
عن حميد الطويل، قال: "قرأ أنس بن مالك: {كَزَّرَعُ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَأَزْرَهُ}، قال: تدررون
ما شطأه؟ قال: نباته"^(١٠).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٧/٢٢، وتفسير مجاهد: ٦٠٩.

(٢) ديوانه: ٦٥/١.

(٣) مجاز القرآن: ٢١٨/٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢٦٧/٢٢.

(٥) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢٢.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٨/٤.

(٧) النكت والعيون: ٣٢٤/٥.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٦٧/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٦٧/٢٢.

عن ابن عباس، قوله: "ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، قال: سنبله حين يتسلى نباته عن حباته"^(١)، "فَأَزْرَهُ"، يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل"^(٢)، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، يقول الله: مثلهم كمثل زرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، حتى بلغ أحسن النباتات، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ مِنْ كَثْرَتِهِ، وَحُسْنِ نَبَاتِهِ"^(٣).

عن قتادة والزهري: "كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ"، قالوا: أخرج نباته"^(٤)، {فَأَزْرَهُ فَاَسْتَعْلَظَ فَاَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ}، يقول: فتلاحق"^(٥).

عن مجاهد، قوله: "كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ"، قال: ما يخرج بجانب الحقله فيتم وينمي"^(٦)، "فَأَزْرَهُ"، قال: فشده وأعانه، قوله: {عَلَى سُوْقِهِ}، قال: أصوله"^(٧).

عن ابن زيد، قوله: "كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ"، أولاده، ثم كثرت أولاده"^(٨)، "فَأَزْرَهُ": اجتمع ذلك فالتفت؛ قال: وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم يزل الله يزيد فيهم، ويؤيدهم بالإسلام، كما أيد هذا الزرع بأولاده، فآزره، فكان مثلاً للمؤمنين"^(٩)، {يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ}، قال: يعجب الزرع حسنه، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} بالمؤمنين، لكثرتهم، فهذا مثلهم في الإنجيل"^(١٠).

قال قتادة: "هذا مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل، قيل لهم: إنه سيخرج قوم يبنون نبات الزرع، منهم قوم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر"^(١١). قال الضحاك: "يعني: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون"^(١٢).

عن الضحاك: "كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَأَزْرَهُ فَاَسْتَعْلَظَ فَاَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ}، يقول: حبّ برّ نثر متفرقاً، فتبتت كلّ حبة واحدة، ثم أنبتت كل واحدة منها، حتى استغلظ فاستوى على سوقه؛ قال: يقول: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قليلاً ثم كثروا، ثم استغلظوا {لِيَغِيظَ} الله {بِهِمُ الْكُفَّارَ}"^(١٣).

روي عن الحسن: "في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}، قال: هو محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ}، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، عثمان بن عفان رضي الله عنه، {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وأبو عبيدة الجراح، {سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: المبشرون عشرة أولهم أبو بكر، وآخرهم أبو عبيدة الجراح، {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}، قال: نعنتهم في التوراة والإنجيل، {كَمِثْلِ زَرْعٍ}، قال: الزرع محمد صلى الله عليه وسلم، {أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، أبو بكر الصديق، {فَأَزْرَهُ}، عمر بن الخطاب، {فَاَسْتَعْلَظَ}، عثمان بن عفان، يعني: استغلظ بعثمان الإسلام، {فَاَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ}، علي بن أبي طالب، يعني: استقام الإسلام

(١) أخرجه الطبري: ٢٦٧/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٧٠/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٦٩/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٦٩/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٦٩/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٧٠/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٢٦٨/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٢٦٩/٢٢.

بسيفه، {يُعِيبُ الزُّرَّاعَ}، قال: المؤمنون، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، قال: قول عمر لأهل مكة: لا نعبد الله سرًا بعد هذا اليوم^(١).

قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]، أي: "وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلا لا ينقطع، وهو الجنة"^(٢).

قال الطبري: يقول: "وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به من فرائضه التي أوجبها عليهم ممن يدخل في دين محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم"^(٣)، عفا عما مضى من ذنوبهم، وسيئ أعمالهم بحسنها، وثوابا جزيلا وذلك الجنة"^(٤).

قال ابن كثير: "«مِنْ» هذه لبيان الجنس، {مَغْفِرَةً}، أي: لذنوبهم. {وَأَجْرًا عَظِيمًا}، أي: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبذل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل"^(٥).

قال السعدي: "فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة"^(٦).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"^(٧).

فوائد الآية الكريمة:

- ١- تقرير نبوة رسول الله وتأكيده رسالته.
- ٢- بيان ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الشدة والغلظة على الكفار والعطف والرحمة على أهل الإيمان وهذا مما يجب الأتساء بهم فيه والاعتناء.
- ٣- بيان فضل الصلاة ذات الركوع والسجود والطمأنينة والخشوع.
- ٤- صفة أصحاب رسول الله في كل من التوراة والإنجيل ترفع من درجتهم وتعلي من شأنهم.
- ٥- بيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأوا قليلين ثم أخذوا يكثرون حتى كثروا كثرة أغاظت الكفار.
- ٦- بغض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتنافى مع الإيمان منافاة كاملة لا سيما خيارهم وكبارهم كالخلفاء الراشدين الأربعة والمبشرين بالجنة العشرة وأصحاب بيعة الرضوان، وأهل بدر قبلهم.

وقد أخرج أبو نعيم عن رجل من ولد الزبير^(٨) قال: «كنا عند مالك فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقرأ مالك هذه الآية: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ} - حتى بلغ - {يُعِيبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩]. فقال مالك:

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٦٦/٩-٦٧.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٣) يعني: بقوله: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}.

(٤) تفسير الطبري: ٢٢/٢٧٠-٢٧١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦٣/٧.

(٦) تفسير السعدي: ٧٩٥.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

(٨) الذي تتلمذ على مالك وسمع منه من ولد الزبير بن العوام هو عبد الله بن نافع بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام.

(من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فقد أصابته الآية^(١). يريد ألزمته بالكفر.
قال القرطبي: "لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين"^(٢).
«آخر تفسير سورة (الفتح)، والحمد لله وحده»

(١) الحلية: ٣٢٧ / ٦، وأخرجه الواحدي في التفسير الوسيط (٨٥٦): ص ٤ / ١٤٧.
(٢) تفسير القرطبي: ٢٩٧ / ١٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تفسير سورة «الحجرات»

سورة «الحجرات»: هي السورة «التاسعة والأربعون» بحسب ترتيب المصحف العثماني، وهي السورة «الثامنة بعد المائة» بحسب ترتيب نزول السور، نزلت بعد «سورة المجادلة»، وقبل «سورة التحريم»، وكان نزولها سنة تسع للهجرة^(١). وآياتها ثمان عشرة، وكلماتها ثلاثمائة وثلاث وأربعون، وحروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون، مجموع فواصل آياتها: «من»^(٢).

■ أسماء السورة:

■ أسماها التوقيفي: «سورة الحجرات»:

سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير: «سورة الحجرات»، وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ «الحجرات»، قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُدَاوُونَكَ مِنْ وِرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات : ٤]: إذ نزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة^(٣).

■ مكية السورة ومدنيتها:

في مكان نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها أنزلت في المدينة. قاله ابن عباس^(٤)، وابن الزبير^(٥)، والحسن^(٦)، وقتادة^(٧)، وعكرمة^(٨).

الثاني: أنها مدنية إلا آية، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات : ١٣]. قاله ابن أبي مليكة^(٩)، مقاتل^(١٠)، وهذا القول منسوب لابن عباس^(١١).

وقد يكون هذا الاستثناء استنبط من خلال القول بأن «ما كان في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، فإنه مكي».

إذ روي عن ابن مسعود، قال: "ما كان {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أنزل بالمدينة، وما كان: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، فبمكة"^(١٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٢١٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ١/٤٣٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٢١٣.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٧/٥٤٦، وعزاه إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي. وذكر الواحدي عن وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}. [أسباب النزول: ٣٩٨ بدون إسناد].

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٧/٥٠٧، وعزاه إلى ابن مردويه. وذكر الواحدي عن وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به؟ فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}. [أسباب النزول: ٣٩٨ بدون إسناد].

(٦) حكاه عنه الألوسي في روح المعاني: ١٣/٢٨٤.

(٧) حكاه عنه الألوسي في روح المعاني: ١٣/٢٨٤.

(٨) حكاه عنه الألوسي في روح المعاني: ١٣/٢٨٤.

(٩) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ٤١١، وهو مرسل، وعزاه في الدر (٦/٩٧) لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(١٠) م بدون إسناد.

(١١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/٩٧.

(١٢) ذكره في مجمع البيان، نقلا عن روح المعاني: ١٣/٢٨٤.

وعن ابن مسعود قال: قرأنا المفصل ونحن بمكة حجيجا ليس فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} (٢).

وعن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} و{يَا بَنِي آدَمَ}، فإنه مكي، وما كان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فإنه مدني (٣).

وعن عروة قال: "ما كان: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} بمكة وما كان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بالمدينة" (٤).

وعن علقمة قال: كل شيء في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فهو مكي، وكل شيء في القرآن {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فإنه مدني (٥).

قال الألوسي: "والحق أن هذا ليس بمطرد. وذكر الخفاجي أنها في قول شاذ مكية" (٦).
قال ابن عاشور: "هي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي: مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في «الإتقان» قولاً شاذاً أنها مكية (٧)، ولا يعرف قائل هذا القول، وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات: ١٣]، الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة (٨)، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة كما سيأتي. ولم يعدها في «الإتقان» في عداد السور المستثنى بعض آياتها" (٩).

قال ابن عطية: "هي مدنية بإجماع من أهل التأويل -رضي الله عنهم-" (١٠).

قال ابن الجوزي: "هي مدنية بإجماعهم" (١١).

قال ابن قتيبة: "مدنية كلها" (١٢).

قال القرطبي: "مدنية بإجماعهم" (١٣).

■ مناسبة السورة لما قبلها:

وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها:

- ١- ذكر في هذه قتال البغاة، وفي تلك قتال الكفار.
- ٢- إن السابقة ختمت بالذين آمنوا، وافتتحت هذه بهم.
- ٣- إن كلا منهما تضمن تشريفاً وتكريماً للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما في مطلعيهما (١٤).

■ أغراض السورة ومقاصدها

تضمنت هذه السورة جملة من المقاصد، هي وفق الآتي:

-
- (١) الدر المنثور: ٨٤/١، وعزاه إلى البزار والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.
 - (٢) الدر المنثور: ٨٤/١، وعزاه إلى ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه.
 - (٣) الدر المنثور: ٨٤/١. وعزاه إلى أبي عبيد.
 - (٤) الدر المنثور: ٨٤/١. وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن مردويه.
 - (٥) الدر المنثور: ٨٤/١، وعزاه إلى أبي عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر وأبي الشيخ بن حبان في التفسير.
 - (٦) التحرير والتنوير: ٢٨٤/١٣.
 - (٧) قال السيوطي في الإتقان: ٤٩/١: «سورة الحجرات: حكي قول شاذ أنها مكية».
 - (٨) انظر: أسباب النزول: ٣٩٤.
 - (٩) التحرير والتنوير: ٢١٣/٢٦.
 - (١٠) المحرر الوجيز: ١٤٤/٥.
 - (١١) زاد المسير: ١٤١/٤.
 - (١٢) غريب القرآن: ٤١٥.
 - (١٣) تفسير القرطبي: ٣٠٠/١٦.
 - (١٤) انظر: روح المعاني: ٢٨٤/١٣، وتفسير المراغي: ١١٩/٢٦.

١- ابتدأت بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يبرموا أمراً، أو يبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة.

٢- ثم انتقلت إلى أدب آخر، وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السامي الرفيع، فإنه ليس كعامّة الناس، بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والتبجيل.

٣- ثم انتقلت السورة إلى تقرير دعائم المجتمع الفاضل، فأمرت المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، وأمرت بالثبوت من الأنباء والأخبار، ولاسيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل، أو شخص متهم، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق، سببت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يثبت منه سامعه، جر وبالأعظيماً، وأحدث انقساماً كبيراً.

٤- وبينت السورة أن المجتمع المسلم ينبغي أن يكون مجتمعاً نظيف المشاعر، مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ أحد بظنة، ولا يُعاقب لمجرد تهمة، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم فيه لأدنى مساس، فحذرت من السخرية، ونفرت من الغيبة، ونهت عن التجسس، وإساءة الظن بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق.

٥- ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين.

٦- وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفرت من الغيبة والتجسس، والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحذرت من الغيبة بتعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، فجاء على صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت، ينهش منه، ويأكل لحمه!

٧- بينت السورة أن الله تعالى خلق عباده من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب، فإن أكرمهم عند الله أتقاهم.

٨- وختمت السورة بالحديث عن الأعراب، الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يبنون على الرسول إيمانهم، وقد وضحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان، والإخلاص، والجهد، والعمل الصالح^(١).

قال الفيروزآبادي: "معظم مقصود السورة: محافظة أمر الحق تعالى، ومراعاة حرمة الأكابر، والتؤدة في الأمور، والاجتناب عن التهور، والكون في إغاثة المظلوم، والاحتراز عن السخرية بالخلق، والحذر عن التجسس والغيبة، وترك الفخر بالأحساب والأنساب، والتحاشي عن المنة على الله بالطاعة، وإحالة علم الغيب إلى الله - تعالى -"^(٢).

■ الناسخ والمنسوخ:

السورة خالية عن الناسخ والمنسوخ^(٣).

■ فضائل السورة:

ومما وردت في فضائل هذه السورة:

- عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أعطيت مكان التوراة «السبع الطول»، وأعطيت مكان الزبور «المئين»، وأعطيت مكان الإنجيل: «المثاني» وفضلت بـ «المفصل»"^(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٢١٣، والتفسير الوسيط، مجمع البحوث: ١٠٢٢/٩، ومقاصد سورة الفتح [إسلام ويب، موقع التكروني].

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٣٥/١.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن حزم: ٥٧.

و«المفصل»-بتشديد الصاد-: هو ما يلي المثاني من قصار السور، والتي تستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس على ما هو مبين في كتب الفقه^(٢). وقد اختلف أهل العلم في «المفصل»، على ثلاثة أقوال^(٣):
أحدها: أنه من أول سورة «محمد» إلى آخر القرآن، حكاه الماوردي عن الأكثرين^(٤).
وقال السمعاني: "الأكثر أن المفصل من سورة الحجرات"^(٥).
الثاني: من سورة «قاف» إلى آخره، حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة^(٦).
الثالث: من سورة «الضحى» إلى آخره، وكان يفصل في الضحى بين كل سورتين بالتكبير^(٧)، قاله ابن عباس^(١)، وهو رأي قراء مكة^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧، رقم ١٧٠٢٣). قال الهيثمي (٧/ ٤٦): فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الطبراني (٢٢/ ٧٥ رقم ١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٥، رقم ٢٤١٥ مكرر). وأخرجه أيضا: الطيالسي (ص ١٣٦ رقم ١٠١٢) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥/ ٢٧١٦ رقم ٦٤٨٥). وقال المناوي (١/ ٥٦٦): فيه عمرو بن مرزوق، أورده الذهبي في الضعفاء وقال: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه.

(٢) أما السبع الطول فقد ذكرناها عند تفسير قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر: ٨٧]. والمئين: كل سورة بلغت مائة فصاعدا. والمثاني: كل سورة دون المئين و فوق المفصل، والمفصل: هو ما يلي المثاني من قصار السور، وإنما سميت مفصلاً لقصرها وكثرة الفصول فيها بسطر: «بسم الله الرحمن الرحيم»..

(٣) النكت والعيون: ٢٦/١-٢٧.

(٤) النكت والعيون: ٢٦/١.

(٥) تفسير السمعاني: ٢١٢/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٢٦/١.

واختاره الحافظ ابن حجر، انظر الفتح ٢/ ١٩٥، ٢٤٩، ٤٣/ ٩، والزرکشي في البرهان ١/ ٢٤٦.

(٧) قال ابن الجزري: «اختلف في سبب ورود التكبير من المكان المعين فروى الحافظ أبو العلاء بإسناده عن أحمد بن فرح عن البيهقي: أن الأصل في ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انقطع عنه الوحي، فقال المشركون:

قللى محمدا ربّه، فنزلت سورة والضحى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الله أكبر)، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكبر إذا بلغ (والضحى) ... مع خاتمة كل سورة حتى يختم.

قلت- ابن الجزري- وهذا قول الجمهور من أئمتنا كابي الحسن بن غليون وأبي عمرو الداني، وأبي الحسن السخاوي، «وغيرهم من متقدم ومتأخر» النشر ٢/ ٤٠٥.

وقال ابن كثير: «وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة (الضحى) أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتت تلك المدة ثم جاء الملك، فأوحى إليه والضحى واللئيل إذا سجى السورة بتمامها كبر فرحا وسرورا.

ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فالله أعلم اه. تفسيره ٤/ ٥٢١.

ونقل بعض هذا عنه ابن الجزري وقال: يعني كون هذا سبب التكبير، وإلا فانقطاع الوحي مدة أو ابطاؤه مشهور .. اه. النشر ٢/ ٤٠٦. أما حكم التكبير فقد قال مكي بن أبي طالب: «أجمع القراء على ترك التكبير إلا البيهقي فإنه روى عن ابن كثير أنه يكبر من خاتمة (والضحى) إلى آخر القرآن. من خاتمة كل سورة .. اه. التبصرة:

٥٦٤ ...

وساق الذهبي عند ترجمته للبيهقي- بإسناده إلى البيهقي- قال: «سمعت عكرمة بن سليمان يقول:

قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين فلما بلغت (والضحى) قال: كبر عند خاتمة كل سورة فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت (والضحى) قال كبر حتى تختم وأخبره ابن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك، وأخبره أبي-

رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك» اه.

ثم قال الذهبي: قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه البخاري ولا مسلم اه معرفة القراء الكبار ١/ ١٧٥ وكان الذهبي قد قال قبل ذلك: «روى البيهقي في التكبير خبرا غريبا، رواه عنه جماعة» وراجع الميزان في ترجمة البيهقي ١/ ١٤٤، ثم ساق الذهبي بسند أبي عمرو الداني إلى البيهقي نحو ما تقدم قال: وبه قال موسى بن هارون، قال لي ابن أبي بزة: حدثت محمد بن ادريس الشافعي، فقال لي: إن تركت التكبير، فقد تركت سنة من سنن نبيك صلى الله عليه وآله وسلم اه وانظر النشر ٢/ ٤١٥.

وقال ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٥٢١ «روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة ... وذكره بالسند الذي ذكره الذهبي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال

قال ابن حجر - بعد أن سرد الأقوال في ذلك وهي ما يقرب من اثني عشر قولاً - قال: «والراجح الحجرات ذكره النووي»^(٣).

وقال في موضع آخر: «وبه جزم جماعة من الأئمة»^(٤).
وقد سرد السيوطي في «الإتقان» اثني عشر قولاً، ولم يصرح بالترجيح^(٥)، إلا أنه في «الدر المنثور»^(٦) ساق الآثار في ذلك عند أول تفسيره لسورة «ق» وهذا يدل على الترجيح، وبه جزم ابن كثير في تفسيره^(٧).

وأشهر الأقوال أن أول المفصل «الحجرات»، وأول وسط المفصل: «عبس» وأول قصار المفصل: «والضحى»، هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة، ففي الصبح يستحب القراءة بطوال المفصل، وفي الظهر والعشاء بمتوسطه، وفي المغرب بقصاره.

- عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ الحجرات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه»^(٨). [موضوع]

ابن كثير: «فهذه سنة تفرّد بها البيهقي، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث، لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث» اهـ.

وقال ابن الجزري في النشر ٢ / ٤١٤ «وقد تكلم بعض أهل الحديث في البيهقي، وأظن ذلك من قبل رفعه له» اهـ. - وأما كيفية التكبير، فقال مكي بن أبي طالب: «قال الحسن بن مخلد: سألت البيهقي عن التكبير، فقال: «لا إله إلا الله والله أكبر» التبصرة: ص ٥٦٥.

وكذلك ذكره الذهبي عن الحسن بن الحباب بن مخلد.. إلخ معرفة القراء الكبار ١ / ١٧٨.

ثم قال مكي: «والذي قرأنا به، وهو المأخوذ به في الأمصار (الله أكبر). انتهى.

(١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ٤ / ٤١١.

حكاه الخطابي والماوردي كما في فتح الباري ٢ / ٢٤٩ دون ذكر لابن عباس.

وقال الزركشي: «عزاه الماوردي لابن عباس، حكاه الخطابي في غريبه ووجهه بأن القارئ يفصل بين هذه السور بالتكبير، قال: وهو مذهب ابن عباس وقراء مكة» البرهان ١ / ٢٤٦، وانظر الإتقان ١ / ١٨٠.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١ / ٢٧.

(٣) الفتح: ٢ / ٢٤٩.

(٤) الفتح: ٩ / ٤٣.

(٥) انظر: الإتقان: ١ / ١٨٠.

(٦) انظر: الدر المنثور: ٧ / ٥٨٧.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ٤ / ٢٢٠.

(٨) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩ / ٦٩، وذكره المستغفري في فضائله (١٢١٦): ص ٧٨٤ / ٢، والزمخشري في التفسير: ٤ / ٣٧٩، والبيضاوي في التفسير: ٥ / ١٣٨، وقد مرّ بأنه حديث موضوع.

والحق أن الثعلبي قد وقع فيما فيه كثير من المفسرين من الاعتراض بالأحاديث الموضوعية في فضائل السور سورة سورة، فروى في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها منسوبةً إلى أبي بن كعب، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعية على السنة الشيعية، فشوه بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلافها، ومن هذا ما يدل على أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: ص ٣١ « والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع، والواحد صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة.

وقال الكتاني في كتابه «الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة: ص ٧٨-٧٩»: «الواحد النيسابوري واحد عصره في التفسير المتوفى: بنيسابور سنة ثمان وستين وأربعمائة وهو من تلاميذ أبي إسحاق الثعلبي لازمه وغيره وله التصانيف الثلاثة في التفسير البسيط والوسيط والوجيز وأسباب النزول وغيرها من الكتب ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث بل في تفسيريهما وخصوصاً الثعلبي أحاديث موضوعية وقصص باطلة».

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

قال الفيروزآبادي في فضائل سورة «الحجرات»: "فيه حديث أبي الضعيف جداً: «من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد من أطاع الله وعصاه»، وحديث علي: «يا علي من قرأها كان في الجنة رفيق سليمان بن داود، وله بكل آية قرأها مثل ثواب المحسنين إلى عيالهم». [بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٣٦/١].

القرآن

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) }
[الحجرات : ١]

التفسير:

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تقضوا أمراً دون أمر الله ورسوله من شرائع دينكم فتبتدعوا، وخافوا الله في قولكم وفعلكم أن يخالف أمر الله ورسوله، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أنها نزلت في النهي عن صوم يوم الشك. وهذا قول عائشة-رضي الله عنها-(١).
عن مسروق: "أنه دخل على عائشة رضي الله عنها- في اليوم الذي يُشك فيه من رمضان؛ فقالت: يا جارية! خوصي له سويقاً؛ فقال: إني صائم؛ فقالت: تقدمت الشهر؟ فقلت: لا، ولكنني صمتُ شعبان كله فوافق ذلك هذا اليوم، فقالت: إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) } [الحجرات : ١]"(٢). [صحيح]

وعنها -أيضاً- رضي الله عنها-؛ قالت: "كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام؛ يعني: يوماً أو يومين؛ فأنزل الله -تعالى-: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) } [الحجرات : ١]"(٣).

الثالث : -وهو قول قتادة-: " أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا لوضع كذا وكذا، قال: فكره الله عزَّ وجلَّ ذلك، وقدم فيه"(٤).

وعن قتادة: " إن أناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، لو أنزل في كذا"(٥).

الرابع : -وهو قول الحسن- أنه: " ذبح رجل قبل الصلاة؛ فنزلت"(٦).
وقال الحسن: " هم قوم نحروا قبل أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا الذبح"(٧).

(١) انظر: "المعجم الأوسط" للطبراني(٣/ ١٣٤ رقم ٢٧١٣).

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣/ ١٣٤ رقم ٢٧١٣): ثنا إبراهيم بن أحمد الوكيعي؛ قال: نا أبي؛ قال: نا أبو أسامة، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب عن يحيى بن الحارث التيمي عن حبال بن ربيعة عن مسروق به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن أبي كدينة إلا أبو أسامة".
وأخرجه الواحدي في "الوسيط" (٤/ ١٥٠) من طريق أخرى عن التيمي.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: حبال بن ربيعة؛ مجهول؛ قال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (١/ ٤٤٨): "لا يعرف".
وبه أعله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣/ ١٤٨).

الثانية: التيمي هذا لم نجد له ترجمة.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧) وزاد نسبه لابن مردويه.

وأخرجه الدارقطني في "المؤتلف والمختلف" (٢/ ٥٩٧) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ثنا سفيان عن أبي إسحاق عن مالك بن أبي حمزة عن مسروق بنحوه.

قلنا: وإسناده صحيح؛ ورجاله ثقات، ومالك بن أبي حمزة وثقه ابن معين وابن حبان والحافظ ابن حجر، وقال الزيلعي في "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٢٥): "ولم يذكره -يعني: الدارقطني- بجرح ولا تعديل".

قلنا: هذا لا يضره؛ كونه وثقه غيره على ما هو مفصل في "تهذيب التهذيب" (١٢/ ١٦٩، ١٧٠)؛ فلا وجه لتضعيفه كما فعل الزيلعي.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ما تقدم ثابت لا ريب.

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧) ونسبه لابن النجار.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الأضاحي"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧)، و"لباب النقول" (ص ١٩٥).

الخامس: أنها نزلت في سبب كلام دار بين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- عندما قدم وفد بني تميم. وهذا قول عبدالله بن الزبير^(٣). وبه قال النحاس، وقال: هذا القول "من أصحها سندا وأبينهما"^(٢).

روي عن ابن أبي مليكة، أن عبد الله بن الزبير، أخبرهم: "أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم"، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة، قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا} [الحجرات: ١]، حتى انقضت^(٤). [صحيح]

وفي رواية: "فنزل في ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١]، إلى قوله سبحانه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [الحجرات: ٥]"^(٥).
السادس: أنها نزلت في قصة بئر معونة^(٦)، قال الكلبي^(٧)، والسدي^(٨)، والمقاتلان^(٩)، وعطاء الخراساني^(١٠).

قال الكلبي: "نزلت في عمرو بن أمية الضمري، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(١١).

وفي رواية باذان عن ابن عباس أنها نزلت: "في الثلاثة الذين نجوا الرجلين السلميين، اللذين اعتزما إلى بني عامر وأخذهم مالهما وكانا من أهل العهد، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سبق الخبر إليه، فقال: «بئس ما صنعتما، هما من أهل ميثاقي وهذا الذي معكم من نسوتي»، قالوا: يا رسول الله إنهما زعما أنهما من بني عامر، فقلنا: رجلان ممن قتل إخواننا. فقلنا: هما لذلك. وأناه السلميون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا قود لهما لأنهما اعتزما إلى عدونا». ولكنهما أيدهما، فوادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله سبحانه في ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حِينَ قَتَلُوا الرَّجُلَيْنِ"^(١٢).

(١) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢٩٢٢): ص٢١٩/٣، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٤٧/٧) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الأضاحي": كما في "الدر المنثور" (٥٤٧/٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٠/٢٢.

(٣) إعراب القرآن: ١٣٨/٤.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٦٧) وفي التفسير (٤٨٤٥، ٤٨٤٧) وفي الاعتصام (٧٣٠٢) والترمذي في التفسير (٣٢٦٦) وقال: حسن غريب، وأخرجه النسائي في التفسير (٥٣٤) وأخرجه في المحبتي في كتاب آداب القضاة (٢٢٦/٨)، وأخرجه النسائي (جامع الأصول: ٣٦٠/٢)، والطبري في التفسير: ٢٨٠/٢٢. وفيه «ونزل القرآن {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ١] ... إلى قوله {وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ٣]»

(٥) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٧٥٢): ص٤٠١.

(٦) بئر معونة: قال ابن إسحاق: (بئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، وقال: كلا البلدين منها قريب إلا أنها إلى حرّة بني سليم أقرب، وقيل: بئر معونة بين جبال يقال لها: أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة وهي لبني سليم)، وقال الواقدي: (بئر معونة في أرض بني سليم وأرض بني كلاب، وعندها كانت قصة الرجيع) والله أعلم، انظر: "معجم البلدان" ١/٣٠٢.

(٧) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٣٤٠/٢٠.

(٨) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٣٤٠/٢٠. بدون إسناد.

(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٨٧/٤-٨٩، أخرجه البيهقي في الشعب ١٩٦/٢ عن مقاتل بن حيان. وينظر: تخريج الأحاديث والآثار ٣/٣٢-٣٢. وحكاه الواحدي عن مقاتل بن حيان، انظر: التفسير البسيط: ٣٤٠/٢٠.

(١٠) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧٠/٩، والواحدي في التفسير البسيط: ٣٤٠/٢٠. بدون إسناد.

(١١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٤٢/٤.

(١٢) نقلا عن: الكشف والبيان: ٧٠/٩، والتفسير البسيط للواحدي: ٣٤٠/٢٠-٣٤١.

وقال مقاتل: "نزلت في ثلاثة نفر وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث سرية إلى ناحية أرض تهامة، وكانوا سبعة وعشرين رجلاً منهم عروة بن أسماء السلمي، والحكم بن كيسان المخزومي، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وبشير الأنصاري، واستعمل عليهم المنذر ابن عمرو الأنصاري من النقباء وكتب صحيفة ودفعها إلى حرام بن ملحان ليقرأها على العدو، فكان طريقهم على بني سليم وبينهم وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - موادة، ودس المنافقون إلى بني عامر بن صعصعة، وهم حرب على المسلمين إن أصحاب محمد مغرورون يختلفون من بين ثلاثة وأربعة فأرصدوهم وهم على بئر معونة، وهو ماء لبني عامر فسار القوم ليلاً، وأضل أربعة منهم بغيرا لهم منهم بشير الأنصاري، فأقاموا حتى أصبحوا، وسار المسلمون حتى أتوا على بني عامر وهم حول الماء وعليهم عامر بن الطفيل العامري، فدعاهم المنذر ابن عمرو إلى الإسلام وقرأ عليهم حرام الصحيفة، فأبوا فاقتتلوا قتالاً شديداً فلما عرفوا أنهم مقتولون، قالوا: اللهم، إنك تعلم أن رسولك أرسلنا، وإنا لا نجد من يبلغ عنا رسولك غيرك، فأقرء منا السلام فقد رضينا بحسن قضائك لنا. وحمل عامر ابن الطفيل على حرام فطعنه فقتله، وقتل بقيتهم غير المنذر بن عمرو، فإنه كان دارعاً مقتنعاً وعروة بن أسماء السلمي، فقتل المنذر بعد ذلك فقالوا لعروة: لو شئنا لقتلناك، فأنت آمن فإن شئت فارجع إلينا، وإن شئت فاذهب إلى غيرنا، فأنت آمن. قال عروة: إني عاهدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا أضع يدي في يد مشرك ولا أتخذه ولياً. وجعل يحمل عليهم، ويضربونه بعرض رماحهم ويناشدون، ويأبى عليهم فرموه بالنبل حتى قتلوه، وأتى جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بحالهم، فنعاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه وقال: أرسل إخوانكم يقرءونكم السلام فاستغفروا لهم. ووجد الأربعة بغيرهم حين أصبحوا، فساروا فلما دنوا من ماء بني عامر لقيتهم وليدة لبني عامر فقالت: أمن أصحاب محمد أنتم؟ فقالوا: نعم، رجاء أن تسلم، فقالت: إن إخوانكم قد قتلوا حول الماء، النجاء النجاء. ألا ترون إلى النسور والعقبان قد تعلقن بلحومهم. فقال بشير الأنصاري: دونكم بغيركم أنظر لكم. فسار نحوهم فرأى إخوانهم مقتلين كأمثال البدن حول الماء فرجع إلى أصحابه فأخبرهم وقال لهم: ما ترون؟ قالوا: نرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فنخبره الخبر. فقال بشير: لكني لا أرجع والله، حتى أتغذى من غداء القوم. فأقرءوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقتل منهم ثم قتل بعد، فرجع الثلاثة يسلون بغيرهم سلاً^(١). فأتوا المدينة عند جنوح الليل، فلقوا رجلين من بني سليم جاثين من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: من أنتما؟ قالوا: من بني عامر. لأنهم كانوا قريباً من بني عامر بالمدينة ولا يشعران بصنيع بني عامر. فقالوا: هذان من الذين قاتلوا إخواننا، فقتلوهما وسلبوهما، ثم دخلوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - ليخبروه فوجدوا الخير قد سبق إليه، ثم قالوا: يا نبي الله، غشينا المدينة عند المساء فلقينا رجلين من بني عامر فقتلناهما، وهذا سلبهما. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: بل هما من بني سليم من حلفائي بسما صنعنا، هذان رجلان من بني سليم كانا جاء في أمر الموادة. فنزلت فيهم: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله}، يقول: لا تعجلوا بقتل أحد، ولا بأمر حتى تسأموا النبي - صلى الله عليه وسلم - فوعظهم في ذلك، وأقبل قوم السلميين، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن صاحبينا قتلنا عندك. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: إن صاحبيكم اعتزيا إلى عدونا فقتلنا جميعاً، وأخبرهم الخبر ولكننا سنعقل لكل واحد منهما مائة من الإبل فجعل دية المشرك المعاهد كدية الحر المسلم^(٢).

(١) المعنى: يسيرون في خفية خوف العدو قال - تعالى -: { ... قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّأ ... } سورة النور: ٦٣، أي يخرجون خفية خشية أن يراهم النبي.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٨٧/٤ - ٨٩.

قال ابن عاشور: "على هذه الرواية تكون القصة جرت قبيل قصة بني تميم، فقرنت آياتهما في النزول، وهنالك روايات أخرى في سبب نزولها لا تناسب موقع الآية مع الآيات المتصلة بها. وأياً ما كان سبب نزولها فهي عامة في النهي عن جميع أحوال التقدم المراد"^(١).
قال عبدالقاهر الجرجاني: "وإنما اختلفوا في سبب نزول الآية لعمومها، واشتمالها على هذه المعاني كلها، وتلاوة رسول الله عليه السلام إياها عند كلِّ حادثة في هذه الحوادث، فمن سمعها عند حادثة ظنَّ أنها نزلت فيها خاصة، وقد جمع مجاهد هذه الأقوال وقال: «{لا تُقَدِّمُوا بين يدي الله}، أي: لا تفتاتوا على رسول الله بشيء حتى يقضيه الله على لسانه»^(٢)»^(٣).
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحجرات : ١]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"^(٤).

قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين أقرؤا بوحداية الله، وبنبوّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم"^(٥).

قال ابن عباس: "ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"^(٦).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك] يعني: استمع لها؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"^(٧).

قوله تعالى: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات : ١]، أي: "لا تقضوا أمراً دون أمر الله ورسوله من شرائع دينكم فتبدعوا"^(٨).

قال الطبري: "يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكي عن العرب فلان يقدم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه"^(٩).

قال السعدي: "هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتى يقول، ولا يأمر، حتى يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدية، وفي هذا، النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول صلى الله عليه وسلم، على قوله، فإنه متى استبانة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان"^(٩).

قال ابن كثير: "هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُوا لِلَّهِ}، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد؟"

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/٢١٧.

(٢) أخرجه الطبري: ٢٢/٢٧٦.

(٣) درج الدرر في تفسير الآي والسور: ٥٨٢/٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٠.

(٥) تفسير الطبري: ٢٢/٢٧٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٥): ١/١٩٦.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٧): ١/١٩٦.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٩) تفسير الطبري: ٢٢/٢٧٢.

(٩) تفسير السعدي: ٧٩٩.

قال : بسنة رسول الله. قال : "فإن لم تجد ؟" قال : أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، لما يرضي رسول الله»^(١).. فالغرض منه أنه أقر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله^(٢).

وقد تعددت عبارات المفسرين في تفسير قوله تعالى: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات : ١]، على وجوه:

أحدها: معناه: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. قاله ابن عباس^(٣).

الثاني: لا تتكلموا بين يدي كلامه. قاله ابن عباس-أيضا-^(٤).

الثالث: أن هذه الآية نزلت ردا على أناس من المسلمين كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، وصنع في كذا وكذا، فكره الله ذلك. قاله قتادة^(٥).

الخامس: يعني: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. رواه مسروق عن عائشة^(٦).

الثالث: يعني: في القتال وشرائع الدين، يقول: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله. قاله ابن عباس^(٧)، وروي عن الضحاك نحوه^(٨).

قال الضحاك: "يعني: بذلك في القتال، وكان من أمورهم لا يصلح أن يقضى إلا بأمره ما كان من شرائع دينهم"^(٩).

الرابع: أنه في الذبح يوم الأضحى، قاله جابر بن عبد الله^(١٠)، وهو قول الحسن^(١١)، واختيار الزجاج^(١٢).

قال الزجاج: "المعنى: إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم أن تفعلوه فيه، وجاء في التفسير أن رجلا ذبح يوم الأضحى قبل صلاة الأضحى فتقدم قبل الوقت فاعلم الله أن ذلك غير جائز، ففي هذا دليل أنه لا يجوز أن يؤدي فرض قبل وقته ولا تطوع قبل وقته مما جاءت به السنة، وفي هذا دليل أن تقديم الزكاة قبل وقتها لا ينبغي أن يجوز، فأما ما يروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - استسلف من العباس شيئا من الزكاة، فلا أعلم أن أحدا ممن أجاز تقديم الزكاة احتج إلا بهذا الحديث، وهذا إن صح فهو على ضربين: أحدهما أن يكون مخصوصا، والآخر: أن يكون الحاجة اشتمت فوقع اضطرار إلى استسلاف الزكاة. والإجماع أن إعطاءها في وقتها هو الحق، وهو الفضل إن شاء الله"^(١٣).

الخامس: لا تستبقوا رسول الله بقول، ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمركم. قاله الكلبي^(١٤)، والسدي^(١).

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٧٦، رقم ٥٥٩)، وأحمد (٢٣٠/٥، رقم ٢٢٠٦٠)، والطبراني (١٧٠/٢٠)، رقم ٣٦٢، والبيهقي (١١٤/١٠، رقم ٢٠١٢٦). وأخرجه أيضا: عبد بن حميد (ص ٧٢، رقم ١٢٤) والدارمي (٧٢/١، رقم ١٦٨). والحديث أصله في سنن أبي داود (٣٠٣/٣، رقم ٣٥٩٢)، والترمذي (٦١٦/٣)، رقم ١٣٢٧، (١٣٢٨)، وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٤/٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٢/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٢/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(٦) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧٠/٩.

(٧) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ١٣٨/٤. من رواية الضحاك عن ابن عباس.

(٨) رواه عنه الطبري في التفسير: ٢٧٦/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(١٠) رواه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧١-٧٠/٩.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٦/٢٢، ونسبه إليه الماوردي في النكت والعيون: ٣٢٥/٥، وابن الجوزي في زاد المسير: ٤٥٤/٧، والقرطبي في التفسير: ٣٠١/١٦.

(١٢) انظر: معاني القرآن: ٣١/٥.

(١٣) معاني القرآن: ٣١/٥.

(١٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧٠/٩.

قال الخازن: "فيه إشارة إلى احترام رسول الله صلى الله عليه وسلم والانقياد لأوامره ونواهيته، والمعنى: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قبل أن يفعله"^(٢).

السادس: لا تقطعوا أمرا دون رسول الله. قاله ابن زيد^(٣).

وقال سفيان: "لا تقضوا أمرا دون رسول الله"^(٤).

السابع: لا تدعوا قبل الإمام، حكاه ابن كثير عن الحسن^(٥).

الثامن: لا تمشوا بين يدي رسول الله، وكذلك بين أيدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء. حكاه الثعلبي^(٦).

وفي هذا المعنى روي عن أبي الدرداء قال: "رأني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أمشي أمام أبي بكر، فقال: «لم تمشي أمام من هو خير منك؟ إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس، أو غربت»"^(٧).

التاسع: لا تطلبوا منزلة وراء منزلته. حكاه الثعلبي^(٨).

العاشر: معناه: لا تفتاتوا^(٩) على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. قاله مجاهد^(١٠).

قال عبدالقاهر الجرجاني: "جمع مجاهد هذه الأقوال كلها"^(١١).

قال الإمام الشافعي: {لَا تُقَدِّمُوا} أي: لا تتقدموا: يقال: قَدَّمَ، وتَقَدَّمَ، واستَقَدَّمَ: بمعنى واحد. ومُقَدِّمة الجيش: بكسر الدال من هذا^(١٢).

قال الأخفش: "تقول العرب: فلان تقدّم بين يدي أبيه، وأمه، ويتقدّم إذا استبَدَّ بالأمر دونهما"^(١٣).

قال أبو عبيدة: "تقول العرب: فلان يفدّم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه، يعجل بالأمر والنهي دونه"^(١٤).

قال ابن قتيبة: "أي: لا تقولوا قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقال: "فلا يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه"؛ أي: يُعجّل بالأمر والنهي دونه"^(١٥).

قال سهل: "إن الله تعالى أدب عباده المؤمنين، أي: لا تقولوا قبل أن يقول، فإذا قال فأقبلوا عليه ناصتين له، مستمعين إليه"^(١٦).

قال الواحدي: "هذه عبارات المفسرين ومعناها واحد"^(١٧).

(١) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧٠/٩.

(٢) لباب التأويل: في معاني التنزيل: ١٧٥/٤.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢-٢٧٧.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٧.

(٦) انظر: الكشف والبيان: ٧١/٩.

(٧) أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" (١٣٧): ص١/١٥٤، وأبو عاصم في "السنة" (١٢٢٤): ص٢/٥٧٦،

وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٣٥): ص٩/٧٩٥، والخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" (٤٢٨٤): ص١٤/٤٤٠،

ورواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٧١/٩.

(٨) انظر: الكشف والبيان: ٧١/٩.

(٩) لا تفتاتوا: أي: لا تبتدعوا الكلام وتفتنوا برأيكم.

(١٠) أخرجه الطبري: ٢٧٦/٢٢.

(١١) درج الدرر في تفسير الآي والسور: ٥٨٢/٢.

(١٢) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٦٩/٣.

(١٣) نقلا عن: الكشف والبيان: ٧١/٩.

(١٤) مجاز القرآن: ٢١٩/٢.

(١٥) غريب القرآن: ٤١٥.

(١٦) تفسير التستري: ١٤٩.

(١٧) التفسير البسيط: ٣٤٢/٢٠.

قال ابن الجوزي: "معنى الآية على جميع الأقوال: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل"^(١).

قال النحاس: "وهذه الأقوال ليست بمتناقضة بل بعضها يشد بعضها، لأن هذه الأشياء إذا كانت ونزلت الآية تأولها القوم على ظاهرها في كراهة تقديم القول بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل أن يتشاوروا، وتأولها قوم على منع الذبح قبل الإمام، ودل على هذا أن فعل الطاعات قبل وقتها لا يجوز تقديم الصلاة ولا الزكاة"^(٢).

قال ابن عطية: "كانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك، قال قتادة: فر بما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا وينبغي أن يكون كذا، وأيضا فإن قوما ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم، حكاه الحسن بن أبي الحسن، وقوما فعلوا في بعض حرابه وغزواته أشياء بأرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك"^(٣).

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحجرات : ١]، أي: "وخافوا الله في قولكم وفعلكم أن يخالف أمر الله ورسوله"^(٤).

قال محمد بن إسحاق: {وَاتَّقُوا اللَّهَ}، أي: أطيعوا الله"^(٥).
قال الطبري: "يقول: وخافوا الله أيها الذين آمنوا في قولكم، أن تقولوا ما لم يأذن لكم به الله ولا رسوله، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه"^(٦).

قال سهل: "وَاتَّقُوا اللَّهَ في إهمال حقه، وتضييع حرمة"^(٧).
قال ابن كثير: "أي: فيما أمركم به"^(٨).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات : ١]، أي: "إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم"^(٩).

قال محمد بن إسحاق: {وَاتَّقُوا اللَّهَ}، أي: أطيعوا الله"^(١٠).
قال الطبري: يقول: "إن الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم"^(١١).

قال سهل: " {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} ما تقولون، {عَلِيمٌ} بما تعملون"^(١٢).
قال ابن كثير: " {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، أي: لأقوالكم {عَلِيمٌ} بنياتكم"^(١٣).
قال السعدي: " {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، {عَلِيمٌ} بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات، وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر

(١) زاد المسير: ١٤٢/٤-١٤٣.

(٢) إعراب القرآن: ١٣٨/٤.

(٣) المحرر الوجيز: ١٤٤/٥.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٠٠): ص ١١٨٩/٤.

(٦) تفسير الطبري: ٢٧٧/٢٢.

(٧) تفسير التستري: ١٤٩.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٧.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٥.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٠٠): ص ١١٨٩/٤.

(١١) تفسير الطبري: ٢٧٧/٢٢.

(١٢) تفسير التستري: ١٤٩.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٧.

بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(١).

قال الجصاص: "يحتج بهذه الآية في امتناع جواز مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم في تقديم الفروض على أوقاتها وتأخيرها عنها وفي تركها، وقد يحتج بها من يوجب أفعال النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن في ترك ما فعله تقدماً بين يديه، كما أن في ترك أمره تقدماً بين يديه، وليس ذلك كما ظنوا؛ لأن التقدم بين يديه إنما هو فيما أراد منا فعله ففعلنا غيره، فأما ما لم يثبت أنه مراد منه فليس في تركه تقديم بين يديه ويحتج به نفاة القياس أيضاً ويدل ذلك على جهل المحتج به؛ لأن ما قامت دلالاته فليس في فعله تقدم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة والإجماع على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس فيه إذا تقدم بين يديه"^(٢).

قال ابن عاشور: "هذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات"^(٣).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)} [الحجرات : ٢]

التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي عند مخاطبتكم له، ولا تجهروا بمناداته كما يجهر بعضكم لبعض، وميزوه في خطابه كما تميز عن غيره في اصطفاؤه لحمل رسالة ربه، ووجوب الإيمان به، ومحبته وطاعته والافتداء به؛ خشية أن تبطل أعمالكم، وأنتم لا تشعرون، ولا تحسبون بذلك.

في سبب نزول الآية، قولان:

أحدهما: عن أنس بن مالك، أنه قال: "لما نزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ٢]، إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس^(٤) في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ اشتكى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل هو من أهل الجنة»^(٥).

روي عن عطاء الخراساني؛ قال: "قدمت المدينة، فلقيت رجلاً من الأنصار، قلت: حدثني حديث ثابت بن قيس بن شماس؛ قال: قم معي، فانطلقت معه حتى دخلت على امرأة، فقال الرجل: هذه ابنة ثابت بن قيس بن شماس فاسألها عما بدا لك، فقلت: حدثيني، قالت: سمعت أبي يقول: لما أنزل الله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} الآية؛ دخل بيته، وأغلق عليه بابيه، وطفق يبكي، ففقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؛ فقال: "ما شأن ثابت؟"، فقالوا: يا رسول الله! ما ندري ما شأنه؛ غير أنه

(١) تفسير السعدي: ٧٩٩.

(٢) أحكام القرآن: ٥٢٨/٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٢١٧/٢٦.

(٤)

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٧ - (١١٩): ص ١١٠/١، وأخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٣) وفي التفسير (٤٨٤٦) من طريق موسى بن أنس عنه به، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (٧٥٣): ص ٤٠٢، وزاد السيوطي نسبته في الدر (٨٤ / ٦) لأحمد وأبي يعلى والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

قد أغلق عليه باب بيته فهو يبكي فيه، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله: "ما شأنك؟"، قال: يا رسول الله! أنزل الله عليك هذه الآية، وأنا شديد الصوت؛ فأخاف أن أكون قد حبط عملي، فقال: "لست منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير"، قالت: ثم أنزل الله على نبيه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: ١٨]؛ فأغلق عليه بابه، وطفق يبكي فيه، فافتقده رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقال: "ثابت ما شأنه؟"، قالوا: يا رسول الله! والله ما ندري ما شأنه؛ غير أنه قد أغلق عليه بابه وطفق يبكي، فأرسل إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: "ما شأنك؟"، قال: يا رسول الله! أنزل الله عليك: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} والله إني لأحب الجمال وأحب أن أسود قومي، قال: "لست منهم، بل تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، ويدخلك الله الجنة بسلام"، قالت: فلما كان يوم اليمامة؛ خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب، فلما لقي أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد انكشفوا؛ فقال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم حفر كل منهما لنفسه حفرة، وحمل عليهم القوم، فثبنا حتى قتلا، وكانت على ثابت يومئذ درع له نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم؛ إذ أتاه ثابت بن قيس في منامه، فقال له: إني أوصيك بوصية إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه: إني لما قتلت أمس؛ مر بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي ومنزله في أقصى العسكر، وعند خباته فرس يستن في طوله وقد أكفأ على الدرع برمة وجعل فوق البرمة رحلاً، فانت خالد بن الوليد؛ فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله؛ فأخبره أن عليّ من الدين كذا وكذا، ولي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فإياك أن تقول هذا حلم؛ فتضيعه، فأتى الرجل خالد بن الوليد فأخبره، فبعث إلى الدرع فنظر إلى خباء في أقصى العسكر؛ فإذا عنده فرس يستن في طوله فنظر في الخباء؛ فإذا ليس فيه أحد، فدفعوا الرجل؛ فإذا تحته برمة، ثم رفعوا البرمة؛ فإذا الدرع تحتها، فأثوا به خالد بن الوليد، فلما قدموا المدينة؛ حدث الرجل أبا بكر برؤياه؛ فأجاز وصيته بعد موته، ولا يعلم أحد من المسلمين جوزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس^(١). [ضعيف]

الثاني: عن ابن أبي مليكة، قال: "كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-، رفعوا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بـرجل آخر - قال نافع لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلاfk فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ} [الحجرات: ٢]، " الآية قال ابن الزبير: «فما كان

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في "الأحاديث والمثنوي" (١/ ٢٤١ رقم ٣١٤، ٣/ ٤٦١ - ٤٦٣ رقم ١٩٢١، ٦/ ١٧٠، ١٧١ رقم ٣٣٩٩)، وفي "الجهاد" (٢/ ٥٦٠ - ٥٦٢ رقم ٢٢٥)، وابن المنذر؛ كما في "فتح الباري" (٦/ ٦٢١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٧٠، ٧١ رقم ١٣٢٠)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٦/ ٤١٥، ٤١٦)، والرويان في "مسنده" (٢/ ١٧٤، ١٧٥ رقم ١٠٠٢)، وأبو نعيم في "معرفه الصحابة" (٦/ ٣٥٩٠ رقم ٨٠٩١)، والبعوي في "معجم الصحابة" (ق ٥٦ - ق ٥٧)، والتميمي في "دلائل النبوة" (رقم ٣٠٩ - ط الحداد)، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٣٨، ٣٩ رقم ٤١٠٨ - المسند)، والحاكم (٣/ ٢٣٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ٣٥٦)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (١/ ١٩٤ - هامش الإصابة) من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عطاء الخراساني. قلنا: وسنده ضعيف؛ عطاء الخراساني؛ صدوق يهـ كثيراً، ويرسل ويدلس؛ كما في "التقريب".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٣٢٢): "وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنت ثابت بن قيس صحابية؛ فإنها قالت سمعت أبي". اهـ.

قلنا: قد نص الحافظ على أن عطاء لم يسمع من أحد من الصحابة؛ فلما أن تكون هذه المرأة تابعة وعليه؛ فهي مجهولة، وإما صحابية ويكون هنالك وهم أو تخطيط من عطاء نفسه؛ فإن الحافظ نصوا على أنه لم يدرك أي صحابي -والله أعلم-.

وسكت عنه الحاكم والذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٠) وزاد نسبه لابن مردويه والخطيب في "المتفق والمفتق".

عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر»^(١).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحجرات : ٢]، أي: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشره"^(٢).

قال الطبري: "يقول: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله"^(٣).
قوله تعالى: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات : ٢]، أي: "لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي عند مخاطبتكم له"^(٤).

قال الطبري: "يقول: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب"^(٥).

قال سهل: "أي: لا تخاطبوه إلا متفهمين"^(٦).
قال الزجاج: "أمرهم الله - عز وجل - بتبجيل نبيه عليه السلام، وأن يغضوا أصواتهم"^(٧).

قال السعدي: "وهذا أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له، صوته معه، فوق صوته"^(٨).

قال ابن كثير: "هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فوق صوته.. فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: «أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً»^(٩)، وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائما"^(١٠).

قال عبيد: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}، ... الآية، هو كقوله: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور : ٦٣]، نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضا وأمرهم أن يشرفوه ويعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة"^(١١).

قال الحسن: "يقول: لا تقولوا: يا محمد، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله"^(١٢).
قوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ} [الحجرات : ٢]، أي: "، ولا تجهروا بمناداته كما يجهر بعضهم لبعض"^(١٣).

قال الطبري: "يقول: ولا تتادوه كما ينادي بعضهم بعضا: يا محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله"^(١).

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٤٥)، والواحد في أسباب النزول (٧٥٤): ص ٤٠٢، وزاد نسبه في الدر (٨٤ / ٦) للطبراني وابن المنذر.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٣) تفسير الطبري: ٢٧٧/٢٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٥) تفسير الطبري: ٢٧٧/٢٢.

(٦) تفسير التستري: ١٤٩.

(٧) معاني القرآن: ٣٢/٥.

(٨) تفسير السعدي: ٧٩٩.

(٩) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد فنكره.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٧، ٣٦٩. [باختصار]

(١١) أخرجه الطبري: ٢٧٨/٢٢.

(١٢) ذكره يحيى بن سلام -كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢٦٠ / ٤ -.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٥.

قال ابن قتيبة: "أي: لا ترفعوا أصواتكم عليه كما يرفع بعضكم صوته على بعض" (٢).
قال الفراء: "يقول: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله- يا رسول الله، يا أبا القاسم" (٣).

قال السعدي: أي: " ولا يجهر له بالقول، بل يعض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره، في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به" (٤).

قال ابن كثير: "ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ}، كما قال: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣]" (٥).

قال الزجاج: "أمرهم أن يخاطبوه بالسكينة والوقار، وأن يفضلوه في المخاطبة، وذلك مما كانوا يفعلونه في تعظيم ساداتهم وكبرائهم، ومعنى: {كجهر بعضكم لبعض}، أي: لا تنزلوه منزلة بعضكم من بعض، فتقولوا: يا محمد خاطبوه بالنبوة، والسكينة والإعظام" (٦).

قال مجاهد: "قال لا تتنادوه نداء، ولكن قولاً لنا يا رسول الله" (٧).
قال قتادة: "كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فوعظهم الله، ونهاهم عن ذلك" (٨). وفي رواية: "يرفعون، ويجهرون عند النبي صلى الله عليه وسلم، فوعظوا، ونهوا عن ذلك" (٩).

قوله تعالى: {أَنْ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]، أي: "خشية أن تبطل أعمالكم، وأنتم لا تشعرون، ولا تحسبون بذلك" (١٠).
قال ابن قتيبة: "أي: لنلا تحبط أعمالكم" (١١).
قال الفراء: "معناه: لا تحبط" (١٢).

قال الطبري: "يقول: أن لا تحبط أعمالكم فتذهب باطلة لا ثواب لكم عليها، ولا جزاء برفعكم أصواتكم فوق صوت نبيكم، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض، وأنتم لا تعلمون ولا تدرون" (١٣).

قال الزجاج: "معناه" لا تفعلوا ذلك فتحبط أعمالكم، والمعنى: لنلا تحبط أعمالكم.. وهذا إعلام أن أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - ينبغي أن يجلب ويعظم غاية الإجلال، وأنه قد يفعل الشيء مما لا يشعر به من أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - فيكون ذلك مهلكاً لفاعله أو لقائله" (١٤).

قال ابن كثير: "أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن

(١) تفسير الطبري: ٢٧٧/٢٢.

(٢) غريب القرآن: ٤١٥.

(٣) معاني القرآن: ٧٠/٣.

(٤) تفسير السعدي: ٧٩٩.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٧، ٣٦٩. [باختصار]

(٦) معاني القرآن: ٣٢/٥.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٧٨/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٢٧٨/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٢٧٨/٢٢.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٥.

(١١) غريب القرآن: ٤١٥.

(١٢) معاني القرآن: ٧٠/٣.

(١٣) تفسير الطبري: ٢٨١/٢٢.

(١٤) معاني القرآن: ٣٢/٥.

الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض»^(١)»^(٢).
قال النحاس: «{وأنتم لا تشعرون}، قيل: أي: لا تشعرون أن أعمالكم قد حبطت»^(٣).
قال السعدي: «فإن في عدم القيام بذلك، محذوراً، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه، من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال»^(٤).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)} [الحجرات : ٣]
التفسير:

إن الذين يَخْفِضُونَ أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها لتقواه، لهم من الله مغفرة لذنوبهم وثواب جزيل، وهو الجنة.
في سبب نزول الآية، قولان:

أحدهما: أنها نزلت في أبي بكر الصديق-رضي الله عنه-.

قال عطاء عن ابن عباس: «لما نزل قوله تعالى: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ} [الحجرات : ٢]، تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار، فأنزل الله تعالى في أبي بكر: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [الحجرات : ٣]»^(٥). [ضعيف]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «لما نزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ} [الحجرات : ٣]، صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل هذا»^(٦).

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: «لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} [الحجرات : ٣] قال أبو بكر رضي الله عنه: «فأليت على نفسي، أن لا أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار»^(٧).

الثاني: أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس.

عن محمد بن قيس بن شماس؛ قال: «لما نزلت هذه الآية: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ}؛ قال: قعد ثابت في الطريق يبكي، قال: فمرّ به عاصم بن عدي من بني العجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟! قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ وأنا صيِّت رفيع الصوت، قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: وغلّبه البكاء، قال: فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي، فشدي على الضبة بمسمار، فضربته بمسمار، حتى إذا خرج عطفه؛ قال: لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: وأتى عاصم رسول الله -

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٨/٧.

(٣) إعراب القرآن: ١٤٠/٤.

(٤) تفسير السعدي: ٧٩٩.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٥٥): ص ٤٠٣. بدون إسناد.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧٢٠): ص ٥٠٢/٢، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٤٤٩): ص ٧٨/٣، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وتعبه الذهبي بقوله: حصين واه وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٨ / ٧) وقال: رواه البزار وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول: (٧٥٦): ص ٤٠٣، وزاد السيوطي نسبته في الدر (٨٤ / ٦) لابن عدي وابن مردويه.

وفي سنده: يحيى بن عبد الحميد الحماني: متهم بسرقة الحديث.

صلى الله عليه وسلم - فأخبره خبره، فقال: "أذهب فادعه لي"؛ ف جاء عاصم إلى المكان فلم يجده، ف جاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس، فقال له: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوك، فقال: اكسر الضبة، قال: فخرجا؛ فأتيا نبي الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ما يبكيك يا ثابت؟!"، فقال: أنا صييت، وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟"؛ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله، ولا أرفع صوتي أبداً على رسول الله؛ فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾^(١). [ضعيف].

قال مقاتل: " فلما كان على عهد أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- غزا ثابت إلى اليمامة فرأى المسلمين قد انهزموا. فقال لهم: أف لكم، ولما تصنعون، اللهم إني أعتذر إليك من صنع هؤلاء. ثم نظر إلى المشركين فقال: أف لكم، ولما تعبدون من دون الله، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء، ثم قاتلهم حتى قتل- رحمة الله عليه"^(٢).

(١)(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧٥ / ٢٦)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٦ / ٦٢٠) من طريق زيد بن الحباب ثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه به.

وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٨٦ / ٢) رقم ١٣١٦) من طريق زيد بن الحباب ثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ثني أبي ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣٢١ / ٩): "وأبو ثابت بن قيس بن شماس لم أعرفه، ولكنه قال: ثني أبي ثابت بن قيس، فالظاهر أنه صحابي؛ لكن زيد بن الحباب لم يسمع من أحد من الصحابة".

قلنا: في الطريق الأولى إسماعيل هذا؛ مجهول؛ لم يوثقه إلا ابن حبان، وروى عنه الزهري، وأبو ثابت هذا؛ مجهول، وانظر: "تعجيل المنفعة" (ص ٣٦ - ٣٧).

وبالجملة؛ فالإسناد ضعيف.

وأخرجه الحاكم (٢٣٤ / ٣)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣٥٥ / ٦) بسند صحيح عن الزهري قال: أخبرني إسماعيل بن محمد بن ثابت، عن أبيه: أن ثابت بن قيس قال: يا رسول الله! لقد خشيت أن أكون قد هلكت، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ولم؟"، قال: نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل وأجدني أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهر الصوت؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يا ثابت! ألا ترضى أن تعيش حميداً؛ وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟"، قال: بلى يا رسول الله! قال: فعاش حميداً، وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه إسماعيل؛ مجهول كما تقدم.

أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

قلنا: ولم يخرجا لإسماعيل ولا لأبيه.

وأخرجه ابن حبان في "صحيحه" (رقم ٢٧٧٠ - موارد)، وابن سعد، والدارقطني في "غرائب مالك"؛ كما في "الفتح" (٦٢١ / ٦)، والطبراني في "الكبير" (رقم ١٣١٢، ١٣١٤، ١٣١٥)، وأبو نعيم "في دلائل النبوة" (ص ٥٢٠)، و"معرفة الصحابة" (٣ / ٢٢١ رقم ١٣٠١)، والرويان في "المسند" (٢ / ١٧٣ رقم ١٠٠١)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (١ / ١٩٣ - هامش الإصابة) من طرق عن الزهري عن إسماعيل بن محمد بن ثابت:

أن ثابت بن قيس الأنصاري؛ قال: يا رسول الله! لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: "لم؟"، قال: قد نهانا الله أن نحمد بما لم نفعل وأجدني صاحب الحمد، ونهانا الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يا ثابت! ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟"، قال: بلى يا رسول الله! قال: فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب.

قلنا: وهذا سند ضعيف -أيضاً-؛ فيه علة أخرى مع جهالة إسماعيل، وهي أنه لم يدرك جده؛ فهو على هذا

مرسل.

ولذلك قال البخاري في "التاريخ الكبير" (١ / ٣٧١): "روى عنه الزهري؛ مرسل". اهـ.

وقال الحافظ: "وهذا مرسل قوي الإسناد"، وقال -أيضاً-: "وهو مع ذلك مرسل؛ لأن إسماعيل لم يلحق ثابتاً".

وأخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (رقم ٢٠٤٢٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦ / ٧٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦ / ٣٥٥) عن معمر عن الزهري: أن ثابت بن قيس (فذكره).

قلنا: وهذا معضل.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩١/٤.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَأَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} [الحجرات : ٣]، أي: "إن الذين يخفون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها لتقواه"^(١).

قال الطبري: يقول: "هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، يعني لا تقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها"^(٢).

قال ابن كثير: "ندب الله عز وجل، إلى خفض الصوت عنده، وحثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه"^(٣).

عن مجاهد، قوله: "{امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}"، يقول: أخلص الله قلوبهم"^(٤).

قال قتادة: "أخلص الله قلوبهم فيما أحب"^(٥).

قال ابن قتيبة: "أي: أخلصها للتقوى"^(٦).

قال سهل: "أي: أخلص نياتهم له"^(٧).

قال أبو عبيدة: {امْتَحَنَ} من: المحنة، امتحنه اصطفاه"^(٨).

قال الفراء: "أخلصها للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده، ويسقط خبثه"^(٩).

قال الزجاج: المعنى: "اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين - كما تقول: قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة. تأويله: قد اختبرتهما بأن أدبتهما حتى خلصت الذهب والفضة فعلمت حقيقة كل واحد منهما"^(١٠).

قال النحاس: "ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب وفي هذا، دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى"^(١١).

قال المراغي: أي: "الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصدقت بما كابدت من الصبر على المشاق"^(١٢).

قال مجاهد: "كتب إلى عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل لها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها: {أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}"^(١٣).

(١) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٢) تفسير الطبري: ٢٨٢/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٦٨/٧.

(٤) تفسير مجاهد: ٦١٠، وأخرجه الطبري: ٢٨٢/٢٢. ولفظه «أخلص».

(٥) أخرجه الطبري: ٢٨٢/٢٢.

(٦) غريب القرآن: ٤١٥.

(٧) تفسير التستري: ١٤٩.

(٨) مجاز القرآن: ٢١٩/٢.

(٩) معاني القرآن: ٧٠/٣.

(١٠) معاني القرآن: ٣٣/٥.

(١١) تفسير السعدي: ٧٩٩.

(١٢) تفسير المراغي: ١٢٢/٢٦.

(١٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥٢/٧) وعزاه لأحمد في الزهد، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٦٨/٧.

عن أبي الدرداء قال: "لا تزال نفس أذككم شابة من حب الشيء ولو التقت ترقوتاه من الكبر إلا الذين امتحن الله قلوبهم وقليل ما هم"^(١).
قوله تعالى: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات : ٣]، أي: "لهم من الله مغفرة لذنوبهم وثواب جزيل، وهو الجنة"^(٢).

قال الطبري: "يقول: لهم من الله عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها لهم (وأجر عظيم) يقول: وثواب جزيل، وهو الجنة"^(٣).

قال المراغي: "لهم مغفرة لذنوبهم، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعتهم"^(٤).
عن ابن جريج، في قوله: " {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة"^(٥).

عن قتادة: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} "مغفرة لذنوبهم"^(٦).
عن قتادة: " {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً} لذنوبهم، {وَأَجْرًا عَظِيمًا} في الجنة"^(٧).

فوائد الآيات: [٣-١]:

١- لا يجوز للمسلم أن يقدم رأيه أو اجتهاده على الكتاب والسنة، فلا رأي ولا اجتهاد إلا عند عدم وجود نص من كتاب أو سنة وعليه إذا اجتهد أن يكون ما اجتهد فيه أقرب إلى مراد الله ورسوله، أي ألصق بالشرع، وإن ظهر له بعد الاجتهاد نص من كتاب أو سنة عاد إلى الكتاب والسنة وترك رأيه أو اجتهاده فوراً وبلا تردد.

٢- بما أن الله تعالى قد قبض إليه نبيه ولم يبق بيننا رسول الله نتكلم معه أو نناجيه فنخفض أصواتنا عند ذلك فإن علينا إذا ذكر رسول الله بيننا أو ذكر حديثه أن نتأدب عند ذلك فلا نضحك ولا نرفع الصوت، ولا نظهر أي استخفاف أو عدم مبالاة وإلا يخشى علينا أن تحبط أعمالنا ونحن لا نشعر.

٣- على الذين يغشون مسجد رسول اله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يرفعوا أصواتهم فيه إلا لضرورة درس أو خطبة أو أذان أو إقامة.

٤- دلّ قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} الآية على أن القلوب تفتن، فمنها ما يسقط، ومنها ما ينجح، ويشهد لذلك الحديث الصحيح: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأى قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه»^(٨).

وقد دلت الآية على أن من علامات نجاح القلب أدب الإنسان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)} [الحجرات : ٤]
التفسير:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧:٥٥٢)، وعزاه إلى ابن المبارك في الزهد.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٣) تفسير الطبري: ٢٨٢/٢٢.

(٤) تفسير المراغي: ١٢٢/٢٦.

(٥) الدر المنثور: ٢٤٦/٥، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) أخرجه الطبري: ١٥٤/١٩.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٦٩/٢٠.

(٨) صحيح مسلم (٢٣١): ص ١٢٨/١.

إن الذين ينادونك -أيها النبي- من وراء حجراتك بصوت مرتفع، أكثرهم ليس لهم من العقل ما يحملهم على حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوقيره. اختلف في سبب نزول الآية، على أقوال:

أحدها: روى عن زيد بن أرقم، قال: " جاء أناس من العرب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل؛ فإن يكن نبياً؛ فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً؛ نعش في جناحه، قال: فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بذلك، قال: ثم جاؤوا إلى حجر النبي - صلى الله عليه وسلم - فجعلوا ينادونه: يا محمد! فأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم -: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}، قال: فأخذ نبي الله بأذني فمدّها؛ فجعل يقول: "قد صدق الله قولك يا زيد! قد صدق الله قولك يا زيد!"^(١). [ضعيف]

الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة، فجاء رجالهم يقفون الداراي، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل، فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس^(٢).

الثالث: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس: "أنه أتى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا محمد! اخرج إلينا، فلم يجبه؛ فقال: يا محمد! إن حمدي زين، وإن ذمي شين؛ فقال: «ذاك الله»؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}". [صحيح]^(٣).

(١) أخرجه مسدد بن مسرهد وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى في "مسانيدهم"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/٣٩، ٤٠ رقم ٤١٠٩، ٤١١٠)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/١٦٠، ١٦١ رقم ٧٨٢٣)، والطبري في التفسير (٢٨٤/٢٢)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/٢١٠، ٢١١ رقم ٥١٢٣)، والواحدي في أسباب النزول" (ص ٢٥٨ - ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/٢٢٣) عن المعتمر بن سليمان عن داود الطفاوي عن أبي مسلم البجلي عن زيد به. قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أبو مسلم البجلي؛ مجهول لم يرو عنه إلا الطفاوي، ولم يوثقه إلا ابن حبان؛ ولذلك قال الذهبي في "ميزان الاعتدال": "لا يعرف"، وفي "التقريب": "مقبول". الثانية: داود الطفاوي؛ لئن الحديث؛ كما في "التقريب". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/١٠٨): "وفيه داود بن راشد الطفاوي وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات!!". وقال البوصيري: "رواته ثقات!!".

وقال السيوطي في "اللباب النقول" (ص ١٩٥)، و"الدر المنثور" (٧/٥٥٢): "بسند حسن!!". (٢) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٤٥/٤، غريب: لم أفق عليه بهذا السياق. وهذا الخبر قد ورد في السير. فقد أخرجه الواقدي في «المغازي» ص ٩٧٣ - ٩٧٩ عن سعيد بن عمرو، والزهرري مطولا. والواقدي متروك. وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٥/٣١٣ - ٣١٥ و «سيرة ابن هشام» ٤/٢٠٣ و «سيرة ابن كثير» ٤/٧٩ - ٨٥.

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (٣/٤٨٨، ٦/٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٤)، والطبري في "التفسير" (٢٨٣/٢٢)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١/٨٧٨) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/٣٢١ رقم ١٥٠٠) -، وابن أبي عاصم في "الأحاديث المختارة" (٢/٣٨٨ رقم ١١٧٨)، وأبو نعيم في "معرفه الصحابة" (٢/٤٠٧ رقم ١٠٣٣)، وابن قانع في "معجم" "الصحابة" (١/٦٨)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/٥٥٢) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/٣٢٢ رقم ١٥٠١) -، وابن الأثير في "أسد الغابة" (١/١٣٠)، والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٤/٣٢٢، ٣٢٣ رقم ١٥٠٣) وغيرهم من طرق عن موسى بن عقبة عن أبي سلمة به.

قلنا: وسنده صحيح، وصرح أبو سلمة بسماحه من الأقرع عند الطبري. قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/١٠٨): "واحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلا؛ فهو مرسل". وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/٥٥٢) بعد أن زاد نسبه للبخاري في "المعجم": "بسند صحيح".

عن قتادة: " أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فناده من وراء الحجرة فقال: يا محمد ، إن مدحي زين وإن شتني شين ، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ويلك ذاك الله ويلك ذاك الله» ، فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (١).

عن حبيب بن أبي عمرة؛ قال: "كان بشر بن غالب وليد بن عطارد أو بشر بن عطارد وليد بن غالب وهما عند الحجاج جالسان، يقول بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}؛ فذكرت ذلك لسعيد بن جبيرة؛ فقال: أما إنه لو علم بأخر الآية؛ أجابه: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، قالوا: أسلمنا ولم يقاتلك بنو أسد" (٢). [ضعيف جداً]

وكذا قال في "اللباب النقول" (ص ١٩٦).
وله شاهد من حديث البراء بن عازب بنحوه: عند الترمذي (رقم ٣٢٦٧)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٣١٩ رقم ٥٣٥)، والطبري في "جامع البيان" (٧٧/ ٢٦) من طريق الحسين بن واقد عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء به.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لأن أبا إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعن، ثم هو مع ذلك مختلط ولم يذكر أن الحسين بن واقد سمع منه قبل الاختلاط.
وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

وصححه شيخنا الألباني في "صحيح الترمذي" (رقم ٢٦٠٥).
وله شاهد آخر من مرسل قتادة في قوله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}: أن رجلا جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فناده من وراء الحجرات؛ فقال: يا محمد! إن مدحي زين وإن شتني شين، فخرج إليه النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ فقال: "ويلك ذاك الله، ويلك ذاك الله"؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٧٧/ ٢٦) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به.
قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) وزاد نسبه لعبد بن حميد.
وله شاهد ثالث من مرسل الحسن؛ قال: أتى أعرابي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من وراء حجرته، فقال: يا محمد! يا محمد! فخرج إليه النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: "ما لك ما لك؟!"، فقال: تعلم أن مدحي لزين وأن ذمي لشين؛ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "ذاكم الله"؛ فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٧٧/ ٢٦)، ثنا ابن حميد؛ قال: ثنا مهرا عن المبارك بن فضالة عن الحسن به.

قلنا: وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن حميد؛ ضعيف الحديث واتهمه الإمام أحمد وغيره بالكذب.

الثالثة: المبارك بن فضالة؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: مهرا وابن أبي عمر العطار؛ صدوق له أوهام سيئ الحفظ.

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢٩٢٨) ص ٢٢٠/٣.

(٢) أخرجه الطبري في "التفسير" (٢٨٥/٢٢): ثنا ابن حميد قال: ثنا مهرا عن سفيان عن حبيب به.

قلنا: وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: مهرا؛ سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ متروك الحديث، متهم بالكذب.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) وزاد نسبه لابن المنذر.

وعن سعيد بن جبير: "أن تميماً ورجلاً من بني أسد بن خزيمة استبأ؛ فقال الأسدي: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)} أعراب بني تميم، فقال سعيد: لو كان التميمي فقيهاً؛ إن أولها في بني تميم، وآخرها في بني أسد"^(١). [ضعيف]

عن سعيد بن جبير-أيضا-؛ قال: "قال رجل من بني أسد لرجل من بني تميم -وتلا هذه الآية-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}: بني تميم {لَا يَعْقِلُونَ}، فلما قام التميمي وذهب؛ قال سعيد بن جبير: أما إن التميمي لو يعلم ما أنزل في بني أسد؛ لتكلم، قلنا: ما أنزل فيهم؟ قال: جاؤوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: إنا قد أسلمنا طائعين وإن لنا خلقاً؛ فأنزل الله - عز وجل -: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} الآية"^(٢). [ضعيف]

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "قدم وقد بني تميم -وهم سبعون رجلاً، أو ثمانون رجلاً؛ منهم: الزبيرقان بن بدر، وعطارد بن معبد وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث، وعمرو بن أهتم- المدينة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فانطلق معهم عينه بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سدة، حتى أتوا منزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف: يا محمد! اخرج إلينا، يا محمد! اخرج إلينا، فخرج إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقالوا: يا محمد! إن مدحنا زين وإن شتمنا شين، نحن أكرم العرب؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "كذبتم؛ بل مدحة الله الزين، وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"، فقالوا: إنا أتيناك لنفأخرك (فذكره بطوله)، وقال في آخره: فقام التميميون فقالوا: والله؛ إن هذا الرجل لمصنوع له، لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا، وقال شاعره فكان أشعر من شاعرنا، قال: ففهم أنزل الله - تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ} من بني تميم {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، قال: هذا كان في القراءة الأولى، {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)}"^(٣). [موضوع]

وقال مقاتل: "نزلت في تسعة رهط ثمانية منهم من بني تميم، ورجل من قيس، فمنهم الأقرع بن حابس المجاشعي، وقيس بن عاصم المنقري، والزبيرقان بن بدر الهذلي، وخالد بن مالك، وسويد بن هشام النهشليين، والقعقاع بن معبد، وعطاء بن حابس، ووكيع بن وكيع من بني دارم، وعيينة ابن حصن الفزاري، وذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- أصاب طائفة من ذراري بني العنبر، فقدموا المدينة في الظهيرة لعداء ذراريهم فتذكروا ما كان من أمرهم، فبكت الذراري إليهم فنهضوا إلى المسجد والنبي- صلى الله عليه وسلم- في منزله، فاستعجلوا الباب لما أبطأ عليهم النبي- صلى الله عليه وسلم- فنادى أكثرهم من وراء الحجرات: يا محمد. مرتين ألا تخرج إلينا فقد جننا في الفداء، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: ويلك مالك حداك المنادي، فقال: أما والله إن حمدي لك زين وإن ذمي لك شين. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: ويلكم ذلكم الله- تعالى-"^(٤).

وقال محمد بن إسحاق: "نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم: فدخلوا المسجد فنادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته: أن اخرج إلينا يا

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣)، وقال: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج؛ قال: أخبرت عن سعيد بن جبير به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، وجهالة المخبر لابن جريج.

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٣) ونسبه لعبد بن حميد.

قلنا: وهو ضعيف؛ لإرساله.

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٤) ونسبه لابن إسحاق وابن مردويه.

ثم رأينا سنده في كتاب الزيلعي: "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٣٠، ٣٣١)؛ فقد أخرجه ابن مردويه في "تفسيره" من طريق ابن إسحاق: ثنا محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا موضوع؛ فالكلبي كذاب ونحوه شيخه أبو صالح.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٢/٤.

محمد، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين فأذى ذلك من صياحهم النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فقالوا: إنا جنناك يا محمد نفاخرك، ونزل فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الحجرات: ٤]، وكان فيهم: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزبير بن بدر، وقيس بن عاصم^(١).

وعن جابر بن عبد الله، قال: "جاءت بنو تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين. فسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين، وذمه شين، فقالوا: نحن ناس من بني تميم، جننا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا. فقال الزبير بن بدر لشاب من شبابهم: قم فاذكر فضلك وفضل قومك. فقام فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانا أموالا نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير أهل الأرض، ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، وفعال هو أحسن من فعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس: قم فأجبه، فقام فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه- أحسن الناس وجوها وأعظمهم أحلاما- فأجابوه، فالحمد لله الذي جعلنا أنصاره، ووزراء رسوله، وعزا لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفسه وماله، ومن أباه قتلناه، وكان رغبة في الله تعالى علينا هينا، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات. فقال الزبير بن بدر لشاب من شبابهم: قم يا فلان فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك، فقام الشاب فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... فينا الرؤوس وفينا تقسم الربع
ونطعم الناس عند القحط كلهم ... من السديف إذا لم يؤنس القزع
إذا أبيننا فلا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حسان بن ثابت، فانطلق إليه الرسول فقال: وما يريد مني وقد كنت عنده؟ قال: جاءت بنو تميم بشاعرهم وخطيبهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس فأجابهم، وتكلم شاعرهم فأرسل إليك تجيبه. فجاء حسان، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه، فقال حسان: [يا رسول الله مره فليسمعني ما قال، فأنشده ما قال، فقال حسان:

نصرنا رسول الله والدين عنوة ... على رغم باد من معد وحاضر
أسنا نخوض الموت في حومة الوغى ... إذا طاب ورد الموت بين العساكر
ونضرب هام الدار عين وننتمي ... إلى حسب من جذم غسان قاهر
فلولا حياء الله قلنا تكرما ... على الناس بالخيفين هل من منافر
فأحيأونا من خير من وطئ الحصى ... وأمواتنا من خير أهل المقابر
قال: فقام الأقرع بن حابس فقال: إني والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء، وقد قلت شعرا فاسمعه، فقال: هات، فقال:

أئيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا فآخرونا عند ذكر المكارم
وإنا رؤوس الناس في كل معشر ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وإن لنا المرباع في كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا حسان فأجبه [فقام حسان] فقال:
بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم
وأفضل ما نلت من المجد والعلی ... رداقتنا من بعد ذكر الأكارم

(١) أسباب النزول للواحدي: ٤٠٤. بدون إسناد.

فإن كنتم جنتم لحقن دماءكم ... وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبي بدارم
وإلا ورب البيت مالت أكفنا ... على هامكم بالمرهفات الصوارم
قال: فقال الأقرع بن حابس فقال: إن محمدا لموتى له والله ما أدري ما هذا الأمر! تكلم خطيبنا
فكان خطيبهم أحسن قولا، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر. ثم دنا من رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما
يضرك ما كان قبل هذا»، ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم، وارتفعت
الأصوات، وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات {لَا
تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات : ٢]، إلى قوله: {وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات :
٣] (١). [ضعيف]

عن الزهري وسعيد بن عمرو؛ قالوا: "بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر بن
سفيان -ويقال: النحام العدوي- على صدقات بني كعب من خزاعة، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو
عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، ويقال: كانوا تسعين أو ثمانين رجلا، فدخلوا
المسجد وقد أدن بلال بالظهر، والناس ينتظرون خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،
فعلجوا واستبطؤوه فنادوه: يا محمد! اخرج إلينا، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقام
بلال، فصلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الظهر ثم أتوه، فقال الأقرع: يا محمد! ائذن
لي؛ فوالله إن مدحي لزين وإن ذمي لشين، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "كذبت؛
ذلك الله -تبارك وتعالى-"، ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس، وخطب خطيبهم
وهو عطارد بن حاجب، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لثابت بن قيس بن شماس:
"أجبه"؛ فأجابه، ثم قالوا: يا محمد! ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزبيرقان بن بدر فأشدد، فقال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحسان بن ثابت: "أجبه"؛ فأجابه بمثل شعره، فقالوا: والله؛
لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولهم أحلم منا، ونزل فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)}، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في قيس بن عاصم: "هذا سيد أهل الوبر"، ورد عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
الأسرى والسبي، وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد" (٢). [موضوع]

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ} [الحجرات : ٤]، أي: "إن الذين
ينادونك -أيها النبي- من وراء حجراتك بصوت مرتفع" (٣).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن الذين ينادونك يا
محمد من وراء حجراتك، والحجرات: جمع حجرة" (٤).

قال مجاهد: "يعني: أعرابا من بني تميم" (٥).

قال ابن قتيبة: "هو رجل واحد ناداه: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج
إليه النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: «وبيك، ذاك الله جل وعز». ونزلت الآية" (١).

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ٤٠٤-٤٠٦، والتعليبي في "تفسيره" (٧٣ / ٩ - ٧٥)، إسناده ضعيف،
معلق بن عبد الرحمن، فهو رافضي متهم بالوضع. قال ابن حبان: "يروى عن عبد الحميد بن جعفر المقلوبات،
لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد [مجروحين ١٧ / ٣].

وفي ترجمته في تهذيب التهذيب [٢١٤ / ١٠]: قال أبو داود: "سمعت يحيى بن معين وسئل عنه، فقال: أحسن
أحواله عندي أنه قيل له عند موته ألا تستغفر الله تعالى؟ فقال: أرجو أن يغفر لي وقد وضعت في فضل علي
سبعين حديثا".

(٢) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢٩٣ / ١)، ٢٩٤: نا محمد بن عمر الواقدي نا محمد بن عبد الله
عن الزهري، وثنا عبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو به.

قلنا: والواقدي؛ متروك متهم بالكذب.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٥.

(٤) تفسير الطبري: ٢٨٢/٢٢.

(٥) تفسير مجاهد: ٦١٠.

قال البراء: " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين، فقال: «ذاك الله تبارك وتعالى»" (١).
ويقرأ: «حُجْرَات»، بفتح الجيم: استئقلا للضمتين. وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع (٣).
قوله تعالى: {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات : ٤]، أي: "أكثرهم ليس لهم من العقل ما يحملهم على حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوقيره" (٤).
قال الطبري: "يقول: أكثرهم جهال بدين الله، واللازم لهم من حقاك وتعظيمك" (٥).
وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «وأكثرهم بنو تميم لا يعقلون» (٦).
عن الحسن البصري -من طريق حُرَيْث بن السائب- قال: "كنت أدخل بيوت أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقفاها بيدي" (٧).
عن عطاء الخراساني، قال: "أدركت حُجْرَ أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جَرِيد النَّخْلِ، على أبوابها المُسْوَح من شَعْر أسود، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ؛ يأمر بإدخال حُجْرَ أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فما رأيتُ يوماً أكثر باكيًا من ذلك اليوم. فسمعتُ سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله، لو بددتُ أتهم تركوها على حالها، ينشأ ناسٌ من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الأُفُق فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته، فيكون ذلك مما يُزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها، يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لئيتها تُرُكَّت فلم تُهدم حتى يُقصر الناس عن البناء، ويرون ما رضى الله لنبيه، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده" (٨).

القرآن

{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)} [الحجرات : ٥]

التفسير:

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك، والله غفور لما صدر عنهم جهلاً منهم من الذنوب والإخلال بالأداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [الحجرات : ٥]، أي: "ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك" (٩).
قال الطبري: يقول: " ولو أن هؤلاء الذين ينادونك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيراً لهم عند الله، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله عنه" (١٠).
قال الحسن: " ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم، فعظموك ووقروك؛ لكان لهم خيراً" (١١).

-
- (١) تأويل مشكل القرآن: ١٧٣.
 - (٢) أخرجه الطبري: ٢٨٣/٢٢.
 - (٣) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ١٧٣.
 - (٤) التفسير الميسر: ٥١٥.
 - (٥) تفسير الطبري: ٢٨٥/٢٢.
 - (٦) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢١٩/٢.
 - (٧) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٠٠ - ٥٠١، والبخاري في الأدب (٤٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٣٤).
 - وعزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا.
 - (٨) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٩٩ - ٥٠٠.
 - (٩) التفسير الميسر: ٥١٦.
 - (١٠) تفسير الطبري: ٢٨٥/٢٢.
 - (١١) ذكره يحيى بن سلام -كما في تفسير ابن أبي زمنين ٤/ ٢٦١ -.

قال مقاتل: "يعني: بالخير، لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لأطلقتهم من غير فداء"^(١).
 قوله تعالى: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات : ٥]، أي: "والله غفور لما صدر عنهم جهلا
 منهم من الذنوب والإخلال بالأداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة"^(٢).
 قال الطبري: يقول: "الله ذو عفو عن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصية
 الله بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك، وفي غيره؛ رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد
 توبته منه"^(٣).
 قال مقاتل: " {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لقولهم: يا محمد، ألا تخرج إلينا"^(٤).
 قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، "أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما
 فيهم"^(٥).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًا فُتَبِّئُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا
 فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)} [الحجرات : ٦]
 التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله و عملوا بشرعه، إن جاءكم فاسق بخر فنتبئوا من خبره قبل
 تصديقه ونقله حتى تعرفوا صحته؛ خشية أن تصيبوا قوماً برأء بجناية منكم، فتندموا على ذلك.
 سبب نزول الآيات: [٦-٨]:

قال ابن كثير: "قد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي
 معيط، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق. وقد روي ذلك
 من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو
 الحارث بن ضرار، والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين"^(٦).

عن الحارث بن ضرار الخزاعي -رضي الله عنه-؛ قال: قدمت على رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم -، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت في الإسلام وأقررت، ودعاني إلى الزكاة فأقررت
 بها، فقلت: يا رسول الله! أرجع إلى قومي، فأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي؛
 جمعت زكاته، فیرسل إلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسولاً لإبّان كذا وكذا لأتيك بما
 جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث بن ضرار، وبلغ الأبّان الذي أراد أن يبعث إليه رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم -؛ احتبس عليه الرسول، فلم يأت؛ فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة
 من الله ورسوله، فدعا بسرورات^(٧) قومه، فقال لهم: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد
 كان وقت لي وقتاً؛ ليرسل إلي ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - خلف، ولا أرى حيس رسول الله إلا من سخطه، فانطلقوا فنأتى رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم -، وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما
 كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق؛ فرّق - أي : خاف -
 فرجع، فقال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي؛ فضرب رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من
 المدينة، فلقبهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيمهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك،
 قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فرجع

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٢/٤.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢٨٦/٢٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٢/٤.

(٥) أخرجه الطبري (٧٨٢٢): ص ٢٠٣/٧.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٧٩٠/٧.

(٧) أي: رؤساء.

إليه، فزعم أنك منعتك الزكاة وأردت قتله، قال: والذي بعث محمداً بالحق ما رأيت له ولا أتاني، فلما أن دخل الحارث على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولك؟"، قال: لا، والذي بعثك ما رأيت رسولك ولا أتاني، ولا أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولك؛ خشية أن يكون سخط من الله ورسوله، قال: فنزلت في الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾ إلى قوله -تعالى-: ﴿فَضَلْنَا مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾^(١). [ضعيف]

عن أم سلمة -رضي الله عنها-؛ قالت: "بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة، فسمع بذلك القوم؛ فتلقوه يعظمون أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: فبلغ القوم رجوعه، قال: فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً فسررنا بذلك وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق؛ فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن بصلاة العصر، قال: ونزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾^(٢). [ضعيف]

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ الآية؛ قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط ثم أحد بني عمرو بن أمية ثم أحد بني أبي معيط إلى بني المصطلق؛ ليأخذ منهم الصدقات، وإنه لما أتاهم الخبر؛ فرحوا، وخرجوا ليتلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه؛ رجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا رسول الله! إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة؛ فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم؛ أتاه الوفد، فقالوا: يا رسول الله! إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١٨٤٥٩): ص ٤٠٣/٣٠-٤٠٥، والبخاري في "التاريخ الأوسط" (١/ ١٩٣ رقم ٣١٨)، وأبو القاسم البيهقي في "معجم الصحابة" (٢/ ٦٨ - ٦٩ / ٤٥٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٣/ ٢٧٤ رقم ٣٣٩٥)، وابن أبي عاصم في "الأحاديث والمثنوي" (٤/ ٣٢٢ رقم ٢٣٥٣)، وابن قانع في "معجم الصحابة" (١/ ١٧٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٢، ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٢٤)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (١/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ومطين وابن السكن وابن مردويه؛ كما في "الإصابة" (١/ ٢٨١)، وأبو نعيم في "معركة الصحابة" (٢/ ٧٨٤، ٧٨٣ رقم ٢٠٨١)، وابن منده وابن عبد البر في "الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (١/ ٤٠٠)، وابن عساکر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٦ - ١٦٧) جميعهم من طريق عيسى بن دينار المؤذن ثني أبي أنه سمع الحارث به.

والحديث حسن بشواهد دون قصة إسلام الحارث بن ضرار، وهذا إسناد ضعيف لجهالة دينار والد عيسى، وهو الكوفي مولى عمرو بن الحارث، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه عيسى، وقال ابن المديني: لا أعرفه، ومع ذلك ذكره ابن حبان في "الثقات" ٢١٨/٤. عيسى بن دينار ثقة، ومحمد بن سابق صدوق.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٩): "رواه أحمد والطبراني؛ ورجال أحمد ثقات!!". وقال السيوطي في "اللباب النقول" (ص ١٩٦)، و"الدر المنثور" (٧/ ٥٥٥): "بسند جيد!"، وفي "اللباب" (ص ١٩٧) -أيضاً-: "رجال إسناده ثقات!!".

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٣٢)، و"المطالب العالية" (٩/ ٤٠ رقم ٤١١١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٣/ ٣٢٦ رقم ٩٦٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ مداره على موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وبه أعلى الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١١)، وثابت لم يوثقه إلا ابن حبان (٤/ ٩٥) وقال: "روى عنه أهل المدينة"؛ فمثله يكون في عداد المجهول - والله أعلم -.

وقال الحافظ في "الكاف الشاف" (ص ١٥٦ رقم ١٨٠): "وفيه موسى بن عبيدة؛ وهو ضعيف". والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٦) وزاد نسبه لابن مردويه.

الطريق، وإنا خشينا أن يكون رده كتاب جاءه منك؛ لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ الله من غضبه وغضب رسوله؛ فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَنَبِّئُوهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦)^(١). [ضعيف جداً]

عن علقمة بن ناجية؛ قال: بعث إلينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا، فسار حتى إذا كان قريباً منا - وذلك بعد وقعة المريسيع -؛ رجع؛ فركبنا في أثره، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله! أتيت قوماً في جاهليتهم أخذوا اللباس ومنعوا الصدقة، فلم يغير ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَنَبِّئُوهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلْنَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)؛ وأتى المصطلقون النبي - صلى الله عليه وسلم - إثر الوليد بطائفة من صدقاتهم يسوقونها، ونفقات يحملونها، فذكروا ذلك له، وأنهم يطلبون الوليد بصدقاتهم فلم يجده، فدفعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان معهم، وقالوا: يا رسول الله! بلغنا مخرج رسولك فسررنا، وقلنا: نتلقاه، فبلغنا رجعتهم؛ فخفنا أن يكون ذلك من سخطه علينا، وعرضوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشتروا منه ما بقي، فقبل منهم الفرائض، وقال: "ارجعوا بنفقاتكم لا نبيع شيئاً من الصدقات حتى نقبضه"، فرجعوا إلى أهلهم، وبعث إليهم من يقبض بقية صدقاتهم"^(١). [حسن]

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -؛ قال: بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة إلى بني وليعة، وكانت بينهم شحنة في الجاهلية، فلما بلغ بني وليعة استقبلوه؛ لينظروا ما في نفسه، فخشي القوم، فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: إن بني وليعة أرادوا قتلي ومنعوني الصدقة، فلما بلغ بني وليعة الذي قال الوليد عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقالوا: يا رسول الله! لقد كذب الوليد، ولكن كانت بيننا وبينه شحنة؛ فخشينا أن يعاقبنا بالذي كان بيننا، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "البنتهين بنو وليعة أو لأبعثن إليهم رجلاً عندي كنفي، يقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم وهو هذا"، ثم ضرب بيده على كتف علي بن أبي طالب، قال: وأنزل الله في الوليد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَنَبِّئُوهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢ / ٢٨٧)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٩ / ٥٤، ٥٥)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧ / ٥٥٦)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦ / ١٦٧) كما في "الدر المنثور" (٧ / ٥٥٦).

قلنا: وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٨ / ٦ - ٧ رقم ٤)، وابن أبي عاصم في "الأحاديث والمثناني" (٤ / ٣٠٩، ٣١٠ رقم ٢٣٣٥) -ومن طريقه أبو نعيم الأصبهاني في "معركة الصحابة" (٤ / ٢١٧٥ رقم ٥٤٥٣)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٣ / ٥٨٥) -، وابن منده في "معركة الصحابة"؛ كما في "الدر المنثور" (٧ / ٥٥٦) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦ / ١٦٨) -، والهيثم بن كليب في "مسنده" -ومن طريقه ابن عساكر (٦٦ / ١٦٨) - عن يعقوب بن حميد بن كاسب بن عيسى بن الحضرمي بن كلثوم بن علقمة بن ناجية عن جده عن أبيه به.

قلنا: وهذا سند حسن.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧ / ١١٠): "رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور!! وبقيته رجاله ثقات".

قلنا: المتقرر في حال يعقوب أنه صدوق ما لم يخالف.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧ / ٥٥٦) وزاد نسبه لابن مردويه.

الْإِيمَانَ وَرَزَيْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلْنَا مِنْ اللَّهِ وَبِعَمَّةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)"}^(١). [ضعيف]

عن قتادة في قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)} وهو ابن أبي معيط الوليد بن عقبة، بعثه نبي الله - صلى الله عليه وسلم - مصدقاً إلى بني المصطلق، فلما أبصروه؛ أقبلوا نحوه، فهابهم؛ فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونهم فلما جاؤوا؛ أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا؛ أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى نبي الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر؛ فأنزل الله - عزّ وجلّ- ما تسمعون، فكان نبي الله يقول: "التبين من الله والعجلة من الشيطان"^(٢). [ضعيف]

عن الحسن: "أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا نبي الله! إن بني فلان -حياءً من أحياء العرب، وكان في نفسه عليهم شيء، وكانوا حديثي عهد بالإسلام- قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله، قال: فلم يعجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ودعا خالد بن الوليد، فبعثه إليهم، ثم قال: "ارمقهم عند الصلاة، فإن كان القوم قد تركوا الصلاة؛ فشأنك بهم، وإلا؛ فلا تعجل عليهم"، قال: فدنا منهم عند غروب الشمس، فكمّن حيث سمع الصلاة، فرمقهم؛ فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس، فأذن ثم أقام الصلاة، فصلوا المغرب؛ فقال خالد بن الوليد: ما أراهم إلا يصلون، فلعلمهم تركوا غير هذه الصلاة، ثم كمن حتى إذا جن الليل وغاب الشفق أذن مؤذّنهم فصلوا، قالوا: فلعلمهم تركوا صلاة أخرى، فكمّن، حتى إذا كان في جوف الليل فتقدم حتى أظلم الخيل بدورهم؛ فإذا القوم تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجّدون به من الليل ويقرأونه، ثم أتاهم عند الصبح؛ فإذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن ثم أقام فقاموا فصلوا، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار؛ إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: هذا خالد بن الوليد، وكان رجلاً مشنعاً، فقالوا: يا خالد! ما شأنك؟ قال: أنتم والله شأنني، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فقيل له: إنكم كفرتم بالله وتركتم الصلاة؛ فجعلوا يبكون، فقالوا: نعوذ بالله أن نكفر بالله أبداً، قال: فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا}؛ قال الحسن: فوالله؛ لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها المرسلّة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء"^(٣). [ضعيف]

عن عكرمة: "أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يصدقهم، فلم يبلغهم ورجع، فقال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنهم عصوا،

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٤/ ١٣٣، ١٣٤ رقم ٣٧٩٧)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الفتح السماوي" (٣/ ١٠٠٢) من طريق عبد الله بن عبد القدوس ثنا الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الأعمش؛ مدلس وقد عنعنه.

الثانية: عبد الله بن عبد القدوس؛ ضعيف.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٠): "وفيه عبد الله بن عبد القدوس التميمي وقد ضعفه الجمهور ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات". اهـ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٨٨)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٦/ ١٦٩) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٨) وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٧ - ٥٥٨) ونسبه لعبد بن حميد.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لإرساله.

فأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجهز إليهم؛ إذ جاء رجل من بني المصطلق، فقال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سمعنا أنك أرسلت إلينا؛ ففرحنا به واستبشرنا به، وإنه لم يبلغنا رسولك، وكذب؛ فأنزل الله فيه -وسماه فاسقاً-: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا} [ضعيف] (١).

قلت: وإن دلت الآية الكريمة وأكدت على وجوب التثبيت من خبر الفاسق، إلا أنه لا يلزم من ذلك وصف الصحابي الوليد بن عقبة -رضي الله عنه- بالفسق، لأن الوليد لم يتعمد الكذب، إذ لما رأى الحارث وقومه من بني المصطلق ظن أنهم اجتمعوا لحربه وقتله، فرجع وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما ظنه.

قال الفخر الرازي: "ما ذكره المفسرون من أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة حين بعثه إلى بني المصطلق، إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبيت من خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهو ضعيف، لأن الوليد لم يقصد الإساءة إليهم، وحديث أحمد يدل على أن الوليد خاف وفرق (فزح) حين رأى جماعة الحارث، فظن أنها خرجت لحربه، فرجع وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ "الفسق" على الوليد شيء بعيد، لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً" (٢).

وقال الزرقاني: "ولا يُشكّل تسميته فاسقاً بإخباره عنهم بذلك على ظنه للعداوة ورؤية السيف، وذلك لا يقتضي الفسق، لأن المراد الفسق اللغوي، وهو الخروج عن الطاعة، وسماه فاسقاً لإخباره بخلاف الواقع على المبعوث إليهم، لا الشرعي الذي هو من ارتكب كبيرة أو أصر على صغيرة، لعدالة الصحابة" (٣).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَنَبِّئُوهُ} [الحجرات : ٦]، أي: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن جاءكم فاسق بخبر فتنّبئوا من خبره قبل تصديقه ونقله حتى تعرفوا صحته" (٤).

قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله {إن جاءكم فاسق بنياً} عن قوم {فتنبئوا}" (٥).

قال سهل: "باطنها تأديب من بلغه ذمّه من أحد بأن لا يعجل بعقوبته ما لم يتعرف ذلك من نفسه" (٦).

قال السمعاني: "الفاسق -هاهنا-: هو الكذاب. وأما في اللغة: فهو الخارج عن طاعة الله" (٧).

قال الضحاك: "إذا جاءك فحدّثك أنّ فلاناً، أنّ فلانة، يعملون كذا وكذا من مساوئ الأعمال، فلا تصدّقه" (٨).

عن عبد الرحمن بن إسحاق، قال: "شهدت سالم [بن عبد الله بن عمر]، والقاسم [بن محمد بن أبي بكر] وسألتهما أمير المدينة عن رجل قال لرجل: يا فاسق؟ فقرأ هذه الآية: {إنّ جاءكم فاسقٌ بنياً فَنَبِّئُوهُ} وقالوا: الفاسق: الكذاب، يُعزّر أسواطاً" (٩).

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٥٨) ونسبه لعبد بن حميد.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لإرساله.

(٢) مفاتيح الغيب: ٩٨/٢٨. [بتصرف]

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: ٣٩/٤.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير الطبري: ٢٨٦/٢٢.

(٦) تفسير التستري: ١٤٩.

(٧) تفسير السمعاني: ٢١٧/٥.

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

«الفسق» لغة: الخروج عن الشيء، أو القصد، وهو الخروج عن الطاعة، والفسق: الفجور، والعرب تقول: إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها، وفسق فلان في الدنيا فسقاً: إذا اتسع فيها، وهون على نفسه، واتسع بركونها لها، لم يضيقها عليه، ورجل فاسق، وفسيق وفُسق: دائم الفسق، والفويسقة الفأرة: تصغر فاسقة، لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها، والتفسيق ضدّ التّعديل^(٢).

وأما المقصود بالفسق اصطلاحاً: فقد تنوعت عبارات العلماء في ذلك، على النحو الآتي:

أولاً: أن "الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله - عز وجل - فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان"^(٣). قاله ابن عطية^(٤)، والطبري^(٥)، والقرطبي^(٦)، واختاره الشوكان، قائلاً: "وهذا هو أنسب بالمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض"^(٧).

وقد روي "عن ابن عباس في قوله: {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة البقرة: ٥٩]، أي بما بعدوا عن أمري"^(٨).

الثاني: أن الفاسق: هو الخارج عن الطاعة. تقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. قاله ابن كثير^(٩).

وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور"^(١٠).

الثالث: أن "الفسق الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة". قاله البيضاوي^(١١).

الرابع: أن "الفسق شرعاً: خروج العقلاء عن الطاعة، فيشمل الكفر ودونه من الكبيرة والصغيرة، واختص في العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة، فلا يطلق على ارتكاب الآخرين إلا نادراً بقرينة". قاله الألويسي^(١٢).

فيتبين من التعريفات السابقة: عموم مصطلح الفسق، إذ هو في الأصل - أعم من الكفر - حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، ولكن خصّه العرف بمرتكب الكبيرة، ولذا يقول الراغب الأصفهاني: "والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير، ولكن تعورف فيما كان كثيراً"^(١٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ت: محمد عوامة) ٥٨٩ / ١٤ (٢٩٥٦٩).
(١) انظر: اللسان (٣٠٨/١٠) ومعجم مقاييس اللغة (٥٠٢/٢)، والمصباح المنير للفيومي ص (٥٦٨)، وترتيب القاموس المحيط للزاوي (٥٠٢/٤)، ومفردات الراغب ص (٥٧٢).
(٢) تفسير ابن عطية (١٥٥/١).
(١) انظر: اللسان (٣٠٨/١٠) ومعجم مقاييس اللغة (٥٠٢/٢)، والمصباح المنير للفيومي ص (٥٦٨)، وترتيب القاموس المحيط للزاوي (٥٠٢/٤)، ومفردات الراغب ص (٥٧٢).
(٢) تفسير ابن عطية (١٥٥/١).
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٤٧/٥.
(٣) أنظر: تفسيره: ٤٠٩/١-٤١٠.
(٣) تفسير القرطبي (٢٤٥/١).
(٤) فتح القدير (٥٧/١).
(٣) أخرجه الطبري (٥٧١): ص ٤٠٩/١-٤١٠.
(٩) تفسير ابن كثير: ٢٠٩/١.
(١٠) صحيح البخاري برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).
(٥) - تفسر البيضاوي (٤١/١) وانظر: تفسير أبي السعود (١٣١/١).
(٦) تفسير الألويسي (٢١٠/١).
(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٦٣/١)، ومفردات الراغب ص (٥٧٢)، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٧٢/٢)، والكلبيات للكفوي ص: (٦٩٣).
(٨) المفردات ص (٥٧٢).

قراءة حمزة والكسائي وخلف «فتثبتوا» ، وقراءة الباقيين: «فتبينوا»^(١).
قوله تعالى: {أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ} [الحجرات : ٦] ، أي: "لئلا تصيبوا قوماً برأء
بجناية منكم"^(٢).

قال الطبري: يقول: "فتبينوا لئلا تصيبوا قوما برأء مما قذفوا به بجناية بجهالة منكم"^(٣).
قال الزجاج: "أي: كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة، وهذا دليل أنه لا يجوز أن يقبل خبر
من فاسق إلا أن يتبين وأن الثقة يجوز قبول خبره. والثقة من لم تجرب عليه شهادة زور ولا
يعرف بفسق ولا جلد في حد، وهو مع ذلك صحيح التمييز"^(٤).
قال الشوكاني: "أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا، لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر
ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة، لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: متلبسين بجهالة
بحالهم"^(٥).

قال السمعاني: "معنى الإصابة -هاهنا-: هو الإصابة من الدم والمال بالقتل والأسر
والاغتنام"^(٦).

قوله تعالى: {فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات : ٦] ، أي: "فتصيروا نادمين
على صنيعكم"^(٧).

قال الطبري: "يقول: فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها"^(٨).
قال الشوكاني: أي: "فتصبحوا على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ نادمين على ذلك
مغتمين له مهتمين به"^(٩).
قال السمعاني: "أي: تصيروا نادمين على فعلكم، وليس المراد منه الإصباح للذي هو
ضد الإمساء"^(١٠).

القرآن

{وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ
وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)} [الحجرات :
٧]

واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فتأدبوا معه؛ فإنه أعلم منكم بما يصلح لكم، يريد بكم الخير،
وقد تريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، لو يطيعكم في كثير من
الأمر مما تختارونه لأدى ذلك إلى مشقتكم، ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وحسنه في قلوبكم،
فأمنتكم، وكره إليكم الكفر بالله والخروج عن طاعته، ومعصيته، أولئك المتصفون بهذه الصفات
هم الراشدون السالكون طريق الحق.

قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ} [الحجرات : ٧] ، أي: "واعلموا أن بين
أظهركم رسول الله المعصوم عن اتباع الهوى، فتأدبوا معه"^(١١).

(١) انظر: الإتحاف: ٣٩٧، ومعاني القرآن للفراء: ٧١/٣.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢٨٩/٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٣٤/٥.

(٥) فتح القدير: ١٧/٥.

(٦) تفسير السمعاني: ٢١٧/٥.

(٧) صفوة التفاسير: ٢١٦/٣.

(٨) تفسير الطبري: ٢٨٩/٢٢.

(٩) فتح القدير: ١٧/٥.

(١٠) تفسير السمعاني: ٢١٧/٥.

(١١) التفسير الميسر: ٥١٦، وصفوة التفاسير: ٢١٦/٣.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: لأصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم: واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله، {أن فيكم رسول الله} فاتقوا الله أن تقولوا الباطل، وتفتروا الكذب، فإن الله يخبره أخباركم، ويعرفه أنباءكم، ويقومه على الصواب في أموره"^(١).
قال ابن كثير: " أي : اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: {النبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} [الأحزاب : ٦]"^(٢).
قال البيهقي: " فاتقوا الله أن تقولوا باطلا أو تكذبوه، فإن الله يخبره ويعرفه أحوالكم فتفتضحوا"^(٣).

قوله تعالى: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} [الحجرات : ٧]، أي: " لو يطيعكم في كثير من الأمر مما تختارونه لأدى ذلك إلى مشقتكم"^(٤).

قال الطبري: يقول: " لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في الأمور بأرائكم ويقبل منكم ما تقولون له فيطيعكم لنالكم عنت، يعني: الشدة والمشقة في كثير من الأمور بطاعته إياكم لو أطاعكم لأنه كان يخطئ في أفعاله كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق: إنهم قد ارتدوا، ومنعوا الصدقة، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين، فغزاهم فقتل منهم، وأصاب من دمائهم وأموالهم، كان قد قتل، وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله، وأخذ وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين، فنالكم من الله بذلك عنت"^(٥).
قال الزجاج: " أي: لو أطاع مثل هذا المخبر الذي أخبره بما لا أصل له، لوقعت في عنت، و«العنت»: الفساد والهلاك"^(٦).

قال ابن كثير: " أي : لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم، كما قال تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون : ٧١]"^(٧).

قال ابن أبي زمنين: " أي: في دينكم، العنت: الحرج والضيق"^(٨).
قال ابن قتيبة: " {لَعَنِتُّمْ} من «العنت»، وهو: الضرر والفساد"^(٩).
عن ابن جريج في قوله: " {لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} يقول: لأعنت بعضكم بعضا"^(١٠).

عن قتادة: " {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم}، قال: هؤلاء أصحاب نبي الله - صلى الله عليه وسلم -، لو أطاعهم نبي الله - صلى الله عليه وسلم - في كثير من الأمر لعنتوا، فأنتم -والله- أسخف قلوباً، وأطيش عقولاً، فاتهم رجل رأيه، وانتصح كتاب الله؛ فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه، وإن ما سوى كتاب الله تغرير"^(١١).

(١) تفسير الطبري: ٢٢/٢٨٩-٢٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/٣٧٢.

(٣) تفسير البيهقي: ٧/٣٣٩.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير الطبري: ٢٢/٢٩٠.

(٦) معاني القرآن: ٥/٣٤.

(٧) تفسير ابن كثير: ٧/٣٧٢.

(٨) تفسير ابن أبي زمنين: ٤/٢٦٢.

(٩) غريب القرآن: ٤١٦.

(١٠) الدر المنثور: ٧/٥٥٩، وعزاه إلى ابن المنذر.

(١١) أخرجه الطبري: ٢٢/٢٩١ بنحوه. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد. كما أخرجه عبد الرزاق ٢/٢٣٢ من طريق معمر مختصراً، وكذا الطبري: ٢٢/٢٩١.

عن أبي سعيد الخُدري - من طريق أبي نُضرة- قال: "وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ"، قال: هذا نبيكم يُوحى إليه، وخيار أمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم!"^(١).

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات : ٧]، أي: "ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وحسنه في قلوبكم، فأمنتم"^(٢).

قال الطبري: يقول: "ولكن الله حبيب إليكم الإيمان { بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسول الله، وتأتون به فيقيمكم الله بذلك من العنت ما لو لم تطيعوه وتتبعوه، وكان يطيعكم لنالكم وأصابكم، وحسن الإيمان في قلوبكم فأمنتم"^(٣).

قال ابن كثير: "أي : حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم"^(٤).

قال ابن زيد: "حببه إليهم وحسنه في قلوبهم"^(٥).

عن الحسن: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ} : بما وصف من الثواب عليه"^(٦).

قال الزجاج: "هذا يعنى به المؤمنون المخلصون"^(٧).

قال الواحدي: "فأنتم تطيعون الله ورسوله فلا تقعون في العنت يعني بهذا: المؤمنين المخلصين"^(٨).

وفي قوله تعالى: {وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات : ٧]، وجهان من التفسير^(٩):

أحدهم: "أنه دلهم عليه بالحجج القاطعة البينة، والآيات التي أتى بها النبي - صلى الله عليه وسلم - المعجزة.

الثاني: أنه زين في قلوبهم بتوفيقه إياهم.

قال سهل: "أي: استخلص قلوبكم عطفاً منه في عبادته بالإخلاص فيها، إذ الاستخلاص من عطفه، والإخلاص من حقه، ولن يقدر العبد على تأدية حقه إلا بعطفه بالمعونة عليه بأسباب الإيمان، وهي الحجج القاطعة والآيات المعجزة"^(١٠).

قال النحاس: "العلماء من أهل السنة يقولون: معنى «حبيب إليكم الإيمان»، وفقكم له، وفعل أفاعيل تحبون معها الإيمان وتستحسنونه فلما أحبوه واستحسنوه نسب الفعل إليه، وكذا فعل أفاعيل كرهوا معها الكفر والفسق والعصيان"^(١١).

عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الإسلام علانية، والإيمان في القلب" قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول : "التقوى هاهنا، التقوى هاهنا"^(١٢).

قوله تعالى: {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [الحجرات : ٧]، أي: "وكره إليكم الكفر بالله والخروج عن طاعته، ومعصيته"^(١٣).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٩). وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن مردويه.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٢/٧.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٩١/٢٢.

(٦) النكت والعيون: ٣٢٩/٥.

(٧) معاني القرآن: ٣٤/٥.

(٨) الوجيز: ١٠١٧.

(٩) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٣٤/٥.

(١٠) تفسير التستري: ١٤٩/١.

(١١) إعراب القرآن: ١٤١/٤.

(١٢) عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الإسلام علانية، والإيمان في القلب" قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول : "التقوى هاهنا، التقوى هاهنا".

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٦.

قال الطبري: يقول: "وكره إليكم الكفر بالله {والفسوق}، يعني: الكذب، {والعصيان} يعني: ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتضييع ما أمر الله به"^(١).

قال ابن كثير: "أي: وبغض إليكم الكفر، والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدرج لكمال النعمة"^(٢).

قال الزجاج: "وذلك أيضا تبيينه ما عليهم في الكفر وتوفيقه إياهم إن اجتنبوه"^(٣).
قال السمعاني: "الفسوق: كل ما يفسق به الإنسان أي: يخرج به عن طاعة الله. والعصيان: مخالفة الأمر"^(٤).

عن ابن زيد، قوله: "وَكْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ"، قال: الكذب والعصيان؛ قال: عصيان النبي -صلى الله عليه وسلم-"^(٥).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، أي: "أولئك المتصفون بهذه الصفات هم الراشدون السالكون طريق الحق"^(٦).

قال الطبري: "يقول: هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون السالكون طريق الحق"^(٧).

قال الزجاج: "أي: هؤلاء الذين وفقهم الله - عز وجل - بتحبيب الإيمان إليهم وتكريه الكفر أولئك هم الراشدون"^(٨).

قال السمعاني: "أي: المهتدون تفضلا من الله وإنعاما"^(٩).
قال ابن كثير: "أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم"^(١٠).

قال النحاس: "الراشدون: الذين رشدوا للإيمان وتركوا المعاصي"^(١١).

عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: "لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "استووا حتى أثنى على ربي، عز وجل" فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: "اللهم لك الحمد كله. اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق"^(١٢).
وفي الحديث المرفوع: "من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن"^(١٣).

(١) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٧٣-٣٧٢/٧.

(٣) معاني القرآن: ٣٥/٥.

(٤) تفسير السمعاني: ٢١٨/٥.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٩١/٢٢.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٧) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٣٥/٥.

(٩) تفسير السمعاني: ٢١٨/٥.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٧٣/٧.

(١١) إعراب القرآن: ١٤١/٤.

(١٢) المسند (٤٢٤/٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٤٤٥).

(١٣) رواه أحمد في مسنده (١٨/١) والترمذي في السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله

القرآن {فُضِّلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)} [الحجرات : ٨]

التفسير:

وهذا الخير الذي حصل لهم فضل من الله عليهم ونعمة. والله عليم بمن يشكر نعمه، حكيم في تدبير أمور خلقه.

قوله تعالى: {فُضِّلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً} [الحجرات : ٨]، أي: "وهذا الخير الذي حصل لهم فضل من الله عليهم ونعمة"^(١).

قال الطبري: "يقول: ولكن الله حبيب إليكم الإيمان، وأنعم عليكم هذه النعمة التي عدّها فضلا منه، وإحسانا ونعمة منه أنعمها عليكم"^(٢).

قال الزجاج: "المعنى: فعل الله ذلك بكم فضلا من الله ونعمة، أي: للفضل والنعمة"^(٣).

قال ابن كثير: "أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه"^(٤).

قال الزمخشري: "الفضل والنعمة بمعنى: الإفضال والإنعام"^(٥).

عن ابن زيد، قوله: "أولئك هم الرّاشدون"، من أين كان هذا؟ قال: فضل من الله ونعمة؛ قال: والمنافقون سماهم الله أجمعين في القرآن الكاذبين؛ قال: والفاسق: الكاذب في كتاب الله كله"^(٦).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات : ٨]، أي: "عليم بمن يشكر نعمه، حكيم في تدبير أمور خلقه"^(٧).

قال الطبري: "يقول: والله ذو علم بالمحسن منكم من المسيء، ومن هو لنعم الله وفضله

أهل، ومن هو لذلك غير أهل، وحكمة في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما شاء من قضائه"^(٨).

قال ابن كثير: "أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره"^(٩).

عن محمد بن إسحاق، قوله: "عليم"، أي: عليم بما تخفون"^(١٠)، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده"^(١١).

عن أبي العالية في قوله: "حكيم"، قال: حكيم في أمره"^(١٢).

فوائد الآيات: [٨-٣]:

- ١- بيان سمو المقام المحمدي وشرف منزلته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ٢- وجوب التثبت في الأخبار ذات الشأن التي قد يترتب عليها أذى أو ضرر بمن قيلت فيه، وحرمة التسرع المفضي بالأخذ بالظنّة فيندم الفاعل بعد ذلك في الدنيا والآخرة.

عنه، قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه".

(١) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢٢.

(٣) معاني القرآن: ٣٥/٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٣/٧.

(٥) الكشف: ٣٦٣/٤.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٩١/٢٢.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٨) تفسير الطبري: ٢٩٠/٢٢-٢٩١.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٧٣/٧.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٣): ص ٢١٠٤/٧.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٥): ص ٢١٠٤/٧.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٤٤): ص ٢١٠٤/٧.

٣- من أكبر النعم على المؤمنين تحبيب الله تعالى الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر إليه والفسوق والعصيان وبذلك أصبح المؤمن أرشد الخلق بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القرآن

{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)} [الحجرات : ٩]

التفسير:

وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا -أيها المؤمنون- بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمهما، فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلها حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، واعدلوا في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله، إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط.

في سبب نزول الآيتين: [٩-١٠]، أقوال:

أحدها: أن سبب نزولها ما جرى بين الأوس والخزرج حين أساء الأدب عبد الله بن أبي بن سلول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عباد في موضعه، وتعصب بعضهم لعبد الله، ورد عبد الله بن رواحة على ابن أبي، فتجادل الحيان، قيل: بالحديد، وقيل: بالجريد والنعال والأيدي، فنزلت، فقرأها عليهم، فاصطلحوا.

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-؛ قال: "قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم -: لو أتيت عبد الله بن أبي؛ فانطلق إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ قال: إليك عني، والله لقد أذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطيب ريحاً منك؛ فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِمَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)} [الحجرات : ٩-١٠]"^(١). [صحيح]

وقال مقاتل: "وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقف على حمار له يقال له «يعفور» فبال الحمار، فقال عبد الله بن أبي للنبي - صلى الله عليه وسلم -: خل للناس مسيل الريح من نتن هذا الحمار. ثم قال: أف وأمسك بأنفه، فشق على النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله، فانصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: عبد الله بن أبي رواحة، ألا أراك أمسكت على أنفك من بول حماره، والله، لهو أطيب ريح عرض منك. فلجا في القول فاجتمع قوم عبد الله بن رواحة، الأوس، وقوم عبد الله بن أبي الخزرج، فكان بينهم ضرب بالنعال والأيدي والسعف فرجع النبي - صلى الله عليه وسلم - إليهم فأصلح بينهم، فأنزل الله - تعالى - {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، يعني: الأوس والخزرج"^(٢).

وعن سعيد بن جبيرة؛ قال: "إن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال؛ فأنزل الله - تعالى -: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِمَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)} [الحجرات : ٩-١٠]"^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩١)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير (١١٧ / ١٧٩٩) ص ٣ / ١٤٢٤، وأخرجه الطبري: (٢٩٣/٢٢)، والبيهقي في السنن (١٧٢ / ٨) .
وزاد نسبه في الدر (٩٠ / ٦) لابن مردويه.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٤-٩٣/٤.

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) [ضعيف] (١)

الثاني: -وهو قول السدي:- " كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد، تحت رجل، فكان بينها وبين زوجها شيء، فرقاها إلى عليه، فقال لهم: احفظوا، فبلغ ذلك قومها، فجاءوا وجاء قومه، فاقتتلوا بالأيدي والنعال فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء ليصلح بينهم، فنزل القرآن {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى}، قال: {تبغي}: لا ترضى بصلح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بقضاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - [ضعيف جداً] (٢)

الثالث: -وهو قول قتادة:- " أنها نزلت في رجلين من الأنصار، كانت بينهما ممرارة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لأخذن عنوة؛ لكثرة عشيرته، وأن الآخر دعاه ليحاكمه إلى نبي - صلى الله عليه وسلم -؛ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر حتى تدافعا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيوف" (٣) [ضعيف]

وروي عن أبي مالك في قوله: "{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}؛ قال: رجلا اقتتلا؛ فغضب لذا قومه ولذا قومه، فاجتمعوا حتى أضربوا بالنعال؛ حتى كاد يكون بينهم قتال؛ فأنزل الله هذه الآية" (٤) [ضعيف]

عن الحسن: "أن قوماً من المسلمين كان بينهم تنازع؛ حتى اضطربوا بالنعال والأيدي؛ فأنزل الله -تعالى- فيهم: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} (٥) [ضعيف]

عن الحسن: "{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}؛ قال: كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعوهم إلى الحكم؛ فيأبون أن يجيبوا؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)} يقول: ادفعوهم إلى الحكم، فكان قتالهم الدفع" (٦) [ضعيف جداً]

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٦٠ / ٧) ونسبه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لإرساله.

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٤/٢٢): ثنا ابن حميد ثنا مهران ثنا سفيان عن السدي به.

وهذا سنده ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإعضال.

الثانية: مهران؛ سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ متروك.

والحديث أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦١٠): ص ٣٣٠٤/١٠، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٦٠ / ٧)، و"لباب النقول" (ص ١٩٧).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٥ / ٢٢): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٦٠ / ٧) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٣ / ٢٢) من طريقين عن حصين عن أبي مالك. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٥/٢٢): ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن به.

قلنا: وسنده ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٤/٢٢): ثنا ابن حميد ثنا مهران ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن به.

قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات : ٩]، أي: " وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا -أيها المؤمنون- بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمهما"^(١).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل"^(٢).

قال ابن كثير: " يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، فسامهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣). فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة"^(٤).

قال السعدي: " هذا متضمن لنهي المؤمنين، عن أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاثل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا، فيها ونعمت"^(٥).

عن مجاهد: " {طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} الأوس والخزرج اقتتلوا بالعصي بينهم"^(٦).

وعن مجاهد: " {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} [الحجرات: ٩] قال: «كانا رجلين»"^(٧).

قال مجاهد: "الطائفة: من الواحد إلى الألف. وقال: إنما كانا رجلين اقتتلا"^(٨).

قال سعيد بن جبير: " إنما قتالهم بالعصي والنعال"^(٩).

قال زيد بن أسلم: " ذلك الرجلان يقتتلان من أهل الإسلام، أو النفر والنفر، أو القبيل والقبيلة، فأمر الله أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله في كتابه؛ إما القصاص والقود، وإما العقل والعير، وإما العفو، {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى} بعد ذلك كان المسلمون مع المظلوم على الظالم، حتى يفيء إلى حكم الله، ويرضى به"^(١٠).

قلنا: وهذا سند ضعيف جداً؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: ابن حميد؛ متروك الحديث.

الثانية: مهرا؛ سيئ الحفظ له أو هام.

الثالثة: المبارك؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: الإرسال.

(١) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٢/٢٢.

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٧٠٤).

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٤/٧.

(٥) تفسير السعدي: ٨٠٠.

(٦) تفسير مجاهد: ٦١١، وتفسير إسحاق البستي(٩٧٣):ص٣٨٧/٢.

(٧) تفسير عبدالرزاق(٢٩٢٤):ص٢١٨/٣.

(٨) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد. وأخرج آخره عبد الرزاق ٢/ ٢٣٠ من طريق أبي بشر.

(٩) تفسير إسحاق البستي(٩٧٤):ص٣٨٨/٢.

(١٠) أخرجه عبد الله بن وهب في الجامع -تفسير القرآن / ١ / ٦٠ (١٣٤)، وابن جرير ٢١ / ٣٦٢.

قوله تعالى: {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الحجرات : ٩]، أي: "فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلوا حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله"^(١).

قال الطبري: "يقول: فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه تعدت ما جعل الله عدلا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه"^(٢).

قال ابن كثير: "أي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما". قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: "تمنعه من الظلم، فذاك نصرته إياه"^(٣)»^(٤).

قال الحسن: "يقول: ادفعوهم إلى الحكم، فكان قتالهم الدفع"^(٥).

قال السعدي: "أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه، الاقتتال"^(٦).

عن الضحاك قوله: "فقاتلوا التي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ"، قال: بالسلاح"^(٧).
عن ابن المسيب -من طريق عمرو بن سليم- يقول: "إذا التقت الفتان، فما كان بينهما من دم أو جراحة فهو هدر، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} فتلا الآية حتى فرغ منها، قال: فكل واحدة من الطائفتين ترى الأخرى باغية"^(٨).

عن حبان السلمي، قال: "سألت ابن عمر عن قوله: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}، وذلك حين دخل الحجاج الحرم. فقال لي: عرفت الباغية من المبغي عليها؟ فوالذي نفسي بيده، لو عرفت المبغيّة ما سبقنتي أنت ولا غيرك إلى نصرها، أفرأيت إن كانت كلتاها باغيتين، فدع القوم يقتتلون على دنياهم، وارجع إلى أهلك، فإذا استمرت الجماعة فادخل فيها"^(٩).

عن الحارث الأعور: "أنّ علي بن أبي طالب سئل -قال البغوي: وهو القدوة في قتال أهل البغي- عن أهل الجمل وصقين: أمشركون هم؟ فقال: لا، من الشرك فرؤا. فقيل: أمناقون هم؟ فقال: لا، إنّ المناققين لا

قوله تعالى: {فَإِنْ قَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ} [الحجرات : ٩]، أي: "فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف"^(١٠).

(١) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٢/٢٢.

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٤٤٣).

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٤/٧.

(٥) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٩٤/٢٢): ثنا ابن حميد ثنا مهرا ن ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن به.

قلنا: وهذا سند ضعيف جداً؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: ابن حميد؛ متروك الحديث.

الثانية: مهرا ن؛ سيئ الحفظ له أو هام.

الثالثة: المبارك؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: الإرسال.

(٦) تفسير السعدي: ٨٠٠.

(٧) تفسير إسحاق البستي (٩٧٥): ص ٣٨٨/٢.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٠ / ١٢٢ (١٨٥٨٧).

(٩) عزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٦.

قال الطبري: "يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل: يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلا بين خلقه"^(١).

قال السعدي: "هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح، قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما، لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل"^(٢).

قال ابن عباس: "فإن الله سبحانه أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبي منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويفاتلهم، حتى يفيتوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله"^(٣).

قال ابن زيد: "هذا أمر من الله أمر به الولاة كهيئة ما تكون العصابة بين الناس، وأمرهم أن يصلحوا بينهما، فإن أبوا قاتل الفئة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله، فإذا رجعت أصلحوا بينهما، وأخبروهم أن المؤمنين إخوة، فأصلحوا بين أخويكم؛ قال: ولا يقاتل الفئة الباغية إلا الإمام"^(٤).

قوله تعالى: {وَأَقْسِطُوا} [الحجرات : ٩]، أي: "واعدلو في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله"^(٥).

قال الطبري: يقول: "واعدلو أيها المؤمنون في حكمكم بين من حكمتم بينهم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم رسوله"^(٦).

قال ابن كثير: "أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل"^(٧).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات : ٩]، أي: "إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط"^(٨).

قال الطبري: "يقول: إن الله يحب العادلين في أحكامهم، القاضين بين خلقه بالقسط"^(٩).
قال أبو عبيدة: "المُقْسِطِينَ، أي: العادلين"^(١٠).

قال السعدي: "أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات، التي تولوها، حتى إنه، قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله، وعياله، في أدائه حقوقهم"^(١١).

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا»^(١٢).

وعبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا"^(١٣).

(١) تفسير الطبري: ٢٩٢/٢٢.

(٢) تفسير السعدي: ٨٠٠.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٩٢/٢٢-٢٩٣.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٩٣/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٦) تفسير الطبري: ٢٩٦/٢٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٧٥/٧.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٩) تفسير الطبري: ٢٩٦/٢٢.

(١٠) مجاز القرآن: ١٦٦/١.

(١١) تفسير السعدي: ٨٠٠.

(١٢) رواه ابن أبي حاتم (١٨٦١١): ص ٤/١٠٣٣٠. والنسائي في السنن الكبرى برقم (٥٩١٧).

(١٣) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) وسنن النسائي (٣٢١/٨).

القرآن

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)} [الحجرات : ١٠]

التفسير:

إنما المؤمنون إخوة في الدين، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا، وخافوا الله في جميع أموركم؛ رجاء أن تُرحموا.

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات : ١٠]، أي: "إنما المؤمنون إخوة في الدين" (١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} في الدين" (٢).
قال ابن كثير: "أي : الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» (٣) (٤).

قال السعدي: " هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم" (٥).

وفي الصحيح : «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (٦).
وفي الصحيح -أيضا- : «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين، ولك بمثله» (٧).

وفي الصحيح : «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (٨).

وفي الحديث : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه» (٩).
قوله تعالى: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات : ١٠]، أي: "فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا" (١٠).

قال الطبري: يقول: " {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضوع: كل مقتتلين من أهل الإيمان" (١١).

(١) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢٩٧/٢٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٤٤٢) ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٥/٧.

(٥) تفسير السعدي: ٨٠٠.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٨) أخرجه مسلم (٢٠٠٠/٤)، رقم (٢٥٨٦). وأخرجه أيضا: أحمد (٢٧٦/٤)، رقم (١٨٤٥٦)، وابن أبي شيبة (٨٩/٧)، رقم (٣٤٤١٥).

(٩) حديث أبي بردة عن أبي موسى: أخرجه البخاري (٨٦٣/٢)، رقم (٢٣١٤)، ومسلم (١٩٩٩/٤)، رقم (٢٥٨٥)، والترمذي (٣٢٥/٤)، رقم (١٩٢٨) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٧٩/٥)، رقم (٢٥٦٠)، وابن حبان (٤٦٧/٤)، رقم (٢٣١). وأخرجه أيضا: ابن المبارك (١١٨/١)، رقم (٣٥٠)، والطيالسي (ص ٦٨، رقم ٥٠٣)، والحميدي (٣٤٠/٢)، رقم (٧٧٢)، وابن أبي شيبة (١٦٣/٦)، رقم (٣٠٣٤٨)، والبخاري (١٦٠/٨)، رقم (٣١٨٢)، وأبو يعلى (٢٧٩/١٣)، رقم (٧٢٩٥)، وعبد بن حميد (ص ١٩٦، رقم ٥٥٦)، والرويانى (٣٠١/١)، رقم (٤٤٥)، والقضاعي (١١٢/١)، رقم (١٣٤)، والدليمي (١٨٢/٤)، رقم (٦٥٦٣)، والبيهقي (٩٤/٦)، رقم (١١٢٩١).

حديث أبي هريرة وأبي سعيد معا: أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥/٦)، رقم (٥٧١٨). قال الهيثمي (٨٧/٨): فيه صالح بن نبهان، وهو ضعيف.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٦.

عن محمد بن سيرين: "أنه كان يقرأ: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ»" (٢).
سئل محمد بن كعب القرظي عن هاتين الآيتين: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}. فقال: "جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - أجر المصلح بين الناس كأجر
المجاهد عند البأس" (٣).

قوله تعالى: {وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات : ١٠]، أي: "وخافوا الله في جميع
أموركم؛ رجاء أن تُرحموا" (٤).

قال الطبري: يقول: "وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين
المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم
ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه
بطاعته" (٥).

قال عون بن عبد الله بن غنية: "العلل" من الله واجب" (٦).
قال السعدي: "أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله،
الرحمة، فقال: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك،
على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة. وفي هاتين الآيتين (٧) من
الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا، كان من أكبر
الكبائر، وأن الإيمان، والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار،
التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح، بين
المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا،
لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن
أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم" (٨).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ
عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ
الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)} [الحجرات : ١١]

التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشريعتة لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين؛ عسى
أن يكون المهزوء به منهم خيراً من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات؛ عسى
أن يكون المهزوء به منهن خيراً من الهازئات، ولا يعيب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً
بما يكره من الألقاب، بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو السخرية واللمز والتنايز بالألقاب، بعد
ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، ومن لم يتب من هذه السخرية واللمز والتنايز والفسوق فأولئك
هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

سبب النزول:

أولاً:- سبب نزول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِنْهُمْ} [الحجرات : ١١]، الآية.

(١) تفسير الطبري: ٢٩٧/٢٢.

(٢) الدر المنثور: ٧/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) تفسير الثعلبي: ٨٠/٩.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير الطبري: ٢٩٧/٢٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٦): ص ١٠٨/١، وانظر: الدر المنثور: ٨٥/١، وزاد نسبه إلى أبي الشيخ.

(٧) الآيتين: [الحجرات: ٩-١٠].

(٨) تفسير السعدي: ٨٠٠.

قال الواحدي: "نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه كان في أدنيه وقر، فكان إذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول، فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، فقال له رجل: قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت مغضباً، فغمز الرجل فقال: من هذا؟ فقال: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ وذكر أما كانت له يعير بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسه استحياء، فأنزل الله تعالى هذه الآية"^(١).

وعن مقاتل، قال: "نزلت في قوم من بني تميم استهزأوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة"^(٢). [ضعيف]
ثانياً:- سبب نزول قوله تعالى: {وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} [الحجرات : ١١].
قال الواحدي: "نزلت في امرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم سخرتا من أم سلمة وذلك أنها ربطت حقوبها- بسببية- وهي ثوب أبيض- وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره، فقالت عائشة لحفصة: انظري إلى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب! فهذا كان سخريتها"^(٣).
وقال أنس: "نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم، عيرن أم سلمة بالقصر"^(٤).
قال مقاتل: "نزلت في عائشة بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- استهزأت من قصر أم سلمة بنت أبي أمية"^(٥).

وقال عكرمة عن ابن عباس: "إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله، فقالت: يا رسول الله إن النساء يعيرنني ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد. فأنزل الله تعالى هذه الآية"^(٦).

ثالثاً:- سبب نزول قوله تعالى: {وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ} [الحجرات : ١١].
عن أبي جبيرة بن الضحاك، قال: "فيما نزلت هذه الآية في بني سلمة: {وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِنَسِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} قال: قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يا فلان» فيقولون: مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: {وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ} [الحجرات: ١١]"^(٧). [صحيح]

(١) أسباب النزول (٧٦٢): ص ٤٠٩. بدون إسناد.
(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٦٣ / ٧) ونسبه لابن أبي حاتم. قلنا: وسنده ضعيف؛ لإعضاله.
(٣) أسباب النزول (٧٦٢): ص ٤٠٩. بدون إسناد.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٦٣ م): ص ٤٠٩. بدون إسناد.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٥/٤.
(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٧٦٤): ص ٤٠٩-٤١٠. بدون إسناد.
(٧) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٦٢)، والترمذي (رقم ٣٢٦٨)، والنسائي في "تفسيره" (٢ / ٣٢٠ رقم ٥٣٦)، وابن ماجه (رقم ٣٧٤١)، وأحمد في "المسند" (٤ / ٦٩، ٢٦٠)، والبخاري في "الأدب المفرد" (رقم ٣٣٠)، وأبو يعلى في "المسند" (١٢ / ٢٥٢، ٢٥٣ رقم ٦٨٥٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢ / ٣٠٠)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٦١ - "موارد")، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٢ / رقم ٩٦٨، ٩٦٩)، و"الأوسط" (٢ / ١٢٣ رقم ١٤٥٦)، وأبو القاسم البغوي في "معجم الصحابة" (٣ / ١٣٢٧ / ١٦ / ٥)، وابن السني في "عمل اليوم والليلة" (رقم ٣٩٨)، وابن أبي عاصم في "الأحاديث والمثنوي" (٤ / ١٤٩، ١٥٠ رقم ٢١٣٢)، وابن قانع في "معجم الصحابة" (٢ / ٣٣)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٥ / ٤٧)، والحاكم في "المستدرک" (٢ / ٤٦٣، ٤٦٤ / ٢٨١، ٢٨٢)، والبيهقي في "الأدب" (٢٩٦ / ٦١٩)، و"شعب الإيمان" (٥ / ٣٠٧، ٣٠٨ رقم ٦٧٤٥، ٦٧٤٦، ٦٧٤٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٤)، وأبو نعيم في "معرفه الصحابة" (٥ / ٢٨٥٢ رقم ٦٧٢٠)، وابن منده في "معرفه الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٥ / ٤٧)، والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٨ / ٨١، ٨٠ / ٨٢ و ٨١ / ٨٢) والمزي في "تهذيب الكمال" (٣٣ / ١٨٢، ١٨٣) من طرق عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن أبي جبيرة بن الضحاك. قلنا: وهذا سند صحيح رجاله ثقات.

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -تعالى-: "{وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ}؛ قال: كان هذا الحي من الأنصار قلَّ رجل منهم إلا وله اسمان أو ثلاثة، فربما دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - الرجل منهم ببعض تلك الأسماء، فيقال: يا رسول الله! إنه يكره هذا الاسم؛ فأنزل الله -تعالى-: "{وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ}"^(١). [صحيح]

وقال مقاتل: "وذلك أن كعب بن مالك الأنصاري كان يكون على المقسم فكان بينه وبين عبد الله بن الحدرد الأسلمي بعض الكلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي. ثم انطلق عبد الله فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - لعلك قلت له: يا يهودي؟ قال: نعم قد قلت له ذلك إذا لقيني أعرابيا وأنا مهاجر، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: لا تدخل علي حتى ينزل الله توبتكما فأوثقا أنفسهما إلى سارية المسجد إلى جنب المنبر، فأنزل الله -تعالى- فيهما: "{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ} [الحجرات : ١١]"^(٢). وذكر الواحدي عن مقاتل، قال: "لما كان يوم فتح مكة، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيس: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا! وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء. فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا: فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال والإزراء بالفقراء"^(٣).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} [الحجرات : ١١]، أي: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله و عملوا بشريعته لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين؛ عسى أن يكون المهزوء به منهم خيرا من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات؛ عسى أن يكون المهزوء به منهن خيرا من الهازئات"^(٤).

قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين {عسى} المهزوء منهم خير من الهازئين، ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهن أن يكن خيرا من الهازئات"^(٥).

قال البيضاوي: "أي: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر.. واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع"^(٦).

قال الترمذي: "حديث حسن صحيح". وقال الحاكم في "الموضع الأول": "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وقال في "الموضع الثاني": "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٣١٧): "رواه الطبراني في "الكبير"، و"الأوسط"؛ ورجالهما رجال الصحيح".

وصححه الألباني -رحمه الله- في "صحيح الأدب المفرد". وأخرجه أحمد (٥/ ٣٨٠)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفه الصحابة" (٣/ رقم ٣٩٠١) من حديث أبي جبيره عن عمومة له به.

قلنا: وسنده صحيح. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٣) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر والشيرازي في "الألقاب" وابن مردويه.

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٦٤) ونسبه لابن مردويه.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٥/٤.

(٣) أسباب النزول: ٤١١. مرسل.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير الطبري: ٢٩٧/٢٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

قال ابن كثير: "ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكِبْر بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ»، ويروى: «وغمط الناس»^(١)، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحققر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحققر له؛ ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ}، فنص على نهى الرجال وعطف بنهي النساء^(٢).

قال السعدي: "وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين، بعضهم على بعض، أن {لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحل بكل خلق ذميم^(٣). واختلف أهل التأويل في السخرية التي نهى الله عنها المؤمنين في هذه الآية، على

قولين:

أحدهما: أنها سخرية الغني من الفقير، نهى أن يسخر من الفقير لفقره. قاله مجاهد^(٤).
قال مجاهد: "لا يهزأ قوم بقوم أن يسأل رجل فقير غنيا، أو فقيرا، وإن تفضل رجل عليه بشيء فلا يستهزئ به"^(٥).
الثاني: أن ذلك نهى من الله من ستر عليه من أهل الإيمان أن يسخر ممن كشف في الدنيا ستره منهم. قاله ابن زيد^(٦).

قال ابن زيد: "ربما عثر على المرء عند خطيئته عسى أن يكونوا خيرا منهم، وإن كان ظهر على عثرته هذه، وسترت أنت على عثرتك، لعل هذه التي ظهرت خير له في الآخرة عند الله، وهذه التي سترت أنت عليها شر لك، ما يدريك لعله ما يغفر لك؛ قال: فنهى الرجل عن ذلك، فقال: {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}، وقال في النساء مثل ذلك"^(٧).
قال الطبري: "الصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك"^(٨).

قوله تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: ١١]، أي: "ولا يعب بعضكم بعضًا"^(٩).
قال الطبري: "ولا يطعن بعضكم على بعض.. فجعل اللامز أخاه لامزا نفسه، لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبتة الخير"^(١٠).

قال البيضاوي: أي: "أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه. واللمز الطعن باللسان"^(١١).

قال ابن كثير: "أي: لا تلمزوا الناس. والهمّاز اللّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: {هَمَّازٌ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ} [القلم: ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٧٦/٧.

(٣) تفسير السعدي: ٨٠١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٨/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٢٩٨/٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٨/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٢٩٨/٢٢.

(٨) تفسير الطبري: ٢٩٨/٢٢.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٦.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٩٩-٢٩٨/٢٢.

(١١) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

: اللمز بالمقال ؛ ولهذا قال هاهنا :{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}، كما قال :{وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء : ٢٩] أي : لا يقتل بعضكم بعضاً^(١).

قال السعدي: "أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: {وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} الآية، وسمي الأخ المؤمنفناً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك"^(٢).

عن مجاهد، قوله: "{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}"، قال: لا تطعنوا"^(٣).
قال ابن عباس، وقتادة: "يقول: لا يطعن بعضكم على بعض"^(٤).
قوله تعالى: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} [الحجرات : ١١]، أي: "ولا يدع بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب"^(٥).

قال الطبري: "يقول: ولا تداعوا بالألقاب؛ والنيز واللقب بمعنى واحد، يُجمع النيز: أنبازاً، واللقب: ألقاباً"^(٦).

قال البيضاوي: أي: "ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً"^(٧).

قال ابن كثير: "أي : لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها"^(٨).
قال السعدي: "أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه وهذا هو التنايز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا"^(٩).

واختلف أهل التأويل في الألقاب التي نهى الله عن التنايز بها في هذه الآية، على أقوال: أحدها: أنها الألقاب التي يكره النبز بها الملقب، ونزلت هذه الآية في قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نهوا أن يدعوا بعضهم بعضاً بما يكره من أسمائه التي كان يدعى بها في الجاهلية. قاله أبو جبير بن الضحاك^(١٠).

قال أبو جبير بن الضحاك: "كان أهل الجاهلية يسمون الرجل بالأسماء، فدعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً باسم من تلك الأسماء، فقالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فأنزل الله: {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}"^(١١).

الثاني: أن ذلك قول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق، يا منافق، يا كافر. قاله أبو العالية^(١٢)، وعكرمة^(١٣)، ومجاهد^(١٤)، وقتادة^(١٥)، ابن زيد^(١٦).

عن مجاهد، قوله: "{وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}"، قال: دُعي رجل بالكفر وهو مسلم"^(١٧).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٧٦/٧.

(٢) تفسير السعدي: ٨٠١.

(٣) أخرجه الطبري: ٢٩٩/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٢٩٩/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٦) تفسير الطبري: ٢٩٩/٢٢.

(٧) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٧٦/٧.

(٩) تفسير السعدي: ٨٠١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٠/٢٢. وسبق الإشارة إلى الموضوع في سبب نزول الآية.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٠٠/٢٢.

(١٢) أخرجه إسحاق البستي ص ٣٨٩ من طريق عوف بلفظ: يقول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٠١-٣٠٠/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٠١/٢٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٠١/٢٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٠١/٢٢.

(١٧) أخرجه الطبري: ٣٠١/٢٢.

قال قتادة: "يقول الرجل: لا تقل لأخيك المسلم: ذاك فاسق، ذاك منافق، نهى الله المسلم عن ذلك وقدم فيه"^(١).

وفي رواية: "يقول: لا يقولن لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق"^(٢).

قال ابن زيد: "تسميته بالأعمال السيئة بعد الإسلام زان فاسق"^(٣).

عن أبي العالية الرياحي، في الآية: "ولا تنابزوا بالألقاب"، قال: هو قول الرجل لصاحبه: يا فاسق، يا منافق"^(٤).

وعن ابن مسعود: "ولا تنابزوا بالألقاب" قال: أن يقول إذا كان الرجل يهودياً فأسلم يا يهودي يا نصراني يا مجوسي ويقول للرجل المسلم يا فاسق"^(٥).

الثالث: أن التناز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها، وراجع الحق، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله. وهذا قول ابن عباس^(٦)، وروي عن الحسن نحوه^(٧).

وقال الحسن: "كان اليهودي والنصراني يسلم، فيلقب فيقال له: يا يهودي، يا نصراني، فنهوا عن ذلك"^(٨).

الرابع: أن تسميه بغير اسم الإسلام: يا خنزير، يا كلب، يا حمار. قاله عطاء^(٩).

روي عن طلحة بن عمرو، أنه قال: "قلت لعطاء: يا أبا محمد {وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} ما هذا الذي نهى عنه؟ قال: كل شيء أخرجت به أخاك من الإسلام، يا كلب يا حمار يا خنزير ونحو هذا"^(١٠).

قال إبراهيم: "كانوا يقولون: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار يا كلب يا خنزير، قال الله له يوم القيامة: أتراني خلقتك كلباً أو حماراً أو خنزيراً"^(١١).

قال الطبري: "والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنازوا بالألقاب؛ والتناز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمّ الله بنهية ذلك، ولم يخص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن يبنز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك صحت الأقوال التي قالها أهل التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعض، لأن كل ذلك مما نهى الله المسلمين أن يبنز بعضهم بعضاً"^(١٢).

قوله تعالى: {يُنَسِّ الْأَسْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} [الحجرات: ١١]، أي: "بنس الصفة والاسم الفسوق، وهو السخرية واللمز والتناز بالألقاب، بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه"^(١٣).

قال الطبري: يقول: "ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيماننا، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن، وبنزه بالألقاب، فهو فاسق، {يُنَسِّ الْأَسْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ} يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فساقاً، بنس الاسم الفسوق"^(١٤).

(١) أخرجه الطبري: ٣٠١/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٠١/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٠١/٢٢.

(٤) أخرجه إسحاق البستي ص ٣٨٩ من طريق عوف بلفظ: يقول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.

(٥) الدر المنثور: ٥٦٤/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٠١/٢٢-٣٠٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٢/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٠٢/٢٢.

(٩) ذكر ذلك الواحد في "التفسير البسيط": ٣٥٧/٢٠، والبغوي ٣٤٤/٧ ونسبه لعطاء، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" ٥٦٤/٧ لعبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء، ونسبه في "الوسيط" ١٥٥/٤ لعطاء.

(١٠) انظر: المصادر السابقة.

(١١) التفسير البسيط للواحد: ٣٥٧/٢٠.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٠٢/٢٢.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٦.

قال البيضاوي: "أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتغارهم به، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين.. أو الدلالة على أن التنازير فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح"^(٢).

قال ابن كثير: "أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنازير بالألقاب"^(٣).

قال ابن زيد: "بئس الاسم الفسوق حين تسميه بالفسق بعد الإسلام، وهو على الإسلام". قال: وأهل هذا الرأي هم المعتزلة، قالوا: لا نكفره كما كفره أهل الأهواء، ولا نقول له مؤمن كما قالت الجماعة، ولكننا نسميه باسمه إن كان سارقاً فهو سارق، وإن كان خائناً سموه خائناً؛ وإن كان زانياً سموه زانياً قال: فاعتزلوا الفريقين أهل الأهواء وأهل الجماعة، فلا بقول هؤلاء قالوا، ولا بقول هؤلاء، فسموا بذلك المعتزلة"^(٤).

عن محمد بن كعب القرظي، "بئسَ الاسمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ"، قال: الرجل يكون على دين من هذه الأديان، فيسلم، فتدعوه بدينه الأول: يا يهودي، يا نصراني"^(٥).

قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَنْبُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات : ١١]، أي: "ومن لم يتب من هذه السخرية واللمز والتنازير والفسوق فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب هذه المناهي"^(٦).

قال الطبري: "يقول: "ومن لم يتب من نيزه أخاه بما نهى الله عن نيزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه"^(٧).

قال البيضاوي: أي: "بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب"^(٨).

قال ابن زيد: "ومن لم يتب من ذلك الفسوق فأولئك هم الظالمون"^(٩).

قال ابن كثير: "أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنازير بالألقاب"^(١٠).

قال السعدي: "أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنازير بالألقاب"^(١١).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَٰكِن تَجَسَّسُوا وَلَٰكِن يَعْثَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرَهُهُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)}

[الحجرات : ١٢]

التفسير:

(١) تفسير الطبري: ٣٠٢/٢٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٧٦/٧.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٠٢/٢٢. قال الطبري: "فوجه ابن زيد تأويل قوله (بئسَ الاسمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ) إلى من دعي فاسقاً، وهو تائب من فسقه، فبئس الاسم ذلك له من أسمائه ... وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدّم بالنهي عما تقدّم بالنهي عنه في أول هذه الآية، فالذي هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدّم على بغيه، أو بقبیح ركوبه ما ركب مما نهى عنه، لا أن يخبر عن فُبح ما كان التائب أتاه قبل توبته، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبیح، فيختم آخرها بالوعيد عليه أو بالقبیح".

(٥) الدر المنثور: ٥٦٤/٧-٥٦٥، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٧) تفسير الطبري: ٣٠٣/٢٢.

(٨) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٠٣/٢٢.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٧٦/٧.

(١١) تفسير السعدي: ٨٠١.

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعلّموا بشره اجتنبوا كثيراً من ظن السوء بالمؤمنين؛ إن بعض ذلك الظن إثم، ولا تُفتشوا عن عورات المسلمين، ولا يقلّ بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره. أحبّ أحدكم أكل لحم أخيه وهو ميت؟ فأنتم تكرهون ذلك، فاكروهوا اغتيابه. وخافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه. إن الله تواب على عباده المؤمنين، رحيم بهم.
سبب النزول:

عن مقاتل في قوله -تعالى-: {وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا}؛ قال: "نزلت هذه الآية في رجل كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم أرسل بعض الصحابة إليه يطلب منه إداما فمنع، فقالوا له: إنه لبخيل وخيم، فنزلت في ذلك" (١). [ضعيف]

عن السدي: "أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأن سلمان نام يوماً فطلبه صاحبه فلم يجدها فضربا الخباء، وقال: ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب، فلما جاء سلمان أرسله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لهما إداما، فانطلق فاتاه، فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدّمهم إن كان عندك، قال: ما يصنع أصحابك بالأدم قد اتندّموا، فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فاتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا، قال: إنكما قد اتندمتما سلمان بقولكما، فنزلت: {أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا} [الحجرات: ١٢] (٢). [ضعيف]

عن ابن جريج في قوله -تعالى-: {وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا}؛ قال: "زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي، أكل ثم رقده؛ فنفخ فذكر رجلاً أكله ورقاده؛ فنزلت" (٣). [ضعيف]
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ} [الحجرات: ١٢]، أي: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعلّموا بشره اجتنبوا كثيراً من ظن السوء بالمؤمنين" (٤).
قال البيضاوي: أي: "كونوا منه على جانب، وإبهام «الكثير»، ليحتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل" (٥).

قال السدي: "نهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين" (٦).
قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا تقرّبوا كثيراً من الظنّ بالمؤمنين، وذلك إن تظنوا بهم سوءاً، فإن الظنّ غير محقّ، وقال جلّ ثناؤه: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ} ولم يقل: الظنّ كله، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير، فقال: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}، فأذن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قبيله فيهم على يقين" (٧).
قال ابن كثير: "يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً» (٨) (٩).

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٧٠ / ٧) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف؛ لإعضاله. وفي تفسير مقاتل: ٩٦/٤، قال: "نزلت في «فتير» ويقال: «فهير»، خادم النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك أنه قيل له: إنك وخيم ثقيل بخيل".

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٧٠ / ٧)، ونسبه لابن أبي حاتم، وهذا -أيضاً- ضعيف؛ لإعضاله.

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٧٠ / ٧) ونسبه لابن المنذر.

قلنا: وهذا -أيضاً- ضعيف؛ لإعضاله.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٥.

(٦) تفسير السدي: ٨٠١.

(٧) تفسير الطبري: ٣٠٣/٢٢.

(٨) رواه أحمد في الزهد كما في الدر المنثور (٥٦٥/٧).

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٧٧/٧.

قال سهل: "أي: لا تطعنوا على أحد بسوء الظن من غير حقيقة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أكذب الحديث الظن»^(١). ثم قال سهل: الظن السيئ من الجهل من نفس الطبع، وأجهل الناس من قطع على قلبه من غير علم، فقد قال الله تعالى: {وَدَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٣] وإن العبد ليحرم الرزق الهني وصلاته بالليل بسوء الظن. وقد كان رجل من العباد نام ليلة عن ورده، فجزع عليه، فقيل: أتجزع على ما تدركه؟ قال: لست أجزع عليه، وإنما أجزع على الذنب الذي به صرت محروماً عن ذلك الخير. فقيل لسهل: ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «احترسوا من الناس بسوء الظن»^(٢)، فقال: معنى هذا بسوء الظن بنفسك لا بالناس، أي اتهم نفسك بأنك لا تتصفهم من نفسك في معاملاتهم"^(٣).

عن ابن عباس، قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ"، يقول: نهى الله المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا"^(٤).

عبد الله بن عمر، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير"^(٥).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً"^(٦).

عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"^(٧).

عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لازمات لأمتي: الطَّيْرَةُ، والحسد وسوء الظن". فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: "إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض"^(٨).

قوله تعالى: {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]، أي: "إنَّ في بعض الظنِّ إثمٌ وذنْبٌ يستحق صاحبه العقوبة عليه"^(٩).

قال الطبري: "يقول: إن ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشرَّ لا الخير إثمٌ، لأن الله قد نهاه عنه، ففعل ما نهى الله عنه إثمٌ"^(١٠).

قال السعدي: "ف {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} وذلك، كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يفترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا

(١) صحيح البخاري: كتاب النكاح، رقم ٤٨٤٩ وكتاب الأدب، رقم ٥٧١٧، ٥٧١٩ وصحيح مسلم، كتاب الأدب، رقم ٢٥٦٣.

(٢) المعجم الأوسط ١/ ١٨٩ وفتح الباري ١٠/ ٥٣١.

(٣) تفسير التستري: ١٤٩-١٥٠.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٠٤/٢٢، وابن أبي حاتم (١٨٦١٤): ص ٣٣٠٥/١٠، وفيه: «أن يظن بالمؤمن سوءاً».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٩٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (٢٢٣/٣) "هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان في النقات، وباقي رجال الإسناد ثقات".

(٦) الموطأ (٩٠٨/٢) وصحيح البخاري برقم (٦٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩)، وسنن الترمذي برقم (١٩٣٥).

(٨) المعجم الكبير (٢٢٨/٣)، قال الهيثمي في المجمع (٧٨/٨): "فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف".

(٩) صفوة التفاسير: ٢١٨/٣.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٠٣/٢٢.

يفتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا، إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه^(١).
قال سفيان الثوري: "الظن ظنان: أحدهما إثم، وهو أن تظن وتتكلم به، والآخر ليس بإثم وهو أن تظن ولا تتكلم"^(٢).

عن طلحة بن عبيد الله: سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن الظن يخطئ ويصيب»^(٣).

قوله تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات : ١٢]، أي: "ولا تفتشوا عن عورات المسلمين"^(٤).

قال مقاتل: "يعني: لا يبحث الرجل عن عيب أخيه المسلم فإن ذلك معصية"^(٥).
قال الطبري: "يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، بيتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره"^(٦).

قال السعدي: "أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله التي إذا فتشت، ظهر منها ما لا ينبغي"^(٧).
قال أبو عبيدة: "التجسس: التبعث، يقال: رجل جاسوس وقال رؤبة^(٨):
لا تمكن الخناعة الناموسا... وتحصب اللعابة الجاسوسا"^(٩).

قال ابن كثير: "أي: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} [يوسف : ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تبادبوا، وكونوا عباد الله إخوانا»^(١٠)^(١١).

وقال الأوزاعي: "التجسس: البحث عن الشيء. والتجسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابير: الصرْم"^(١٢).

قال سهل: "أي: لا تبحث عن المعائب التي سترها الله على عباده، فإنك ربما تبتلى بذلك. وقد حكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: لا تكثرُوا الكلام في غير ذكر الله عزَّ وجلَّ، فتفسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا إلى أعمالكم كالعبيد، واعلموا أن الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية"^(١٣).

(١) تفسير السعدي: ٨٠١.

(٢) تفسير البغوي ٣٤٥ / ٧.

(٣) أخرجه أحمد ٣ / ١٨ - ١٩ (١٣٩٩، ١٤٠٠)، وابن ماجه ٣ / ٥٢٦ - ٥٢٧ (٢٤٧٠) كلاهما مطولًا، من طريق إسرائيل، عن سماك أنه سمع موسى بن طلحة بن عبيد الله يحدث عن أبيه به. إسناده حسن.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٦ / ٤.

(٦) تفسير الطبري: ٣٠٣ / ٢٢.

(٧) تفسير السعدي: ٨٠١.

(٨) ديوانه: ٧٠ - ٧١.

(٩) مجاز القرآن: ٢٢٠ / ٢.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٢٤٤٢).

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٧٩ / ٧.

(١٢) رواه ابن أبي حاتم: ٣٣٠٥ / ١٠، وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٧٩ / ٧.

(١٣) تفسير التستري: ١٥٠.

قال سفيان الثوري: " { وَلَا تَجَسَّسُوا }، قال: البحث" (١).
قال ابن عباس: " نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن" (٢).
قال الحسن: " لا يتتبع الرجل عورة أخيه المسلم" (٣).
قال مجاهد: " خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله" (٤).
قال قتادة: " هل تدرون ما التجسس أو التجسس؟ هو أن تتبع، أو تتبغي عيب أخيك لتطلع على سره" (٥).
عن سفيان: " { وَلَا تَجَسَّسُوا }، قال: البحث" (٦).
عن ابن زيد، قوله: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا }، قال: حتى أنظر في ذلك وأسأل عنه، حتى أعرف حقَّ هو، أم باطل؟؛ قال: فسماه الله تجسسا، قال: يتجسس كما يتجسس الكلاب" (٧).
عن زيد قال: " أتى ابن مسعود، رضي الله عنه، برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به" (٨).
عن معاوية قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم" أو: " كدت أن تفسدهم". فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفعه الله بها" (٩).
وفي الحديث: " إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس، أفسدهم" (١٠).
عن دُحَيْنِ كاتب عقبة قال: " قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُحَيْنِ فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظمهم وتهدهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُحَيْنِ فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها" (١١).
قوله تعالى: { وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا } [الحجرات: ١٢]، أي: " ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره" (١٢).
قال الطبري: " يقول: ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه" (١٣).
قال الزجاج: " الغيبة: أن يذكر الإنسان من خلفه بسوء، وإن كان فيه السوء، وأما ذكره بما ليس فيه، فذلك: البهت والبهتان" (١٤).

(١) أخرجه الطبري: ٣٠٥/٢٢.
(٢) أخرجه الطبري: ٣٠٤/٢٢.
(٣) ذكره يحيى بن سلام - كما في تفسير ابن أبي زمنين ٤ / ٢٦٤ - .
(٤) أخرجه الطبري: ٣٠٤/٢٢.
(٥) أخرجه الطبري: ٣٠٤/٢٢.
(٦) أخرجه الطبري: ٣٠٤/٢٢-٣٠٥.
(٧) أخرجه الطبري: ٣٠٥/٢٢.
(٨) سنن أبي داود برقم (٤٨٩٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٨٦١٦): ص ١٠، ٣٣٠٥ - قال ابن كثير: ٣٧٨/٧.
سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط".
وذلك لما أكثر الناس في الوليد بن عقبة، وقد كان ابن مسعود على بيت المال في ولاية الوليد بن عقبة في عهد عثمان رضي الله عنه وقصة جلد الوليد على الخمر مشهورة في الصحيحين".
(٩) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٨).
(١٠) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٩).
(١١) المسند (١٥٣/٤) وسنن أبي داود برقم (٤٨٩٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٢٨٣).
(١٢) التفسير الميسر: ٥١٦.
(١٣) تفسير الطبري: ٣٠٥/٢٢.

قال ابن كثير: "الغيبية محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله صلى الله عليه وسلم، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «أئذنوا له، بنس أخو العشيرة»^(٢)، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم - : «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»^(٣). وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد»^(٤).

قال سهل: "من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فإن من سلم من الظن سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان. قال: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للمنافق غيبة، وليس للفاسق غيبة، لأن المنافق كتم نفاقه، والفاسق افتخر بفسقه. قال: وهذا إنما أراد به فيما أظهره من المعاصي، فأما ما كتمه من المعاصي ففيه غيبة»^(٥).

عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(٦). قال مسروق: "الغيبية: أن يقول للرجل أسوأ ما يعلم فيه، والبهتان: أن يقول ما ليس فيه»^(٧).

قال ابن أمّ عبد: "ما التقم أحد لقمة أشرّ من اغتياب المؤمن، إن قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، وإن قاله فيه ما لا يعلم فقد بهته»^(٨). عن الحسن: "أنه قال في الغيبة: أن تذكر من أخيك ما تعلم فيه من مساوئ أعماله، فإذا ذكرته بما ليس فيه فذلك البهتان»^(٩).

عن حسان بن المخارق: "أن امرأة دخلت على عائشة؛ فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اغتبتّها»^(١٠).

عن أبي إسحاق، قال: "لو مرّ بك أقطع، فقلت: ذاك الأقطع، كانت منك غيبة؛ قال: وسمعت معاوية بن قرّة يقول ذلك»^(١١).

عن أبي هريرة: "أن رجلا قام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرأوا في قيامه عجزا، فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكلتم أخاكم وَاغْتَبْتُمُوهُ»^(١٢).

(١) معاني القرآن: ٣٧/٥.

(٢) البخاري في صحيحه برقم (٣١٣٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٨٠/٧.

(٥) تفسير التستري: ١٥٠.

(٦) أخرجه أحمد (٣٨٤/٢، رقم ٨٩٧٣)، ومسلم (٢٠٠١/٤، رقم ٢٥٨٩)، وأبو داود (٢٦٩/٤، رقم ٤٨٧٤)

، والترمذي (٣٢٩/٤، رقم ١٩٣٤)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا: الدارمي (٣٨٧/٢، رقم ٢٧١٤)

والنسائي في الكبرى (٤٦٧/٦، رقم ١١٥١٨)، وابن حبان (٧٢/١٣، رقم ٥٧٥٩)، وأبو يعلى (٣٧٨/١١، رقم ٦٤٩٣).

ومن غريب الحديث: "بهته": أي كذبت واقتريت عليه.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٠٦/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٠٦/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٠٦/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٠٧/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٠٧/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٠٧/٢٢.

عن معاذ بن جبل، قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر القوم رجلا فقالوا: ما يأكل إلا ما أطعم، وما يرحل إلا ما رحل له، وما أضعفه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اغْتَبْتُمْ أَخَاكُمْ»، فقالوا: يا رسول الله وغيبته أن نحدث بما فيه؟ قال: «بِحَسْبِكُمْ أَنْ تُحَدِّثُوا عَنْ أَخِيكُمْ مَا فِيهِ»^(١).

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"^(٢).

عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: "يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته"^(٣).

عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام برجل مسلم سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة"^(٤).

قوله تعالى: {أُجِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [الحجرات: ١٢]، أي: "أحب أحدكم أكل لحم أخيه وهو ميت؟ فأنتم تكرهون ذلك، فاكرهوا اغتيابه"^(٥). قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين أحب أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه، لأن الله حرم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حيا، كما كرهتم لحمه ميتا، فإن الله حرم غيبته حيا، كما حرم أكل لحمه ميتا"^(٦).

قال ابن كثير: "أي: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا ذلك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، في العائد في هبته: "كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه"، وقد قال: "ليس لنا مثل السوء". وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(٧)^(٨).

قال ابن عباس: "حرم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرم الميئة"^(٩). قال قتادة: "يقول: كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي"^(١٠).

قال مجاهد: "لما نزلت: {أُجِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا}، قالوا: نكره ذلك، قال: فاتقوا الله في الغيبة"^(١١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"^(١).

(١) أخرجه الطبري: ٣٠٧/٢٢.

(٢) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٠).

(٣) مسند أبي يعلى (٢٣٧/٣) قال الهيثمي في المجمع (٩٣/٨): "رجاله ثقات".

(٤) سنن أبي داود برقم (٤٨٨١).

(٥) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٦) تفسير الطبري: ٣٠٨/٢٢.

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٨٠/٧.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٠٨/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٠٨/٢٢.

(١١) تفسير مجاهد: ٦١٢، وأخرجه الطبري: ٣٠٨/٢٢. بلفظ: «فكذلك فاتقوا الله».

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت : من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم"^(١).

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قلنا يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أسري بك؟... قال : "ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرُض جَنب أحدهم فَيَحْدُونَ منه الحُدُوءَ من مثل النعل ثم يضعونه في في أحدهم، فيقال له : "كل كما أكلت"، وهو يجد من أكله الموت - يا محمد - لو يجد الموت وهو يكره عليه، فقلت : يا جبرائيل، من هؤلاء : قال : هؤلاء الهمَّازون اللمَّازون أصحاب النميمة. فيقال : {أُجِيبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرَهُنَّ مُوَهُ} وهو يكره على أكل لحمه"^(٢).

عن أنس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يفطرن أحدًا حتى أذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : ظلمت منذ اليوم صائما، فائذن لي. فأفطر فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فليفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس ؟ اذهب، فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا". ففعلتا، فقالت كل واحدة منهما علقة علقة فأنتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار"^(٣).

وعن سليمان التيمي قال : "سمعت رجلا يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي عن عبيد - مولى رسول الله - أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن رجلا أتى رسول الله فقال : يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتتا تموتان من العطش - أراه قال : بالهجرة - فأعرض عنه - أو : سكت عنه - فقال : يا نبي الله، إنهما - والله قد ماتتا أو كادتتا تموتان. فقال : ادعهما. فجاءتا، قال : فجيء بقدرح - أو عَسَّ - فقال لإحدهما : "قيني" فقالت من قيح ودم وصيد حتى قاءت نصف القدرح. ثم قال للأخرى : قيني فقالت قيحا ودما وصيدا ولحما ودما عبيطا وغيره حتى ملأت القدرح. فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تاكلان لحوم الناس"^(٤).

قال ابن جرير: "أخبرني أبو الزبير عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ما عزا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، إنني قد زنيت فأعرض عنه - قالها أربعا - فلما كان في الخامسة قال : "زنيت" ؟ قال : نعم. قال : "وتدري ما الزنا؟" قال : نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا. قال : "ما تريد إلى هذا القول؟" قال : أريد أن تطهرني. قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشاء في البئر؟" قال : نعم، يا رسول الله. قال : فأمر برحمه فرجم، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجم الكلب. ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم حتى مرّ بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان ؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار" قالوا غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا ؟ قال : "فما نلتما من أخيكما أنفا أشد أكلا من، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها"^(٥).

(١) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٢) وسنن الترمذي برقم (١٩٢٧).

(٢) سنن أبي داود برقم (٤٨٧٨)، والمسند (٢٢٤/٣).

(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٣٨٠/٧-٣٨١.

(٤) مسند الطيالسي برقم (٢١٠٧). قال ابن كثير: ٣٨٢/٧ "إسناد ضعيف، ومتن غريب".

(٥) المسند (٤٣١/٥) ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (١٧١) من طريق يزيد بن هارون عن سليمان التيمي به.

(٦) مسند أبي يعلى (٥٢٤/٦) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٢٧/٨) من طريق عمرو بن الضحاك به ؛

عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يفتابون المؤمنين"^(١).

وفي رواية عن جابر قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن نفرًا من المنافقين اغتابوا ناسًا من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح" وربما قال : "فلذلك هاجت هذه الريح"^(٢).
وقرى «ميتًا»، بالنتقيل^(٣).

قال الزجاج: "يجوز «ميتًا»، وتأويله: أن ذكرك بسوء من لم يحضر لك بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحسُّ هو بذلك، وكذلك تقول للمغتاب فلان يأكل لحوم الناس. ويُقرأ «فكَّرْهُمُوهُ» - فتأويله: كما تكرهون أكل لحمه ميتًا كذلك تجنبوا ذكره بالسوء غائبًا"^(٤).
قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحجرات : ١٢]، أي: "وخافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه"^(٥).

قال محمد بن إسحاق: "واتقوا الله، أي: أطيعوا الله"^(٦).
قال الطبري: يقول: "فاتقوا الله أيها الناس، فخافوا عقوبته بانتهاكم عما نهاكم عنه من ظنَّ أحدكم بأخيه المؤمن ظنَّ السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم"^(٧).
قال ابن كثير: "أي : فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه"^(٨).
قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات : ١٢]، أي: "إن الله تواب على عباده المؤمنين، رحيم بهم"^(٩).

قال الطبري: "يقول: إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه"^(١٠).
قال ابن كثير: "أي : تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلل فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بئلك"^(١١).

قال قتادة: "قوله: {رحيماً}، بعباده"^(١٢).
قال سعيد بن جبیر: "قوله: {رحيماً} بهم بعد التوب"^(١٣).

ورواه أبو داود في السنن برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به. قال ابن كثير: ٣٨٣/٧ "إسناده صحيح".

(١) المسند (٣٥١/٣) قال الهيثمي في المجمع (٩١/٨) : "رجاله ثقات".

(٢) رواه عبد بن حميد في المنتخب برقم (١٠٢٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٩/٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٣٧/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٠٠): ص ١١٨٩/٤.

(٧) تفسير الطبري: ٣٠٨/٢٢-٣٠٩.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٨٤/٧.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٦.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٠٩/٢٢.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٨٤/٧.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٩٥): ص ٨٩٦/٣.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٩٤): ص ٨٩٦/٣.

قال أهل العلم: "ليس لثلاثة غيبة: السلطان الظالم، والفاسق المعلن، والذي أحدث في الإسلام حدثاً- يعني: المبتدع-، وكذلك قال أهل العلم: إذا سأل إنسان إنساناً لغرض له صحيح، فلا بأس أن يذكر ما فيه"^(١).

فالمقصود أنه إذا كان معروفاً بالبدعة، معروفاً بالفسق الظاهر، فلا غيبة له، إذا قيل إن هذا فلاناً يفعل كذا احذروه ابتعدوا عنه، هذا لا غيبة له في هذا الشيء الذي أظهره من البدعة والمنكر.

قال السمعاني: "والغيبة مأخوذة من الغيب؛ كأنه لما ذكره بظهر الغيب بما يسوءه كان ذكره له غيبة. وقد كان السلف يحترزون أشد الاحتراز من مثل هذا"^(٢).
روي: "أن طيبين دخلا على ابن سيرين، فلما خرجا قال: لولا أن يكون غيبة لذكرت أيهما أطب"^(٣).

عن جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، قالوا: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الغيبة أشد من الزنا». قيل: وكيف؟ قال: «إن الرجل يزني، ثم يتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»"^(٤).

روي عن ابن شوذي، قال: "قال رجل لابن سيرين: إني قد اغتبتك، فاجعلني في حلّ، قال: إني أكره أن أحلّ ما حرّم الله"^(٥).

عن هشام بن حسان عن خالد الربيعي، قال: "قال عيسى ابن مريم لأصحابه: أرأيتم لو أنّ أحدكم رأى أخاه المسلم قد كشف الريح عن ثيابه؟ قالوا: سبحان الله إذا كنا نردّه. قال: لا، بل كنتم تكشفون ما بقي، مثلاً ضربه لهم يسمعون للرجل سيئة أو حسنة، فيذكرون أكثر من ذلك"^(٦).

عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال"^(٧).

عن إسماعيل بن بشير، قال: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته"^(٨).

القرآن

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) [الحجرات: ١٣]

التفسير:

- (١) نقلاً عن: تفسير السمعاني: ٢٢٧/٥.
- (٢) نقلاً عن: تفسير السمعاني: ٢٢٧/٥.
- (٣) نقلاً عن: تفسير السمعاني: ٢٢٧/٥.
- (٤) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٥/٩، وانظر: الجامع الصغير: ١/ ٤٥٠ العهود المحمدية للشعراني: ٨٥٦ كنز العمال: ٥٨٦/٣.
- (٥) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٦/٩.
- (٦) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٦/٩.
- (٧) المسند (٤٤١/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٨٨٣).
- (٨) سنن أبي داود برقم (٤٨٨٤).

يا أيها الناس إنا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوباً وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضاً، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم.

في سبب نزول الآية، أقوال:

أحدها: أنها نزلت في بلال المؤذن-رضي الله عنه-

عن ابن أبي مليكة؛ قال: "لما كان يوم الفتح؛ رقى بلال فأذن على الكعبة، فقال بعض الناس: هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة، وقال بعضهم: إن يسخط الله هذا يغيره؛ فنزلت: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (١٣)"^(١). [ضعيف]

وقال مقاتل: "نزلت في بلال المؤذن وقالوا في سلمان الفارسي وفي أربعة نفر من قريش، في عتاب بن أسيد ابن أبي العيص، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وأبي سفيان بن حرب، كلهم من قريش وذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لما فتح مكة أمر بلالا فصعد ظهر الكعبة وأذن، وأراد أن يذل المشركين بذلك، فلما صعد بلال وأذن. قال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أسيد قبل هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: عجبت لهذا العبد الحبشي أما وجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلا هذا الغراب الأسود وقال سهيل بن عمرو: إن يكره الله شيئاً يغيره. وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول، فإني لو قلت شيئاً لتشهدن عليّ السماء ولتخبرن عني الأرض- فنزل جبريل على النبي- صلى الله عليه وسلم- فأخبره بقولهم فدعاهم النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: كيف قلت يا عتاب؟ قال قلت: الحمد لله الذي قبض أسيد قبل هذا اليوم. قال: صدقت. ثم قال للحارث بن هشام: كيف قلت؟ قال: عجبت لهذا العبد الحبشي أما وجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلا هذا الغراب الأسود. قال: صدقت. ثم قال لسهيل بن عمرو: كيف قلت؟ قال: قلت إن يكره الله شيئاً يغيره. قال:

صدقت. ثم قال لأبي سفيان: كيف قلت؟ قال: قلت أما أنا فلا أقول شيئاً فإني لو قلت شيئاً لتشهدن عليّ السماء ولتخبرن عني الأرض. قال: صدقت، فأنزل الله- تعالى- فيهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، يعنى: بلالا وهؤلاء الأربعة"^(٢).

الثاني: أنها نزلت في أبي هند الحجام.

عن الزهري؛ قال: "أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله! أتزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله - عزّ وجلّ -: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (١٣)؛ قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة، قال: وكان أبو هند حجام النبي - صلى الله عليه وسلم -"^(٣). [ضعيف]

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول(٧٦٦):ص٤١١، وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٧٩ /٥) بسند صحيح إلى عبد الرزاق؛ قال: أنبأ معمر عن أيوب عن عكرمة به، ليس فيه ذكر لسبب النزول.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٧٨ /٧) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٧/٤.

(٣) أخرجه أبو داود في "المراسيل" (رقم ١٩٥، ٢٣٠) عن عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد كلاهما عن بقية ثنا الزبيدي ثني الزهري به.

قلنا: وهذا مرسل حسن الإسناد، وصرح بقية بالتحديث كما ترى.

وقال أبو داود عقبه: "روي بعضه مسنداً وهو ضعيف".

وزاد السيوطي في "الدر المنثور" (٥٧٨ /٧) نسبه لابن المنذر وابن جريج والبيهقي في "سننه" وابن مردويه.

قلنا: هو عند البيهقي في "السنن الكبرى" (١٣٧ /٧) معلقاً عن أبي داود.

وأخرجه ابن مردويه موصولاً -كما في "الدر المنثور"- عن الزهري عن عروة عن عائشة به.

قلنا: وقد تقدم قول أبي داود: "وروي بعضه مسنداً وهو ضعيف".

الثالث: - وهو قول يزيد بن شجرة: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمرّ ببعض أسواق المدينة، فإذا غلام أسود قائم، ينادى عليه ليبيع، فمن يريد. وكان الغلام قال: من اشتراني فعلي شرط، قيل: ما هو، قال: ألا يمنعي عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتراه رجل على هذا الشرط، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عند كلّ صلاة مكتوبة، ففقدته ذات يوم، فقال لصاحبه: أين الغلام؟ فقال: محموم يا رسول الله، فقال لأصحابه: «قوموا بنا نعوده». فقاموا معه فعادوه، فلما كان بعد أيام قال لصاحبه: «ما حال الغلام؟» قال: يا رسول الله، إنّ الغلام لما به، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وهو في ذهابه، فقبض على تلك الحال، فتولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم غسله، وتكفينه، ودفنه، فدخل على المهاجرين، والأنصار من ذلك أمر عظيم، فقال المهاجرون: هاجرنا ديارنا، وأموالنا، وأهالينا، فلم ير أحد منا في حياته ومرضه وموته ما لقي منه هذا الغلام، وقال الأنصار: آويناه، ونصرناه، وواسيناه فأثر علينا عبدا حبشيا، فعذر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم، فيما تعاطاه من أمر الغلام، وأراهم فضل التقوى، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ [الحجرات: ١٣] ^(١). [ضعيف]

الرابع: وقال ابن عباس: "نزلت في ثابت بن قيس وقوله للرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من الذاكر فلانة؟». فقام ثابت، فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «انظر في وجوه القوم». فنظر إليهم، فقال: «ما رأيت يا ثابت؟». قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر. قال: «فإنك لا تفضلهم إلّا في الدين والتقوى»، فأنزل الله سبحانه في ثابت هذه الآية وبالذي لم يفسح له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ، فَافْسَحُوا﴾ [المجادلة: ١١] ^(٢).

قال الواحدي: "نزلت هذه الآية في الزجر عن التفاخر بالإنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء" ^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، أي: "يا أيها الناس إنّنا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب" ^(٤). قال الطبري: يقول: "يا أيها الناس إنّنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء" ^(٥).

قال الزجاج: "خلقناكم من آدم وحواء، وكلكم بنو أب واحد وأم واحدة إليهم ترجعون" ^(٦). قال ابن الجوزي: "المراد بالذكر والأنثى، آدم وحواء. والمعنى: إنّكم تتساوون في النسب وهذا زجر عن التفاخر بالأنساب" ^(٧).

قال مجاهد: "خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة" ^(٨). عن مجاهد، قوله: "﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، قال: ما خلق الله الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعا، لأن الله يقول: ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾" ^(٩).

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٧/٩- والواحدي في أسباب النزول (٧٦٦١): ص ٤١١-٤١٢. بدون إسناد.

(٢) ذكره الثعلبي: ٨٦/٩ عن ابن عباس، وأورده الماوردي في "تفسيره" ٣٣٣/٥ مختصراً ونسبه للكليبي والفرّاء، ونسبه البغوي ٣٤٢/٧، وابن الجوزي في "زاد المسير" ٤٦٥/٧ لابن عباس، وذكره الواحدي في "أسباب النزول" بدون سند ص ٤١٥.

(٣) التفسير البسيط: ٣٦٣/٢٠.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٥) تفسير الطبري: ٣٠٩/٢٢.

(٦) معاني القرآن: ٣٧/٥.

(٧) زاد المسير: ١٥٣/٤.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٠٩/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٠٩/٢٢.

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات : ١٣]، أي: " وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا"^(١).

قال الطبري: " إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقربكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم"^(٢).

قال أبو عبيدة: " يقال: من أي شعب أنت؟ فيقول من مضر من ربيعة، والقبائل دون ذلك قال ابن أحرر"^(٣).

من شَعْبِ هَمْدَانَ أَوْ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَوْ ... حَوْلَانَ أَوْ مَدْحِجِ هَاجُوا لَهُ طَرَبًا
وقال الكميث بن زيد الأسدي"^(٤).

جمعت نزارا وهي شتى شعوبها ... كما جمعت كف إليها الأباخسا"^(٥).

عن مجاهد: " {وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}، قال: جعلنا هذا لتعارفوا، فلان بن فلان من كذا وكذا"^(٦).

قال القشيري: " ثم جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصول تربة ونطفة وعلقة ... فالتفاخر بماذا؟ أبالحمأ المسنون؟ أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوى عليه ظاهره مما تعرفه؟"^(٧).

قال الماوردي: " والشعوب: جمع «شعب»، بفتح الشين، والشعب بكسر الشين هو الطريق وجمعه شعاب، فكان اختلاف الجمع مع اتفاق اللفظين تنبيهاً على اختلاف المعنيين"^(٨).

وفي «الشعوب والقبائل»، أقوال:

أحدها: أن الشعوب: النسب الأبعد والقبائل النسب الأقرب، قاله مجاهد"^(٩)، وقتادة"^(١٠).

قال قتادة: " الشعوب: النسب البعيد، والقبائل كقوله: فلان من بني فلان، وفلان من بني فلان"^(١١).

وقال الضحاك: " أما الشعوب: فالنسب البعيد"^(١٢).

وقال الشاعر"^(١٣):

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوبٍ لَيْسَ مِنْهُمْ ... كَرِيمٌ قَدْ يُعَدُّضُ وَلَا نَجِيبُ

وعن ابن عباس: " الشعوب: الأنساب"^(١٤).

قال الماوردي: " وسموا شعوباً لأن القبائل تشعبت منها"^(١٥).

الثاني: الشعوب: البطون، والقبائل: الأفخاذ. قاله ابن عباس"^(١).

(١) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٢) تفسير الطبري: ٣١٢/٢٢.

(٣) من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن: ٢٢٠/٢، وانظر: تفسير الطبري: ٣١٢/٢٢.

(٤) في اللسان (بخس).

(٥) مجاز القرآن: ٢٢٠/٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣١٢/٢٢.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٤٣/٣.

(٨) النكت والعيون: ٣٣٦/٥.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣١١/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣١١/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٣١١/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣١١/٢٢.

(١٣) الشعر بلا نسبة في النكت والعيون: ٣٣٦/٥، وتفسير القرطبي: ٣٤٤/١٦، والبحر المحيط في التفسير:

٥٢٢/٩، وهو لصبيح بن معدان بن عدي بن أفلت الطائي في الأنساب للصحاري: ٣٧.

(١٤) أخرجه الطبري: ٣١٢/٢٢.

(١٥) النكت والعيون: ٣٣٦/٥.

عن ابن عباس: "الشعوب: الجُمَاع. -قال خلاد، قال أبو بكر: القبائل العظام، مثل بني تميم-، والقبائل: الأَفْخَاذُ"^(٢). وفي رواية" والقبائل الأَفْخَاذُ التي يتعارفون بها"^(٣).
وعن ابن عباس: "الشعوب: الجُمَاع، والقبائل: البُطُون"^(٤).
وعن سعيد بن جبیر: "الشعوب: الجمهور، والقبائل: الأَفْخَاذُ"^(٥).
الثالث: أن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبيلة ربيعة ومضر وسائر عدنان^(٦).
الرابع: أن الشعوب: هم المضافون إلى النواحي والشعاب، والقبائل: هم المشتركون في الأنساب، أفاده الماوردي^(٧)، وأنشد قول الشاعر^(٨):
وتفرقوا شعباً فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر
الخامس: أن الشُّعُوبَ: جمع «شُعْب» وهو الحَيُّ العظيم، مثل مضر وربيعه، والقبائل: دونها، كبكر من ربيعة، وتميم من مضر. حكاها ابن الجوزي عن الجمهور من المفسرين وأهل اللغة^(٩).
وقال أبو سليمان الدمشقي: "وقد قيل: إن القبائل هي الأصول، والشُّعُوب هي البُطُون التي تتشعب منها"^(١٠).
السادس: "إن الشعوب: الموالي، والقبائل: العرب". وهذا مروى عن ابن عباس -أيضاً-^(١١).
وحكي الماوردي: "أن الشعوب: بطون العجم، والقبائل: بطون العرب"^(١٢).
السابع: أن الشعوب: أهل الجبال الذين لا يَعْتَرُونَ لأحد، والقبائل: قبائل العرب. قاله أبو رزين^(١٣).
الثامن: أن الشعب: أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ. قاله الكلبي^(١٤).
قال الزجاج: "الشعب أعظم من القبيلة، أي: لم يجعلكم شعوبا وقبائل لتفاخروا وإنما جعلناكم كذلك لتتعارفوا"^(١٥).
قال القرطبي: "وقيل: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة، وقد نظمها بعض الأدباء فقال^(١٦):
اقصد الشعب فهو أكثر حي ... عددا في الحواء ثم القبيلة
ثم تتلوها العمارة ثم ال ... بطن والفخذ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكن ... هي في جنب ما ذكرناه قليله
وقال آخر:
قبيلة قبلها شعب وبعدهما ... عمارة ثم بطن تلوه فخذ
وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته ... ولا سداد لسهم ماله قذذ"^(١٧).

- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣١١/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٣١٠/٢٢.
- (٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٢١): ص ٣٣٠٦/١٠.
- (٤) أخرجه الطبري: ٣١٠/٢٢.
- (٥) أخرجه الطبري: ٣١٠/٢٢.
- (٦) انظر: النكت والعيون: ٣٣٦/٥، وتفسير القرطبي: ٣٤٤/١٦.
- (٧) انظر: النكت والعيون: ٣٣٦/٥.
- (٨) الشعر بلا نسبة في النكت والعيون: ٣٣٦/٥، وتفسير القرطبي: ٣٤٥/١٦.
- (٩) انظر: زاد المسير: ١٥٣/٤.
- (١٠) حكاها عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٣/٤.
- (١١) حكاها عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٣/٤، والقرطبي في "التفسير": ٣٤٤/١٦.
- (١٢) انظر: النكت والعيون: ٣٣٦/٥، وتفسير القرطبي: ٣٤٤/١٦.
- (١٣) حكاها عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٣/٤.
- (١٤) انظر: الصحاح "صحح"، وتفسير القرطبي: ٣٤٥/١٦.
- (١٥) معاني القرآن: ٣٧/٥.
- (١٦) وانظر: روح المعاني: ١٦٢/٢٦. و«قذذ»: جمع «قذذة»: وهو ريش السهم. [القاموس: قذذ].
- (١٧) تفسير القرطبي: ٣٤٥/١٦.

قال ابن كثير: "الشعوب أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك"^(١).

وقال ابن عطية: "الشعوب: جمع شعب وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبنا بنسب واحد، ويتلوه القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الأسرة والفصيلة: وهما قرابة الرجل الأدنون فمضر وربيعة وحمير شعوب، وقيس وتميم ومدحج ومراد، قبائل مشبهة بقبائل الرأس، «لأنها قطع تقابلت» وقريش ومحارب وسليم عمارات، وبنو قصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة... وقيل للأمم التي ليست بعرب: شعوبية، نسبة إلى الشعوب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يعرف أحد منهم إلا بأن يقال: فارسي تركي رومي زناتي. فعرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يعبر به عن جماعتهم، ويقال لهم: الشعوبية بفتح الشين، وهذا من تغيير النسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي"^(٢).

قال السعدي: "في هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب، مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك"^(٣).

قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات : ١٣]، أي: "إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له"^(٤).

قال الطبري: يقول: "إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم، أشدكم اتقاءً له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتا ولا أكثركم عشيرة"^(٥).

قال ابن كثير: "أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب"^(٦).

قال الفشير: "أتقاكم، أي: أبعدكم عن نفسه، فالتقوى هي التحرر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب إلى الله تعالى"^(٧).

قال السعدي: "لكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا"^(٨).

قال قتادة: "أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور"^(٩).

عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أكرم؟ قال: "أكرمهم عند الله أتقاهم" قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله". قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فعن معادن العرب تسألوني؟" قالوا: نعم. قال: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"^(١٠).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^(١١).

عن أبي ذر قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى"^(١٢).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٨٥/٧.

(٢) المحرر الوجيز: ١٥٣/٥.

(٣) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٥) تفسير الطبري: ٣١٢/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٨٦/٧.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٤٤/٣.

(٨) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(٩) تفسير الثعلبي ٨٨/٩، وتفسير البيهقي ٣٤٨/٧.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٩).

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣).

(١٢) المسند (١٥٨/٥).

عن محمد بن حبيب بن خراش العَصْرِيّ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى" (١).

عن حذيفة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلكم بنو آدم. و آدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان" (٢).
عن عقبة بن عامر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الناس لآدم وحواء كطف الصاع لم يملأوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (٣).

عن عقبة بن عامر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أنسابكم هذه ليست بمساب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملأوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو عمل صالح حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيا بخيلا جباناً" (٤).

عن درة بنت أبي لهب قالت : «قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر، فقال : يا رسول الله، أي الناس خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله عز وجل، وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم"» (٥).
عن عائشة قالت : "ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى" (٦).

عن ابن عمر قال : «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته القسواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل صلى الله عليه وسلم على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : "يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بأبائها، فالناس رجلا ن : رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. إن الله يقول : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ثم قال : "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"» (٧).

عن عطاء: قال ابن عباس: " ثلاث آيات جدهن الناس: الإذن كله، وقال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات : ١٣]، وقال الناس: «أكرمكم أعظمكم بيتا»؛ وقال عطاء: نسيت الثالثة" (٨).

وحكي النحاس عن ابن عباس: "ترك الناس هذه الآية: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات : ١٣]، وقالوا: بالنسب" (٩).

عن يحيى بن يعمر، قال " ثلاث آيات، مدنيات، محكمات، ضيعهن كثير من الناس، هذه الآية: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} [النساء : ٨]، وآية

(١) المعجم الكبير (٢٥/٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨٤/٨) : "فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك".

(٢) مسند البزار برقم (٣٥٨٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨٦/٨) : "فيه الحسن بن الحسين العرنى وهو ضعيف".

(٣) أخرجه الطبري: ٣١٣/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣١٣/٢٢.

(٥) المسند (٤٣٢/٦) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥٧/٢٤) من طريق شريك به، وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٣/٧) : "رجالها ثقات، وفي كلام بعضهم كلام لا يضر".

(٦) المسند (٦٩/٦).

(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٧٩٣) وفيه موسى بن عبيدة الزبيدي وهو ضعيف.

(٨) أخرجه الطبري: ٣١٣/٢٢.

(٩) إعراب القرآن: ١٤٤/٤.

الاستئذان: {وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ} [النور : ٥٨]، وقوله جل وعز: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات : ١٣]، إلى آخر الآية" (١).

وقال أبو هريرة: "ينادي مناد يوم القيامة إني جعلت نسبا وجعلهم نسبا. {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، ليقم المتقون. فلا يقوم إلا من كان كذلك" (٢).

قال الجصاص: "قوله تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، بدأ بذكر الخلق {من ذكر وأنثى} وهما آدم وحواء ثم جعلهم {شعوبا} يعني: متشعبين متفرقين في الأنساب كالأمم المتفرقة نحو العرب وفارس والروم والهند ونحوهم ثم جعلهم {قبائل}، وهم أخص من الشعوب نحو قبائل العرب وبيوتات العجم ليتعارفوا بالنسبة كما خالف بين خلقهم وصورهم ليعرف بعضهم بعضا ودل بذلك على أنه لا فضل لبعضهم على بعض من جهة النسب إذ كانوا جميعا من أب وأم واحدة ولأن الفضل لا يستحق بعمل غيره فبين الله تعالى ذلك لنا لئلا يفخر بعضنا على بعض بالنسب وأكد ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، فأبان أن الفضيلة والرفعة إنما تستحق بتقوى الله وطاعته" (٣).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات : ١٣]، أي: "إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم" (٤).

قال الطبري: يقول: "إن الله أيها الناس ذو علم بأتقاكم عند الله وأكرمكم عنده، ذو خبرة بكم وبمصالحكم، وغير ذلك من أموركم، لا تخفى عليه خافية" (٥).

قال ابن كثير: "أي : عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في "كتاب الأحكام" والله الحمد والمنة. وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول : أنا أولى الناس برسول الله. فقال : غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه" (٦).

قال السعدي: "يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك، ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق" (٧).

عن سعيد بن جبير: " {عليم}، يعني: عالم بها" (٨).

قال محمد بن إسحاق: "أي: عليم بما يخفون" (٩).

عن قتادة، قوله: " {خَبِيرٌ}، قال: " خبير بخلقه" (١٠).

فوائد الآيات: [٩-١٣]:

- ١- وجوب مبادرة المسلمين إلى إصلاح ذات البين بينهم كلما حصل فساد أو خلل فيها.
- ٢- وجوب تعاون المسلمين على تأديب أية جماعة تبغي وتعتدي حتى تقيء إلى الحق.
- ٣- وجوب الحكم بالعدل في أية قضية من قضايا المسلمين وغيرهم.
- ٤- تقرير الأخوة الإسلامية ووجوب تحقيقها بالقول والعمل.

(١) أخرجه ابن المنذر في التفسير (١٤١٣) :ص٥٨٠/٢.

(٢) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ١٤٤/٤.

(٣) أحكام القرآن: ٢٩٢/٥.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٥) تفسير الطبري: ٣١٣/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٨٨/٧.

(٧) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٨٥) :ص١٩٥٢/٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٨٦) :ص١٩٥٢/٦.

(١٠) تفسير عبدالرزاق (٢٣٨٩) :ص٥٦/٣.

- ٥- حرمة السخرية واللمز والتنازير بين المسلمين.
- ٦- وجوب اجتناب كل ظن لا قرينة ولا حال قوية تدعو إلى ذلك.
- ٧- حرمة التجسس، أي: تتبع عورات المسلمين وكشفها وإطلاع الناس عليها.
- ٨- حرمة الغيبة والنميمة. والنميمة هي نقل الحديث على وجه الإفساد ولذا يجوز ذكر الشخص وهو غائب في مواطن هي التظلم بأن يذكر المسلم من ظلمه لإزالة ظلمه، الاستعانة على تغيير المنكر بذكر صاحب المنكر. الاستفتاء نحو قول المستفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك، تحذير المسلمين من الشر بذكر فاعله قصد أن يحذروه، المجاهر بالفسق لا غيبة له، التعريف بلقب لا يعرف الرجل إلا به.
- ٩- حرمة التفاخر بالأنساب ووجوب التعارف للتعاون.
- ١٠- لا شرف ولا كرم إلا بشرف التقوى وكرامتها: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} وفي الحديث: " إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ودينكم واحد ونبينا واحد ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى" (١).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٤٩): ص ٨٦/٥، قال الهيثمي (٨٤/٨) : رواه الطبراني في الأوسط والبخاري بنحوه ورجال البزار رجال الصحيح.

القرآن

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَأَمِّنَّا قُلْ لَمْ يَلْتِكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)} [الحجرات : ١٤]

التفسير:

قالت الأعراب - وهم البدو-: آمنا بالله ورسوله إيمانًا كاملاً قل لهم -أيها النبي-: لا تدعوا لأنفسكم الإيمان الكامل، ولكن قولوا: أسلمنا، ولم يدخل بعدُ الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. إن الله غفور لمن تاب من ذنوبه، رحيم به. وفي الآية زجر لمن يُظهر الإيمان، ومتابعة السنة، وأعماله تشهد بخلاف ذلك.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال عبد الله بن أبي أوفى: "قال أناس من العرب: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك، وقاتلك بنو فلان، فأنزل الله: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَأَتَمُنُوا عَلَيْكُمْ} [الحجرات : ١٧]"^(١).

قال قتادة: "ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب؛ إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أنزلت في حيٍّ من أحياء العرب امتنوا بإسلامهم على نبي الله - صلى الله عليه وسلم -، فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان؛ فقال الله -تعالى-: لا تقولوا: آمنا {وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} حتى بلغ: {فِي قُلُوبِكُمْ}"^(٢). [ضعيف]

الثاني: قال مجاهد: "نزلت هذه الآية في أعراب أسد بن خزيمة"^(٣). [ضعيف]

ووصف حالهم الواحدي، فقال: "نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادات ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعدوات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمتنون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية"^(٤).

وقال الثعلبي: "نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمة، ثم من بني الحلاف بن الحارث بن سعيد، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة، وأظهروا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعدوان، وأغلوا أسعارها، وكانوا يغدون، ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: أنتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأفعال، والعيال والذراري، يمتنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان، ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطنا، فأنزل الله سبحانه فيهم هذه الآية"^(٥).

الثالث: أنها نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار. قاله السدي^(٦)، ومقاتل^(٧). قال السدي: "نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الفتح، وهم أعراب مزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، كانوا يقولون: آمنا بالله، ليأمنوا على أنفسهم، وأموالهم، فلما

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٠١٦): ٧٨/٨، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط. وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة، ولكنه مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ١١٢/٧. وحسنه السيوطي (لباب النقول: ١٩٩)

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣١٥ / ٢٢) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وزاد السيوطي في "الدر المنثور" (٥٨٣ / ٧) نسبه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد: ٦١٢. من طريق ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

(٤) أسباب النزول (٧٦٧): ص ٤١٢.

(٥) الكشف والبيان: ٨٩/٩.

(٦) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٩/٩، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٤/٤، ولم أفه عليه، وهو مرسل.

(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٨/٤.

استنفرُوا إلى الحديبية تخلفوا، فأنزل الله سبحانه: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا أَيِ انْقَدْنَا وَاسْتَسْلَمْنَا خِيفَةَ الْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ" (١).

وقال مقاتل: "نزلت في أعراب جهينة، ومزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا النبي- صلى الله عليه وسلم- قالوا آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، وكان يومئذ من قال: «لا إله إلا الله» يأمن على نفسه وماله فمر بهم خالد بن الوليد في سرية للنبي- صلى الله عليه وسلم- فقالوا آمنا فلم يعرض لهم، ولا لأموالهم، فلما سار النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى الحديبية واستنفرهم معه. فقال بعضهم لبعض: إن محمدا وأصحابه أكلة رأس لأهل مكة، وإنهم كلفوا شيئا لا يرجعون عنه أبدا فآين تذهبون تقتلون أنفسكم؟ انتظروا حتى ننظر ما يكون من أمره، فذلك قوله في الفتح: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [الفتح : ١٢]، إلى آخر الآية، فنزلت فيهم: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} (٢). [ضعيف]

قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات : ١٤]، أي: "قالت الأعراب -وهم البدو-: آمنا بالله ورسوله إيمانا كاملا قل لهم -أيها النبي-: لا تدعوا لأنفسكم الإيمان الكامل، ولكن قولوا: أسلمنا" (٣).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قالت الأعراب: صدقنا بالله ورسوله، فنحن مؤمنون، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهم {لم تؤمنوا} ولستم مؤمنين {ولكن قولوا أسلمنا} (٤).

قال الثعلبي: "فأخبر أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأن الإقرار به باللسان، وإظهار شرائعه بالأبدان، لا يكون إيمانا دون الإخلاص الذي محله القلب، وأن الإسلام غير الإيمان" (٥). قال ابن كثير: "يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} ولَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه" (٦).

قال محمد بن يزيد: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ}، هذا على تأنيث الجماعة، أي: قالت جماعة الأعراب" (٧).

عن قتادة: "{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا} الآية، قال: لم تَعَمَّ هذه الآية الأعراب، ولكنها لطوائف من الأعراب" (٨).

وفي قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات : ١٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم أقروا ولم يعملوا، فالإسلام قول، والإيمان عمل، قاله الزهري (٩)، وابن زيد (١٠)، وإبراهيم النخعي (١)، وبه قال الطبري (٢).

(١) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان: ٨٩/٩، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٤/٤، ولم أقف عليه، وهو مرسل.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٩٨/٤. ومقاتل ساقط الرواية كذبه غير واحد، فخره واه.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٤) تفسير الطبري: ٣١٣/٢٢.

(٥) الكشف والبيان: ٨٩/٩.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/٧.

(٧) حكاه عنه النحاس في إعراب القرآن: ١٤٤/٤.

(٨)

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣١٤/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣١٤/٢٢.

عن إبراهيم: "وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا"، قال: هو الإسلام^(٣)
قال الزهري: "نرى أنّ الإسلام الكلمة، والإيمان العمل"^(٤)
عن داود بن أبي هند، أنه سئل: "عن الإيمان. فتلا هذه الآية: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ
تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}، قال: الإسلام: الإقرار، والإيمان: التصديق"^(٥)
قال ابن زيد: "لم يصدقوا إيمانهم بأعمالهم، فرد الله ذلك عليهم: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا}، وأخبرهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم
وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون، صدقوا إيمانهم بأعمالهم؛ فمن قال منهم: أنا مؤمن
فقد صدق؛ قال: وأما من انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل فقد كذب، وليس بصادق"^(٦)
عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: "أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا ولم يعط
رجلا منهم شيئا، فقال سعد: يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا، ولم تعط فلانا شيئا، وهو مؤمن،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أو مسلم؟ حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي صلى الله عليه وسلم
يقول: أو مسلم، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم إني أعطي رجلا وأدع من هو أحب إلي
منهم، لا أعطيه شيئا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم"^(٧)
قال ابن كثير-معلقا على الحديث أعلاه:- "فقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين
المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام... ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان
مسلمًا ليس منافقًا؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن
هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان
في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك"^(٨)
الثاني: أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلمهم أن اسمهم أعراب، قاله
ابن عباس^(٩)
قال ابن عباس: "وذلك أنهم أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة، ولا يتسموا بأسمائهم التي
سماهم الله، وكان ذلك في أول الهجرة قبل أن تنزل المواريث لهم"^(١٠)
الثالث: أنهم مئوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم فقالوا أسلمنا، لم نقاتلك، فقال الله تعالى
لنبيه: قل لهم: لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا خوف السب والسيف، قاله سعيد بن جبیر^(١١)،
وقتادة^(١٢)، ومجاهد^(١٣)، وابن زيد-في رواية أخرى-^(١٤)
وعن مجاهد: "قُولُوا أَسْلَمْنَا"، قال: استسلمنا"^(١٥)
وقال مجاهد: "استسلموا حين خشوا القتل والسب"^(١٦)

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣١٥/٢٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢.
(٣) أخرجه الطبري: ٣١٥/٢٢.
(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢٩٣٩): ص ٢ / ٢٢٣، والطبري: ٣١٤/٢٢ بنحوه. وعزاه السيوطي في "الدر
المنثور": ٥٨٣/٧، إلى ابن المنذر.
(٥) الدر المنثور: ٥٨٣/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر.
(٦) أخرجه الطبري: ٣١٤/٢٢.
(٧) أخرجه الطبري: ٣١٤/٢٢.
(٨) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣١٥/٢٢.
(١٠) أخرجه الطبري: ٣١٥/٢٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣١٥/٢٢.
(١٣) رواه سفيان في التفسير (٩٠٢: ٢): ص ٢٧٩.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢.
(١٥) أخرجه الطبري: ٣١٦/٢٢.
(١٦) أخرجه سفيان في التفسير (٩٠٢: ٢): ص ٢٧٩.

قال ابن قتيبة: "أي: استسلمنا من خوف السيف وانقذنا"^(١).
 قال سهل: "يعني: أقررنا مخافة السبي والقتل لأن الإيمان إقرار باللسان صدقاً، وإيقان في القلب عقداً، وتحقيقها بالجوارح إخلاصاً، وليس في الإيمان أنساب، وإنما الأنساب في الإسلام، والمسلم محبوب إلى الخلق، والمؤمن غني عن الخلق"^(٢).
 وعن ابن زيد: "وقرأ قول الله {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا}، استسلمنا: دخلنا في السلم، وتركنا المحاربة والقتال بقولهم: لا إله إلا الله، وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"^(٣).
 قال الشافعي: "فأعلم أنه لم يدخل الإيمان في قلوبهم وأنهم أظهروه، وحقق به دماءهم"^(٤).

قال الماوردي: "لأنهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم، فلم يكونوا مؤمنين، وتركوا القتال فصاروا مستسلمين لا مسلمين، فيكون مأخوذاً من الاستسلام لا من الإسلام كما قال الشاعر^(٥):
 طال النهار على من لا لجاج له ... إلا الهدية أو ترك بإسلام
 ويكون الإسلام والإيمان في حكم الدين على هذا التأويل واحداً وهو مذهب الفقهاء، لأن كل واحد منهما تصديق وعمل"^(٦).

والراجح- والله أعلم- هو القول الأول، "وهو أن الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقراراً منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق أننا دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا أننا بالله ورسوله، ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يشكل على سامعيه والذي قائله فيه محق، وهو أن يقولوا أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة والأموال، والشهادة الحق"^(٧).

قال ابن كثير: "الصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فادبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}، أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد"^(٨).

قال ابن قتيبة: "الإسلام: هو الدخول في السلم، أي: في الانقياد والمتابعة. قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [النساء: ٩٤] أي: انقاد لكم وتابعكم. و«الاستسلام» مثله. يقال: سلم فلان لأمره واستسلم وأسلم. أي دخل في السلم. كما تقول: أشتى الرجل: إذا دخل في الشتاء، وأربع: دخل في الربيع، وأقحط: دخل في القحط. فمن «الإسلام»: متابعة وانقياد باللسان دون القلب. ومنه قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} [الحجرات: ١٤] أي: أنقذنا من خوف السيف، وكذلك قوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣]، أي: انقاد له وأقر به المؤمن والكافر، ومن «الإسلام»: متابعة وانقياد باللسان والقلب، ومنه قوله حكاية عن إبراهيم:

(١) غريب القرآن: ٤١٦.

(٢) تفسير التستري: ١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري: ٣١٦/٢٢.

(٤) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٨١/٣.

(٥) الشعر بلا نسبة في النكت والعيون: ٣٣٧/٥.

(٦) النكت والعيون: ٣٣٧/٥.

(٧) تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/٧.

{قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١] . وقوله: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ أَتْبَعَنَ} [آل عمران: ٢٠] أي: انقذت لله بلساني وعقدي.. قال زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية (١):

أسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا
أي: انقذت له المزن (٢).

قال الزجاج: " هذا موضع يحتاج الناس إلى تفهمه، وأين ينفصل المؤمن من المسلم. وأين يستويان. و«الإسلام» إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم -، وبذلك يحقن الدَّم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي مَنْ هُوَ صفته فهو مؤمن مُسَلِّم، وهو المؤمن بالله ورسوله غَيْرَ مرتابٍ ولا شاكٍّ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه، وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه لا يدخله في ذلك ريبٌ، فهو المؤمن وهو المُسَلِّمُ حقاً" (٣).

قال النحاس: " الإسلام في اللغة الخضوع والتذلل لأمر الله جل وعز والتسليم له والإيمان والتصديق بكل ما جاء من عند الله جل وعز فإذا خضع لأمر الله سبحانه وتذلل له فهو مصدق، وإذا كان مصدقا فهو مؤمن، ومن كان على هذه الصفة فهو مسلم مؤمن إلا أن للإسلام موضعا آخر وهو الاستسلام خوف القتل" (٤).

قوله تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ١٤]، أي: " ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد" (٥).

قال الطبري: يقول: " ولما يدخل العلم بشرائع الإيمان، وحقائق معانيه في قلوبكم" (٦).

قال القشيري: " في هذا دليل على أن محلَّ الإيمان القلب، كما أنه في وصف المنافقين

قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، ومرض القلب والإيمان ضدان" (٧).

قوله تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} [الحجرات: ١٤]، أي: " وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا" (٨).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء الأعراب القائلين أمانا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئا ولا ينقصكم من ثوابها شيئا" (٩).

قال ابن كثير: " أي : لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: {وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]" (١٠).

عن مجاهد، قوله: "{ لَا يَلِتْكُمْ}، لا ينقصكم" (١١). وفي رواية: "لا ينقصكم من أعمالكم شيئا ولا يظلمكم" (١٢).

(١) لزيد بن عمرو بن نفيل في تفسير الطبري ١/ ٣٩٣، والمعارف ص ٢٧، ومجمع البيان ١/ ١٨٧، والأغاني ١٧/٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) معاني القرآن: ٣٨/٥.

(٤) إعراب القرآن: ١٤٤/٤-١٤٥.

(٥) صفوة التفاسير: ٢٢٠/٣.

(٦) تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٤٤/٣.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٩) تفسير الطبري: ٣١٦/٢٢-٣١٧.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/٧.

(١١) أخرجه الطبري: ٣١٧/٢٢.

(١٢) تفسير مجاهد: ٦١٢.

عن ابن زيد، قوله: «وَأِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، قال: إن تصدقوا إيمانكم بأعمالكم يقبل ذلك منكم»^(١).

قال قتادة: "يقول: لن يظلمكم من أعمالكم شيئاً"^(٢).

قال الفراء: "لا ينقصكم، ولا يظلمكم من أعمالكم شيئاً، وهي من: لات يليت، والقراء مجتمعون عليها، وقد قرأ بعضهم: «لا يَأْتِكُمْ»، ولست أشتهيها لأنها بغير ألف كتبت في المصاحف"^(٣).

قرأ أبو عامر: «لا يَأْتِكُمْ» بألف اعتباراً منه في ذلك بقوله: {وَمَا أَلْتَأَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]^(٤).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١٤]، أي: "إن الله غفور لمن تاب من ذنوبه، رحيم به. وفي الآية زجر لمن يُظهر الإيمان، ومتابعة السنة، وأعماله تشهد بخلاف ذلك"^(٥).

قال الطبري: يقول: "إن الله ذو عفو أيها الأعراب لمن أطاعه، وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، رحيم بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ما تابوا منه، فتوبوا إليه برحمتكم"^(٦).

عن قتادة: "غفور} للذنوب الكثيرة أو الكبيرة، -شكّ يزيد-، {رحيم} بعباده"^(٧).

قال ابن كثير: "أي: لمن تاب إليه وأتاب"^(٨).

القرآن

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)} [الحجرات: ١٥]

التفسير:

إنما المؤمنون الذين صدّقوا بالله وبرسوله وعملوا بشرعه، ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وبذلوا نفائس أموالهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه، أولئك هم الصادقون في إيمانهم.

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١٥]، أي: "إنما المؤمنون الذين صدّقوا بالله وبرسوله وعملوا بشرعه"^(٩).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: إنما المؤمنون أيها القوم الذين صدّقوا الله ورسوله"^(١٠).

قال ابن كثير: "أي: إنما المؤمنون الكمل {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ..}"^(١١).

قوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات: ١٥]، أي: "ثم لم يرتابوا في إيمانهم"^(١٢).

عن وسعيد بن جبيرة، وأبي مالك، ونافع مولى بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد، قالوا: "الريب: الشك"^(١).

(١) أخرجه الطبري: ٣١٧/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣١٧/٢٢.

(٣) معاني القرآن: ٧٤/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣١٧/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٦) تفسير الطبري: ٣١٨/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٣١٨/٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٨٩/٧.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٧.

(١٠) تفسير الطبري: ٣١٨/٢٢.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٧.

عن أبي الدرداء، قال: "الريب: يعني: الشك"^(٢).
قال الطبري: " يقول: ثم لم يشكوا في وحدانية الله، ولا في نبوة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأزم نفسه طاعة الله وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله بغير شك منه في وجوب ذلك عليه"^(٣).
قال الثعلبي: أي: " لم يشكوا في وحدانية الله، ولا بنبوة أنبيائه ولا فيما آمنوا به، بل أيقنوا وأخلصوا"^(٤).
قال ابن كثير: " أي : لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض"^(٥).

قال الزمخشري: " المعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهام لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه. فإن قلت: ما معنى ثم هاهنا وهي التراخي وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقتين:

أحدهما: أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد تلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}

والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان، تنبيهها على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاوله غضا جديدا"^(٦).

قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الحجرات : ١٥]، أي: " وبذلوا نفائس أموالهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه"^(٧).

قال الطبري: " يقول: جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مهجهم في جهادهم، على ما أمرهم الله به من جهادهم، وذلك سبيله لتكون كلمة الله العلياء، وكلمة الذين كفروا السفلى"^(٨).
قال ابن كثير: " أي : وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه"^(٩).

قال السعدي: " أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك، على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك، دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك، بوجه من الوجوه"^(١٠).

قال الزمخشري: " يجوز أن يكون المجاهد منويا وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها، وبالمجاهدة بالمال: نحو ما صنع عثمان رضى الله عنه في جيش العسرة،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١٤٥): ص ١٢٦٩/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١٤٤): ص ١٢٦٩/٤.

(٣) تفسير الطبري: ٣١٨/٢٢.

(٤) الكشف والبيان: ٩٠/٩.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(٦) الكشف: ٣٧٧/٤.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٨) تفسير الطبري: ٣١٨/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(١٠) تفسير السعدي: ٨٠٢.

وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه الله تعالى" (١).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات : ١٥]، أي: "أولئك هم الصادقون في إيمانهم" (٢).

قال ابن زيد: "صدقوا إيمانهم بأعمالهم" (٣).

قال الثعلبي: لا من أسلم خوف السيف ورجاء الكسب" (٤).

قال الطبري: "يقول: هؤلاء الذين يفعلون ذلك هم الصادقون في قولهم: إنا مؤمنون، لا من دخل في الملة خوف السيف ليحقن دمه وماله" (٥).

قال ابن كثير: "أي: في قولهم إذا قالوا: "إنهم مؤمنون"، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة" (٦).

قال الزمخشري: أي: "الذين صدقوا في قولهم آما، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجد وثبات" (٧).

قال الزجاج: "أي: إذا قالوا إنا مؤمنون فهم الصادقون، فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم، وباطنه غير مُصدق، فذلك الذي يقول أسلمت لأن الإيمان لا بد من أن يكون صاحبه صديقاً، لأن قولك: أمنتُ بكذا وكذا، معناه: صدقت به، فأخرج الله هؤلاء من الإيمان فقال: {وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}، أي: لم تصدقوا إنما أسلمتم تَعَوِّداً من القتل، فالمؤمن مُبْتَدَأٌ من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام وهو مظهر الطاعة مع ذلك مؤمن بها، والمسلم الذي أظهر الإسلام تَعَوِّداً غير مؤمن في الحقيقة، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين" (٨).

قال السعدي: "أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق، دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك، دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدى، فمن ادعاه، وقام بواجباته، ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى" (٩).

قال القشيري: "جعل الله الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها، ونصَّ عليها بلفظ «إِنَّمَا» وهي للتحقيق الذي يقتضى طرد العكس فمن خرج عن هذه الشرائط التي جعلها للإيمان فمردود عليه قوله، والإيمان يوجب للعبد الأمان، فما لم يكن الإيمان موجبا للأمان فصاحبه بغيره أولى" (١٠).

عن أبي سعيد، قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه الله، عز وجل" (١١).

القرآن

(١) الكشاف: ٣٧٧/٤-٣٧٨.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٣) أخرجه الطبري: ٣١٩/٢٢.

(٤) الكشف والبيان: ٩٠/٩.

(٥) تفسير الطبري: ٣١٨/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(٧) الكشاف: ٣٧٨/٤.

(٨) معاني القرآن: ٣٨/٥.

(٩) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(١٠) لطائف الإشارات: ٤٤٤/٣.

(١١) المسند (٨/٣) وفي إسناده بن أبي السمع عن أبي الهيثم وهو ضعيف.

{قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)} [الحجرات : ١٦]

التفسير:

قل -أيها النبي- لهؤلاء الأعراب: أُنخَبِرُونَ الله بدينكم وبما في ضمائركم، والله يعلم ما في السموات وما في الأرض؟ والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور.
سبب النزول:

قال الثعلبي: " فلما نزلت هاتان الآيتان [الحجرات: ١٤-١٥] (١)، أتت الأعراب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحلفوا بالله إنهم مؤمنون في السر، والعلانية، وعرف الله غير ذلك منهم، فأنزل الله سبحانه: {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} الذي أنتم عليه" (٢).
قوله تعالى: {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} [الحجرات : ١٦]، أي: " قل -أيها النبي- لهؤلاء الأعراب: أُنخَبِرُونَ الله بدينكم وبما في ضمائركم" (٣).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم {قُلْ} يا محمد لهؤلاء الأعراب القائلين أمانا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: {أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ} أيها القوم بدينكم، يعني بطاعتكم ربكم" (٤).

قال ابن عطية: " أي: بقولكم: {أَمَنَّا}، وهو يعلم منكم خلاف ذلك" (٥).

قال ابن كثير: " أي : أُنخَبِرُونَهُ بما في ضمائركم" (٦).

قال ابن الجوزي: " المعنى: أُنخَبِرُونَ الله بالدين الذي أنتم عليه؟!، أي: هو عالمٌ بذلك لا يحتاج إلى أخباركم" (٧).

قال الزمخشري: " يقال: ما علمت بقدمك، أي: ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى: {أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ}، وفيه تجهيل لهم" (٨).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الحجرات : ١٦]، أي: " والله يعلم ما في السموات وما في الأرض، من الكليات والجزئيات" (٩).

قال الطبري: " يقول: والله الذي تعلمونه أنكم مؤمنون، علام جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين" (١٠).

قال ابن كثير: " أي : لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" (١١).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحجرات : ١٦]، أي: " والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور" (١٢).

(١) يقصد قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)} [الحجرات : ١٤ - ١٥].

(٢) الكشف والبيان: ٩٠/٩-٩١. وانظر: تفسير القرطبي: ٣٤٩/١٦.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٤) تفسير الطبري: ٣١٩/٢٢.

(٥) المحرر الوجيز: ١٥٤/٥.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(٧) زاد المسير: ١٥٥/٤.

(٨) الكشف: ٣٧٨/٤.

(٩) التفسير الوسيط، مجمع البحوث: ١٠٥٥/٩.

(١٠) تفسير الطبري: ٣١٩/٢٢.

(١١) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٧.

قال الطبري: "يقول: والله بكل ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم. وإنما هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي، عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذي هم عليه في دينهم. يقول: الله محيط بكل شيء عالم به، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم، فينالكم عقوبته، فإنه لا يخفى عليه شيء" (١).

قال السعدي: "وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها، ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى، يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر" (٢).

قال القشيري تدل الآية على أن الوقوف في المسائل الدينية يعتبر واجبا فالأسمى منه تؤخذ، والأحكام منه تطلب، وأوامره متبعة" (٣).

القرآن

{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلْ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)} [الحجرات : ١٧]

التفسير:

يَمُنُّونَ هؤلاء الأعراب عليك -أيها النبي- بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم لك، قل لهم: لا تَمُنُّوا عَلَيَّ دخولكم في الإسلام ; فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه أن وفقكم للإيمان به وبرسوله، إن كنتم صادقين في إيمانكم.
سبب النزول:

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "قدم وقد بني أسد على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فتكلموا؛ فقالوا: قاتلتك مضر ولسنا بأقلهم عدداً ولا أكلهم شوكة، وصلنا رحمك، فقال لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-: "تكلّموا هكذا"، قالوا: لا، قال: "إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم"، قال عطاء في حديثه؛ فأنزل الله -جلّ وعزّ-: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلْ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)} [حسن] (٤).

(١) تفسير الطبري: ٣١٩/٢٢.

(٢) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(٣) لطائف الإشارات: ٤٤٤/٣.

(٤) أخرجه أبو يعلى في "المسند" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠ / ٣٤٥) رقم (٣٧٣) -، والنسائي في "التفسير" (٢ / ٣٢٤) رقم (٥٣٩): ثنا سعيد بن يحيى الأموي، والبخاري في "مسنده"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤ / ٢٣٥) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠ / ٣٤٦) رقم (٣٧٤) -: ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري كلاهما عن يحيى بن سعيد الأموي عن محمد بن قيس عن أبي عون عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس به.

قلنا: أبو عون هو عطاء بن السائب؛ صدوق؛ لكنه اختلط، ولم يذكره محمد بن أحمد بن محمد بن عوف عن أبي عون عن سعيد مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧ / ٥٨٥) وزاد نسبه لابن مردويه.

وله شاهد من حديث عبد الله بن أبي أوفى بنحوه.

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٨ / ٧٨) رقم (٨٠١٦)، و"الكبير"؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧ / ١١٢) من طريق حفص بن غياث عن حجاج بن أرطاة عن إبراهيم بن عبد الرحمن السكسكي عن عبد الله به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ الحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس.

قال الهيثمي: "وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو ثقة!! ولكنه مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح".

وقال السيوطي في "اللباب النقول" (ص ١٩٩)، و"الدر المنثور" (٧ / ٥٨٥): "بسند حسن!"، وزاد في "الدر المنثور" نسبه لابن المنذر وابن مردويه.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢ / ٣٢٠): ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد به.

عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: "قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أول سنة تسع وفيهم حضرمي بن عامر وضرار بن الأزور ووابصة بن معبد وقتادة بن القائف وسلمة بن جيش ونقادة بن عبد الله بن خلف وطلحة بن خويلد، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد مع أصحابه؛ فسلموا، وقال متكلمهم: يا رسول الله! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنت عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله! ولم تبعث إلينا بعثاً، ونحن لمن وراءنا سلم؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾^(١). [ضعيف جداً]

عن الحسن؛ قال: "لما فتحت مكة؛ جاء ناس، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان؛ فأنزل الله - تعالى -: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾^(٢). [ضعيف]

قال ابن زيد: "فهذه الآيات نزلت في الأعراب"^(٣). [ضعيف]

قال الزجاج: "قيل إن هذه نزلت في المنافقين. فاعلموا أنكم إن كنتم صادقين فإنكم قد أسلمتم فله المنُّ عليكم لإخراجه إياكم من الضلالة إلى الهدى. وقد قيل: إنها نزلت في غير المنافقين، في قوم من المسلمين قالوا آمنا وهاجرنا وفعلنا وصنعنا فمنا على رسول الله بذلك. والأشبه - والله أعلم - أن يكون في قوم من المنافقين"^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات : ١٧]، أي: "يَمُنُّ هؤلاء الأعراب عليك - أيها النبي - بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم لك"^(٥).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يَمُنُّ عَلَيْكَ هَؤُلَاءِ الأعراب يا محمد أن أسلموا"^(٦).

قال القاسمي: "أي: انقادوا وكثروا سواد أتباعك"^(٧).

قال ابن كثير: "يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول"^(٨).

قال الفراء: "فهذه نزلت في أعراب بني أسد قدموا على النبي صلى الله عليه المدينة بعيالاتهم طمعا في الصدقة، فجعلوا يروحون ويغدون، ويقولون: أعطنا فإننا أتيناك بالعيال والأثقال، وجاءتك العرب على ظهور رواحلها فأنزل الله جل وعز: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾"^(٩).

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد؛ رجاله رجال الصحيحين، وهو أصح من موصول حديث ابن عباس فالعمدة على هذا.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٨٥ / ٧) وزاد نسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

لكن الحديث بمجموع مرسل سعيد بن جبير وموصول حديث ابن أبي أوفى يرتقي إلى درجة الحسن بإذن الله.

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٣٩ / ٢ / ١): نا محمد بن عمر عن هشام بن سعيد عن محمد به. قلنا: وهذا مرسل واه بمره، ضعيف جداً؛ فيه الواقدي الهالك.

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥٨٥ / ٧) ونسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

قلنا: وهو ضعيف؛ لإرساله.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٢١/٢٢. وسنده صحيح إلى ابن زيد؛ لكن ابن زيد - هذا - هو عبد الرحمن بن زيد من

أسلم، متروك الحديث، وهو معضل

(٤) معاني القرآن: ٣٩/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٦) تفسير الطبري: ٣١٩/٢٢ - ٣٢٠.

(٧) محاسن التأويل: ٥٤٥/٨.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(٩) معاني القرآن: ٧٣/٣.

عن أبي بشر، قال: "قلت لسعيد بن جبير: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، أ هم بنو أسد؟ قال: يزعمون ذلك"^(١).

قال الحسن البصري: "هؤلاء مؤمنون وليسوا بمنافقين، ولكنهم كانوا يقولون لرسول الله: أسلمنا قبل أن يسلم بنو فلان، وقاتلنا معك قبل أن يُقاتل بنو فلان"^(٢).

عن حبيب بن أبي عمرة، قال: "كان بشر بن غالب وليد بن عطار، أو بشر بن عطار، وليد بن غالب عند الحجاج جالسين، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطار: نزلت في قومك بني تميم {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ}، فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال: إنه لو علم بأخر الآية أجابه: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، قالوا أسلمنا ولم تقاتلك بنو أسد"^(٣).

قال الزمخشري: "يقال: من عليه بيد أسداها إليه، كقولك: أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة: النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه"^(٤)، واشتقاقها من المنّ الذي هو القطع، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال: منّ عليه صنعه، إذا اعتده عليه منة وإنعاماً"^(٥).

قوله تعالى: {قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ} [الحجرات : ١٧]، أي: "قل لهم: لا تَمُنُوا عَلَيَّ دخولكم في الإسلام؛ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم"^(٦).

قال القاسمي: "أي: بإسلامكم، إذ لا ثمرة منه إلي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه"^(٧). قال ابن كثير: "يقول الله ردًا عليهم: {قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ}، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه"^(٨).

عن قتادة: "لا تَمُنُوا}، أنا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ لَهُمْ {لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} "^(٩).

وفي رواية عن قتادة، قال: "مُنُوا على النبي -عليه الصلاة والسلام- حين جاءوه، فقالوا: إنا قد أسلمنا بغير قتال، لم نُقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان. فقال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: {قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} "^(١٠).

قوله تعالى: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} [الحجرات : ١٧]، أي: "بل لله المنّة العظمة عليكم، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه"^(١١).

قال الطبري: "يقول: بل الله يمن عليكم أيها القوم أن وفقكم للإيمان به وبرسوله"^(١٢). قال السمعاني: "أي: هو الذي أنعم عليكم بإخراجكم من الكفر إلى الإيمان"^(١٣).

(١) أخرجه الطبري: ٣٢٠/٢٢.

(٢) ذكره يحيى بن سلام -كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢٦٧/٤ -.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٢٠/٢٢.

(٤) وله «من يزلها إليه» في الصحاح: أزلت إليه نعمته، أي: استديتها إليه. وفي الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزلت شيئاً من حقه، أي: أعطيت.

(٥) الكشف: ٣٧٨/٤.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٧) محاسن التأويل: ٥٤٥/٨.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٢٠/٢٢-٣٢١.

(١٠) أخرجه عبد الرزاق ٢٣٥/٢.

(١١) صفوة التفاسير: ٢٢١/٣.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٢٠/٢٢.

(١٣) تفسير السمعاني: ٢٣٢/٥.

قال ابن عطية: " {يَمُنُّ عَلَيْكُمْ} يحتمل أن يكون بمعنى: ينعم كما تقول: من الله عليك، ويحتمل أن يكون بمعنى: يذكر إحسانه فيجيء معادلاً لـ {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ}، وقال الناس قديماً: إذا كفرت النعمة حسنت المنة. وإنما المنة المبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كفر النعمة" (١).
قال القشيري: " المنة تكدر الصنيع إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله" (٢).

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات : ١٧]، أي: "إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان" (٣).

قال الطبري: يقول " إن كنتم صادقين في قولكم آمنا، فإن الله هو الذي منّ عليكم بأن هداكم له، فلا تمنوا عليّ بإسلامكم" (٤).

قال السمعاني: " معناه: واعلموا أن المنة لله عليكم إن كنتم صادقين أنكم آمنتم بالله" (٥).
قال ابن كثير: " أي : في دعواكم ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين : «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن» (٦) (٧).
قال ابن أبي زمنين: " أي: إن كنتم صادقين عرفتم بالصدق، إن المنة لله ولرسوله عليكم" (٨).

قال سهل: " {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، أي: عالمين بأن الله هو الذي منّ عليكم بالهداية في البداية. قال سهل: استعملت الورع أربعين سنة، ثم وقع مني التفات فأدركني قوله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} (٩).

قال الزمخشري: " وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أنّ الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاماً، ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً، فلما منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام: إنّ هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام، فقل لهم: لا تعتدوا عليّ إسلامكم، أي حدثكم المسمى إسلاماً عندي لا إيماناً. ثم قال: بل الله يعتدّ عليكم أن أمّدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أُرشدتم إليه ووقفتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه، وفي إضافة «الإسلام» إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف: ما لا يخفى على المتأمل، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، تقديره: إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان، فله المنة عليكم" (١٠).
وفي قراءة عبد الله: «إذ هداكم» (١١).

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)} [الحجرات : ١٨]
التفسير:

- (١) المحرر الوجيز: ١٥٤/٥.
- (٢) لطائف الإشارات: ٤٤٤/٣.
- (٣) صفوة التفاسير: ٢٢١/٣.
- (٤) تفسير الطبري: ٣٢٠/٢٢.
- (٥) تفسير السمعاني: ٢٣٢/٥.
- (٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.
- (٧) تفسير ابن كثير: ٣٩٠/٧.
- (٨) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٦٧/٤.
- (٩) تفسير التستري: ١٥٠.
- (١٠) الكشاف: ٣٧٨/٤.
- (١١) انظر: معاني القرآن للفراء: ٧٤/٣.

إن الله يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك، والله بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحجرات : ١٨]، أي: "إن الله يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن الداخل فيه رهبة من رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم، فإن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحذثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك"^(٢).

قال السعدي: "أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو وراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحببات الرمال، ومكونات الصدور، وخبايا الأمور، {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام : ٥٩]"^(٣).

قال ابن أبي زمنين: "غيب السموات والأرض {سر السموات والأرض}"^(٤).

قال الحسن: "الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه"^(٥).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات : ١٨]، أي: "والله بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر"^(٦).

قال الطبري: "يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهرا تعملون أم سراً، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر وكفؤه"^(٧).

قال النحاس: "أي عالم به، وإذا علمه جازى عليه"^(٨).

قال السعدي: "يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة"^(٩).

قال ابن كثير: "كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}"^(١٠).
فوائد الآيات: [١٤-١٨]:

- ١- بيان طبيعة أهل البادية وهي الغلظة والجفاء والبعد عن الكياسة والأدب.
- ٢- بيان الفرق بين الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان من أعمال القلوب والإسلام من أعمال الجوارح. وإذا افترقا فالإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان والحقيقة هي أنه لا يوجد إيمان صحيح بدون إسلام صحيح، ولا إسلام صحيح بدون إيمان صحيح، ولكن يوجد إسلام صوري بدون إيمان، وتوجد دعوى إيمان كاذبة غير صادقة.
- ٣- بيان المؤمنين حقا وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

(١) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٢) تفسير الطبري: ٣٢١/٢٢.

(٣) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٦٧/٤.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٠٤): ص ١٨٦٤-١٨٦٥.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٧.

(٧) تفسير الطبري: ٣٢١/٢٢.

(٨) إعراب القرآن: ١٤٥/٤.

(٩) تفسير السعدي: ٨٠٢.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٩١/٧.

- ٤- بيان حكم المن وأنه مذموم من الإنسان ومحمود من الرحمن عز وجل وحقيقة المن هي عد
النعمة وذكرها للمنعم عليه وتعدادها المرة بعد المرة.
- ٥- بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.
- «آخر تفسير سورة (الحجرات)، والحمد لله وحده»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة «ق»

سورة «ق»: هي السورة الخمسون بحسب ترتيب المصحف العثماني، وهي السورة الرابعة والثلاثون بحسب ترتيب النزول، نزلت بعد «سورة المرسلات»، وقبل «سورة البلد»، وعدد آياتها خمس وأربعون. وكلماتها ثلاثمائة وخمس وسبعون. وحروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون. مجموع فواصل آياتها «صر جد ظب»^(١).

قال ابن كثير: وهذه السورة هي أول الحزب «المفصل» على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من «عم» فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أوس بن حذيفة، قال: سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحزّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده»^(٢). إذا علم هذا، فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»^(٣).

■ أسماء السورة:

■ أسماها التوقيفي: «سورة ق»:

سميت في عصر الصحابة سورة «ق»، فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك، قال: صليت وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ: {ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ}. حتى قرأ: وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ {ق: ١٠}. قال: فجعلت أرددها ولا أدري ما قال»^(٤).

عن أبي واقد الليثي، قال: "سألني عمر بن الخطاب: عما قرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم العيد؟ فقلت: «ب {اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}، و{ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ}»^(٥). وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل: «طه» و«ص» و«ق» و«يس»، لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى»^(٦).

■ الثاني: اسمها الاجتهادي: «سورة الباسقات»

وفي بعض المصادر أنها تسمى سورة الباسقات^(٧)، هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي: سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} {ق: ١٠}»^(٨).

■ مكية السورة ومدنيتها:

في مكان نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها أنزلت في مكة. قاله ابن عباس^(٩)، وابن الزبير^(١)، وجابر^(٢)، والحسن^(٣)، ومجاهد^(٤)، وقتادة^(٥)، وعكرمة^(٦)، وعطاء^(٧). وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور^(٨).

(١) انظر: بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ١/٤٣٧.

(٢) سنن أبي داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٩/٤).

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٢/٧-٣٩٣. [باختصار]

(٤) صحيح مسلم (٤٥٧): ص ٣٣٦/١.

(٥) صحيح مسلم (٨٩١): ص ٦٠٧/٢.

(٦) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧٣/٢٦.

(٧) وردت هذه التسمية في المصادر الآتية: الناسخ والمنسوخ لهبة الله: ٢٤، والناسخ والمنسوخ للمقري: ١٦٧، وجمال القراء: ٩٢، وزاد المسير: ١٥٦/٤، ونظم الدرر: ٣٩٧/١٨، والإتقان في علوم القرآن: ١/١٩٤، وتفسير البيضاوي: ٨٣/٨.

(٨) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧٤/٢٦.

(٩) حكاه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٦/٤، بدون إسناد، وذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥٨٧/٧، وعزاه إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: "نزلت المفصل بمكة فمكثنا حججا نقرأه لا ينزل غيره"^(٩).

وأخرج ابن أبي داود وابن عساكر، عن عثمان بن عفان: "أنها لما ضربت يده، قال: والله إنها لأول يد خطت المفصل"^(١٠).

الثاني: أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. حكى هذا القول عن ابن عباس^(١١)، وقتادة^(١٢). وبه قال الزمخشري^(١٣).

قال ابن عاشور: قيل: "أنها نزلت في اليهود، يعني: في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها. وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوة والأنبياء، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها إلى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فإنها نزلت بمكة. وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أخبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والبحار على أصبع والجبال على أصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض»^(١٤) فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية، والمقصود من تلاوتها هو قوله: وما قدروا

الله حق قدره. والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله^(١٥).

قال ابن عطية: "هي مكية بإجماع من المتأولين"^(١٦).

قال السمعاني: "هي مكية"^(١٧).

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥٨٧/٧، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) حكاه عنه القرطبي في التفسير: ١/١٧. بدون إسناد.

(٣) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٦/٤. بدون إسناد.

(٤) حكاه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٦/٤، بدون إسناد.

(٥) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٦/٤. بدون إسناد.

(٦) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير: ١٥٦/٤. بدون إسناد.

(٧) حكاه عنه القرطبي في التفسير: ١/١٧. بدون إسناد.

(٨) انظر: زاد المسير: ١٥٦/٤.

(٩) الدر المنثور: ٥٨٧/٧.

(١٠) الدر المنثور: ٥٨٧/٧.

(١١) انظر: زاد المسير: ١٥٦/٤، وتفسير القرطبي: ١/١٧. بدون إسناد.

(١٢) انظر: زاد المسير: ١٥٦/٤، وتفسير القرطبي: ١/١٧. بدون إسناد.

(١٣) انظر: الكشاف: ٣٧٩/٤.

(١٤) نص الحديث «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك

الأرض». حديث أبي هريرة: البخاري (١٨١٢/٤، رقم ٤٥٣٤)، ومسلم (٢١٤٨/٤، رقم ٢٧٨٧)، والنسائي

في الكبرى (٤٠١/٤، رقم ٧٦٩٢)، وابن ماجه (٦٨/١، رقم ١٩٢). وأخرجه أيضا: أحمد (٣٧٤/٢، رقم

٨٨٥٠). حديث ابن عمر: أخرجه البخاري (٢٦٩٧/٦، رقم ٦٩٧٧).

(١٥) التحرير والتنوير: ٢٧٤/٢٦.

(١٦) المحرر الوجيز: ١٥٥/٥.

(١٧) انظر: تفسير السمعاني: ٢٣٤/٥.

قال البغوي: "سورة «ق» مكية"^(١).
قال القرطبي: "سورة ق مكية كلها"^(٢).

■ مناسبة السورة لما قبلها:

ومناسبتها لما قبلها- أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقا، وذلك يقتضى إنكار النبوة وإنكار البعث، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك^(٣).

■ أغراض السورة ومقاصدها

تضمنت هذه السورة جملة من المقاصد، هي وفق الآتي:

- ١- التنويه بشأن القرآن.
- ٢- أنهم كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر.
- ٣- الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت.
- ٤- تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.
- ٥- الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.
- ٦- وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.
- ٧- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.
- ٨- الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.
- ٩- إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس^(٤).

■ الناسخ والمنسوخ:

فيها من المنسوخ آيتان: {قَاصِرٌ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} [ق : ٣٩] {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق : ٤٥] منسوختان بأية السيف^(٥).

■ فضائل السورة:

ومما وردت في فضائل هذه السورة:

- عن عبيد الله بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر؟ فقال: «كان يقرأ فيهما ب {ق} وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ}، {وَأَقْرَبَتْ السَّاعَةَ وَاتَّقِ الْقَمَرُ}»^(٦).
- عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن أخت لعمرة، قالت: "أخذت {ق} وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ} من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة"^(٧).
- عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة ق، هوّن الله عليه تارات الموت، وسكراته"^(٨). [ضعيف]

(١) تفسير البغوي: ٣٥٢/٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١/١٧.

(٣) انظر: روح المعاني: ٣٢١/١٣، وتفسير المراغي: ١٥٠/٢٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ٢٧٥/٢٦.

(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٣٧/١، ونواسخ القرآن لابن الجوزي: ١٩٨.

(٦) صحيح مسلم (٨٩١): ص ٦٠٧/٢.

(٧) صحيح مسلم (٨٧٢): ص ٥٩٥/٢.

(٨) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩٢/٩. [وقد اتفق العلماء بأن روايات الثعلبي عن أبي بن كعب في

- عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أعطيت مكان التوراة السبع الطول وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل"^(١).

وقد اختلف أهل العلم في «المفصل»، على أقوال، أشهرها أن أول المفصل «الحجرات»، وأول وسط المفصل: «عبس» وأول قصار المفصل: «والضحى»، هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة، ففي الصبح يستحب القراءة بطوال المفصل، وفي الظهر والعشاء بمتوسطه، وفي المغرب بقصاره^(٢).
هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

فضائل السور باطل موضوع كله].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧، رقم ١٧٠٢٣). قال الهيثمي (٧/ ٤٦): فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الطبراني (٢٢/ ٧٥ رقم ١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٥، رقم ٢٤١٥ مكرر). وأخرجه أيضا: الطيالسي (ص ١٣٦ رقم ١٠١٢) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥/ ٢٧١٦ رقم ٦٤٨٥). وقال المناوي (١/ ٥٦٦): فيه عمرو بن مرزوق، أورده الذهبي في الضعفاء وقال: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه.
(٢) النكت والعيون: ٢٧-٢٦/١ .

القرآن {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)} [ق : ١]

التفسير:

{ق} سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم ذي المجد والشرف.

وفي قوله تعالى: {ق} [ق : ١]، أقوال:

أحدها : أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم بها ، قاله ابن عباس-في رواية-(١).

عن ابن عباس، قوله: "{ق}" و{ن}، وأشبه هذا، فإنه قسم أقسمه الله، وهو اسم من أسماء

الله" (٢).

الثاني : أنه اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة(٣).

الثالث : أن معناه: قضى والله ، كما قيل في «حم»: حم والله ، حكاه الفراء(٤).

الرابع : أنه اسم الجبل المحيط بالدنيا ، قاله ابن عباس-في رواية أخرى-(٥)، والضحاك(٦)،

ومقاتل(٧)، ابن بريده(٨)، وعكرمة(٩)، ومجاهد(١٠)، وحكاه الواحدي عن أكثر المفسرين(١١).

قال ابن عباس: "خلق الله من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك

جبالا يقال له ق السماء الدنيا مترفرة عليه، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض

سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبالا يقال له «ق»

السماء الثانية مترفرة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات قال:

وذلك قوله والبحر يمد من بعده سبعة أبحر" (١٢).

قال مقاتل : " قاف جبل من زمردة خضراء محيط بالعالم، فخضرة السماء منه ليس من

الخلق شيء على خلقه وتنتبت الجبال منه، وهو وراء الجبال وعروق الجبال كلها من قاف، فإذا

أراد الله- تعالى- زلزلة أرض أوحى إلى الملك الذي عنده أن يحرك عرقا من الجبل، فتتحرك

الأرض التي يريد وهو أول جبل خلق" (١٣).

الخامس: أن «ق»: فاتحة السورة. رواه خصيف عن مجاهد(١٤)، وهو مذهب أهل اللغة(١٥).

قال أبو عبيدة: " «ق» : مجازها مجاز أوائل السور" (١٦).

السادس : معنى «ق»، ففي الأمر والله ، قاله الفراء(١٧)، فاكتفى بالقاف عن الجملة كما قال(١٨):

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٢٥/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/٢٢.

(٤) انظر: معاني القرآن: ٧٥/٣. ونسبه الماوردي في النكت والعيون: ٣٣٩/٥ لمجاهد.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٦٢٤): ص٣٣٠٧/١٠.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٣٩/٥، والتفسير البسيط للواحدي: ٣٧٥/٢٠. بدون إسناد.

(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٠٩/٤.

(٨) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٣٧٥/٢٠. بدون إسناد.

(٩) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٣٧٥/٢٠. بدون إسناد.

(١٠) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٣٧٥/٢٠. بدون إسناد.

(١١) انظر: التفسير البسيط: ٣٧٥/٢٠.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٢٤): ص٣٣٠٧/١٠.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٠٩/٤.

(١٤) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ٣٧٦/٢٠. بدون إسناد.

(١٥) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ٢٢٢/٢.

(١٦) مجاز القرآن: ٢٢٢/٢.

(١٧) انظر: معاني القرآن: ٧٥/٣.

(١٨) هو للوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان -رضى الله عنه- ولأمه، وكان يتولى الكوفة فاتهم بشرب

الخمير، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشخص إليه، فخرج في جماعة، ونزل الوليد يسوق بهم، فقال:

قُلْتُ لَهَا قَفِي لَنَا، فَقَالَتْ: قَافٌ

أي: إني واقفة.

وقد رد ابن كثير رحمه الله هذا القول، حيث قال: "وفي هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟^(١).

ويحتمل ما أريد بوقفه عليه وجهين^(٢):

أحدهما: قف على إبلاغ الرسالة لئلا تضجر بالتكذيب.

الثاني: قف على العمل بما يوحي إليك لئلا تعجل على ما لم تؤمر به.

قوله تعالى: {وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ} [ق : ١]، أي: "أقسم بالقرآن الكريم ذي المجد

والشرف"^(٣).

قال الطبري: "يقول: والقرآن الكريم"^(٤).

قال ابن كثير: "أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

تنزيل من حكيم حميد"^(٥).

عن ابن عباس، "وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ"، قال: الكريم"^(٦). وروي عن سعيد بن جبير مثله^(٧).

وعن ابن عباس، قال: "وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ"، ليس شيء أحسن منه ولا أفضل منه"^(٨).

وفي جواب القسم محذوف، أقوال^(٩):

أحدها: هو أن محمداً رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. بدليل قوله تعالى: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ

جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} [ق : ٢]. قاله نحاة الكوفة^(١٠).

الثاني: أنه مُضْمَرٌ، تقديره: لِيُبْعَثَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ، بدليل قوله: {أَيُّدًا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا

لَمُبْعُوثُونَ} [الواقعة : ٤٧]، ويدلُّ عليه قول الكفار: {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق : ٢]. وهذا قول

الفراء^(١١)، والزجاج^(١٢).

قال ابن عطية: "وهذا قول حسن"^(١٣).

الثالث: أنه قوله: {مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ} [ق : ١٨]. حكي عن الأخفش^(١٤).

الرابع: أنه في سورة أخرى، حكاه أبو سليمان الدمشقي^(١٥)، ولم يبيِّن في أي سورة.

قلت لها: قفي، فقالت: قاف ... لا تحسبينا قد نسينا الإيجاب

والنشوات من معتق صاف ... وعزف قينات علينا عزاف

والإيجاب: العدو، وهو أيضا: الحمل عليه (انظر المحتسب ٢/ ٢٠٤ "الخصائص" ١/ ٣٠، ٨٠، ٤٢٦، ٢/

٣٦١، وهو في (تأويل مشكل القرآن) وفيه (... قالت لي: قاف ...) ص ٣٠٨، اللسان" (وقف) ٨/ ٤٨٩٨،

"البحر المحيط" ١/ ٣٥).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٤٠/٥.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٨. [بتصرف]

(٤) تفسير الطبري: ٣٢٥/٢٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٢٥) ص: ٣٣٠٧/١٠.

(٧) جزء فيه تفسير القرآن برواية أبي جعفر الترمذي (٢٤) ص: ٢٤، وتفسير، والطبري: ٣٢٦/٢٢، وتفسير

إسحاق البستي (١٠٠١) ص: ٣٩٩/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٢٦) ص: ٣٣٠٧/١٠.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٦/٢٢، والنكت والعيون: ٣٤٠/٥، وتفسير القرطبي: ٣/ ١٧، والبحر المحيط: ٨/

١٢٠.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٦/٢٢، والنكت والعيون: ٣٤٠/٥.

(١١) انظر: معاني القرآن: ٧٥/٣.

(١٢) انظر: معاني القرآن: ٤١/٥.

(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ١٥٥/٥.

(١٤) انظر: زاد المسير: ١٥٧/٤.

(١٥) انظر: زاد المسير: ١٥٧/٤.

الخامس: أنه قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}. فيكون المعنى: قاف والقرآن المجيد لقد عَلِمْنَا، فَحُدِّثتِ اللَّامُ لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا عَوَضَ مِنْهَا. قاله الأخفش^(١). وضعفه النحاس^(٢)، وابن كثير^(٣).

قال النحاس: "وأصح الأجوبة أن يكون الجواب محذوفا للدلالة، لأن {إذا متنا} جواب فلا بد من أن يكون «إذا» متعلقة بفعل، أي: أنبعث إذا، فأما أن يكون الجواب {قد علمنا} فخطأ، لأن «قد» ليست من جواب الأقسام، وقاف إذا كان اسما للجبل فالوجه فيها الإعراب"^(٤).

قال ابن كثير: "بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: {ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [ص : ١ ، ٢]، وهكذا قال هاهنا: {ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، أي : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} [يونس : ٢] أي : وليس هذا بعجيب ؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس"^(٥).

القرآن

{بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)} [ق : ٢]

التفسير:

بل عجب المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم أن جاءهم منذر منهم ينذرهم عقاب الله، فقال الكافرون بالله ورسوله: هذا شيء مستغرب يتعجب منه.

قوله تعالى: {بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} [ق : ٢]، أي: "بل عجب المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم أن جاءهم منذر منهم ينذرهم عقاب الله"^(٦).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ما كذبك يا محمد مشركو قومك أن لا تكونوا عالمين بأنك صادق محق، ولكنهم كذبوك تعجبا من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله منهم، يعني بشرا منهم من بني آدم، ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله"^(٧).

قال مقاتل: "يعنى محمدا--صلى الله عليه وسلم--"^(٨).

قال أبو السعود: "أي: لأن جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك أو من جلدتهم"^(٩).

قال البغوي: "يعرفون نسبه وصدقه وأمانته"^(١٠).

قال الزمخشري: "إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحا لقومه مترفرا^(١١) عليهم، خائفا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه، وإذا علم أن مخوفا أظلمهم، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش ٢ / ٥٢٢، وتفسير الطبري: ٣٢٦/٢٢.

(٢) انظر: إعراب القرآن: ١٤٦/٤.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(٤) إعراب القرآن: ١٤٦/٤.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٧) تفسير الطبري: ٣٢٦/٢٢-٣٢٧.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.

(٩) تفسير أبي السعود: ١٢٥/٨.

(١٠) تفسير البغوي: ٣٥٦/٧.

(١١) في الصحاح: فلان يرفنا، أي: يحوطنا، ورفرف الطائر: إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. ورف لونه بالفاء رفا ورفيفا: برق وتلألأ. وثوب رفيف وشجر رفيف: إذا تدانت أوراقه. وفيه أيضا: تفرق الشيء بالقاف: تلالأ.

من البعث، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه، وإقرارهم بالنشأة الأولى، ومع شهادة العقل بأنه لا يدّ من الجزاء"^(١).

قال الشوكاني: "بل {بل}، للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال، وأن في موضع نصب على تقدير: لأن جاءهم. والمعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، وقيل: هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً"^(٢).

قال ابن عطية: "قال جمهور المتأولين: أن الضمير في: {عَجِبُوا} هو لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم لأن كل مفطور عجب من بعثة بشر رسول الله، لكن المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا في عمايتهم وصبوا وحاجوا بذلك العجب، ولذلك قال تعالى: فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ"^(٣).

قوله تعالى: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق : ٢]، أي: "فقال الكافرون بالله ورسوله: هذا شيء مستغرب يتعجب منه"^(٤).

قال الطبري: يقول: "فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}: أي: مجيء رحل منا من بني آدم برسالة الله إلينا، هلاً"^(٥) {أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا}"^(٦).

قال مقاتل: "يعني: هكذا الأمر عجب أن يكون محمد رسولاً، وذلك أن كفار مكة كذبوا بمحمد- صلى الله عليه وسلم- فقالوا: ليس من الله"^(٧).

قال الواحدي: "عجبوا من كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إليهم، فأنكروا رسالته، وأنكروا البعث بعد الموت"^(٨).

قال السمعاني: "وتعجبهم كان من البعث بعد الموت، وهو تعجب من غير عجب، والتعجب من غير عجب مستنكر مستنقح"^(٩).

القرآن

{إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق : ٣]

التفسير:

أإذا متنا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى ما كنا عليه؟ ذلك رجوع بعيد الوقوع. سبب النزول:

قال مقاتل: "نزلت في أبي بن خلف الجمحي، وأبي الأشدين واسمه أسيد بن كعدة، وهما من بني جمح ونبيه ومنبه أخوين ابني الحجاج السهميين، وكلهم من قريش، وقالوا: إن الله لا يحيينا، وكيف يقدر علينا إذا كنا تراباً وضللنا في الأرض؟"^(١٠).

قوله تعالى: {إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} [ق : ٣]، أي: "أإذا متنا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى ما كنا عليه؟"^(١١).

قال السمعاني: "معناه: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً، قالوه على طريق الإنكار"^(١).

(١) الكشاف: ٣٧٩/٤-٣٨٠.

(٢) فتح القدير: ٨٤/٥.

(٣) المحرر الوجيز: ١٥٦/٥.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٥) التلاوة "لولا".

(٦) تفسير الطبري: ٣٢٧/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.

(٨) التفسير الوسيط: ١٦٣/٤.

(٩) تفسير السمعاني: ٢٣٥/٥.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.

(١١) التفسير الميسر: ٥١٨.

قال ابن كثير: "أي : يقولون : إذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟"^(٢).
قال الضحاك: "قالوا: كيف يحيينا الله، وقد صرنا عظاما ورفاتا، وضلنا في الأرض"^(٣).

قوله تعالى: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق : ٣]، أي: "ذلك رجوع بعيد الوقوع"^(٤).
قال ابن قتيبة: "يريدون: البعث بعد الموت، أي: لا يكون"^(٥).
قال السمعاني: "أي: رجوع يبعد كونه"^(٦).
قال الواحدي أي: يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت"^(٧).
قال البغوي: "أي: رد إلى الحياة {بعيد} وغير كائن، أي: يبعد أن نبعث بعد الموت"^(٨).
قال ابن كثير: "أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه"^(٩).
قال الزمخشري: أي: "مستبعد مستنكر، كقولك: هذا قول بعيد. وقد أبعد فلان في قوله. ومعناه: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجوع بمعنى المرجوع. وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعادا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث، والوقف قبله على هذا التفسير حسن"^(١٠).
قال ان جريج: "أنكروا البعث، فقالوا: من يستطيع أن يُرجعنا ويُحيينا؟!"^(١١).

القرآن

{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [ق : ٤]

التفسير:

قد علمنا ما تنقص الأرض وتُفني من أجسامهم، وعندنا كتاب محفوظ من التغيير والتبديل، بكل ما يجري عليهم في حياتهم وبعد مماتهم.
قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ} [ق : ٤]، أي: "قد علمنا ما تنقص الأرض وتُفني من أجسامهم"^(١٢).
قال الطبري: يقول: "قد علمنا ما تَأْكُلُ الأرض من أجسامهم بعد مماتهم، وعندنا كتاب بما تَأْكُلُ الأرض وتُفني من أجسامهم، ولهم كتاب مكتوب مع علمنا بذلك، حافظ لذلك كله، وسماه الله تعالى حفيظا، لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدل"^(١٣).
قال مقاتل: "يقول: ما أكلت من الموتى من لحوم، وعروق، وعظام بني آدم- ما خلا العصعص- وتَأْكُلُ لحوم الأنبياء والعروق، ما خلا عظامهم، مع علمي فيهم"^(١٤).
قال ابن كثير: "أي: ما تَأْكُلُ من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟"^(١٥).

(١) تفسير السمعاني: ٢٣٥/٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٢٨/٢٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٥) غريب القرآن: ٤١٧.

(٦) تفسير السمعاني: ٢٣٥/٥.

(٧) التفسير الوسيط: ١٦٣/٤.

(٨) تفسير البغوي: ٣٥٦/٧.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.

(١٠) الكشاف: ٣٨٠/٤.

(١١) أخرجه ابن المنذر - كما في الفتح ٨ / ٥٩٣ -، وانظر: الدر المنثور: ٥٨٩/٧.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٨.

(١٣) تفسري الطبري: ٣٢٨/٢٢.

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.

عن قتادة، قوله: "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ": يعني الموت، يقول: من يموت منهم، أو قال: ما تأكل الأرض منهم إذا ماتوا^(٢).
وقال قتادة: "يقول: ما تأكل الأرض منهم"^(٣).
عن مجاهد، قوله: "مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ"، قال: من عظامهم"^(٤).
قال ابن عباس: "يقول: ما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم"^(٥).
قال الضحاك: "يقول: ما أكلت الأرض منهم ونحن عالمون به، وهم عندي مع علمي فيهم في كتاب حفيظ"^(٦).
قال الزمخشري: "قَدْ عَلِمْنَا"، ردّ لاستبعادهم الرجوع، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادرا على رجوعهم أحياء كما كانوا"^(٧).
قوله تعالى: {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} [ق : ٤]، أي: "وعندنا كتاب محفوظ من التغيير والتبديل، بكل ما يجري عليهم في حياتهم وبعد مماتهم"^(٨).
قال مقاتل: "يعني: محفوظ من الشياطين يعني اللوح المحفوظ"^(٩).
قال السمعاني: "أي: حافظ، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: محفوظ ما فيه"^(١٠).
قال الزمخشري: أي: "محفوظ من الشياطين ومن التغيير، وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه"^(١١).
قال ابن كثير: "أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضا فيه كل الأشياء مضبوطة"^(١٢).
عن الضحاك: {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، قال: "لِعِدَّتِهِمْ، وَأَسْمَائِهِمْ"^(١٣).
عن الحسن، قال: "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ" ما تأكل الأرض من أبدانهم، {وَعِنْدَنَا} بذلك {كتاب حفيظ}"^(١٤).
قال ابن عطية: "«الحفيظ»: الجامع الذي لم يفته شيء"^(١٥).

القرآن

{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ (٥)} [ق : ٥]

التفسير:

بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن حين جاءهم، فهم في أمر مضطرب مختلط، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار.

-
- (١) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.
(٢) أخرجه الطبري: ٣٢٩/٢٢.
(٣) أخرجه الطبري: ٣٢٩/٢٢.
(٤) أخرجه الطبري: ٣٢٩/٢٢.
(٥) أخرجه الطبري: ٣٢٨/٢٢.
(٦) أخرجه الطبري: ٣٢٩/٢٢.
(٧) الكشاف: ٣٨٠/٤.
(٨) التفسير الميسر: ٥١٨.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.
(١٠) تفسير السمعاني: ٢٣٥/٥.
(١١) الكشاف: ٣٨٠/٤.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٩٥/٧.
(١٣) أخرجه إسحاق البستي ص ٤٠٠ من طريق جويبر بلفظ: بعدتهم وأسمائهم. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.
(١٤) أخرجه عبد الرزاق ٢٢٧/٣.
(١٥) المحرر الوجيز: ١٥٦/٥.

قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} [ق : ٥]، أي: "بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن حين جاءهم"^(١).

قال الطبري: "يقول: " ما أصاب هؤلاء المشركون القائلون {أَيَّدَا مِثْنَا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ} في قيلهم هذا {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ}، وهو القرآن {لَمَّا جَاءَهُمْ} من الله"^(٢).

قال قتادة: "كذبوا بالقرآن"^(٣).

قال الزمخشري: "بَلْ كَذَّبُوا}، إضراب أتبع الإضراب الأول، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفضح من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكير ولا تدبير"^(٤).

قوله تعالى: {فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ} [ق : ٥]، أي: "فهم في أمر مضطرب مختلط، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار"^(٥).

وفي معنى: «المريح» وجوه:

أحدها: المريح: هو الشيء المنكر. قاله ابن عباس^(٦)، وأنشد قول الشاعر^(٧):

فَجَالَتْ وَالتَّمَسَّتْ بِهِ حَشَاهَا ... فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوْطٌ مَرِيحٌ.

الثاني: المختلف، قاله ابن عباس-في رواية أخرى-^(٨).

الثالث: في أمر ضلالة. قاله ابن عباس-في رواية-^(٩)، وبه قال الفراء^(١٠).

الرابع: الملتبس، قاله سعيد بن جبير^(١١)، ومجاهد^(١٢)، وقاتدة-في إحدى الروايات-^(١٣)، والحسن^(١٤)، وعطاء^(١٥).

قال عطاء الخراساني: "أمرٌ مُلتبسٌ"^(١٦).

قال قتادة: "ملتبس عليهم أمره"^(١٧).

قال معمر: "تلا قاتدة: {فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ} [ق : ٥]، قال: «من ترك الحق مرج عليه رأيه والتبس عليه دينه»"^(١٨).

قال الحسن البصري: "فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ} ما ترك قومُ الحقَّ إلا مَرَجَ أمرهم"^(١٩).

الخامس: أن المريح: المختلط. قاله الضحاك^(٢٠)، وابن زيد^(٢١)، وأبو عبيدة^(٢٢)، وابن قتيبة^(٢٣).

- (١) التفسير الميسر: ٥١٨.
- (٢) تفسير الطبري: ٣٢٩/٢٢.
- (٣) أخرجه الطبري: ٣٢٩/٢٢.
- (٤) الكشاف: ٣٨٠/٤.
- (٥) التفسير الميسر: ٥١٨.
- (٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٠/٢٢.
- (٧) البيت للداحل بن حرام الهذلي، كما في ديوان الهذليين: ٩٨ / ٣.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٠/٢٢.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (١٠) انظر: معاني القرآن: ٧٦/٣.
- (١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٤١/٥.
- (١٥) أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه (تفسير عطاء) ص ١٠٨.
- (١٦) أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه (تفسير عطاء) ص ١٠٨.
- (١٧) أخرجه الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (١٨) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٤٨): ص ٢٢٨/٣.
- (١٩) تفسير البيهقي ٣٥٧ / ٧.
- (٢٠) انظر: النكت والعيون: ٣٤١/٥.
- (٢١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٢٢.
- (٢٢) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٢/٢.

قال ابو عبيدة: "يقال: قد مريج أمر الناس اختلط وأهمل قال أبو ذؤيب^(٢):
فخرّ كأنه حوط مريج
أي: سهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت
عهودهم وأماناتهم»^(٣)، أي: اختلطت^(٤).
قال ابن قتيبة: "وأصل "المَرَج": أن يفلق الشيء فلا يستقر. يقال: مرَج الخاتم في يدي
مَرَجًا؛ إذا فلق من الهُزَال"^(٥).
السادس: يعني: مختلف ملتبس. قاله مقاتل^(٦)، والطبري^(٧)، والزجاج^(٨).
قال الطبري: "يقول: فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله، يقال:
قد مرَج أمر الناس إذا اختلط وأهمل"^(٩).
قال الزجاج: "مريج: مختلف ملتبس عليهم مرة يقولون للنبي - صلى الله عليه وسلم -
شاعر ومرة ساحر ومرة مُعَلَّم. فهذا دليل على أن أمرهم مريج ملتبس عليهم"^(١٠).
قال السمعاني: "ووجه الالتباس أنهم كانوا يقولون للنبي مرة هو ساحر، ومرة هو
شاعر، ومرة هو كاهن، وكانوا أيضا يقرون بالبعث مرة، وينكرون البعث مرة، فهذا هو معنى
الاختلاط والالتباس"^(١١).
قال الزمخشري: "فيقولون تارة: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، لا يثبتون على
شيء واحد"^(١٢).
السابع: أن «المريج»: الفاسد، قاله أبو هريرة^(١٣). ومنه قول أبي ذؤاد^(١٤):
مَرَجُ الدِّينِ فَأَعَدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَنْدِ
قال الطبري: "هذه العبارات وإن اختلفت ألفاظها فهي في المعنى متقاربات، لأن الشيء
مختلف ملتبس، معناه مشكل. وإذا كان كذلك كان منكرا، لأن المعروف واضح بين، وإذا كان
غير معروف كان لا شك ضلالة، لأن الهدى بين لا لبس فيه"^(١٥).
قال ابن كثير: "أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل.
والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ
مَنْ أُوْفِكَ} [الذاريات: ٨، ٩]"^(١٦).
فوائد الآيات: [٥-١]:

- (١) انظر: غريب القرآن: ٤١٧.
- (٢) لم أجده في ديوان أبي ذؤيب، وهو من قصيدة لعمر بن الداخل الهذلي (ديوان الهذليين ٣/ ٩٨) وهو في
تفسير الطبري: ٢٢/ ٢٣٠، واللسان (مرج) وتفسير القرطبي: ١٧/ ٥.
- (٣) أخرجه البخاري في الصلاة رقم ٨٨ وأبو داود في الملاحم رقم ١٧ وابن ماجه في الفتن رقم ١٠ ورفاق
١١ وابن حنبل ٢/ ١٦٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٤/ ١٩٣ وفي اللسان وبعضه في النهاية (مرج) والقرطبي ١٧/ ٥.
- (٤) مجاز القرآن: ٢٢٢/٢.
- (٥) غريب القرآن: ٤١٧.
- (٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٢/ ٣٢٩-٣٣٠.
- (٨) انظر: معاني القرآن: ٤٢/٥.
- (٩) تفسير الطبري: ٢٢/ ٣٢٩-٣٣٠.
- (١٠) معاني القرآن: ٤٢/٥.
- (١١) تفسير السمعاني: ٥/ ٢٣٥.
- (١٢) الكشاف: ٤/ ٣٨٠.
- (١٣) انظر: النكت والعيون: ٥/ ٤٣١.
- (١٤) البيت لأبي ذؤاد كما في "ديوانه" ص ٣٠٤، "اللسان" ٣/ ٤٦١ (مرج)، والنكت والعيون: ٥/ ٣٤١،
وتفسير القرطبي: ١٧/ ١٥، يصف فرسا، والحارك: أعلى الكاهل. وقيل: الحارك من الفرس فروع الكتفين.
والكند: مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس. "اللسان" ٣/ ٢١٨ (كند) ١/ ٦١٥ (حرك).
- (١٥) تفسير الطبري: ٢٢/ ٣٣١.
- (١٦) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٩٥.

- ١- بيان شرف القرآن ومجده وكرمه.
- ٢- تقرير البعث والوحي الإلهي.
- ٣- البرهنة الصحيحة الواضحة على صحة البعث والجزاء وإمكانهما.
- ٤- تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير كتاب المقادير.

القرآن

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)} {ق : ٦}

التفسير:

أَعَفَلُوا حين كفروا بالبعث، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم، كيف بنيناها مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، وزيناها بالنجوم، وما لها من شقوق وفتوق، فهي سليمة من التفاوت والعيوب؟ قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ} [ق : ٦]، أي: "أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟" (١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون فُدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم {إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ}" (٢). قوله تعالى: {كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} [ق : ٦]، أي: "كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم" (٣).

قال الطبري: أي: "فسويناها سقفا محفوظا، وزيناها بالنجوم" (٤). قوله تعالى: {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق : ٦]، أي: "وما لها من شقوق وفتوق، فهي سليمة من التفاوت والعيوب" (٥).

قال الطبري: "يعني: وما لها من صدوع وفتوق" (٦).

عن مجاهد، قوله: "{مِنْ فُرُوجٍ}"، يقول: ما لها من شق" (٧).

عن الضحاك: "{وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}"، من شقوق" (٨).

قال الفراء: "يعني: السماء، من فطور ولا صدوع" (٩).

قال ابن قتيبة: "أي: صدوع. وكذلك قوله: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}؟! " (١٠).

قال الزجاج: "لا صدع فيها ولا فرجة" (١١).

قال مقاتل: "يعني: من خلل" (١٢).

عن ابن وهب، قال: قلت له يعني: لابن زيد: الفروج: الشيء المتبرئ بعضه من بعض، قال: نعم. " (١٣).

قال ابن كثير: "المعنى متقارب، كقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ

(١) صفوة التفاسير: ٢٢٥/٣.

(٢) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٢٢٥/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٦) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٧) تفسير مجاهد: ٦١٣، وأخرجه الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٨) أخرجه إسحاق البستي ص ٤٠٠.

(٩) مغاني القرآن: ١٦٩/٣.

(١٠) غريب القرآن: ٤١٧.

(١١) معاني القرآن: ٤٢/٥.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٣٢/٢٢.

إِنَّكَ الْبَصِيرُ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك : ٣ ، ٤] أي : كليلاً ، أي : عن أن يرى عيباً أو نقصاً^(١).

القرآن

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)} [ق : ٧]

التفسير:

والأرض وسَّعناها وفرشناها، وجعلنا فيها جبالا ثوابت؛ لئلا تميل بأهلها، وأنبتنا فيها من كل نوع حسن المنظر نافع، يَسْرُ وَيَبْهَجُ الناظر إليه.

قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} [ق : ٧]، أي: "والأرض وسَّعناها وفرشناها"^(٢).

قال الطبري: "يقول: والأرض بسطناها"^(٣).

قال ابن كثير: "أي: وسعناها وفرشناها"^(٤).

قال مقاتل: "يعني: بسطناها مسيرة خمسمائة سنة من تحت الكعبة"^(٥).

قوله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [ق : ٧]، أي: "وجعلنا فيها جبالا ثوابت؛ لئلا تميل

بأهلها"^(٦).

قال الطبري: "يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض"^(٧).

قال ابن كثير: "وهي: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُمَرَّة على تيار الماء

المحيط بها من جميع جوانبها"^(٨).

قال مقاتل: "يعني: الجبال وهي ستة أجيال، والجبال كلها من هذه الستة الأجيال"^(٩).

قال قتادة: "الرواسي: الجبال"^(١٠).

وقال قتادة: "أثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقا"^(١١).

عن قتادة، عن الحسن، في قوله تعالى: "وألقى في الأرض رواسي" [النحل: ١٥]،

قال: "الجبال {أن تميد بكم} [النحل: ١٥]، قال: وسمعت الحسن، يقول: "لما خلقت الأرض

كادت أن تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا؟ فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر

الملائكة مم خلقت الجبال؟"^(١٢).

قوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [ق : ٧]، أي: "وأنبتنا فيها من كل نوع

حسن المنظر نافع، يَسْرُ وَيَبْهَجُ الناظر إليه"^(١٣).

قال الطبري: يقول: "وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نبات حسن، وهو البهيج"^(١٤).

قال ابن كثير: "وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" أي: من جميع الزروع والثمار

والنبات والأنواع، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات : ٤٩]، وقوله

{بَهِيجٍ}، أي: حسن نضر"^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٣) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٠/٤-١١١.

(٦) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٧) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤٩٠): ٢٢٧٩/٧.

(١٢) تفسير عبدالرزاق (١٤٧٩): ٢٦٦/٢.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٨.

(١٤) تفسير الطبري: ٣٣٢/٢٢.

قال مقاتل: "يعني: من كل صنف من النبات {بِهَيْج}، يعني: حسن" (٢).
 عن ابن عباس، قوله: "{بِهَيْج}"، يقول: حسن" (٣).
 عن قتادة، قوله: "{وَأُنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج}"، أي: من كل زوج حسن" (٤).
 عن ابن وهب، قال: "قلت لابن زيد {البهيج}: هو الحسن المنظر؟ قال نعم" (٥).
 قال ابن قتيبة: "أي: من كل جنس حسن يُبْتَهَجُ به" (٦).

القرآن

{تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) [ق : ٨]}

التفسير:

خلق الله السموات والأرض وما فيهما من الآيات العظيمة عبرة يُتَبَصَّرُ بها من عمى الجهل، وذكرى لكل عبد خاضع خائف ووجل، رجّاع إلى الله عز وجل.
 قوله تعالى: {تَبْصِرَةٌ} [ق : ٨]، أي: "خلق الله السموات والأرض وما فيهما من الآيات العظيمة عبرة يُتَبَصَّرُ بها من عمى" (٧).
 قال الطبري: "يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء" (٨).

قال ابن كثير: "أي : ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة" (٩).

قال مقاتل: "يعني: هذا الذي ذكر من خلقه جعله {تَبْصِرَةٌ}" (١٠).

عن قتادة، قوله: "{تَبْصِرَةٌ}"، نعمة من الله يبصرها العباد" (١١).

عن قتادة، قوله: "{تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى}"، قال: تبصرة من الله" (١٢).

عن مجاهد، قوله: "{تَبْصِرَةٌ}"، قال: بصيرة" (١٣).

قوله تعالى: {وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق : ٨]، أي: "وذكرى لكل عبد خاضع خائف ووجل، رجّاع إلى الله عز وجل" (١٤).

قال الطبري: "يقول: وتذكيرا من الله عظمته وسلطانه، وتنبئها على وحدانيته لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله، والعمل بطاعته" (١٥).

عن قتادة، قوله: "{وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}"، أي: بقلبه إلى الله" (١٦).

عن عطاء ومجاهد: "{لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}"، قالوا: مجيب" (١٧).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(٦) غريب القرآن: ٤١٧.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٨) تفسير الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١٤) التفسير الميسر: ٥١٨.

(١٥) تفسير الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١٦) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

(١٧) أخرجه الطبري: ٣٣٣/٢٢.

قال مقاتل: " وتفكرة {لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}، يعنى: مخلص القلب بالتوحيد"^(١).
قال الزجاج: " أي: لكل عبد يرجع إلى الله ويفكر في قدرته"^(٢).
قال ابن كثير: " خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل"^(٣).

القرآن

{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) [ق : ٩]}

التفسير:

ونزلنا من السماء مطراً كثيراً المنافع، فأنبتنا به بساتين كثيرة الأشجار، وحب الزرع المحصود.
قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا} [ق : ٩]، أي: "ونزلنا من السماء مطراً كثيراً المنافع"^(٤).

قال الطبري: أي: " مطرا مباركا"^(٥).

قال ابن كثير: " أي : نافعاً"^(٦).

قال مقاتل: " يعنى: المطر، فيه البركة حياة كل شيء"^(٧).

عن الضحاك: " :{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا}، قال: المطر"^(٨).

قال ميمون بن مهران: " البركة في القرآن المطر، {ونزلنا من السماء ماء مباركا}"^(٩).

عن ميمون بن مهران، قال: " خصلتان فيهما البركة: القرآن، والمطر. وتلا: {ونزلنا من السماء ماء مباركا} [ق : ٩]، {وهذا ذكر مبارك}"^(١٠).

قوله تعالى: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} [ق : ٩]، أي: " فأنبتنا به بساتين كثيرة الأشجار، وحب الزرع المحصود"^(١١).

قال الطبري: يقول: " فأنبتنا به بساتين أشجاراً، وحبّ الزرع المحصود من البرّ والشعير، وسائر أنواع الحبوب"^(١٢).

قال ابن كثير: " أي : حدائق من بساتين ونحوها، {وَحَبَّ الْحَصِيدِ} وهو : الزرع الذي يراد لحبه وادخاره"^(١٣).

عن قتادة: " {وَحَبَّ الْحَصِيدِ}، هذا البرّ والشعير"^(١٤).

عن مجاهد: " {وَحَبَّ الْحَصِيدِ}، قال: الحنطة"^(١٥).

قال الزجاج: " أي: وأنبتنا فيها حب الحصيد، فجمع بذلك جميع ما يقتات به من حب الحنطة والشعير وكل ما حصّد"^(١٦).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(٢) معاني القرآن: ٤٣/٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٥) تفسير الطبري: ٣٣٤/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(٨) أخرجه أبو الشيخ في "العظمة": (٧٤٠)، وانظر: الدر المنثور: ٥٩١/٧.

(٩) أخرجه أبو الشيخ (٧٣٩).

(١٠) الدر المنثور: ٥٩١/٧، وعزاه إلى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(١١) التفسير الميسر: ٥١٨.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٣٤/٢٢.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(١٤) أخرجه الطبري: ٣٣٤/٢٢.

(١٥) أخرجه الطبري: ٣٣٤/٢٢.

(١٦) معاني القرآن: ٤٣/٥.

القرآن

{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)} [ق : ١٠]

التفسير:

وأثبتنا النخل طويلا لها طلع مترابك بعضه فوق بعض.
 قوله تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [ق : ١٠]، أي: "وأثبتنا النخل طويلا"^(١).
 قال الطبري: "يقول: وأثبتنا بالماء الذي أنزلنا من السماء النخل طويلا والباق: هو الطويل يقال للجبل الطويل: جبل باسق"^(٢).
 وفي قوله تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} [ق : ١٠]، وجوه:
 أحدها : أنها النخل الطوال، قاله ابن عباس^(٣)، وعكرمة^(٤)، ومجاهد^(٥)، وقتادة^(٦)، وابن زيد^(٧)،
 وعبدالله بن شداد^(٨)، ومقاتل^(٩). قال الشاعر^(١٠):
 يَا بَنَ الْأَذِينَ بِفَضْلِهِمْ ... بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ فَرَارَةٌ
 أي: طالت عليهم.
 قال عبدالله بن شداد: "بسوقها: طولها في إقامة"^(١١).
 قال قتادة: "بسوقها طولها"^(١٢).
 قال ابن كثير: "أي : طويلا شاهقات"^(١٣).
 الثاني : مستويات. قاله سعيد بن جبیر^(١٤).
 الثالث: مواقير حوامل. قاله الحسن^(١٥).
 قال الثعلبي: "يقال للشاة إذا ولدت: أسبقت"^(١٦).
 الرابع : أنها التي قد ثقلت من الحمل ، قاله عكرمة^(١٧). وقال الشاعر^(١٨):
 فلما تركنا الدار ظلت منيفة ... بقران فيه الباسقات المواقر

-
- (١) التفسير الميسر: ٥١٨.
 (٢) تفسير الطبري: ٣٣٤/٢٢.
 (٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.
 (١٠) انظر: "مجاز القرآن" ٢/٢٢٣، "اللسان" ١/٢١٤ (بسق). والبيت لأبي نوفل يمدح ابن هبيرة. "اللسان" ١/٢١٤ (بسق)، "الدر المصون" ١٠/٢٠ - ٢١.
 قيس بن عيلان بن مضر بن نزار. قبيلة عظيمة تشعبت إلى ثلاثة بطون من كعب وعمرو وسعد. وغلب اسم قيس على سائر العدنانية.
 انظر: "معجم قبائل العرب" ٣/٩٧٢.
 وفزارة بطن عص من غطفان وهم بنو فزارة بن ذبيان ومنهم جماعة من العلماء والأئمة من بطن بني غراب. كانت منازلهم بنجد ووادي القرى، ثم تفرقوا. لهم أيام في الإسلام وقبله. انظر: "معجم قبائل العرب" ٣/٩١٨.
 (١١) اخرج الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (١٢) اخرج الطبري: ٣٣٥/٢٢.
 (١٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.
 (١٤) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩٥/٩.
 (١٥) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩٥/٩، والقرطبي في التفسير: ٧/١٧. وحكي هذا القول في المصدرين السابقين- عن الفراء أيضا ولم أجده في معاني القرآن.
 (١٦) الكشف والبيان: ٩٥/٩.
 (١٧) انظر: النكت والعيون: ٣٤٣/٥.
 (١٨) الشعر غير منسوب في النكت والعيون: ٣٤٣/٥، وتفسير القرطبي: ٧/١٧.

عن قطبة بن مالك. قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ: «والنخل باسقات»
بالصاد"^(١).

قوله تعالى: {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق : ١٠]، أي: "لها طلع متراكب بعضه فوق بعض"^(٢).
وفي قوله تعالى: {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق : ١٠]، ثلاثة وجوه:
أحدها : متراكم بعضه فوق بعض، قاله ابن عباس^(٣)، وقتادة^(٤)، وابن شهاب^(٥)، ومقاتل^(٦)،
والفراء^(٧)، وابن قتيبة^(٨)، والطبري^(٩).

قال ابن شهاب: "والنضيد: الذي بعضه فوق بعض"^(١٠).
قال قتادة: "نضد بعضه على بعض"^(١١).
وعن مجاهد: "طلع نضيد"، قال: المنضد"^(١٢).
قال الفراء: "يعني: الكفري"^(١٣) ما كان في أكمامه وهو نضيد، أي: منضود بعضه،
فوق بعض، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد"^(١٤).
قال الطبري: "يقول: لهذا النخل الباسقات طلع -وهو الكفري- منضود بعضه على بعض
متراكب"^(١٥).

الثاني : أنه المنظوم ، وهذا يروى عن ابن عباس أيضاً^(١٦).
الثالث : أنه القائم المعتدل ، قاله عبد الله بن شداد بن الهاد^(١٧).
قال مسروق: "أشجار الجنة من عروقتها إلى أغصانها ثمر كله"^(١٨).
قال بن الأجدع: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال والدلاء،
وأنهاها تجري في عبر أخدود"^(١٩).

القرآن

{ رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) } [ق : ١١]

التفسير:

أثبتنا ذلك رزقاً للعباد يفتاتون به حسب حاجاتهم، وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة
قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبات، كما أحيينا بذلك الماء الأرض الميتة نخرجكم يوم
القيامة أحياء بعد الموت.

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ٩٥/٩.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٢٩): ص ٣٣٠٧/١٠، وتفسير الطبري: ٣٣٦/٢٢.

(٤) انظر: تفسير عبدالرزاق (٢٩٥٠): ص ٢٢٨/٣.

(٥) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٩٨): ص ١٠١/٢.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٧٦/٣.

(٨) انظر: غريب القرآن: ٤١٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٩٨): ص ١٠١/٢.

(١١) انظر: تفسير عبدالرزاق (٢٩٥٠): ص ٢٢٨/٣.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٣٦/٢٢.

(١٣) الكفري: وعاء الطلع وقشره الأعلى.

(١٤) معاني القرآن: ٧٦/٣.

(١٥) تفسير الطبري: ٣٣٥/٢٢.

(١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٤٣/٥.

(١٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٩٥/٩، والنكت والعيون: ٣٤٣/٥.

(١٨) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ٢٠٧/٩.

(١٩) انظر: الكشف والبيان: ٩٥/٩.

قوله تعالى: {رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ} [ق : ١١]، أي: "أُنبتنا ذلك رزقًا للعباد يفتاتون به حسب حاجاتهم"^(١).

قال الزجاج: "المعنى: فأُنبتنا هذه الأشياء للرزق"^(٢).

قال ابن كثير: "أي: للخلق"^(٣).

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا جاءهم المطر، وفي لفظ إذا رأى المطر وسالت الميازيب، قال: "لا محل عليكم العام" يعني: الجذب"^(٤).

قوله تعالى: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا} [ق : ١١]، أي: "وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة قد أُجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبات"^(٥).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة ميتا قد أُجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت"^(٦).

قال ابن كثير: "وهي: الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأُنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر : ٥٧]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف : ٣٣]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت : ٣٩]

قوله تعالى: {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق : ١١]، أي: "كما أحيينا بذلك الماء الأرض الميتة نخرجكم يوم القيامة أحياء بعد الموت"^(٨).

قال قتادة: "كما أحيانا الله الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك يحيي الله عز وجل الناس يوم القيامة"^(٩).

قال الطبري: يقول: "كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلانكم فيها بما ينزل عليها من الماء"^(١٠).

قال الزجاج: "أي: كما خلقنا هذه الأشياء نبعثكم"^(١١).

قال مقاتل: "يقول: وهكذا تخرجون من القبور بالماء، كما أخرجت النبت من الأرض بالماء، فهذا كله من صنيعه ليعرفوا توحيد الرب وقدرته على البعث"^(١٢).

قال ابو عبيدة: أي: "يوم القيامة قال العجاج"^(١):

(١) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٢) معاني القرآن: ٤٣/٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٤) رواه الثعلبي في "الكشف والبيان": ٤٣٨/٢٤. ط. دار التفسير، فيه إبراهيم بن قدامة، لا يعرف، وفيه من لم يذكر بجرح أو تعديل.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٦) تفسير الطبري: ٣٣٦/٢٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٩٦/٧.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٢) ص ٢٧٤/١.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٣٦/٢٢.

(١١) معاني القرآن: ٤٣/٥.

(١٢) تفسير مقات بن سليمان: ١١١/٤.

أليس يوم سمى الخروجا ... أعظم يوم رجّة رجوجا^(٢).
فوائد الآيات: [٦-١١]:

- ١- تقرير عقيدة البعث بمظاهر القدرة الإلهية في الكون.
- ٢- مشروعية النظر والاعتبار فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون والحياة للعبارة طلبا لزيادة الإيمان والوصول به إلى مستوى اليقين.
- ٣- فضل العبد المنيب وفضيلة الإنابة إلى الله تعالى والمنيب هو الذي يرجع إلى ربه في كل ما يهمله والإنابة التوبة إلى الله والرجوع إلى طاعته بعد معصيته.

القرآن

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)} [ق : ١٢-١٤]

التفسير:

كذّبت قبل هؤلاء المشركين من قريش قوم نوح وأصحاب البئر وثمود، وعاد وفرعون وقوم لوط، وأصحاب الأيكة قوم شعيب، وقوم تُبَّع الحميري، كل هؤلاء الأقسام كذبوا رسلهم، فحق عليهم الوعيد الذي توعدهم الله به على كفرهم.
قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} [ق : ١٢]، أي: "كذّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح"^(٣).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره {كَذَّبَتْ} قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم من قومه {قَوْمُ نُوحٍ}"^(٤).

عن يزيد الرقاشي، قال: "إنما سمي نوح ل طول ما ناح على نفسه"^(٥).

قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الرَّسِّ} [ق : ١٢]، أي: "وأصحاب البئر"^(٦).

قال الطبري: "قوم رسوا نبيهم في بئر"^(٧).

واختلفوا في «أصحاب الرّسِّ»، على أقوال:

أحدها: أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله إليهم نبيا من ولد يهوذا بن يعقوب، فحفروا له بئرا وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي بن أبي طالب^(٨).

وقال أبو احمد السامري: " {أصحاب الرّسِّ}، يعني: أصحاب البنات، وأزد شنوءة يسمون البنين: الرس"^(٩).

الثاني: أنهم قوم كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبير^(١٠).

الثالث: أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها، وكانت لهم مواش، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيبا، فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فحسف بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه^(١١).

الرابع: أنهم الذين قتلوا حبيبا النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس : ٢٠]، قاله الضحاك^(١)، والسدي^(٢).

(١) ديوانه: ١١.

(٢) مجاز القرآن: ٢٢٣/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٢٢٦/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٣٣٦/٢٢-٣٣٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٦): ص ١٥٠٥/٥.

(٦) صفوة التفاسير: ٢٢٦/٣.

(٧) تفسير الطبري: ٣٣٧/٢٢.

(٨) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ١٣٥/٧، وانظر: زاد المسير: ٣٢١/٣.

(٩) اللغات في القرآن: ٣٩.

(١٠) انظر: زاد المسير: ٣٢١/٣.

(١١) انظر: زاد المسير: ٣٢١/٣.

قال الضحاك: "بئر قُتل فيها صاحب يس" (٣).
وقال عكرمة: "كان الرّسّ بئراً رسّوا فيها نبيهم" (٤).
قال ابن عباس: "هي بئر كانت تسمى: الرّسّ" (٥).
قال ابن عباس: "بئر بأذربيجان" (٦).
قال مجاهد: "الرّسّ بئر كان عليها قوم" (٧). وفي رواية: "أصحاب الرّسّ"، قال:
بئر" (٨).
قال قتادة: "أصحاب الرس كانوا أهل فلح وآبار كانوا عليها" (٩).
قال جعفر بن محمد: "كل نهر وبئر هو رس" (١٠).
قال القرطبي: "«الرس»: هو كل حفر احتفر كالقبر والمعدن والبئر" (١١).
قال النحاس: "«الرس» عند أهل اللغة: كل بئر غير مطوية.. ويروى أنهم قتلوا نبيهم
ورسوه في بئر، أي: دسوه فيها" (١٢).
الخامس: أنهم أصحاب الأخدود، و«الرس» هو الأخدود الذي حفروه. حكاه الثعلبي (١٣).
السادس: أنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب (١٤).
السابع: أن الرّسّ: قرية من ثمود. وهذا قول ابن عباس (١٥).
الثامن: أن الرّسّ: قرية من اليمامة يقال لها: الفلج. وهذا قول قتادة (١٦)، وعكرمة (١٧).
التاسع: أن «أصحاب الرس»: قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السحق، وكان نساؤهم كلهم
سحاقيات. رواه جعفر بن محمد عن أبيه (١٨).
عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أشرط الساعة أن
يستكفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق» (١٩).
العاشر: أن {أصحاب الرس} كانتا أمتين فبعث الله إليهما نبيا واحدا شعيبا وعذبهما الله بعذابين.
وهذا مروى عن قتادة (٢٠).
عن قتادة أنه قال: "إن أصحاب الأيكة، والأيكة: الشجر الملتف"، وأصحاب الرّسّ كانتا
أمتين، فبعث الله إليهم نبيا واحدا شعيبا، وعذبهما الله بعذابين" (٢١).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٧/٢٢.
(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ١٣٤/٧، وانظر: زاد المسير: ٣٢١/٣.
(٣) أخرجه الطبري: ٣٣٧/٢٢.
(٤) أخرجه الطبري: ٢٧٠/١٩.
(٥) أخرجه الطبري: ٢٧٠/١٩.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٧٣): ص ٢٦٩٥/٨.
(٧) أخرجه الطبري: ٢٧٠/١٩.
(٨) أخرجه الطبري: ٣٣٧/٢٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٧٦): ص ٢٦٩٥/٨.
(١٠) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٩٥/٨. ذكره دون الإسناد.
(١١) تفسير القرطبي: ٣٣/١٣.
(١٢) معاني القرآن: ٢٧/٥.
(١٣) انظر: الكشف والبيان: ١٣٤/٧.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ١٤٦/٤، وزاد المسير: ٣٢١/٣. وابن السائب - ضعيف، قد اختلط.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٩/١٩.
(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٦٩/١٩.
(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٠/١٩.
(١٨) انظر: الكشف والبيان: ١٣٨/٧، وتفسير القرطبي: ٣٣/١٣.
(١٩) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ١٣٨/٧.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٧/٢٢، وتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٣٥٦): ص ١٥٢/١.
(٢١) أخرجه الطبري: ٣٣٧/٢٢.

قال يحيى: بلغني أن الذي أرسل إليهم شعيب، وأنه أرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الرس جميعاً، ولم يبعث نبي إلى أمتين غيره فيما مضى، وبعث النبي إلى الجن والإنس كلهم^(١).

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك؛ ومنه قول الشاعر^(٢):
سَبَقَتْ إِلَى فُرْطٍ بَاهِلٍ ... تَنَابِلَةٌ يَحْفَرُونَ الرَّسَّاسَا"^(٣).

قوله تعالى: {وَتَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ} [ق: ١٢-١٣]، أي: "وتمود، وعاد وفرعون وقوم لوط"^(٤).

قال الماتريدي: "أي: قوم لوط"^(٥).

قال ابن أبي زمنين: "إخوان في النسب لا في الدين"^(٦).

قال الصابوني: "سمّاهم إخوانه، لأنه صاهرهم وتزوج منهم"^(٧).

في بعض التفاسير: "أن لوطاً يبعث وحده وليس معه أحد آمن به"^(٨).

قال السمعاني: "وعن بعضهم: أن فرعون كان رجلاً أعجمياً من أهل اصطخر فارس، ذكره أبو الحسين بن فارس في تفسيره، وذكر فيه أنه عاش مائتين وعشرين سنة لم يؤذ شيء، ودعاه موسى ثمانين سنة، ثم أغرقه الله فجميع مدة ملكه ثلثمائة سنة"^(٩).

قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} [ق: ١٤]، أي: "وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب"^(١٠).

قال الطبري: "كل شجر ملتف فهو عند العرب أَيْكَةٌ؛ ومنه قول نابغة بني ذبيان^(١١):

تَجَلُّوْ بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيْكَةٍ ... بَرْدًا أَسِيفٌ لِثَائُهُ بِالْإِثْمِ

وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين فيما ذكر^(١٢).

قال الزجاج: "الأيكة: الشجر الملتف"^(١٣).

قال ابن كثير: "أصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغبيضة، كانوا يعبدونها"^(١٤).

(١) تفسير يحيى بن سلام: ٤٨٢/١.

(٢) البيت للنابغة الجعدي (اللسان: رسس). والفرط بالتحريك: القوم يتقدمون إلى الماء قبل الورد، فيهيئون لهم الأرسال والدلاء، ويملئون الحياض، ويستقون لهم (عن اللسان). والباهل: المتردد بلا عمل. والتنايلة جمع تنبل، بوزن جَعْفَرٍ، وهو الرجل القصير. ولعله كناية عن البطء والعجز عن العمل. والرساس جمع رس، وهي البئر القديمة أو المعدن (المنجم تستخرج منه المعادن كالحديد ونحوه).

(٣) تفسير الطبري: ٢٧٠/١٩.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٥) تأويلات أه السنة: ٣٥٠/٩.

(٦) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٧١/٤.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٢٦/٣.

(٨) نقلاً عن: تفسير السمعاني: ٢٣٧/٥.

(٩) تفسير السمعاني: ٢٣٧/٥.

(١٠) صفوة التفاسير: ٢٢٦/٣.

(١١) البيت للنابغة الذبياني زياد بن معاوية (مختار الشعر الجاهلي بشرح مصطفى السقا طبعة الحلبي ص ١٨٥) قال شارحه: تجلّو: تكشف. والقوادم: الريش المقدم في جناح الطائر. ويكون شديد السواد. شبه سواد شفثيها بالقوادم؛ وشبه بياض ثغرها ببياض البرد. والثلاث: مغارز الأسنان، ومن عاداتهم أن يذروا عليها الإثمد، ليبين بياض الأسنان.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٩٠/١٩.

(١٣) معاني القرآن: ٩٧/٤.

(١٤) تفسير ابن كثير: ١٥٨/٦.

قال مقاتل: "أصحاب الأيكة"، يعني: غيضة الشجر، أكثرها الدوم المقل، وهم قوم شعيب - عليه السلام -" (١).

قال ابن زيد: "الأيكة: الشجر، بعث الله شعيبا إلى قومه من أهل مدين، وإلى أهل البادية، قال: وهم أصحاب ليكة، وليكة والأيكة: واحد" (٢).

قال ابن عباس: "الأيكة: مجمع الشجر" (٣).

قال الضحاك: "هم قوم شعيب" (٤).

قال قتادة: "أصحاب الأيكة: أصحاب شجر وهم قوم شعيب" (٥).

قال قتادة: "ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة، وكان عامة شجرهم هذا الروم، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبنا بعدايبين شتى، أما أهل مدين: فأخذتهم الصيحة، وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاس" (٦).

عن ابن عباس، قوله: "كَدَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ"، يقول: أصحاب الغيضة" (٧).

عن ابن عباس، قوله: "كَدَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ"، قال: أهل مدين، والأيكة: الملتف من الشجر" (٨).

قال محمد بن إسحاق: "كان من قصة شعيب وخبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن وكانوا أهل بخس الناس في مكابيلهم وموازينهم، مع كفرهم بالله وتكذيبهم نبيهم" (٩).

قوله تعالى: {وَقَوْمٌ تَبِعُوا} [ق: ١٤]، أي: "وقوم تبّع الحميري" (١٠).

قال مقاتل: "تبّع بن أبي شراح ويقال شراحيل الحميري" (١١).

قال ابن كثير: "قوم تبّع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرَةٌ بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه تَبَعًا، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرا، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مَصَّرَ الحيرة فاتفق أنه مرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار، وجعلوا يَفْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرٌ نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٩٠/١٩.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٩٠/١٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨٩٦): ص ٢٨١٠/٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٠١): ص ٢٨١١/٩.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٠٢): ص ٢٨١١/٩.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٩٠/١٩.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٩٠/١٩.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨٩٧): ص ٢٨١٠/٩.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٨.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤.

أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة^(١) وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة^(٢)، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تبع لعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا؟»^(٣).

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي. وكأنه - والله أعلم - كان كافرًا ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت في زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة مبسطة، عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضًا، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن منبّه، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبِعًا هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ^(٤). وروي عن سعيد بن جبير: "أن تُبِعًا كسا البيت، ونهى سعيد عن سبه"^(٥).

قال ابن كثير: "وتُبِعَ هذا هو تُبِعَ الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْب بن مَلِكِيْرِب اليماني ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجِرُ نبي آخر في الزمان، اسمه أحمد، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلقًا عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ... رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ
فَلَوْ مَدَّ عُمَرُ إِلَى عُمُرِهِ... لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ... وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ عَمِّ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفِرَ قبر بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: "هذا قبر حبي ولميس - وروي: حبي وتماضر - ابنتي تُبِعَ ماتتا، وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما"^(٦).

قال قتادة: "ذكر لنا أن تبعًا كان رجلاً من حمير، سار بالجيش حتى حير الحيرة، ثم أتى سمرقند فهدهما. وذكر لنا أنه كان إذا كُتِبَ باسم الذي تسمى وملك برًا وبحرا وصحا

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١٩/١.

(٢) انظر: تاريخ دمشق: ٥٠٠/٣.

(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٢٥٧/٧، رواه الحاكم في المستدرک (٣٦/١) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود في سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: "عزيز" بدل: "ذو القرنين".

قال الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٠/٢): "وحديث عبادة بن الصامت: "إن الحدود كفارة لأهلها" أصح وأثبت سندًا" ثم ساقه من طريق البخاري بسنده إلى عبادة بن الصامت.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢٥٦/٧-٢٥٧.

(٥) أخرجه الطبري: ٤٠/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٢٥٨/٧.

وريجا. ودُكر لنا أن كعبا كان يقول: نُعِتَ نَعَتَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ذَمَّ اللهُ قَوْمَهُ ولم يذمه. وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعًا، فإنه كان رجلا صالحا^(١).

قال ابن إسحاق: "كان قوم تُبَّعٍ أهل أوثان يعبدونها"^(٢).

عن ابن عباس: "أنه سأل عبد الله بن سلام، عن تُبَّعٍ ما كان؟ فقال: إن تبعنا كان رجلا من العرب، وإنه ظهر على الناس، فاخترت فتية من الأخيار فاستبطنهم واستدخلهم، حتى أخذ منهم وبايعهم، وإن قومه استكبروا ذلك وقالوا: قد ترك دينكم، وبايع الفتية؛ فلما فشا ذلك، قال للفتية، فقال الفتية: بيننا وبينهم النار تُحْرَقُ الكاذب، وينجو منها الصادق، ففعلوا، فعلق الفتية مصاحفهم في أعناقهم، ثم غدوا إلى النار، فلما ذهبوا أن يدخلوها، سفعت النار في وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تُبَّعٌ: لتدخلنها؛ فلما دخلوها أفرجت عنهم حتى قطعوها، وأنه قال لقومه ادخلوها؛ فلما ذهبوا يدخلونها سفعت النار وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تُبَّعٌ: لتدخلنها، فلما دخلوها أفرجت عنهم، حتى إذا توسطوا أحاطت بهم، فأحرقتهم، فأسلم تُبَّعٌ، وكان تُبَّعٌ رجلا صالحا"^(٣).

عن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله: "أن تبعنا لما دنا من اليمن ليدخلها، حالت حمير بينه وبين ذلك، وقالوا لا تدخلها علينا، وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه، وقال: إنه دين خير من دينكم، قالوا: فحاكمنا إلى النار، قال نعم، قال: وكانت في اليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم فيما بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم، فلما قالوا ذلك لتُبَّعٍ، قال: أنصفتم، فخرج قومه بأوثانهم، وما يتقربون به في دينهم قال: وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديهما، حتى قعدوا للنار عند مخرجها التي تخرج منه، فخرجت للنار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فرمواهم من حضرهم من الناس، وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، تعرق جباههما لم تضرهما، فأطبقت حمير، عند ذلك على دينه، فمن هنالك وغير ذلك كان أصل اليهودية باليمن"^(٤).

عن ابن إسحاق عن بعض أصحابه أن الحبرين، ومن خرج معهما من حمير، إنما اتبعوا النار ليرتوها، وقالوا: من ردّها فهو أولى بالحق فدنا منهم رجال من حمير بأوثانهم ليرتوها، فدنت منهم لتأكلهم، فحادوا فلم يستطيعوا ردّها، ودنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة، وتنكص حتى ردّاها إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأطبقت عند ذلك على دينهما، وكان رثام بيتا لهم يعظمونه، وينحرون عنده، ويكلمون منه، إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران لتُبَّعٍ إنما هو شيطان يعينهم ويلعب بهم، فخلّ بيننا وبينه، قال: فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلبا أسود، فذبحاه، ثم هدما ذلك البيت، فبقاياها اليوم باليمن كما ذكر لي"^(٥).

عن سهل بن سعد الساعدي، يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تلعنوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ"^(٦).

عن شعيب بن زرعة المعافري، قال: "سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له رجل: إن حمير تزعم أن تبعنا منهم، فقال: نعم والذي نفسي بيده، وإنه في العرب كالأنف بين العينين. وقد كان منهم سبعون ملكا"^(٧).

عمرو بن جابر الحضرمي - قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان أسلم"^(٨).

(١) أخرجه الطبري: ٤٠/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٣٧/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٣٨-٣٣٧/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٣٨/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٣٩-٣٣٨/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٣٩/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٣٩/٢٢.

عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسبوا تبعنا ؛ فإنه قد أسلم" (٢) .
 عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أدري، تُبِعَ نبيًّا كان أم غير نبي" (٣) .
 عن تميم بن أبي عبد الرحمن ، قال : "قال لي عطاء بن أبي رباح: أتسبون تبعنا يا تميم؟ قال: قلت: نعم، قال: «فلا تسبوه، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى، عن سبه»" (٤) .
 قوله تعالى: {كُلُّ كَذِبٍ لِّلرُّسُلِ} [ق : ١٤]، أي: "كل هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم" (٥) .
 قال الطبري: يقول: "كل هؤلاء الذين ذكرناهم كذبوا رسل الله الذين أرسلهم" (٦) .
 قال ابن أبي زمنين: "يقول: جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويحذرونهم العذاب، فكذبوهم" (٧) .
 قال ابن كثير: "أي : كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء : ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم" (٨) .
 قوله تعالى: {فَحَقَّ وَعِيدُ} [ق : ١٤]، أي: "فحق عليهم الوعيد الذي توعدهم الله به على كفرهم" (٩) .
 قال السمعاني أي: حق عليهم وعيدي وعذابي" (١٠) .
 قال الطبري: "يقول: فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جلّ ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ترهيباً منه بذلك مشركي قريش وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، أنه محلّ بهم من العذاب، مثل الذي أحلّ بهم" (١١) .
 قال مقاتل: "يعنى: فوجب عليهم عذابي فعذبتهم، فاحذروا يا أهل مكة مثل عذاب الأمم الخالية، فلا تكذبوا محمداً - صلى الله عليه وسلم -" (١٢) .
 قال ابن أبي زمنين: "جاءهم العذاب، يحذر بهذا مشركي العرب" (١٣) .
 عن مجاهد، قوله: " {فَحَقَّ وَعِيدُ}، قال: ما أهلكوا به تخويفاً لهؤلاء" (١٤) .
 قال القشيري: "إنما لم نعجز عن هؤلاء - الذين ذكر أسماءهم - وفيه تهديد لهم وتسليّة للرسول" (١٥) .

القرآن

- (١) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٢٥٨/٧. ورواه احمد في المسند (٣٤٠/٥) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف : "فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان"
- (٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٦/١١) وقال الهيثمي في المجمع (٧٦٩/٨) : "فيه أحمد بن أبي بزة المكي، ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات".
- (٣) رواه عبدالرزاق كما في تفسير ابن كثير: ٢٥٨/٧، ورواه الثعلبي في تفسيره كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢٧٠/٣) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.
- (٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٨٢٢):ص١٨٦/٣.
- (٥) التفسير الميسر: ٥١٨.
- (٦) تفسير الطبري: ٣٣٩/٢٢.
- (٧) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٧١/٤.
- (٨) تفسير ابن كثير: ٣٩٧/٧.
- (٩) التفسير الميسر: ٥١٨.
- (١٠) تفسير السمعاني: ٢٣٧/٥.
- (١١) تفسير الطبري: ٣٣٩/٢٢.
- (١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١١/٤-١١٢.
- (١٣) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٧١/٤.
- (١٤) أخرجه الطبري: ٣٣٩/٢٢-٣٤٠.
- (١٥) طائف الإشارات: ٤٥٠/٣.

{أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)} [ق : ١٥]

التفسير:

أَفْعَجَزْنَا عن ابتداء الخلق الأول الذي خلقناه ولم يكن شيئاً، فنعجز عن إعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم؟ لا يعجزنا ذلك، بل نحن عليه قادرون، ولكنهم في حيرة وشك من أمر البعث والنشور.
سبب النزول:

قال مقاتل: "لما قال كفار مكة: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق : ٣]، فأنزل الله- تعالى- {أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ}، في أول هذه السورة، وذلك أن كفار مكة كذبوا بالبعث"^(١).
قوله تعالى: {أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [ق : ١٥]، أي: "أَفْعَجَزْنَا عن ابتداء الخلق الأول الذي خلقناه ولم يكن شيئاً، فنعجز عن إعادتهم خلقاً جديداً بعد فنائهم؟"^(٢).
قال مجاهد: "يقول: أفعيي علينا حين أنشأناكم خلقاً جديداً، فتمتروا بالبعث"^(٣).
قال الحسن: "{أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ}، يعني: خلق آدم، أي: لم يعي به"^(٤).
قال ابن عباس: "يقول: لم يعينا الخلق الأول"^(٥).
عن أبي ميسرة: "{أَفْعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ}، قال: إنا خلقناكم"^(٦).
قال مقاتل: "يقول الله- تعالى-: أعجزت عن الخلق حين خلقتهم ولم يكونوا شيئاً، فكيف أعبي عن بعثهم"^(٧).

قال الطبري: "وهذا تفرغ من الله لمشركي قريش الذين قالوا: {أَيُّدًا مِثْلًا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، يقول لهم جل ثناؤه: أفعينا بابتداء الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً فنعيأ بإعادتهم خلقاً جديداً بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقول: ليس يعيننا ذلك، بل نحن عليه قادرون"^(٨).

قال ابن كثير: "أي : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة.. المعنى : أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم : ٢٧]، وقال الله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس : ٧٨ - ٧٩]، وقد تقدم في الصحيح : «يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم، يقول : لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»^(٩)^(١٠).

قال السمعاني: أي: عسر علينا ذلك فيعسر علينا هذا، ويقال: عيي فلان بالأمر إذا عجز عنه"^(١١).

قال القشيري: "أي إننا لم نعجز عن الخلق الأول.. فكيف نعجز عن الخلق الثاني- وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعل شيء، ولم نتعب من شيء.. فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك"^(١٢).

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [ق : ١٥]، أي: "بل هم في خلطٍ وشبهيةٍ وحيرةٍ من البعث والنشور"^(١).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٨.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٤٠/٢٢.

(٤) ذكره يحيى بن سلام -كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢٧١ /٤ -.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٤٠/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٤٠/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٨) تفسير الطبري: ٣٤٠/٢٢.

(٩) صحيح البخاري برقم (٤٩٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٩٧/٧.

(١١) تفسير السمعاني: ٢٣٧/٥.

(١٢) طائف الإشارات: ٤٥٠/٣.

قال مقاتل: "يقول في شك من البعث بعد الموت"^(٢).
 قال الطبري: "ما يشك هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث أنا لم نعي بالخلق الأول، ولكنهم في شك من قدرتنا على أن نخلقهم خلقاً جديداً بعد فنائهم، وبلائهم في قبورهم"^(٣).
 قال ابن عباس: "يقول: في شك من البعث"^(٤).
 قال قتادة: "البعث من بعد الموت"^(٥).
 قال مجاهد: "يمترون بالبعث"^(٦).
 عن قتادة، قوله: "﴿بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ﴾، أي: شكّ والخلق الجديد: البعث بعد الموت، فصار الناس فيه رجلين: مكذب، ومصدّق"^(٧).
 عن أبي ميسرة: "﴿بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ﴾، قال: الكفار {مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}، قال: أن يخلقوا من بعد الموت"^(٨).

فوائد الآيات: [١٢-١٥]:

- ١- تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية بإعلامه بأن قومه ليسوا أول من كذب الرسل.
- ٢- تهديد المصرين على التكذيب من كفار قريش بالعذاب إذ ليسوا بأفضل من غيرهم وقد أهلكوا لما كذبوا.
- ٣- تقرير البعث والجزاء وإثبات عقيدتهما بالأدلة العقلية كبدء الخلق.
- ٤- ضعف إدراك المنكرين للبعث لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

القرآن

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)} [ق : ١٦]

التفسير:

ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تُحدث به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وهو عرق في العنق متصل بالقلب.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق : ١٦]، أي: "ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما تُحدث به نفسه"^(٩).

قال الطبري: يقول: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تُحدث به نفسه، فلا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه"^(١٠).

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعمله محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»^(١١)»^(١٢).

(١) صفة التفسير: ٢٢٦/٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٣) تفسير الطبري: ٣٤٠/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٤١/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٤١/٢٢.

(٦) تفسير مجاهد ص ٦١٤.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٤١/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٤١/٢٢.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٤١/٢٢.

(١١) صحيح البخاري برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧).

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

قال أبو الليث: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ" يعني: جنس الإنسان، وأراد به جميع الخلق، {وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ}، يعني: ما يحدث به قلبه، ويتفكر في قلبه"^(١).

قال الثعلبي: "ما تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ"، يحدثه قلبه، فلا يخفى علينا أسرارها، وضمائرها"^(٢).

قال ابن عطية: "هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء والخلق: إنشاء الشيء على ترتيب وتقدير حكمي. و: الْإِنْسَانَ اسم الجنس. قال بعض المفسرين {الإنسان} -هنا-: آدم عليه السلام و{توسوس}، معناه: تتحدث في فكرتها، وسمي صوت الحلي وسواسا لخفائه، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير"^(٣).

قال الزمخشري: "الوسوسة: الصوت الخفي. ومنها: وسواس الحلي. ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهيج في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك: صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدي والضمير للإنسان، أي: ما تجعله موسوسا، وما مصدرية، لأنهم يقولون: حدثت نفسه بكذا، كما يقولون: حدثته به نفسه"^(٤).

قال القشيري: "ومن أشدَّ النَّاسِ لك عداوة، وأبعدهم عن الإيمان- نفسك المذبذبة على الشرِّ فلا تفلح إلا بدبجها بمديعة المجاهدات. وهي لا تؤمن بالتقدير، ولا يزول شكها قط، وكذلك تخلد إلى التدبير ولا تسكن إلا بوجود المعلوم، ولا تقبل منك إلا كاذب المواعيد، ولذلك قالوا"^(٥).

واكذب النفس إذا حدثتها... إن صدق النفس يُزري بالأمل"^(٦).

قوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]، أي: "ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب"^(٧).

قال الطبري: "يقول: ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق؛ والوريد: عرق بين الحلقوم والعلباوين، والحبل: هو الوريد، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه"^(٨).

عن جويبر، قال: "سألت الضحاك بن مزاحم عن قوله: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد}. قال: ليس شيء أقرب إلى ابن آدم من حبل الوريد، والله أقرب إليه منه"^(٩).

وفي إضافة «الحبل» إلى «الوريد»، وجهان"^(١٠).

أحدهما: أن تكون الإضافة للبيان، كقولهم: بغير سانية.

الثاني: أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد، كما لو قيل: حبل العلياء"^(١١) مثلا.

قال ابن قتيبة: "الوريدان": عرقان بين الحلقوم والعلباوين. والحبل هو: الوريد؛ فأضيف إلى نفسه: لاختلاف لفظي اسميه"^(١٢).

قال الفراء: "الحبل: هو الوريد بعينه، أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه، والوريد: عرق بين الحلقوم والعلباوين"^(١).

(١) بحر العلوم: ٣٣٤/٣.

(٢) الكشف والبيان: ٩٨/٩.

(٣) المحرر الوجيز: ١٥٩/٥.

(٤) الكشف: ٣٨٣/٤.

(٥) البيت في الديوان (ص ١٤٥)، وفي لسان العرب (كذب)، (خزا)، وجمهرة اللغة (ص ٥٩٦)، وتاج العروس (كذب)، (خزا)، وجمهرة الأمثال (١ / ٥١)، وخزانة الأدب (٥ / ١١٢)، وفصل المقال (ص ١٧٣)، وكتاب الأمثال (ص ١١٦)، وكتاب الأمثال لمجهول (ص ٢٢)، والمستقصى (١ / ٢٨٩)، ومجمع الأمثال (٢ / ١٣٩).

(٦) لطائف الإشارات: ٢٠/٢-٢١.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٢٦/٣.

(٨) تفسير الطبري: ٣٤١/٢٢.

(٩) الدر المنثور: ٥٩٢ / ٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(١٠) انظر: الكشف: ٣٨٤/٤.

(١١) هي عصب العنق، كما في الصحاح.

(١٢) غريب القرآن: ٤١٨.

وفي «حَبْلُ الْوَرِيدِ»، أقوال:
أحدها : أنه حبل معلق به القلب، قاله الحسن^(٢).
قال القرطبي: " وهذا تمثيل للقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه،
وليس على وجه قرب المسافة"^(٣).

قال التستري: " هو العرق الذي في جوف القلب، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك
العرق. فإذا علمت ذلك، ينبغي أن تستحي منه، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس. فذكر
العبد قيام الله عزَّ وجلَّ عليه، فتركه إلا دخل قلبه من علم حاله ما لو قسم ما أعطى ذلك العبد
على أهل المدينة لسعدوا جميعاً وفازوا به، وقد أشار إليه مالك بن أنس^(٤) رضي الله عنهما حيث
قال: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب»^(٥)^(٦).

الثاني : أنه عرق في الحلق، قاله مجاهد^(٧).
قال أبو عبيدة: " وريده في حلقه، والحبل: حبل العاتق، قال الشاعر^(٨):
كأن وريده رشاء خُلب

فأضافه إلى «الوريد» كما يضاف الحبل إلى العاتق"^(٩).

عن مجاهد: " {حَبْلُ الْوَرِيدِ}، قال: الذي يكون في الحلق"^(١٠).
الثالث : ما قاله ابن عباس، عرق العنق^(١١)، ويسمى حبل العاتق ، وهما وريدان عن يمين
وشمال ، وسمي وريداً ، لأنه العرق الذي ينصب إليه ما يرد من الرأس.
قال الزجاج: " الوريد: عرق في باطن العنق، وهما وريدان"^(١٢).
قال الزمخشري: " الوريدان: عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمتهما متصلان
بالوتين، يردان من الرأس إليه. وقيل: سمى وريداً لأنَّ الروح تردده"^(١٣).

وفي قوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق : ١٦]، وجوه من التفسير^(١٤):
أحدها : ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه. حكاها الماوردي^(١٥).
الثاني : ونحن أملك به من حبل وريده، مع استيلائه عليه. حكاها الماوردي-أيضاً-^(١٦).
الثالث : ونحن أملك به وأقرب إليه في المقدره عليه من حبل الوريد. قاله الأخفش^(١٧).

-
- (١) معاني القرآن: ٧٦/٣.
 - (٢) انظر: النكت والعيون: ٣٤٦/٥.
 - (٣) تفسير القرطبي: ٩/١٧.
 - (٤) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣- ١٧٩ هـ) : إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية. من أشهر كتبه الموطأ. (الأعلام ٢٥٧/٥).
 - (٥) صفوة الصفوة ١٧٩/٢، وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٢٣ والشطر الأول من القول نسب إلى إبراهيم الخواص في شعب الإيمان ٢/٢٤٩، وبعده: (إنما العالم من اتبع العلم واستعمله) ، كما نسب الشطر الأول من القول إلى عبد الله في الحلية ١/١٣١، وبعده: (ولكن العلم خشية).
 - (٦) تفسير التستري: ٧٥.
 - (٧) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٤، وتفسير الطبري: ٣٤٢-٣٤١/٢٢.
 - (٨) هو في ملحق ديوان رؤية ص ١٦٩ والكتاب ١/٤٢٩ والشننمرى ١/٤٨٠ والعيني ٢/٢٩٩ والخزانة ٤/٣٥٦ وشواهد الكشاف ص ٤٢.
 - (٩) مجاز القرآن: ٢٢٣/٢-٢٢٤.
 - (١٠) أخرجه الطبري: ٣٤٢-٣٤١/٢٢.
 - (١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٤١/٢٢.
 - (١٢) معاني القرآن: ٤٤/٥.
 - (١٣) الكشاف: ٣٨٤/٤.
 - (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٢/٢٢، ومعاني القرآن للنحاس: ١٤٩/٤، والنكت والعيون: ٣٤٦-٣٤٧.
 - (١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٤٦-٣٤٧.
 - (١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٤٦-٣٤٧، وتفسير القرطبي: ٩/١٧.
 - (١٧) انظر: معاني القرآن: ٥٢٢/٢.

قال الثعلبي: "أي: أعلم به، وأقدر عليه {مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، لأنَّ أبعاضه، وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله سبحانه عن جميع ذلك شيء"^(١).

الرابع: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده، الذي هو من نفسه، لأنه عرق يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب. روي معناه عن مقاتل^(٢).

قال مقاتل: "هو عرق خالط القلب فعلم الرب- تعالى- أقرب إلى القلب من ذلك العرق"^(٣).

قال القرطبي: "وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض ولا يحجب علم الله شيء"^(٤).

قال الحارث المحاسبي: "أي: بعلمه، فتكون الإحاطة بالعلم أقرب من عرق قلبه المتصل بقلبه"^(٥).

قال الزمخشري: "وَوَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ} مجاز، والمراد: قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً لا يخفى عليه شيء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه، كما يقال: الله في كل مكان، وقد جل عن الأمكنة. وحبل الوريد: مثل في فرط القرب، كقولهم: هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة^(٦):

وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ"^(٧).

قال ابن عطية: "قوله تعالى: {نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، عبارة عن قدرة الله على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة، والعلم قد أحيط به، فالقرب هو بالقدرة والسلطان، إذ لا ينحجب عن علم الله باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب"^(٨).

قال ابن كثير: "يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: {وَوَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} كما قال في المحتضر: {وَوَحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فالملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(٩)، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق^(١٠).

(١) الكشف والبيان: ٩٨/٩.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤، والنكت والعيون: ٣٤٦/٥-٣٤٧، وتفسير القرطبي: ٩/١٧.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٤) تفسير القرطبي: ٩/١٧.

(٥) فهم القرآن: ٣٥٤.

(٦) هَلْ أَغْدُونَ فِي عَيْشَةٍ رَغِيدٍ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ

لذي الرمة. والاستقهام إنكارى، أى: لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إلى من الوريد.

وروى: أوفى. والمعنى واحد. والوريدان: عرقان في مقدم صفحتي العنق، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس. ولأن الروح تردهما. وقال: عيشة رغيد، كقوله الله تعالى: إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا فِي فَعِيلٍ بِمَعْنَى فَاعِلٍ.

(٧) الكشف: ٣٨٣/٤.

(٨) المحرر الوجيز: ١٥٩/٥.

(٩) نص الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

حديث أنس: أخرجه أحمد (١٥٦/٣)، رقم (١٢٦١٤)، والبخارى في الأدب المفرد (ص ٤٣٨، رقم ١٢٨٨)، ومسلم (١٧١٢/٤، رقم ٢١٧٤)، وأبو داود (٢٣٠/٤، رقم ٤٧١٩). وأخرجه أيضاً: أبو يعلى (١٨٦/٦)، رقم ٣٤٧٠، والقضاعي (١١٣/٢، رقم ٩٩٥).

حديث صفيّة: أخرجه أحمد (٣٣٧/٦، رقم ٢٦٩٠٥)، والبخارى (١١٩٥/٣، رقم ٣١٠٧)، ومسلم (١٧١٢/٤، رقم ٢١٧٥)، وأبو داود (٣٣٣/٢، رقم ٢٤٧٠)، وابن ماجه (٥٦٦/١، رقم ١٧٧٩). وأخرجه أيضاً: إسحاق

قال الشافعي في الآية: " فأعلم - الله تعالى - عباده مع ما أقام عليهم من الحجة، بأن ليس كمثله أحد في شيء، أن علمه بالسر والعلانية واحد، فقال تعالى ذكره: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا نَؤَسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} الآية" (١).

القرآن

{إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ} (١٧) [ق : ١٧]

التفسير:

حين يكتب الملكان المترصدان عن يمينه وعن شماله أعماله. فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملكان، وهما المتلقيان {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ} " (٢).

قال ابن كثير: " يعني : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ}، أي : مترصد" (٤).

قال القرطبي: " أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة، وتوكيدا للأمر عليه" (٥).

قال مقاتل: " يعني: الملكين يتلقيان عمل ابن آدم ومنطقه عَنِ الْيَمِينِ ملك يكتب الحسنات {وَعَنِ الشَّمَالِ} ملك {قَعِيدٌ}، يكتب السيئات فلا يكتب صاحب الشمال إلا بإذن صاحب اليمين، فإن تكلم ابن آدم بأمر ليس له ولا عليه اختلفا في الكتاب، فإذا اختلفا نوديا من السماء ما لم يكتبه صاحب السيئات فليكتبه صاحب الحسنات" (٦).

قال ابن قتيبة: " أي: يتلقيان القول ويكتبانه؛ يعني: الملكين" (٧).

قال الزجاج: " {الْمُتَلَقِيَانِ} : كاتباه الموكلان به، يتلقيان ما يعمله فيثبتانه" (٨).

قال الواحدي: " التلقي: الأخذ، ذكر ذلك عند قوله: {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} [البقرة: ٣٧]" (٩).

قال السمعاني: " معناه: اذكر يا محمد إذ يتلقى المتلقيان، وهما الملكان. والتقى: هو القبول والأخذ، فالملك يأخذ مله ونطقه فيثبته. {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ}، معناه: عن اليمين قاعد وعن الشمال قاعد. وفي بعض الأخبار: الصماخان مقعد الملكين، وهما جانب الفم" (١٠).

قال البغوي: " إذ يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه، عن اليمين وعن الشمال، أي: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. قعيد، أي: قاعد" (١١).

بن راهويه (٢٥٨/١، رقم ٨) ، وعبد بن حميد (ص ٤٤٩، رقم ١٥٥٦) ، وأبو يعلى (٣٨/١٣، رقم ٧١٢١) ، والطبراني (٧١/٢٤، رقم ١٨٩).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

(٢) تفسير الإمام الشافعي: ١٢٨٥/٣-١٢٨٦.

(٣) تفسير الطبري: ٣٤٢/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

(٥) تفسير القرطبي: ٩/١٧.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٧) غريب القرآن: ٤١٨.

(٨) معاني القرآن: ٤٤/٥.

(٩) التفسير الوسيط: ١٦٥/٤.

(١٠) تفسير السمعاني: ٢٣٩/٥.

(١١) تفسير البغوي: ٢٧٢/٤.

قال الزمخشري: "المعنى: أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان^(١) من كل قريب حين يتلقى الحفيضان ما يتلفظ به، إيدانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك: وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد. وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله: من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إن مقعد ملكيك على ثنيتيك، ولسانك قلمهما، وريقك مدادهما، وأنت تجرى فيما لا يعينك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما»^(٢) ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب، يعنى: ونحن قرييون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به، والتلقى: التلقن بالحفظ والكتابة»^(٣).

عن مجاهد: "عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ قَعِيدٌ"، قال: عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات»^(٤).

وقال مجاهد: "ملك عن يمينه، وآخر عن يساره، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر»^(٥).

وقال مجاهد: "مع كل إنسان مكان: ملك عن يمينه، وملك عن يساره؛ قال: فأما الذي عن يمينه، فيكتب الخير، وأما الذي عن يساره فيكتب الشر»^(٦).

قال إبراهيم التيمي: "صاحب اليمين أمير أو أمين على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمسك لعله يتوب»^(٧).

قال سفيان: "بلغني أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا أذنب قال له: لا تعجل لعله يستغفر»^(٨).

عن هشام الحمصي: "أنه بلغه أن الرجل إذا عمل سيئة قال كاتب اليمين لصاحب الشمال: اكتب، فيقول: لا بل أنت اكتب، فيمتنعان، فينادي مناد: يا صاحب الشمال اكتب ما ترك صاحب اليمين»^(٩).

وفي معنى: قوله تعالى: {قَعِيدٌ} [ق : ١٧]، وجهان :

أحدهما: أن «قَعِيدٌ»، بمعنى: قاعد؛ كما يقال: «قدير» بمعنى: قادر. قاله ابن قتيبة^(١٠).

قال ابن قتيبة: "ويكون بمنزلة: أكيل وشريب ونديم، أي: مؤاكل ومشارب ومُنادم. كذلك: «قعيد» أي: مُقاعد»^(١١).

قال الزمخشري: "«القعيد»: القاعد، كالجليس بمعنى: الجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه»^(١).

(١) يقال: قرب من الشيء كما يقال: قرب إليه.

(٢) ضعيف جدا. أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطاة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مقعد مليكك ...» فذكره. كذا قاله الحافظ في تخريج الكشاف: ٣٨٤/٤ وسكت عليه. وإسناده ضعيف جدا فيه جميل بن الحسن جرحه عبادان، ووثقه ابن حبان، وفيه أرطاة بن أشعث قال عنه في «الميزان» هالك. وهاه ابن حبان. ثم ذكر الذهبي له خبرا غير هذا وقال: هو المتهم به، ثم هو منقطع بين علي ومحمد الباقر.

وفي زاد المسير: ١٦٠/٤، عن الحسن والضحاك قالا: «مجلسهما تحت الشعر على الحنك».

(٣) الكشاف: ٣٨٤/٤.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(١٠) غريب القرآن: ٤١٨.

(١١) غريب القرآن: ٤١٨.

الثاني : المرصد الحافظ ، قاله مجاهد^(٢) . وبه قال ابن كثير^(٣) .
 عن مجاهد، قوله: " {قَعِيدٌ} ، قال: رَصَدٌ"^(٤) .
 قال ابن كثير: " أي : مترصد"^(٥) .
 قال البغوي: " قيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم"^(٦) .
 ولأهل اللغة في إفراد لفظ «قعيد»، وجوه:
 أحدها: أن المعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، ثم حذف. وهذا مذهب سيبويه^(٧)،
 والكسائي^(٨) .
 قال الزجاج: " المعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فدل أحدهما على الآخر،
 فحذف المدلول عليه، ومثله قولُ الشاعر^(٩):
 نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَ . . . دَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ
 أي: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض، ومثله أيضاً^(١٠):
 رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَالِدِي . . . بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
 المعنى: رماني بأمر كنت منه بريئاً، والدي بريئاً منه"^(١١) .
 الثاني: أن «قعيد» واحد يؤدي عن اثنين، وأكثر منهما، كما قال جل وعز: {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}
 [غافر: ٦٧] . وهذا مذهب الأخفش^(١٢)، والفراء^(١٣) .
 الثالث: إن التقدير في «قعيد»، أن يكون ينوى به التقديم، أي: عن اليمين قعيد، ثم عطف عليه:
 وعن الشمال. وهذا قول المبرد^(١٤) .
 قال النحاس: " وهذا بين حسن ومثله: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة:
 ٢٦٢]"^(١٥) .
 الرابع: أن يكون «قعيد» بمعنى: الجماعة، كما يستعمل العرب في فعيل، قال جل وعز:
 {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [التحریم: ٤] . حكاه النحاس^(١٦) .

- (١) الكشف: ٣٨٥/٤ .
 (٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٢/٢٢ .
 (٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧ .
 (٤) أخرجه الطبري: ٣٤٢/٢٢ .
 (٥) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧ .
 (٦) تفسير البغوي: ٢٧٢/٤ .
 (٧) نقلا عن: إعراب القرآن للنحاس: ١٤٩/٤ .
 (٨) نقلا عن: إعراب القرآن للنحاس: ١٤٩/٤ .
 (٩) البيت من الأبيات المختلف في عزوها، نسبه أبو عبيدة إلى عمرو بن امرئ القيس، وسيبويه ٢٩ / ١ إلى
 قيس بن الخطيم، قال العيني ٢٢٨ / ١:
 قائله قيس بن الخطيم ... وقال ابن هشام: قائله عمرو بن امرئ القيس الأنصاري، وكذا قال ابن بري، وقد ورد
 البيت في ملحق ديوان قيس ابن الخطيم من رقم ١٤ وفي الطبري ١٠ / ٧٦ والمرزباني ٢٣٣ وابن الشجري ١ /
 ٣٣ والشنتمرى ١ / ٣٨ والقرطبي ٨ / ١٢٨ والمعاهد ١ / ٩٠ .
 (١٠) البيت مختلف في نسبه، فالأكثر ينسبه لعمر بن أحمد وهو في "ديوانه" ص ١٨٧، "الدرر" ٢ / ٦٢،
 "الكتاب" ١ / ٧٥، ونسبه أبو عبيدة لطرفة بن العمرّد كما في "مجاز القرآن" ٢ / ١٦١، وله أو لابن أحمد كما
 في "اللسان" ١١ / ١٣٢ (حول). وهو غير منسوب في "المصون من الأدب" ص ٨٤ .
 (١١) معاني القرآن: ٤٤/٥ .
 (١٢) انظر: معاني القرآن: ٥٢٢/٢-٥٢٣ .
 (١٣) انظر: إعراب القرآن للنحاس: ١٤٩/٤، والبحر المحيط: ٨ / ١٢٣ . ومعاني القرآن: ١٩٣/٢: "اكتفى
 بالقعيد من صاحبه، لأن المعنى معروف".
 (١٤) نقلا عن: إعراب القرآن للنحاس: ١٤٩/٤ .
 (١٥) إعراب القرآن: ١٤٩/٤ .
 (١٦) انظر: إعراب القرآن: ١٤٩/٤ .

قال القشيري في الآية: "خوفهم بشهود الملائكة وحضور الحفظة، وبكتابتهم عليهم أعمالهم، فهما قعيدا كلّ أحد: ويقال: إذا كان العبد قاعدا فواحد عن يمينه يكتب خيراته، وواحد على يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحد عند رأسه وواحد عند قدمه، وإذا كان ماشيا فواحد قائم بين يديه وآخر خلفه. ويقال: هما اثنان بالليل لكلّ واحد، واثنان بالنهار. ويقال: بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غدا، وأمّا الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غدا حتى يشهد طاعتك. ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يعلم من مساويك إلا القليل منها، ويكون علم المعاصي متفرقا فيهم"^(١).

عن معمر، قال: "تلا الحسن: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ} [ق: ١٧] فقال: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بك ملكان كريمان أحدهما، عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فامل ما شئت أقل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول: {وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء: ١٣] حتى بلغ: {حَسْبِيَ} [النساء: ٦]: «عدل والله لك من جعلك حسيب نفسك»^(٢).

قال السمعاني: "واعلم أن ملك اليمين يكتب الحسنات، وملك لشمال يكتب السيئات، واليمين محبوب الله ومختاره، ومنه ما روي عن النبي: «أنه كان يحب التيمين في كل شيء، حتى في ترجله وتنعله وطهوره»^(٣). ومن هذا إذا دخل المسجد يبدأ باليمين ليقدمها إلى موضع الخير، وإذا خرج يبدأ بالشمال ليكون مكث اليمين في موضع الخير أكثر وإن قل، وعلى عكس هذا دخول موضع الخلاء والخروج منه»^(٤).

القرآن

{مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (١٨) [ق: ١٨]

التفسير:

ما يلفظ من قول فيتكلم به إلا لديه ملك يرقب قوله، ويكتبه، وهو ملك حاضر مُعَدٌّ لذلك. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ما يلفظ الإنسان من قول فيتكلم به، إلا عندما يلفظ به من قول رقيب عتيد، يعني حافظ يحفظه، عتيد مُعَدٌّ"^(٥). قال الزجاج: "{عَتِيدٌ}، أي: ثابت لازم"^(٦). قال الكلبي: "حاضر معه يحفظ عمله"^(٧). قال ابن أبي زمنين: "أي: حافظ حاضر يكتبان كل ما يلفظ به"^(٨).

(١) لطائف الإشارات: ٤٥٠/٣-٤٥١. قال المحقق: "واضح من ذلك مقدار ما يبعثه الصوفية في نفوس العصاة من تفاؤل ورجاء أملا في فتح باب التوبة".

(٢) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٥٣): ص ٢٢٩/٣.

(٣) في صحيح البخاري (١٦٨): ص ٤٥/١، عن عائشة، قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم «يعجبه التيمين، في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله».

والحديث أخرجه مسلم في الطهارة باب التيمين في الطهور وغيره رقم (٢٦٨).

(يعجبه): يحب من الإعجاب وهو الرغبة في الشيء لحسنه. (اليمين): استعمال اليمين في تعاطي الأشياء والابتداء باليمين وهو المقصود هنا. (تنعله) لبسه النعل. (ترجله) دهن شعره وتسريحه. (طهوره) تطهره من الحدث أو النجس. (شأنه كله) كل عمل من الأعمال الطيبة المستحسنة لا الأعمال الخبيثة المستفجرة فإنه يستعمل لها اليسار ويبدأ باليسار كالأستجاء ودخول بيت الخلاء.

(٤) تفسير السمعي: ٢٤٠/٥.

(٥) تفسير الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(٦) معاني القرآن: ٤٥/٥.

(٧) نقلا عن: التفسير البسيط للواحد: ٣٩٥/٢٠، وانظر: انظر: "الوسيط" ٤/ ١٦٥، و"معالم التنزيل" ٤/ ٢٢٢، "وتفسير القرطبي": ١١/ ١٧، ولم ينسبه لقائل.

قال ابن كثير: "مَا يَلْفُظُ، أي: ابن آدم {مِنْ قَوْلٍ}، أي: ما يتكلم بكلمة {إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الأنفطار: ١٠ - ١٢]"^(٢).

قال الثعلبي: "عَتِيدٌ": حاضر، وهو بمعنى: المعتد من قوله: أَعْتَدْنَا، والعرب تعاقب بين «التاء» و«الذال» لقرب مخرجهما، فيقول: اعتددت، وأعددت، وهرذ، وهرت، وكبذ، وكبت، ونحوهما، قال الشاعر^(٣):

لئن كنت مني في العيان مغيبا ... فذكرك عندي في الفؤاد عتيد^(٤).

وفي قوله تعالى: {إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ} [ق: ١٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه المتتبع للأمر. حكاه الماوردي^(٥).

الثاني: أنه الحافظ، قاله السدي^(٦)، ومقاتل^(٧)، وسهل بن عبدالله^(٨).

قال سهل: "أي: حافظ حاضر لا يغيب عنه، ولا يعلم الملك ما في الضمير من الخير والشر إلا عند مساكنة القلوب إياه، فيظهر أثر ذلك على الصدر من الصدر إلى الجوارح نور ورائحة طيبة عند العزم على الخير، وظلمة ورائحة منتنة عند العزم على الشر، والله يعلم ذلك منه على كل حال، فليتقه بقوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١]"^(٩).

الثالث: أنه الشاهد، قاله الضحاك^(١٠).

قال ابن عباس: "جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار، يحفظان عليه عمله، ويكتبان أثره"^(١١).

واختلف فيما يكتب الملكان على قولين:

أحدهما: أنهما يكتبان كل شيء حتى أتينه في مرضه. وهو قول ابن عباس-في رواية-^(١٢)، والحسن^(١٣)، وقتادة^(١٤)، وابن زيد^(١٥).

قال ابن زيد: "جعل معه من يكتب كل ما لفظ به، وهو معه رقيب"^(١٦).

قال ابن عباس: "يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت جئت، رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره، فذلك قوله: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ} [الرعد: ٣٩]"^(١٧).

قال الجصاص: "ومن علم أنه مؤاخذ بكلامه قل كلامه فيما لا يعنيه"^(١٨).

وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طائوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأئين. فلم يئن أحمد حتى مات -رحمه الله-^(١).

(١) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٧٢/٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

(٣) البيت بلا نسبة في الكشف والبيان: ١٠٠/٩، وتفسير القرطبي: ١١/١٧.

(٤) الكشف والبيان: ١٠٠/٩.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٤٧/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٤٧/٥.

(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٨) تفسير التستري: ١٥١.

(٩) تفسير التستري: ١٥١.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ٣٤٧/٥.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٤٤/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٣٢): ص ٣٣٠٨/١٠.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(١٦) أخرجه الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٣٢): ص ٣٣٠٨/١٠.

(١٨) أحكام القرآن: ٢٣٩/٢.

الثاني: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. وهذا قول ابن عباس-في رواية أخرى^(٢)، وعكرمة^(٣).

عن عكرمة عن ابن عباس، قال: "إنما يكتب الخير والشر لا يكتب يا غلام أسرج الفرس، ويا غلام اسقني الماء"^(٤).

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال فإذا عمل العبد حسنة كتبها بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئاً وإن لم يستغفر الله كتبت عليه سيئة واحدة"^(٥).

قال ابن كثير: "وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: {مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}"^(٦).

عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه"^(٧).

(١) رواه صالح بن الإمام أحمد في سيرة أبيه، انظر: سيرة الإمام أحمد: ص ١٢٧. ولفظه: "وكنتم أنام بالليل إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله وقال لي جنني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاووس أنه كان يكره الأئنين فقرأته عليه فلم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها".

(٢) نقلا عن: تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٥/٢٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٣٣): ص ٣٣٠٨/١٠.

(٥) حديث ضعيف. في إسناده جعفر بن الزبير متروك متهم، والقاسم وإن وثقه ابن معين والترمذي، فقد ضعفه ابن حبان، وقال أحمد: روى عنه علي بن زيد أعاجيب، ولا أراها إلا من قبل القاسم، وقال ابن معين بعد أن وثقه: والثقات يروون عنه الأحاديث. أي الواهية- ولا يرفعونها ثم قال: يجيء من المشايخ الضعفاء ما يدل حديثهم على ضعفه. وأخرجه الطبراني في «الكبيرة» ٧٩٧١ من طريق عبد القاهر بن شعيب، والبيهقي في «الشعب» ٧٠٤٩ من طريق مروان بن معاوية كلاهما عن جعفر بن الزبير عن القاسم بن محمد عن أبي أمامة.

وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٧٠٥٠ والواحد في «الوسيط» ١٦٥-١٦٦ من طريقين عن إسماعيل بن عيسى العطار عن المسيب بن شريك عن بشر بن نمر عن القاسم به دون صدره، وإسماعيل ضعيف ومثله القاسم. وورد بلفظ «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتب واحدة». أخرجه البيهقي ٧٠٥١ وأبو نعيم ١٢٤/٦ والواحد في ١٦٥ والطبراني ٧٧٦٥ من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن عروة بن رويم عن القاسم به.

وإسناده ضعيف، وعلته القاسم، وكذا إسماعيل ضعفه غير واحد مطلقا. وضعفه بعضهم في روايته خاصة عن- غير الشاميين. قال الهيثمي في «المجمع» ٢٠٨/١٠: وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب، ولكن ورد من وجه آخر رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها وثقوا! قلت: فيه القاسم كما تقدم، ولا يحتج بما ينفرد به، وتعيين ست ساعات أو سبع ساعات غريب جدا. وله شاهد من حديث أم عصمة فيه «ثلاث ساعات» وفي الإسناد سعيد بن سنان وهو متروك، أخرجه الطبراني في «الأوسط» ١٧، فهذا شاهد لا يفرح به، وهو يعارض الأول في تعيين الزمن. الخلاصة: الحديث بهذا اللفظ ضعيف جدا، واللفظ المختصر عن إسماعيل بن عياش الذي أوردته ضعيف فقط، وشاهده ليس بشيء، وقد أورده الألباني في «الصحيحة» ١٢٠٩ وحسنه وليس كما قال بل الإسناد ضعيف والمتن غريب، ولا يتدين بحديث ينفرد به القاسم، وفي الطريق إليه جعفر وهو متروك أو ابن عياش، وهو غير حجة.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٧.

(٧) المسند (٤٦٩/٣) وسنن الترمذي برقم (٢٣١٩) والنسائي في السنن الكبرى، كما في تحفة الأشراف (١٠٣/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

القرآن

{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق : ١٩]

التفسير:

وجاءت شدة الموت وغمرته بالحق الذي لا مردَّ له ولا مناص، ذلك ما كنت منه -أيها الإنسان - تهرب وتروغ.

قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق : ١٩]، أي: "وجاءت شدة الموت وغمرته بالحق الذي لا مردَّ له ولا مناص"^(١).

قال ابن كثير: "يقول تعالى: وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق، أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه"^(٢).

قال الزجاج: "أي: جاءت السكرة التي تدل الإنسان على أنه ميت. {بالحق}، أي: بالموت الذي خلق له"^(٣).

قال النحاس: "{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ} أي: شدته وغلبته على فهم الإنسان حتى يكون كالسكران من الشراب أو النوم. {بالحق}، أي: بأمر الآخرة الذي هو حق حتى يتبينه عياناً"^(٤).

وفي قوله تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [ق : ١٩]، وجهان من التفسير^(٥):

أحدهما: وجاءت سكرة الموت وهي شدته وغلبته على فهم الإنسان، كالسكرة من النوم أو الشراب بالحق من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه.

الثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت.

قال الزمخشري: "«سكرة الموت»: شدته الذاهبة بالعقل. و«الباء» في {بالحق} للتعدي،

يعنى: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال: من سعادة الميت وشقاوته، وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من أن كلُّ

نفس ذائقة الموت {أل عمران : ١٨٥، الأنبياء : ٣٥، العنكبوت : ٥٧}، ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: {تَنبُتُ بِالذُّهْنِ} [المؤمنون : ٢٠]، أي: وجاءت ملتبسة بالحق، أي: بحقيقة الأمر.

أو بالحكمة والغرض الصحيح، كقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الأنعام : ٧٣]

"^(٦)

وفي قراءة أبي بكر وابن مسعود-رضي الله عنهما-: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»^(٧).

وفيها وجهان من التفسير^(٨):

أحدهما: وجاءت سكرة الله بالموت، فيكون الحق هو الله تعالى ذكره.

الثاني: أن تكون السكرة هي الموت أضيفت إلى نفسها، كما قيل: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}. ويكون معنى الكلام: وجاءت السكرة الحق بالموت.

قال الفراء: "فإن شئت أردت {بالحق} أنه الله عزَّ وجلَّ، وإن شئت جعلت السكرة هي

الموت، أضيفتها إلى نفسها كأنك قلت: جاءت السكرة الحق بالموت، وقوله: «سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» يقول: بالحق الذي قد كان غير متبين لهم من أمر الآخرة، ويكون الحق هو الموت، أي

جاءت سكرة الموت بحقيقة الموت"^(٩).

(١) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٩٩/٧.

(٣) معاني القرآن: ٤٥/٥.

(٤) إعراب القرآن: ٥٠/٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٦/٢٢.

(٦) الكشف: ٣٨٥/٤-٣٨٦.

(٧) انظر: معاني القرآن للفراء: ٧٨/٣، وتفسير الطبري: ٣٤٦/٢٢ وقد وردت خطأ في الطبري حيث قال:

"قراءة عبد الله بن مسعود «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ»، وليست كذلك وإنما هي: «سكرة الحق بالموت».

(٨) انظر: معاني القرآن للفراء: ٧٨/٣، وتفسير الطبري: ٣٤٧/٢٢.

(٩) معاني القرآن: ٧٨/٣.

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق : ١٩] ، أي: " ذلك ما كنت منه -أيها الإنسان - تهرب وتروغ"^(١).

قال الطبري: " يقول: هذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحق هو الشيء الذي كنت تهرب منه، وعنه تروغ"^(٢).

قال النحاس: " أي: تلك السكرة ما كنت منه تهرب"^(٣).

قال ابن كثير: " أي : هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل : الكافر، وقيل : غير ذلك"^(٤).

وقال الحسن: " هو الكافر لم يكن شيء أبغض إليه من الموت"^(٥).

وفي معنى قوله تعالى: {تَحِيدُ} [ق : ١٩] ، وجهان :

أحدهما : أنه الفرار ، قاله الضحاك^(٦)، ومقاتل^(٧).

الثاني: العدول ، قاله السدي^(٨) . ومنه قول الشاعر :

ولقد قلت حين لم يك عنه ... لي ولا للرجال عنه محيد .

وفي نوع «ما» في قوله: {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} قولان^(٩):

أحدهما : أن «ما» هاهنا موصولة، أي : الذي كنت منه تحيد - بمعنى : تبتعد وتتأى وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك.

الثاني : أن «ما» نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

عن سمرّة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعياى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض : يا ثعلب، ديني. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات"^(١٠).

قال ابن كثير: " ومضمون هذا المثل : كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت"^(١١).

روي عن أبي وائل، قال: "لما كان أبو بكر رضي الله عنه يقضي، قالت عائشة رضي الله عنها هذا، كما قال الشاعر"^(١٢):

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال الله عزّ وجلّ: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}^(١٣).

(١) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٢) تفسير الطبري: ٣٤٧/٢٢.

(٣) إعراب القرآن: ٥٠/٤.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٩٩/٧.

(٥) حكاه عنه ابن أبي زمنين في "التفسير": ٢٧٢/٤.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٤٨/٥.

(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٢/٤.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٤٨/٥.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٠٠/٧.

(١٠) المعجم الكبير (٢٢٢/٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٠/٢) : "فيه معاذ بن محمد الهذلي، قال العقيلي : لا يتابع على رفع حديثه".

(١١) تفسير ابن كثير: ٤٠٠/٧.

(١٢) هذا عجز بيت، لحاتم الطائي وهو في ديوانه ص (٥٠)، وصدده كما في (اللسان: حشرج): «لَعَمْرُكَ مَا يُعْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْقَتَى».

وروايته في ديوانه (لندن سنة ١٨٧٢ ص ٣٩) :

أماوي ما يُعْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْقَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قال عبد الله بن مليكة: "صحبت ابن عباس رضي الله عنه من مكة إلى المدينة، فكنا إذا نزلنا منزلاً قام شطر الليل والناس نيام، ولقد رأيته ذات ليلة يقرأ: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيذٌ}، فظل يكررها وينشج حتى طلع عليه الفجر" (٣).

عن عمر بن عبد العزيز -من طريق سعيد بن أبي عروبة- أنه قال لابنه: "اقرأ. فقال: ما أقرأ؟ قال: سورة ق. فقرأ، حتى إذا بلغ: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} بكى، ثم قال: اقرأ، يا بني. قال: ما أقرأ؟ قال: سورة ق. حتى إذا بلغ ذكر الموت بكى أيضاً بكاء شديداً، ففعل ذلك مراراً" (٤).

القرآن

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)} [ق : ٢٠]

التفسير:

وَنُفِخَ فِي «القرن» نفخة البعث الثانية، ذلك النفخ في يوم وقوع الوعيد الذي توعد الله به الكفار. قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [ق : ٢٠]، أي: "وَنُفِخَ فِي «القرن» نفخة البعث الثانية" (٥).

قال الثعلبي: "يعني: نفخة البعث" (٦).

عن قتادة: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" أي: في الخلق" (٧).

عن مجاهد: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" قال: كهيئة البوق" (٨).

عن مجاهد: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" البوق" (٩).

قال مجاهد: "هو القرن، صاحبه آخذ به، فقبض مجاهد قبضتين بكفيه على طف القرن، بين طرفيه، وبين قدر قبضة أو نحوها قد برك على ركبة إحدى رجليه، فأشار فبرك على ركبة يسراه مقبياً على قدمي عقبه تحت فخذة وإليته وأطراف أصابعه في التراب، قد نصب ركبته اليمنى ووضع قدمها في التراب" (١٠).

قال عكرمة: "الصور مع إسرافيل فيه أرواح كل شيء تكون فيه، ثم ينفخ فيه الصاعقة فإذا نفخ نفخة البعث قال: الله: بعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده وداره ... أعظم من سبع سموات ومن الأرض قال: فخلق الصور على في إسرافيل وهو شاخص بصره متى يؤمر بالنفخ في الصور" (١١).

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن أعرابياً سأله عن الصور، قال: «قرن ينفخ فيه»" (١٢).

(١) لعله «سكرة الحق بالموت»، فإنها قراءة الصديق رضي الله عنه إلا أن تكون القراءة الأخرى رويت عنه أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٤٦/٢٢.

(٣) غريب القرآن في شعر العرب "مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس - رضي الله عنه وعن أبيه" ص: ١٧.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء -موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا ٣/ ١٨٥ - ١٨٦ (٨٤) -.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٦) الكشف والبيان: ١٠٠/٩.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢٤): ص ٢٩٢٩/٩.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢٣): ص ٢٩٢٩/٩.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢٤): ص ٢٩٢٩/٩.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢٤): ص ٢٩٢٩/٩.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢٢): ص ٢٩٢٨/٩.

(١٢) أخرجه الطبري: ١٢١/١٨.

قال الزجاج: " قال أهل اللغة: الصور جمع صورة. والذي جاء في التفسير أن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل - والله أعلم - إلا إن حملته أنه عند ذلك النفخ يكون بعث العباد ونشرهم"^(١).

عن يحيى بن أبي بكير، قال: "كنت في جنازة عمر بن ذر فلقيت مالك بن مغول، فحدثنا عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم وحنى الجبهة، وأصغى بالأذن متى يؤمر، فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قولوا حسبنا الله وعلى الله توكلنا، ولو اجتمع أهل منى ما أقالوا ذلك القرن» كذا قال، وإنما هو ما أقلوا"^(٢).

وفي رواية: " كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى ظهره وجحظ بعينه، قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله، توكلنا على الله"^(٣).

وعن أبي هريرة، قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما فرغ الله من خلق السماوات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو وضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر، قال أبو هريرة: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: قرن، قال: وكيف هو؟ قال: قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين"^(٤).

قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} [ق : ٢٠]، أي: " ذلك النفخ في يوم وقوع الوعيد الذي توعد الله به الكفار"^(٥).

قال الطبري: " يقول: هذا اليوم الذي ينفخ فيه هو يوم الوعيد الذي وعده الله الكفار أن يعذبهم فيه"^(٦).

قال النحاس: " أي: ما وعد الله عزّ وجلّ الكفار وأصحاب المعاصي بالنار"^(٧).

قال الثعلبي: " الذي وعده الله سبحانه للكفار يلعنهم فيه"^(٨).

قال مقاتل: " يعني: بالوعيد العذاب في الآخرة"^(٩).

قال ابن أبي زمنين: {الوعيد}، " يعني: الموعود"^(١٠).

القرآن

{وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق : ٢١]

التفسير:

وجاءت كل نفس معها مَلَكَان، أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير وشر.

قال الطبري: " وجاءت يوم ينفخ في الصور كلّ نفس ربها، معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر"^(١١).

قال ابن كثير: " أي : ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة"^(١).

(١) معاني القرآن: ٣/٣١٣.

(٢) أخرجه الطبري: ١٨ / ١٢١.

(٣) أخرجه الطبري: ١٨ / ١٢١ - ١٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ١٨ / ١٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٦) تفسير الطبري: ٢٢/٣٤٧.

(٧) إعراب القرآن: ٤/٥٠.

(٨) الكشف والبيان: ٩/١٠٠.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤/١١٢.

(١٠) تفسير ابن أبي زمنين: ٤/٢٧٢.

(١١) تفسير الطبري: ٢٢/٣٤٧.

أما «السائق»، ففيه أربعة أقوال : أحدها : أنه ملك يسوقه إلى المحشر، قاله أبو هريرة^(٢)، وابن عباس^(٣)، والضحاك^(٤)، وابن زيد^(٥)، وآخرون.

قال أبو هريرة: "السائق: الملك"^(٦).

قال عثمان بن عفان-رضي الله عنه-: "السائق يسوقها إلى أمر الله"^(٧).

قال مجاهد: "الملك: كاتب"^(٨).

قال مجاهد: "سائق يسوقها إلى أمر الله"^(٩).

قال قتادة: "سائق يسوقها إلى حسابها"^(١٠).

عن الحسن والربيع بن أنس في قوله: {سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، قالوا: "سائق يسوقها"^(١١).

عن ابن عباس، والضحاك، قالوا: "السائق من الملائكة"^(١٢).

قال ابن زيد: "وَمَلِكٌ يسوقه إلى محشره حتى يوافي محشره يوم القيامة"^(١٣).

عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلق له، إن الله إذا أراد خلقه قال للملك، اكتب رزقه، اكتب أثره اكتب أجله، اكتب شقيا أم سعيدا، ثم يرتفع ذلك الملك، ويبعث الله ملكا فيحفظه حتى يدرك، ثم يرتفع ذلك الملك، ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان، وجاء ملك الموت ليقبض روحه، فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده، وجاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فبسطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق وآخر شهيد، ثم قال: رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «إن قدامكم لأمرًا عظيما لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم»^(١٤).

الثاني : أنه أمر من الله يسوقه إلى موضع الحساب، حكاه الماوردي عن الضحاك^(١٥).

الثالث: أن السائق هو الذي كان يكتب عليه السيئات. قاله الكلبي^(١٦).

الرابع: أن السائق قرينها من الشياطين، سمي سائقًا؛ لأنه يتبعها وإن لم يحثها ويدفعها. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسوق أصحابه. قاله عبد الله بن مسلم^(١٧).

وأما «الشهيد»، ففيه أربعة أقوال :

(١) تفسير ابن كثير: ٤٠١/٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٦٣٥):ص٣٣٠٨/١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٣٥):ص٣٣٠٨/١٠.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٤٨-٣٤٧/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٤٨/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٤٨/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٤٨/٢٢، ٣٤٩.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٣٨):ص٣٣٠٩-٣٣٠٨/١٠.

(١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٤٨/٥.

(١٦) انظر: "الوسيط" ١٦٧/٤، "معالم التنزيل" ٢٢٣/٤.

(١٧) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٣٩٧/٢٠، وانظر: "الوسيط" ١٦٧/٤، "معالم التنزيل" ٢٢٣/٤، ولم ينسب.

قال ابن عطية: "حكاه عنه الثعلبي والقول في كتاب منذر بن سعيد وهو ضعيف". [المحرر الوجيز:

أحدها : أنه ملك يشهد عليه بعمله، وهذا قول عثمان بن عفان^(١)، وأبي هريرة^(٢)، والحسن^(٣)، وابن زيد^(٤). وآخرين.

قال أبو هريرة: "والشهيد: العمل"^(٥).

قال سهل: "يعني: كتبة في الدنيا تسوقه إلى المحشر"^(٦).

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "والشهيد يشهد عليها بما عملت"^(٧).

قال ابن زيد: "ملك وگل به يحصي عليه عمله"^(٨).

قال مجاهد وقتادة: "وشاهد يشهد عليها بما عملت"^(٩).

عن الحسن والربيع بن أنس: قالوا: "وشاهد يشهد عليها بعملها"^(١٠).

الثاني : أنها الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله بنفسه، قاله أبو هريرة^(١١)، ورواه العوفي عن ابن عباس^(١٢).

وفي رواية عن ابن عباس: "الشهيد: شاهد عليه من نفسه"^(١٣).

الثالث: أن الشاهد من أنفسهم: الأيدي والأرجل، والملائكة أيضا شهداء عليهم. قاله الضحاك^(١٤).

الرابع : أن الشهيد هو الذي كان يكتب الحسنات. قاله الكلبي^(١٥).

واختلف أهل التفسير في المعني بهذه الآيات، على أقوال:

أحدها: أن المعني بها: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قاله زيد بن أسلم^(١٦).

الثاني: عنى أهل الشرك. وهذا قول صالح بن كيسان^(١٧)، والضحاك^(١٨).

الثالث: أنها عامة في المسلم والكافر. وهذا قول حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس^(١٩)، وحكاها الماوردي عن الجمهور^(٢٠).

عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، قال: "سألت زيد بن أسلم، عن قوله الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} ... الآية، إلى قوله: {سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}، فقلت له: من يراد بهذا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت له رسول الله؟ فقال: ما تنكر؟ قال الله عز وجل: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}، قال: ثم سألت صالح بن كيسان عنها، فقال لي: هل سألت أحدا؟ فقلت: نعم، قد سألت عنها زيد بن أسلم، فقال: ما قال لك؟ فقلت: بل تخبرني ما تقول، فقال: لأخبرنك برأيي الذي عليه رأيي، فأخبرني ما قال لك؟ قلت: قال: يراد بهذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: وما علم زيد؟ والله ما سن عالية، ولا لسان فصيح، ولا معرفة بكلام العرب،

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٧/٢٢-٣٤٨.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٦٣٥):ص٣٣٠٨/١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٧/٢٢-٣٤٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٣٥):ص٣٣٠٨/١٠.

(٦) تفسير التستري: ١٥١.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٤٧/٢٢-٣٤٨.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٤٨/٢٢، ٣٤٩.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(١١) نقلا عن: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

(١٢) انظر: الكشف والبيان: ١٠١/٩. وتفسير ابن كثير: ٤٠١/٧، بدون إسناد.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٤٨/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢.

(١٥) انظر: "الوسيط" ١٦٧/٤، "معالم التنزيل" ٢٢٣/٤.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢-٣٥٠.

(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢-٣٥٠.

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٠/٢٢.

(١٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٩/٢٢-٣٥٠.

(٢٠) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

إنما يُراد بهذا الكافر، ثم قال: اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك، قال: ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، فقال لي مثل ما قال صالح: هل سألت أحدا فأخبرني به؟ قلت: إني قد سألت زيد بن أسلم وصالح بن كيسان، فقال لي: ما قال لك؟ قلت: بل تخبرني بقولك، قال: لأخبرتك بقولي، فأخبرته بالذي قال لي، قال: أخالفهما جميعاً، يريد بها البرّ والفاجر، قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، قال: فانكشف الغطاء عن البرّ والفاجر، فرأى كل ما يصير إليه^(١).

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بها البرّ والفاجر، لأن الله أتبع هذه الآيات قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ والإنسان في هذا الموضوع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحقّ {ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا"^(٢).

قال ابن عطية: "كُلُّ نَفْسٍ {يَعْمُ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: وشهيد بخيره، وشره، ويقوى في: شَهِيدٌ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والباق، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»^(٣). وكذلك يشهد بالشر الملائكة والباق والجوارح"^(٤).

القرآن

{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)} [ق : ٢٢]

التفسير:

لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان، فكشفنا عنك غطاءك الذي غطى قلبك، فزال الغفلة عنك، فبصرك اليوم فيما تشهد قوي شديد.

قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [ق : ٢٢]، أي: "لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان"^(٥).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد"^(٦).

وفي المعنى بقوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} [ق : ٢٢]، وجوه:

أحدها: أنه الكافر، كان في غفلة من عواقب كفره، قاله ابن عباس^(٧)، ومجاهد^(٨)، وسفيان^(٩). الثاني: أنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان في غفلة عن الرسالة مع قريش في جاهليتهم، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بانزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. قاله عبد الرحمن بن زيد^(١٠). وضعفه ابن كثير^(١١).

(١) أخرجه الطبري: ٣٥٠-٣٤٩/٢٢.

(٢) تفسير الطبري: ٣٥٠/٢٢.

(٣) أخرجه مالك (٦٩/١، رقم ١٥١)، والشافعي (٣٣/١)، وأحمد (٤٣/٣، رقم ١١٤١١)، وعبد بن حميد (ص ٣٠٦ رقم ٩٩٣)، والبخاري (٢٢١/١، رقم ٥٨٤)، والنسائي (١٢/٢، رقم ٦٤٤)، وابن ماجه (٢٣٩/١، رقم ٧٢٣)، وابن حبان (٥٤٦/٤، رقم ١٦٦١).

(٤) المحرر الوجيز: ١٦٢/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٦) تفسير الطبري: ٣٥٠/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(١١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٠١/٧. قال ابن كثير: "الظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا} يعني: من هذا اليوم، {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، قال: هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر يا محمد، كنت مع القوم في جاهليتهم. {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}"^(١).

قال الطبري: "وعلى هذا التأويل الذي قاله ابن زيد يجب أن يكون هذا الكلام خطابا من الله لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان في غفلة في الجاهلية من هذا الدين الذي بعثه به، فكشف عنه غطاءه الذي كان عليه في الجاهلية، فنفذ بصره بالإيمان وتبينه حتى تقرر ذلك عنده، فصار حادّ البصر به"^(٢).

الثالث: يريد به البرّ والفاجر، وكشف الغطاء عن البرّ والفاجر، فرأى كلّ ما يصير إليه، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالليقظة والدنيا كالمنام. قاله الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس^(٣). وبه قال الطبري^(٤).

قال السمعاني: "يقال: في كل غافل"^(٥).

الرابع: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد، لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية. أفاده الماوردي^(٦).

قال النحاس: "وأولى ما قيل في الآية أنها على العموم للبرّ والفاجر يدلّ على ذلك: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا نُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ}، فهذا عامّ لجميع الناس برّهم وفاجرهم، فقد علم أنّ معنى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت ثم جرى الخطاب على هذا في {لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، أي: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة مما عاينت فإن كان محسنا ندم إذ لم يزد، وإن كان مسيئا ندم إذ لم يقلع هذا لما كشف عنهما الغطاء، فبصرك اليوم نافذ لما عاينت"^(٧).

قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} [ق : ٢٢]، أي: "فكشفنا عنك غطاءك الذي غطى قلبك، فزال الغفلة عنك"^(٨).

قال ابن قتيبة: "أي: أريناك ما كان مستورا عنك في الدنيا"^(٩).

قال الطبري: "يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيتَه وعايينته، فزال الغفلة عنك"^(١٠).

قال النحاس: "أي: فبصرتناك"^(١١).

قال السمعاني: "أي: كشفنا عنك ما غشيك وغطى سمعك وبصرك وعقلك، حتى لم تسمع ولم تبصر ولم تعقل الحق، وهو في معنى قوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} [مريم : ٣٨] : ٣٨"^(١٢).

الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، أي : قوي ؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا يفهم ذلك. قال الله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم : ٣٨]، وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة : ١٢]".

(١) أخرجه الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٢) تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٠/٢٢.

(٥) تفسير السمعاني: ٢٤١/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

(٧) إعراب القرآن: ١٥١/٤.

(٨) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٩) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٩.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٥٠/٢٢.

(١١) إعراب القرآن: ١٥١/٤.

(١٢) تفسير السمعاني: ٢٤١/٥.

قال الزجاج: " هذا مَثَلٌ، المعنى: كنت بمنزلة من عليه غطاء وعلى قلبه غشاوة"^(١).
قال الزمخشري: " جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق. ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته: حديثا لتيقظه"^(٢).
وفي قوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ} [ق : ٢٢]، وجوه:
أحدها : أنه إذا كان في بطن أمه فولد ، قاله السدي^(٣).
الثاني : إذا كان في القبر فنشر، وهذا معنى قول ابن عباس^(٤).
قال ابن عباس: " الحياة بعد الموت"^(٥).
قال قتادة: " عاين الآخرة"^(٦).
الثالث : أنه وقت العرض في القيامة، وهذا معنى قول مجاهد^(٧).
قال مجاهد: " كشف الغطاء عنه يوم القيامة"^(٨).
وقال مقاتل: " يعني: عن غطاء الآخرة"^(٩).
الرابع : أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة، وهذا معنى قول ابن زيد^(١٠).
قوله تعالى: {فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق : ٢٢]، أي: " فبصرك اليوم فيما تشهد قوي شديد"^(١١).
قال الطبري: " يقول: فأنت اليوم نافذ البصر، عالم بما كنت عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر: إذا كان ذا علم به، وله بهذا الأمر بصر: أي علم"^(١٢).
وفي قوله تعالى: {فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق : ٢٢]، وجهان:
الوجه الأول: بصيرة القلب، لأنه يبصر بها من شواهد الأفكار ، ونتائج الاعتبار ما تبصر العين ما قابلها من قبلها من الأشخاص والأجسام. قاله الفراء^(١٣)، والزجاج^(١٤)، والنحاس^(١٥).
قال الفراء: " يُقُولُ: فَدْ كُنْتَ تُكْذِبُ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ عَالِمٌ نَافِذُ الْبَصْرِ، وَالْبَصْرُ هَاهُنَا: هُوَ الْعِلْمُ لَيْسَ بِالْعَيْنِ"^(١٦).
قال الزجاج: " أي: فعلمك بما أنت فيه نافذٌ، ليس يراد بهذا البصر من - بَصَرَ الْعَيْنِ - كما تقول: فلان بصير بالنحو والفقه، تُرِيدُ عَالِمًا بِهِمَا، وَلَمْ تَرِدْ بَصَرَ الْعَيْنِ"^(١٧).
قال النحاس: " أي: فعلمك نافذ. والبصر - هاهنا - بمعنى: العلم"^(١٨).
قال سهل: " يعني: بصر قلبك نافذ في مشاهدة الأحوال كلها"^(١٩).

(١) معاني القرآن: ٤٥/٥.

(٢) الكشف: ٣٨٦/٤.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٥٢/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٥٢/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٨) تفسير مجاهد: ٦١٤، وانظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.

(١١) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.

(١٣) انظر: معاني القرآن: ٧٨/٣.

(١٤) انظر: معاني القرآن: ٤٥/٥.

(١٥) انظر: إعراب القرآن: ١٥١/٤.

(١٦) معاني القرآن: ٧٨/٣.

(١٧) معاني القرآن: ٤٥/٥.

(١٨) إعراب القرآن: ١٥١/٤.

(١٩) تفسير التستري: ١٥٢.

وعلى هذا التفسير ففي قوله: {حَدِيدٌ} [ق : ٢٢]، وجهان^(١):
أحدهما : سريع كسرعة مور الحديد .
الثاني : صحيح كصحة قطع الحديد .
الوجه الثاني : أن المراد به بصر العين وهو الظاهر ، فعلى هذا في قوله: {حَدِيدٌ}، ثلاثة وجوه
من التفسير:
أحدها : شديد، قاله الضحاك^(٢).
عن الضحاك: {فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} قال: يقول: شديد^(٣).
الثاني : بصير، قاله ابن عباس^(٤).
الثالث: أي: فأنت ثاقب البصر لما كشف عنك الغطاء. قاله ابن قتيبة^(٥).
وماذا يدرك البصر ؟ فيه خمسة وجوه:
أحدها : يعاين الآخرة ، قاله قتادة^(٦).
الثاني : لسان الميزان، قاله مجاهد^(٧)، والضحاك^(٨).
عن الضحاك بن مزاحم، في قوله: {فبصرك اليوم} قال: كلسان الميزان {حديد} قال:
حديد النظر؛ شديد^(٩).
قال مجاهد: " يعني: نظرك إلى لسان ميزانك، حين توزن حسناتك وسيئاتك"^(١٠).
قال السمعاني: "ومنه حدة البصر"^(١١).
قال الطبري: " وأحسبه أراد بذلك أن معرفته وعلمه بما أسلف في الدنيا شاهد عدل
عليه، فشبّه بصره بذلك بلسان الميزان الذي يعدل به الحق في الوزن، ويعرف مبلغه الواجب
لأهله عما زاد على ذلك أو نقص، فكذلك علم من وافى القيامة بما اكتسب في الدنيا شاهد عليه
كلسان الميزان"^(١٢).
الثالث : ما يصير إليه من ثواب أو عقاب، وهو معنى قول ابن عباس^(١٣).
الرابع : ما أمر به من طاعة وحذره من معصية، وهو معنى قول ابن زيد^(١٤).
الخامس : العمل الذي كان يعمل في الدنيا ، قاله الحسن^(١٥).
وقال مقاتل: " يعني: يشخص بصره، ويدبم النظر فلا يطرف حتى يعاين في الآخرة ما
كان يكذب به في الدنيا"^(١٦).
قال يحيى بن سلام: " أبصر حين لم ينفعه البصر"^(١٧).
فوائد الآيات: [٢٢-١٣]:

- (١) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.
- (٢) تفسير إسحاق البستي(١٠٣٤):ص٤٠٩/٢، وانظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.
- (٣) تفسير إسحاق البستي(١٠٣٤):ص٤٠٩/٢، وانظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.
- (٤) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.
- (٥) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٩.
- (٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.
- (٧) تفسير البغوي ٣٦٠ /٧.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.
- (٩) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر. وعلق أوله الطبري: ٣٥٢/٢٢.
- (١٠) تفسير البغوي ٣٦٠ /٧.
- (١١) تفسير السمعاني: ٢٤٢/٥.
- (١٢) تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٢/٢٢.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢٢.
- (١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٠/٥.
- (١٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.
- (١٧) تفسير يحيى بن سلام: ٢١٠/١.

- ١- بيان قدرة الله وعلمه وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ألا فليترك الله امرؤ.
- ٢- تقرير عقيدة أن لكل إنسان مكلف ملكين يكتبان حسناته وسيئاته.
- ٣- بيان أن للموت سكرات قطعاً اللهم هون علينا سكرات الموت.
- ٤- ساعة الاحتضار يؤمن كل إنسان بالدار الآخرة إذ يرى ما كان ينكره يراه بعينه.
- ٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض بعض أحوال وأهوال الآخرة.

القرآن

{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدِيَّ عَتِيدٌ} {٢٣} [ق : ٢٣]

التفسير:

وقال الملك الكاتب الشهيد عليه: هذا ما عندي من ديوان عمله، وهو لديّ مُعَدُّ محفوظ حاضر. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وقال قرين هذا الإنسان الذي جاء به يوم القيامة معه سائق وشهيد: ربّ هذا الذي هو عندي معدّ محفوظ"^(١). قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: {هَذَا مَا لَدِيَّ عَتِيدٌ}، أي: معتمد محضر بلا زيادة ولا نقصان"^(٢). قال أبو الليث: "يعني: هذا الذي وكلتني به قد أتيتك به، وهو حاضر"^(٣). قال مقاتل: "نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي"^(٤). وفي تفسير «قرينه»، ستة أقوال: أحدها: أنه الملك الشهيد عليه، قاله الحسن^(٥)، وقتادة^(٦)، وابن قتيبة^(٧). عن ابن جريج في قوله {وقال قرينه} قال: "ملكه"^(٨). وروي عن مجاهد: {هَذَا مَا لَدِيَّ عَتِيدٌ}، قال: "هذا الذي وكلني به من بني آدم، قد أحضرته، وأحضرت ديوان أعماله"^(٩). الثاني: أنه ملكه الذي كان يكتب عمله السيئ في دار الدنيا، يقول لربّه: قد كتبت ما وكلتني به، فهذا عندي معدّ حاضر من عمله الخبيث، فقد أتيتك به وبعمله. قاله مقاتل^(١٠). الثالث: أنه قرينه الذي قبض له من الشياطين، قاله مجاهد^(١١)، والزهاوي^(١٢). عن مجاهد: "وقال قرينه} قال: الشيطان الذي قبض له"^(١٣). قال عبدالقاهر الجرجاني: "وقال قرينه} تابعه من الشياطين {هَذَا مَا لَدِيَّ عَتِيدٌ} لمخافة أن يؤخذ أخذ الكفيل"^(١٤).

(١) تفسير الطبري: ٣٥٣/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.

(٣) بحر العلوم: ٣٣٦/٣.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٣/٢٢.

(٧) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢٣٩.

(٨) الدر المنثور: ٦٠٠/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٩) انظر: الكشف والبيان: ١٠١/٩.

(١٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.

(١١) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٥، والدر المنثور: ٦٠٠/٧.

(١٢) حكاة عنه ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٦٣/٥.

(١٣) أخرجه الفريابي - كما في التعليق ٣١٧/٤ - وعلقه البخاري في صحيحه ١٣٧/٦. وكذا عزاه السيوطي

في "الدر المنثور: ٦٠٠/٧، إلى الفريابي عند تفسير هذه الآية. وهو في تفسير مجاهد: ص ٦١٥ في تفسير قوله

تعالى: {قال قرينه ربنا ما أطغيته} [ق: ٢٧]، وانظر: النكت والعيون: ٣٤٩/٥.

(١٤) درج الدرر في تفسير الآي والسور: ١٥٦٥/٤.

قال الزمخشري: " هو الشيطان الذي قبض له في قوله: {نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، يشهد له قوله تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ}"^(١).

قال ابن عطية: " وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ}؛ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف"^(٢).

الرابع: أنه سائقه الذي وُكِّلَ به. قاله ابن زيد^(٣).

قال ابن عطية: " فكأنه قال: هذا الكافر الذي جعل إلى سوقه، فهو لدي حاضر"^(٤).

الخامس: أن قَرِينُهُ من زبانية جهنم، أي: قال هذا العذاب الذي لدي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد، ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به. حكاه ابن عطية عن جماعة من المفسرين^(٥).

قال ابن عطية: " ولفظ القرين: اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين وتحتمله هذه الآية، أي هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي، وهو موجب عذابه، ومماشي الإنسان في طريقه قرين، وقال الشاعر^(٦):

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
والقرين الذي في هذه الآية، غير القرين الذي في قوله: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ} إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماء: {قَرِينُهُ} في هذه الآية: عمله قلبا وجازحا"^(٧).

السادس: أنه يعم السائق والشهيد. قاله الطبري^(٨).

قال ابن كثير: " وقد اختار ابن جرير^(٩) أن يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة"^(١٠).

وفي قوله: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} [ق: ٢٣] وجهان:

أحدهما: هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها بإغوائى وإضلالى. ذكره الزمخشري^(١١)، والبيضاوي^(١٢).

قال الزمخشري: " المعنى: أن ملكا يسوقه وآخر يشهد عليه، وشيطاننا مقرونا به، يقول: قد أعدتته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى"^(١٣).

الثاني: هذا الذي وُكِّلَني به من بني آدم، قد أحضرتة، وأحضرت ديوان أعماله، قاله مجاهد^(١٤).

عن ابن جريج: " {هذا ما لدي عتيد} قال: الذي عندي عتيد للإنسان حفظته حتى جئت به"^(١٥).

عن مجاهد: {هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، قال: " هذا الذي وُكِّلَني به من بني آدم، قد أحضرتة، وأحضرت ديوان أعماله"^(١٦).

قال ابن قتيبة: " يعني: ما كتبه من عمله، حاضر عندي"^(١٧).

- (١) الكشاف: ٣٨٦/٤.
- (٢) المحرر الوجيز: ١٦٣/٥.
- (٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٣/٢٢.
- (٤) المحرر الوجيز: ١٦٣/٥.
- (٥) انظر: المحرر الوجيز: ١٦٣/٥.
- (٦) البيت منسوب إلى عدى بن زيد. انظر: نهاية الأرب ٦٥ / ٣ والعقد الفريد ٣١١ / ٢، وهو في تفسير الطبري ٩٠ / ٤، وذكره الخطابي في «العزلة» ص: ٦٩.
- (٧) المحرر الوجيز: ١٦٣/٥.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٣/٢٢.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٣/٢٢.
- (١٠) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.
- (١١) انظر: الكشاف: ٣٨٦/٤.
- (١٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١٤٢/٥.
- (١٣) الكشاف: ٣٨٦/٤.
- (١٤) انظر: الكشف والبيان: ١٠١/٩.
- (١٥) الدر المنثور: ٦٠٠/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.
- (١٦) انظر: الكشف والبيان: ١٠١/٩.
- (١٧) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢٣٩.

قال أبو عبيدة: " {عَتِيدٌ}، مجازة: معد" (١).
قال ابن زيد: " العتيد: الذي قد أخذه، وجاء به السائق والحافظ معه جميعاً" (٢).

القرآن

{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)} [ق : ٢٤-٢٦]

التفسير:

يقول الله للملكين السائق والشهيد بعد أن يفصل بين الخلائق: ألقيا في جهنم كل جاحد أن الله هو الإله الحق، كثير الكفر والتكذيب معاند للحق، مَنَّاعٍ لأداء ما عليه من الحقوق في ماله، مُعْتَدٍ على عباد الله وعلى حدوده، شاكٌّ في وعده ووعيده، الذي أشرك بالله، فعبد معه معبودًا آخر من خلقه، فألقياه في عذاب جهنم الشديد.

قوله تعالى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [ق : ٢٤]، أي: " قول الله للملكين السائق والشهيد بعد أن يفصل بين الخلائق: ألقيا في جهنم كل جاحد أن الله هو الإله الحق، كثير الكفر والتكذيب معاند للحق" (٣).

قال ابن قتيبة: " يقال: هو قول الملك، ويقال: قول الله جل ذكره" (٤).

وفي {أَلْقِيَا} [ق : ٢٤]، ثلاثة أقوال (٥):

أحدها : أن المأمور بـ«ألقيا كل كافر في النار»: ملكان. قاله الزجاج (٦).

قال الزمخشري: " {أَلْقِيَا}، خطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد" (٧).

الثاني : أنه خارج مخرج تننية القول على معنى قولك: ألق ألق ، قف قف ، تأكيداً للأمر. وهذا قول المبرد (٨).

الثالث : يجوز أن يكون واحد ويؤمر بلفظ الاثنين، ذكره مقاتل (٩)، والفراء (١٠)، والطبري (١١)، ومنه قول الشاعر (١٢):

وإن تزجراني يا ابنُ عفان أنزجر ... وإن تدعاني أحم عرضاً ممئعاً

قال الفراء: " والعرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان، فيقولون للرجل: قوما عنا، وسمعت بعضهم: ويحك! ارحلها وازجرها، ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرقعة، أدنى ما يكونون ثلاثة، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى الشعراء أكثر شيء قبلاً: يا صاحبي، يا خليلي، فقال امرؤ القيس (١٣):

خَلِيلِي مَرًّا بِي عَلَى أُمَّ جُنْدُبٍ ... لِنَقْضِي حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعْدَبِ

ثم قال:

ألم تَرَيَانِي كُلَّمَا جُنْتُ طَارِقًا ... وَجَدْتُ بِهَا طَيْبًا وَإِنْ لَمْ تُطَيِّبِ

(١) مجاز القرآن: ٢٧٢/١.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٥٣/٢٢.

(٣) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢٣٩.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٠/٥-٣٥١.

(٦) انظر: معاني القرآن: ٤٥/٥.

(٧) الكشف: ٣٨٧/٤.

(٨) حكاه عنه الزجاج في معاني القرآن: ٤٦/٥.

(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٧٩-٧٨/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٤-٣٥٢/٢٢.

(١٢) البيت لسويد بن كراع العكلي في لسان العرب (جزز) ، والتنبيه والإيضاح ٢ / ٢٣٩ ، وتاج العروس (جزز) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٣٩ ، والمخصص ٢ / ٥ .

(١٣) انظر: "ديوانه" ص ٤١ ، ١٢١ ، "الخصائص" ٣ / ٢٨١ ، "التصريح بمضمون التوضيح" ١ / ٢٠٢ .

فرجع إلى الواحد، وأول الكلام اثنان" (١).
قال النحاس: "حدثنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد عن بكر بن محمد المازني،
قال: العرب تقول للواحد: «قوما» على شرط إذا أرادت تكرير الفعل، أي: قم قم، فجاؤوا بالألف
لتدلّ على هذا المعنى، وكذا «ألقيا» (٢).
وفي قوله تعالى: {كُلٌّ كَقَارٍ} [ق : ٢٤]، وجهان (٣):
أحدهما: أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه، وكفر بنعمه ولم يشكره.
قال الكلبي: "كفار للنعم" (٤).
الثاني: أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه.
قال الطبري: "يعني: كل جاحد وحدانية الله" (٥).
قال ابن كثير: "أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق" (٦).
وأما «العنيد»، ففيه ستة وجوه:
أحدها: أنه المعاند للحق، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين (٧).
قال الطبري: "وهو العاند عن الحق وسبيل الهدى" (٨).
قال الزجاج: "أي: عنيد عن الحق" (٩).
قال ابن أبي زمنين: "أي: معاند للحق مجتنبه" (١٠).
قال ابن كثير: "معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك" (١١).
وعن مجاهد وعكرمة: "مجانِب للحق معاند لله" (١٢).
الثاني: أنه المنحرف عن الطاعة، قاله قتادة (١٣).
الثالث: أنه الجاحد المتمرد، قاله الحسن (١٤).
الرابع: أنه المشاق، قاله السدي (١٥).
الخامس: أنه المعجب بما عنده المقيم على العمل به، قاله ابن بحر (١٦).
السادس: يعني: المعرض عن توحيد الله - تعالى - وهو الوليد بن المغيرة. قاله مقاتل (١٧).
قوله تعالى: {مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ} [ق : ٢٥]، أي: "مناع لأداء ما عليه من الحقوق في ماله" (١٨).
قال السمعاني: "هو مانع الحقوق والصدقات والزكوات" (١٩).
قال ابن كثير: "أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة" (٢٠).

-
- (١) معاني القرآن: ٧٨/٣-٧٩.
(٢) إعراب القرآن: ١٥١/٤-١٥٢.
(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(٤) انظر: التفسير البسيط: ٤٠٢/٢، ومعالم التنزيل: ٢٢٤ / ٤.
(٥) تفسير الطبري: ٣٥٥/٢٢.
(٦) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.
(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(٨) تفسير الطبري: ٣٥٥/٢٢.
(٩) معاني القرآن: ٤٥/٥.
(١٠) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٧٣/٤.
(١١) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.
(١٢) حكاه عنهما الثعلبي في الكشف والبيان: ١٠٢/٩.
(١٣) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(١٤) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(١٥) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.
(١٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.
(١٨) التفسير الميسر: ٥١٩.
(١٩) تفسير السمعاني: ٢٤٢/٥.
(٢٠) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.

وفي قوله تعالى: {مَنَّاغ لِّلْخَيْرِ} [ق : ٢٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه منع الزكاة المفروضة ، قاله قتادة^(١).
الثاني : محمول على عموم الخير من قول وعمل^(٢).
الثالث : أن الخير المال كله، ومنعه حبسه عن النفقة في طاعة الله ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين^(٣).

قال الطبري: "الصواب من القول في ذلك عندي أنه كلّ حق وجب لله، أو لآدمي في ماله، والخير في هذا الموضع هو المال. وإنما قلنا ذلك هو الصواب من القول، لأن الله تعالى ذكره عمّ بقوله {مَنَّاغ لِّلْخَيْرِ} عنه أنه يمنع الخير ولم يخص منه شيئاً دون شيء، فذلك على كلّ خير يمكن منعه طالبه"^(٤).

قوله تعالى: {مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ} [ق : ٢٥]، أي: "مُعْتَدٍ على عباد الله وعلى حدوده، شاكّ في وعده ووعيده"^(٥).

قال السمعاني: "أي: ذي عدوان ذي ريبة"^(٦).

قال ابن كثير: "مُعْتَدٍ، أي : فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد، {مريب}، أي : شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره"^(٧).

قال الطبري: "مُعْتَدٍ يقول: معتد على الناس بلسانه بالبذاء والفحش في المنطق، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً، {مريب}، يعني: شاكّ في وحدانية الله وقدرته على ما يشاء"^(٨).

وفي قوله تعالى: {مُرِيْبٍ} [ق : ٢٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه الشاك في الله ، قاله السدي^(٩)، ومقاتل^(١٠).

الثاني : أنه الشاك في وحدانية الله وقدرته على ما يشاء، قاله قتادة^(١١).
الثالث : أنه المتهم. حكاه الماوردي^(١٢). واستشهد بقول الشاعر^(١٣):

بُنَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أُرِيْبَتِي ... فَقُلْتُ كَلَانَا يَا بُنَيْنُ مُرِيْبٍ

وأربينا من لا يؤدي أمانة ... ولا يحفظ الأسرار حين يغيب

قال القشيري: "أي: يشكك الناس في أمره لأنه غير مخلص، ويلبس على الناس حاله لأنه منافق"^(١٤).

قال ابن الأثير: "الريب هو بمعنى: الشك.. يقال: رابني الشيء وأرابني، بمعنى:

شككني، وقيل: أرابني في كذا، أي: شككني وأوهمني الريبة فيه، ومنه الحديث: «دَعُ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ»^(١٥)، أي: دع ما تشك فيه إلى ما لا تشك فيه"^(١٦)، ومنه: ريب الزمان ، وهو ما ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه"^(١٧).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.

(٤) تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٦) تفسير السمعاني: ٢٤٢/٥.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.

(٨) تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(٩) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٣/٤.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(١٢) انظر: النكت والعيون: ٣٥١/٥.

(١٣) ديوانه: ١٧، بتحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.

(١٤) لطائف الإشارات: ٤٥٢/٣.

(١٥) ابن حنبل في مسنده ج ١/ ص ٢٠٠ حديث رقم: ١٧٢٧، رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي حديث حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم(١٧٣٧).

قال الماتريدي: "المعتدي: من الاعتداء، وهو المجاوز عن حدود الله - تعالى - والمريب: من الريبة، وهو الشك والفساد، فكأن المريب هو الذي فيه الشك والفساد جميعاً"^(٣).
قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [ق : ٢٦]، أي: "الذي أشرك بالله، فعبد معه معبوداً آخر من خلقه"^(٤).

قال الطبري: يقول: "الذي أشرك بالله فعبد معه معبوداً آخر من خلقه"^(٥).
قال ابن كثير: "أي: أشرك بالله فعبد معه غيره"^(٦).
قال الماتريدي: أي: "وصف وذكر مع الله إلهاً آخر، وهو كقوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ}، وقوله تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا}، أي: قالوا ووصفوا أنهم إنثاء، وإلا لا يملكون جعل ذلك حقيقة"^(٧).

عن قتادة، قوله: "الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، هو المشرك"^(٨).
عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين"^(٩).
قوله تعالى: {فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [ق : ٢٦]، أي: "فألقيه في عذاب جهنم الشديد"^(١٠).

قال الطبري: "يقول: فألقياه في عذاب جهنم الشديد"^(١١).
قال الماتريدي: "وصف نار جهنم بالشدة؛ لما أنه لا انقطاع لها، وكل عذاب يرجى انقطاعه في بعض الأزمان ففيه بعض الراحة"^(١٢).

القرآن

{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (٢٧) {ق : ٢٧}

التفسير:

قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللتته، ولكن كان في طريق بعيد عن سبيل الهدى.

قوله تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ} [ق : ٢٧]، أي: "قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللتته"^(١٣).

قال الطبري: يقول: قال قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير - وهو شيطانه الذي كان موكلاً به في الدنيا - ما أنا جعلته طاغياً متعدياً إلى ما ليس له، وإنما يعني بذلك الكفر بالله"^(١٤).
قال ابن كثير: "أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: {رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ}، أي: ما أضللتته"^(١).

(١) النهاية في غريب الحديث: والأثر: ٢٨٦/٢، وانظر اللسان: (ريب).

(٢) الكشاف: ٣٤/١.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٣٥٨/٩.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٥) تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٠٢/٧.

(٧) تأويلات أهل السنة: ٣٥٩/٩.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٥٧/٢٢.

(٩) سنن الترمذي (٢٥٧٤): ص ٧٠١/٤.

(١٠) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١١) تفسير الطبري: ٣٥٦/٢٢.

(١٢) تأويلات أهل السنة: ٣٥٩/٩.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٤) تفسير الطبري: ٣٥٧/٢٢-٣٥٨.

قال الماتريدي: " أي: قال شيطانه الذي أضله ودعاه إلى ما دعاه؛ فصار قرينه في الآخرة؛ لقوله - تعالى - : {وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. ويحتمل {قَرِينُهُ}، أي: رفيقه الذي كان معه يتبعه ويصدر عن رأيه. ثم هذا القول من قرينه إنما كان بعد أن كان منه إنكار لما كان منه من الكفر والشرك عن اختيار، وقال: هذا الذي أضلني وأطغاني، وهو الذي حملني عليه، كقولهم: {هُؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ}.. {رَبَّنَا مَا أَطَغَيْتُهُ}، أي: ما قهرته على الضلال، ولا لي قوة ذلك، ولكن اتبعني على ما كنت أنا فيه، وأطاعني من غير أن يكون مني إكراه وإجبار على ذلك، وكان الكفرة لحيرتهم وقلة حيلتهم أحياناً ينكرون الشرك؛ كقوله: {وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، وقوله: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}، ثم قال: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، وأحياناً يقولون: هؤُلاءِ أضلونا، وأحياناً يلعن بعضهم بعضاً"^(٢).

قال محمد بن كعب القرظي: "قال قرينه ربنا ما أطغيتُهُ ما أكرهته على الطغيان"^(٣).

عن ابن زيد، قوله: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَغَيْتُهُ}، قال: "تبرأ منه"^(٤).

عن مجاهد، قوله: "قَالَ قَرِينُهُ}، قال: الشيطان فيض له"^(٥).

قال قتادة: "قرينه الشيطان"^(٦).

قال الضحاك: "قرينه: شيطانه"^(٧).

قال ابن زيد: "قرينه من الجن"^(٨).

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [ق : ٢٧]، أي: "ولكن كان في طريق بعيد عن

سبيل الهدى"^(٩).

قال الطبري: "يقول: ولكن كان في طريق جائر عن سبيل الهدى جوراً بعيداً. وإنما

أخبر تعالى ذكره هذا الخبر، عن قول قرين الكافر له يوم القيامة، إعلاماً منه عباده، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة"^(١٠).

قال الماتريدي: "أي: كان في ضلال لا يرجى الرجوع ولا الانقطاع"^(١١).

قال ابن كثير: "أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر

تعالى في الآية الأخرى في قوله: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا فُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم : ٢٢]"^(١٢).

القرآن

{قَالَ لِمَا نَخْصِمُوا لَدِي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨)} [ق : ٢٨]

التفسير:

(١) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣٥٩/٩.

(٣) تفسير الثعلبي ١٠٢/٩.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٥٧/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٥٧/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٥٧/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٥٨-٣٥٧/٢٢.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(١١) تأويلات أهل السنة: ٣٥٩/٩.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

قال الله تعالى: لا تختصموا لديّ اليوم في موقف الجزاء والحساب; إذ لا فائدة من ذلك، وقد قَدِّمْتُ إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني.

قوله تعالى: {قَالَ لِمَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ} [ق : ٢٨]، أي: "قال الله تعالى: لا تختصموا لديّ اليوم في موقف الجزاء والحساب; إذ لا فائدة من ذلك"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال الله لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، وصفة قرنائهم من الشياطين {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ} اليوم"^(٢).

قال القشيري: أي: "وقد أمرتكم بالرشد ونهيتكم عن الغي"^(٣).

قال ابن كثير: "يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: {رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، أي: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ}، أي: عندي"^(٤).

قال ابن عباس: "إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم، وردّ عليهم قولهم"^(٥).

عن الربيع، قال: "قلت لأبي العالية: {لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ} وَقَدْ قَدِّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، قال أبو جعفر الطبري: أحسبه قال: هم أهل الشرك، وقال في آية أخرى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}، فهم أهل القبلة"^(٦).

قوله تعالى: {وَقَدْ قَدِّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} [ق : ٢٨]، أي: "وقد قَدِّمْتُ إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني"^(٧).

قال الطبري: يقول: "وَقَدْ قَدِّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} في الدنيا قبل اختصامكم هذا، بالوعيد لمن كفر بي، وعصاني، وخالف أمري ونهيتي في كتبي، وعلى ألسن رسلي"^(٨).

قال ابن كثير: "أي: قد أعذرت إليكم على أسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيّنات والبراهين"^(٩).

عن أبي عمران، قوله: "وَقَدْ قَدِّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ}، قال: بالقرآن"^(١٠).

قال ابن زيد: "يقول: قد أمرتكم ونهيتكم، قال: هذا ابن آدم وقرينه من الجن"^(١١).

القرآن

{مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)} [ق : ٢٩]

التفسير:

ما يُغَيِّرُ القول لديّ، ولست أعذب أحدًا بذنب أحد، فلا أعذب أحدًا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

قوله تعالى: {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيْ} [ق : ٢٩]، أي: "ما يُغَيِّرُ القول لديّ"^(١٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره مخبراً عن قبيله للمشركين وقرنائهم من الجن يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: {لَأْمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها"^(١).

(١) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٢) تفسير الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(٣) لطائف الإشارات: ٤٥٣/٣.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٥٨-٣٥٩/٢٢.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٨) تفسير الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٥٨/٢٢.

(١٢) التفسير الميسر: ٥١٩.

قال سهل: "أي: ما يتغير عندي ما سبق في علمي، فيكون بخلاف ما سبق العلم فيه" (٢).
قال الزجاج: "أي: من عمل حسنة «قَلَّهْ عَشْرُ أَمْثَالِهَا»، ومن عمل سيئة - «قَلَّا يُجْزَى
إِلَّا مِثْلَهَا»" (٣).

عن مجاهد، قوله: "مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ"، قد قضيت ما أنا قاض" (٤).
قوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [ق : ٢٩]، أي: "ولست ظالماً حتى أعذب أحداً بدون
استحقاق، وأعاقبه بدون جرم" (٥).
قال ابن عباس: "ما أنا بمُعَذِّبٍ مَنْ لَمْ يَجْتَرِمْ" (٦).
قال الطبري: "يقول: ولا أنا بمعاقب أحداً من خلقي بجرم غيره، ولا حامل على أحد
منهم ذنب غيره فمعذبه به" (٧).
قال ابن كثير: "أي: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام
الحجة عليه" (٨).

قال مقاتل: "يقول: لم أعذب على غير ذنب" (٩).
قال السمعاني: "أي: لا أنقص ثواب المحسنين، ولا أزيد في مجازاة المسيئين" (١٠).
قال ابن وهب: "وحدثنا معاوية بن صالح عن أبي عمران أنه سمع أم الدرداء تقول: إن
رجلاً ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له كان يأتي بعض [جيرانه]، فقتله، وإنه أفيد منه فقتل؛
فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة؛ ثم إن آل عمران
انسلت، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: {ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}؛ قال: فخرجت
منه كالسحابة العظيمة" (١١).
قال السدي: "الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب، فيقول: رب إنك قضيت أنك لست بظلام
للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً}" (١٢).

القرآن

{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)} [ق : ٣٠]

التفسير:

اذكر -أيها الرسول- لقومك يوم نقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وتقول جهنم: هل من زيادة
من الجن والإنس؟ فيضع الرب -جل جلاله- قدمه فيها، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط،
قط، أي: حسبني، قد امتلأت ليس في مزيد.
قوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ} [ق : ٣٠]، أي: اذكر -أيها الرسول- لقومك
يوم نقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟" (١٣).

(١) تفسير الطبري: ٣٥٩/٢٢.

(٢) تفسير التستري: ١٥٢.

(٣) معاني القرآن: ٤٦/٥.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٥٩/٢٢.

(٥) صفوة التفاسير: ٢٢٩/٣.

(٦) الدر المنثور: ٦٠٢/٧، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٧) تفسير الطبري: ٣٥٩/٢٢.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

(٩) تفسري مقاتل بن سليمان: ١١٤/٤.

(١٠) تفسير السمعاني: ٢٤٤/٥.

(١١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٧): ص ٩/٣.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٢١١): ص ٢٣٢١/٧.

(١٣) التفسير الميسر: ٥١٩.

قال الطبري: "يقول: وما أنا بظلام للعبيد في {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأَتْ} وذلك يوم القيامة، ويوم نقول من صلة ظلام. وقال تعالى ذكره لجهنم يوم القيامة: {هَلْ امْتَلَأَتْ}؟ لما سبق من وعده إياها بأنه يملأها من الجنة والناس أجمعين"^(١).

قال الواحدي: "وهذا استفهام تحقيق وذلك أن الله عز وجل وعدها أن يملأها فلما ملأها قال لها: {هل امتلأت}"^(٢).

قرأ نافع وأبو بكر «يقول»، بالياء، أي: يقول الله، لقوله: {قال لا تختصموا}، وقرأ الآخرون بالنون^(٣).

قوله تعالى: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق : ٣٠]، أي: "وتقول جهنم: هل من زيادة من الجن والإنس؟"^(٤).

وفي قوله تعالى: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق : ٣٠]، وجهان من التفسير^(٥):

أحدهما: أنها تقول ذلك بعد امتلائها، فالمعنى: هل بقي في موضع لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأت.

قال القشيري: "أي: ليس في زيادة، كقوله عليه السلام لما قيل له: «يوم فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل دارة؟!»^(٦)، أي: لم يترك، فإن الله - تعالى - يملأ جهنم من الكفار والعصاة، فإذا ما أخرج العصاة من المؤمنين ازداد غيظ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم"^(٧).

عن مجاهد، قوله: "وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ"، قال: وعدها الله ليملائها، فقال: هلا وفيتك؟ قالت: وهل من مسلك"^(٨).

وفي رواية قال مجاهد: "هل في من سعة"^(٩).

قال ابن عباس: "وَهَلْ فِي مَنْ مَكَانٍ يُزَادُ فِي"^(١٠).

قال ابن عباس يقول: "إن الله الملك، قد سبقت منه كلمة: {الْأَمْلاَنَ جَهَنَّمَ}، لا يلقى فيها شيء إلا ذهب فيها، لا يملأها شيء، حتى إذا لم يبق من أهلها أحد إلا دخلها، وهي لا يملأها شيء، أتاه الرب فوضع قدمه عليها، ثم قال لها: هل امتلأت يا جهنم؟ فنقول: قط قط؛ قد امتلأت، ملأتني من الجن والإنس فليس في مزيد؛ قال ابن عباس: ولم يكن يملأها شيء حتى وجدت مس قدم الله تعالى ذكره، فتضايقت، فما فيها موضع إبرة"^(١١).

الثاني: أنها تقول تعيظاً على من عصى الله تعالى، وجعل الله فيها أن تميز وتخطب، كما جعل في النملة أن قالت: {ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ} [النمل : ١٨]، وفي المخلوقات أن تسبح بحمده.

قال القشيري: أي: "على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار"^(١٢).

قال أنس: "يلقى في جهنم وتقول: هل من مزيد ثلاثاً، حتى يضع قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض، فنقول: قط قط، ثلاثاً"^(١٣).

(١) تفسير الطبري: ٣٥٩/٢٢.

(٢) الوجيز: ١٠٢٤.

(٣) انظر: تفسير البغوي: ٣٦١/٧.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٤٧/٥، وزاد المسير: ١٦٣/٤.

(٦) عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله، أين تنزل غدا؟ قال النبي (ص): وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ ثم قال: لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن (البخاري ح ٣ ص ٤٢).

(٧) لطائف الإشارات: ٤٥٣/٣.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٦٠/٢٢.

(٩) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٦): ص ٥١/٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٤٢): ص ٣٣٠٩/١٠.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٦١-٣٦٠/٢٢.

(١٢) لطائف الإشارات: ٤٥٣/٣.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٦١/٢٢.

قال أنس: "ما تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الله عليها قدمه، فنقول: قد قد، وما يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله خلقاً، فيسكنه فضول الجنة"^(١).
قال ابن زيد: "لأنها قد امتلأت، وهل من مزيد: هل بقي أحد؟ قال: هذان الوجهان في هذا، والله أعلم، قال: قالوا هذا وهذا"^(٢).

قال الطبري: "هو بمعنى: الاستزادة، هل من شيء أزداده؟ وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَمْ يَظْلَمْ اللهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا، وَيُقْفَى فِي النَّارِ، تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ، فَهَنَالِكَ يَمْلَأُهَا، وَيُرْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ»"^(٣).

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}، أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث"^(٤).

قال السمعاني: القول "الأول أحسن"^(٥).
عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يُلْقَى فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ"^(٦).

عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال جهنم يلقي فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قد، قد، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة"^(٧).

عن أبي هريرة، قال: "اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي إنما يدخلني فقراء الناس وسقطهم؛ وقالت النار: ما لي إنما يدخلني الجبارون والمتكبرون، فقال: أنت رحمتي أصيب بك من أشياء، وأنت عذابي أصيب بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فإن الله ينشئ لها من خلقه ما شاء. وأما النار فيلقون فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقون فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع فيها قدمه، فهناك تملأ وينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط"^(٨)^(٩).

فوائد الآيات: [٢٣-٣٠]:

- ١- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- ٢- التحذير من الصفات الست التي جاءت في الآية وهي الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والشك والشرك.
- ٣- بيان خصومة أهل النار من إنسان وشيطان.
- ٤- نفي الظلم عن الله تعالى وهو كذلك فلا يظلم الله أحداً من خلقه.
- ٥- الأسلم للمؤمن أن يؤمن بصفات الله ويمررها كما جاءت فالقدم، والرجل كاليد والعين صفات ذات لله يؤمن العبد بها وهو يعتقد أنها لا تشبه صفات العباد وهي كذلك والحمد لله.

(١) أخرجه الطبري: ٣٦١/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٦١/٢٢.

(٣) تفسير الطبري: ٣٦١/٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٧.

(٥) تفسير السمعاني: ٢٤٤/٥.

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٨٤٨).

(٧) أخرجه الطبري: ٣٦٢/٢٢.

(٨) قط قط، وتقدم قبله: قد قد. وهما بمعنى: كفى كفى.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٦٢/٢٢.

القرآن

{وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)} [ق : ٣١]

التفسير:

وقرّبت الجنة للمتقين مكانًا غير بعيد منهم، فهم يشاهدونها زيادة في المسرّة لهم.
قال الطبري: يقول: "وأدّيت الجنة وقربت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه"^(١).
قال ابن كثير: "وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت"^(٢).

عن قتادة، قوله: "وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ"، يقول: وأدّيت {غَيْرَ بَعِيدٍ}"^(٣).
قال الضحاك: "قربت لأهلها"^(٤).

قال القشيري: "يقال: إنّ الجنة تقرب من المتقين، كما أنّ النار تجرّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين.

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها.. وهم خواص الخواص.
ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم يحشرون إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم: {وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣]، وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانًا على طاعتهم المصوّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جلّ وعلا: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥]، وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: {وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ}، أي: تقرب الجنة منهم"^(٥).

عن نبيح ابن امرأة كعب، قال: "تزلف الجنة ثم تزخرف ثم ينظر إليها من خلق الله من مسلم أو يهودي أو نصراني إلا رجلاً: رجلاً قتل مؤمناً متعمداً أو رجلاً قتل معاهداً متعمداً"^(٦).

القرآن

{هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)}

[ق : ٣٢-٣٣]

التفسير:

يقال لهم: هذا الذي كنتم توعدون به -أيها المتقون- لكل تائب من ذنوبه، حافظ لكل ما قرّبه إلى ربه، من الفرائض والطاعات، من خاف الله في الدنيا ولقيه يوم القيامة بقلب تائب من ذنوبه.
قوله تعالى: {هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} [ق : ٣٢]، أي: "يقال لهم: هذا الذي كنتم توعدون به -أيها المتقون- لكل تائب من ذنوبه، حافظ لكل ما قرّبه إلى ربه، من الفرائض والطاعات"^(٧).

قال الطبري: "يقول: قال لهم: هذا الذي توعدون أيها المتقون، أن تدخلوها وتسكنوها، لكل راجع من معصية الله إلى طاعته، تائب من ذنوبه"^(٨).
وفي تفسير قوله تعالى: {أَوَّابٍ} [ق : ٣٢]، وجوه:
أحدها: أنه رجّاع عن الذنوب. قاله مجاهد في رواية^(١).

(١) تفسير الطبري: ٣٦٣/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٦/٧.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٦٣/٢٢-٣٦٤.

(٤) الدر المنثور: ٣٠٨/٦، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٥) لطائف الإشارات: ٤٥٤/٣.

(٦) الدر المنثور: ٣٠٨/٦، وعزاه إلى ابن أبي شيبه.

(٧) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٨) تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.

قال سعيد بن المسيب: "الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب" (٢).
قال أبو عبيدة: "الأواب: الرجّاع وهو التواب، مخرجها، من: أب إلى أهله، أي: رجع،
قال يزيد بن ضبة الثقفي: والبيت لعبيد بن الأبرص (٣):
وكل ذي غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب
أي: لا يرجع" (٤).
الثاني: أنه الذي يؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها، والأواب: المطيع. قاله ابن زيد (٥).
قال الزجاج: "رجّاع إلى الله كثيرا، «الأيب»: الراجع، و«الأواب» الكثير الرجوع" (٦).
قال السمعاني: "الأواب: هو الذي اعتاد الرجوع إلى الله تعالى في كل أمره" (٧).
الثالث: أنه المطيع لله كثير الصلاة. قاله قتادة-في رواية- (٨).
الرابع: أنه المحسن. قاله سعيد بن جبير (٩)، وقتادة (١٠).
الخامس: أنه المطيع المحسن. قاله ابن عباس (١١).
وقال مقاتل: "يعني: مطيع" (١٢).
السادس: أنه التواب. قاله ابن عباس أيضا (١٣)، وابن زيد (١٤).
قال ابن زيد: "الأواب: التواب الذي يتوب إلى طاعة الله ويرجع إليها" (١٥).
قال النحاس: "تائب راجع إلى الله جلّ وعزّ" (١٦).
السابع: أنه المسبح، قاله ابن عباس أيضا (١٧)، ومجاهد (١٨)، والسدي (١٩)، وعمرو بن
شريحيل (٢٠)، والكلبي (٢١).
الثامن: أنه الذاكر الله في الخلاء. قاله الحكم بن عتيبة (٢٢).
التاسع: أنه الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. قاله مجاهد-أيضا- (٢٣)، والشعبي (٢٤)،
ويونس بن خباب (٢٥)، وعبيد بن عمير (١).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ١٦٨/٢١.
(٢) أخرجه الطبري: ٤٢٣/١٧-٤٢٤.
(٣) البيت من القصيدة الأولى في ديوان عبيد بن الأبرص وهو في اللسان (أوب)، وتفسير القرطبي: ١٥/١٥٩.
(٤) مجاز القرآن: ١٧٩/٢-١٨٠.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٦٨/٢١.
(٦) معاني القرآن: ٣٢٤/٤.
(٧) تفسير المسعاني: ٢٤٥/٥.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٦٨/٢١.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٢/١٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون: ٢٣٨/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٢٤٣): ص ٢٣٢٥/٧.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٦٣٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٢٤٤): ص ٢٣٢٥/٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥-٣٦٤/٢٢.
(١٥) أخرجه الطبري: ٣٦٥-٣٦٤/٢٢.
(١٦) إعراب القرآن: ١٥٣/٤.
(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.
(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.
(١٩) انظر: تفسير الطبري: ١٦٨/٢١.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٢/١٧.
(٢١) انظر: النكت والعيون: ٨٤/٥.
(٢٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.
(٢٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٤/١٧، و ٣٦٤/٢٢.
(٢٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.
(٢٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢٢.

قال مجاهد: "الذي يذكر ذنوبه فيستغفر منها"^(٢).
قال يونس بن خباب: "الرجل يذكر ذنوبه، فيستغفر الله لها"^(٣).
قال الشعبي: "الذي يذكر ذنوبه في خلاء فيستغفر"^(٤).
قال الحسن: "إذا أرخى الستر وأغلق الباب"^(٥).
قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: «الأواب»: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن «الأواب» إنما هو فعال، من قول القائل: أب فلان من كذا إما من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص^(٦):
وكل ذي غيبة يئوب ... وغائب الموت لا يئوب
فهو يئوب أوبا، وهو رجل أئب من سفره، وأواب من ذنوبه"^(٧).
وأما «الحفيظ» -هنا- ففيه ثلاثة وجوه:
أحدها: مطيع لله كثير الصلاة. قاله مجاهد^(٨).
وحكي الماوردي عن السدي، فيما معناه: "أنه المطيع فيما أمر"^(٩).
الثاني: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها. قاله ابن عباس^(١٠).
الثالث: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. قاله قتادة^(١١).
قال النحاس: "معنى هذا أنه حفظ جوارحه عن معاصي الله تعالى"^(١٢).
الرابع: أنه الذي يحفظ قوله وفعله في مجلسه، فإذا أراد أن يقوم، قال: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. حكاه السمعاني^(١٣).
الخامس: هو الحافظ لعهد الله. حكاه السمعاني -أيضا-^(١٤).
قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره وصف هذا التائب الأواب بأنه حفيظ، ولم يخص به على حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعم كما عمّ جل ثناؤه، فيقال: هو حفيظ لكل ما قربّه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار"^(١٥).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٤/١٧.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٦٤/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٦٥/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٦٤/٢٢.

(٥) حكاه عنه البغوي في التفسير: ٣٦٣/٧.

(٦) البيت لعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي (ديوانه ص ٧ طبعة ليدن سنة ١٩١٣) من قصيدته التي مطلعها: "أقفر من أهله ملحوب". يقول: كل غائب تنتظر أوبته، إلا من مات فلا أوبة له إلى الدنيا. والبيت شاهد على أن الأواب الرجاء، الذي يرجع إلى التوبة والطاعة، من أب يئوب إذا رجع (انظر اللسان: أوب). وفيه أيضا: قال أبو بكر في قولهم: رجل أواب، سبعة أقوال: الراحم، والتائب، والمسبح، والذي يرجع إلى التوبة ثم يذنب ثم يتوب، والمطيع، والذي يذكر ذنبه في الخلاء، فيستغفر الله منه. أهـ. وكل هذه المعاني راجعة إلى المعنى اللغوي، وهو الرجوع عن الشيء إلى غيره.

(٧) تفسير الطبري: ٤٢٥/١٧-٤٢٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٤/٢٢.

(٩) انظر: النكت والعيون: ٣٥٣/٥.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٥/٢٢.

(١٢) إعراب القرآن: ١٥٣/٤.

(١٣) انظر: تفسير السمعاني: ٢٤٦/٥.

(١٤) انظر: تفسير السمعاني: ٢٤٦/٥.

(١٥) تفسير الطبري: ٣٦٥/٢٢.

وروى مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : «مَنْ حَافِظٌ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ كَانَ أَوْيًّا حَفِيفًا»^(١).

قوله تعالى: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} [ق : ٣٣]، أي: "مَنْ خَافَ اللهُ فِي الدُّنْيَا"^(٢).

قال الطبري: "يقول: من خاف الله في الدنيا من قبل أن يلقاه، فأطاعه، واتبع أمره"^(٣).

قال البيهقي: أي: "من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره"^(٤).

قال ابن كثير: "أي : من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله -عليه السلام-: «ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه»^(٥)^(٦).

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أتى عليه بأنه خاش، مع أن المخشى منه غائب، ونحوه: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ}، فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات"^(٧).

قال القشيري: "الخشية من الرحمن هي الخشية من الفراق، والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأنس ولذلك لم يقل: من خشى الجبار ولا من خشى القهار، ويقال: الخشية من الله تفتضى العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسأل عما يفعل. ويقال: الخشية أطف من الخوف، وكأنها قريبة من الهيبة"^(٨).

قوله تعالى: {وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق : ٣٣]، أي: "ولقي الله يوم القيامة بقلب تائب من ذنوبه"^(٩).

قال الطبري: "يقول: وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه"^(١٠).

قال ابن كثير: "أي : ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه"^(١١).

قال الزمخشري: "وصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى، لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب"^(١٢).

وفي قوله تعالى: {وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق : ٣٣]، وجوه من التفسير: أحدها : أي: منيب إلى ربه مُقْبِل. قاله قتادة^(١٣).

الثاني: يعني: بقلب مخلص. قاله مقاتل^(١٤).

وحكي الماوردي عن السدي، قال: "أنه المنيب المخلص"^(١٥).

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون: ٣٥٤/٥، والقرطبي في التفسير: ٢٠/١٧.

(٢) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٣) تفسير الطبري: ٣٦٥/٢٢.

(٤) تفسير البيهقي: ٣٦٣/٧.

(٥) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٤٣٩/٢، رقم ٩٦٦٣)، والبخاري (٢٣٤/١، رقم ٦٢٩)، ومسلم (٧١٥/٢، رقم ١٠٣١)، والنسائي في الكبرى (٤٦١/٣، رقم ٥٩٢١)، وابن حبان (٣٣٨/١٠، رقم ٤٤٨٦). وأخرجه أيضا: ابن خزيمة (١٨٥/١، رقم ٣٥٨).

حديث أبي هريرة أو أبي سعيد: أخرجه الترمذي (٥٩٨/٤، رقم ٢٣٩١) وقال: حسن صحيح وأخرجه أيضا: مالك (٩٥٢/٢، رقم ١٧٠٩)، وابن حبان (٣٣٢/١٦، رقم ٧٣٣٨).

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٠٦/٧.

(٧) الكشف: ٣٩٠/٤.

(٨) لطائف الإشارات: ٤٥٤-٤٥٥/٣.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٦٦/٢٢.

(١١) تفسير ابن كثير: ٤٠٦/٧.

(١٢) الكشف: ٣٩٠/٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٦/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٤/٤.

(١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٤/٥.

قال الواحدي: أي: "مخلص، راجع عن معاصي الله إلى طاعة الله"^(١).
 قال البيهقي: أي: "مخلص مقبل إلى طاعة الله"^(٢).
 الثالث: يعني: بقلب سليم غير مريض. قاله عبدالقاهر الجرجاني^(٣).
 الرابع: أنه المقبل على الله، قاله سفيان^(٤).
 قال الثعلبي: "مقبل إلى طاعة الله"^(٥).
 قال السمعاني: "الرجل هو المنيب؛ لكنه أضاف إلى القلب؛ لأن الأكثر من أعمال الإيمان يعملهُ المؤمن بقلبه"^(٦).
 قال القشيري: "لم يقل بنفس مطيعة بل قال: {بقلب منيب} ليكون للعصاة في هذا أمل لأنهم- وإن قصرُوا بنفوسهم وليس لهم صدق القدم- فلهم الأسف بقلوبهم وصدق الندم"^(٧).
 قال أبو بكر الوراق: "علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمة، موالياً له، متواضعاً لحلاله تاركاً لهوى نفسه"^(٨).

القرآن

{ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق : ٣٤]

التفسير:

ويقال لهؤلاء المؤمنين: ادخلوا الجنة دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشور، مأموناً فيه جميع المكاره، ذلك هو يوم الخلود بلا انقطاع.
 قوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} [ق : ٣٤]، أي: "ويقال لهؤلاء المؤمنين: ادخلوا الجنة دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشور، مأموناً فيه جميع المكاره"^(٩).
 قال الثعلبي: "أي: يقال لأهل هذه الصفة: ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ بسلامة من العذاب وسلام الله وملائكته عليهم، وقيل: السلامة من زوال النعيم وحلول النقم"^(١٠).
 قال مقاتل: "فسلم الله لهم أمرهم وتجاوز عن سيئاتهم وشكر لهم اليسير من أعمالهم الصالحة"^(١١).
 قال الواحدي: "أي: بسلامة من الهموم، والعذاب"^(١٢).
 قال الزمخشري: "أي: سالمين من العذاب وزوال النعم، أو مسلماً عليكم يسلم عليكم الله وملائكته"^(١٣).
 قال قتادة: "سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَلَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ"^(١٤).
 قال السدي: "تقوله لهم الملائكة"^(١٥).
 قال الحسن: "السلام لا ينقطع عن أهل الجنة وهو تحيتهم"^(١).

(١) التفسير الوسيط: ١٦٩/٤.

(٢) تفسير البيهقي: ٣٦٣/٧.

(٣) انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور: ١٥٦٦/٤.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٥٤/٥.

(٥) الكشف والبيان: ١٠٥/٩.

(٦) تفسير السمعاني: ٢٤٦/٥.

(٧) لطائف الإشارات: ٤٥٥/٣.

(٨) نقلاً عن: الكشف والبيان: ١٠٥/٩.

(٩) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٠) الكشف والبيان: ١٠٥/٩.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٤/٤.

(١٢) التفسير الوسيط: ١٦٩/٤.

(١٣) الكشاف: ٣٩٠/٤.

(١٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٦١): ص ٢٣٢/٣.

(١٥) حكاه عنه ابن أبي زمنين في التفسير: ٢٧٥/٤.

قال ذو النون المصري: "سميت بذلك لأن من دخلها سلم من القطيعة والفرق" (٢).
قال أبو بكر الوراق: "سميت بذلك لأن من دخلها سلم عليه المولى وذلك أن الله يعلم ما فيه أهل الجنة من ذكر الذنوب والهيبه لعلم الغيوب فيبدأ هم بالسلام والتحية لهم تقريبا وإيناسا وترحيبا" (٣).

قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق : ٣٤]، أي: "ذلك هو يوم الخلود بلا انقطاع" (٤).
قال النحاس: "أي: ذلك الذي وصفناه للمتقين يوم لا يزولون عنه" (٥).
قال الواحدي: "في الجنة، لأنه لا موت فيها" (٦).
قال ابن كثير: "أي : يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبيغون عنها حولا" (٧).

قال ابن عطية: " {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} معادل لقوله قبل في الكفار {ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ}" (٨).
قال قتادة: "خلدوا والله، فلا يموتون، وأقاموا فلا يظعنون، ونعموا فلا يبأسون" (٩).
عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، خلود فلا موت فيه، ويا أهل النار، خلود فلا موت فيه" (١٠).

القرآن

{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} {٣٥} [ق : ٣٥]

التفسير:

لهؤلاء المؤمنين في الجنة ما يريدون، ولدينا على ما أعطيناهم زيادة نعيم، أعظمه النظر إلى وجه الله الكريم.

قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا} [ق : ٣٥]، أي: "لهؤلاء المؤمنين في الجنة ما يريدون" (١١).

قال النحاس: "أي: لهم ما يريدون" (١٢).
قال الواحدي: وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم، فيعطون ما شاءوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: {ولدينا مزيد} (١٣).
قال ابن كثير: "أي : مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم" (١٤).
وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : "إنك لتشتهي الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشويا" (١٥).

(١) نقلا عن: الكشف والبيان: ١٢٨/٥.

(٢) نقلا عن: الكشف والبيان: ١٢٨/٥.

(٣) نقلا عن: الكشف والبيان: ١٢٨/٥.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٥) إعراب القرآن: ١٥٣/٤.

(٦) التفسير الوسيط: ١٦٩/٤.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٠٦/٧.

(٨) المحرر الوجيز: ١٦٦/٥.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٦٦/٢٢.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (٨٥٣٥): ص ٢١٥/١٤. إسناده قوي.

(١١) التفسير الميسر: ٥١٩.

(١٢) إعراب القرآن: ١٥٣/٤.

(١٣) التفسير الوسيط: ١٦٩/٤.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٤٠٦/٧.

(١٥) رواه الحسن بن عرفة في جزئه برقم (٢٢) والبخاري في مسنده برقم (٣٥٣٢) "كشف الأستار" وابن عدي في الكامل (٦٨٩/٦) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود

عن أبي سعيد الخدري ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة، كان حمله ووضعه وسيئه في ساعة واحدة"^(١) .
 عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، قال: "لو أن أدنى أهل الجنة لو نزل به أهل الجنة كلهم لأوسعهم طعاماً وشراباً ومجلساً وخدمًا"^(٢) .
 قال القشيري: "لم يقل: «لهم ما يسئلون» بل قال: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ} فكل ما يخطر ببالهم فإن سؤلهم يتحقق لهم في الوهلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإن لهم غدا منه الإحسان.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟"^(٣) .
 قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق : ٣٥]، أي: "ولدينا على ما أعطيناهم زيادة نعيم، أعظمه النظر إلى وجه الله الكريم"^(٤) .
 قال مقاتل: "يعنى: وعندنا مزيد"^(٥) .
 قال الطبري: "يقول: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جل ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه"^(٦) .
 قال الزجاج: "مما لم يخطر على قلوبهم"^(٧) .
 وفي قوله تعالى: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق : ٣٥]، وجوه من التفسير: أحدها : أحدها: أنه النظر إلى الله عز وجل.
 عن أنس بن مالك في قوله عز وجل: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، قال: يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة"^(٨) .
 روى علي رضي الله عنه عن النبي عليه السلام في قوله: «ولدينا مزيد» قال: «يتجلى لهم»^(٩) .

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل عليه السلام في كفه مرآة بيضاء، فيها نكتة سوداء فقلت: يا جبريل ما هذه؟ قال: هذه الجمعة، قلت: فما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هي الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد؛ قلت: ولم تدعون يوم المزيد قال: إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الجنة واديا أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه، ثم حف الكرسي بمنابر من نور، ثم جاء النبيون حتى جلسوا عليها ثم تجيء أهل الجنة حتى جلسوا على الكتب فيتجلى لهم ربهم عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول: أنا الذي صدقتكم عدتي، وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محل كرامتي، فسلوني، فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري وأنالكم كرامتي، فسلوني، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إلى مقدار منصرف الناس من الجمعة حتى يصعد على كرسيه فيصعد معه الصديقون والشهداء، وترجع أهل الجنة إلى غرفهم درة بيضاء، لا نظم فيها ولا فصم، أو ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، منها غرفها وأبوابها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا منه كرامة، وليزدادوا نظرا إلى وجهه، ولذلك دعي يوم المزيد"^(١٠) .

مرفوعا به. وفيه حميد الأعرج، قال البخاري : منكر الحديث وقال ابن حبان : أحاديثه شبه الموضوعة.

(١) المسند (٩/٣) وسنن الترمذي برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٨).

(٢) الدر المنثور: ٦٠٨/٧، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر.

(٣) لطائف الإشارات: ٤٥٥/٣.

(٤) التفسير الميسر: ٥١٩.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٥/٤.

(٦) تفسير الطبري: ٣٦٦/٢٢-٣٦٧.

(٧) معاني القرآن: ٤٧/٥.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٤٥):ص٣٣١٠/١٠، وانظر: صفة الجنة لأبن أبي الدنيا(٢٩٥):ص٢١١.

(٩) رواه الواحدي في التفسير الوسيط(٨٧٧):ص١٦٩/٤.

(١٠) أخرجه الطبري: ٣٦٨/٢٢.

قال أنس: "إن الله عزّ وجلّ إذا أسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هبط إلى مرّج من الجنة أفيح، فمدّ بينه وبين خلقه حُجُبًا من لؤلؤ، وحُجُبًا من نور ثم وُضعت منابر النور وسُرُرُ النور وكراسي النور، ثم أُذن لرجل على الله عزّ وجلّ بين يديه أمثال الجبال من النور يُسْمَع دَوِيّ تسبيح الملائكة معه، وصَفَقُ أجنحتهم فمدّ أهل الجنة أعناقهم، فقيل: من هذا الذي قد أُذن له على الله؟ فقيل: هذا المعجول بيده، والمُعَلَّمُ الأسماء، والذي أمرت الملائكة فسجدت له، والذي له أبيحت الجنة، آدم عليه السلام، قد أُذن له على الله تعالى؛ قال: ثم يؤذّن لرجل آخر بين يديه أمثال الجبال من النور، يُسْمَع دَوِيّ تسبيح الملائكة معه، وصَفَقُ أجنحتهم؛ فمدّ أهل الجنة أعناقهم، فقيل: من هذا الذي قد أُذن له على الله؟ فقيل: هذا الذي اتخذه الله خليلاً وجعل عليه النار برّداً وسلاماً، إبراهيم قد أُذن له على الله. قال: ثم أُذن لرجل آخر على الله، بين يديه أمثال الجبال من النور يُسْمَع دوي تسبيح الملائكة معه، وصَفَقُ أجنحتهم؛ فمدّ أهل الجنة أعناقهم، فقيل: من هذا الذي قد أُذن له على الله؟ فقيل: هذا الذي اصطفاه الله برسالته وقرّبه نجياً، وكلمه كلاماً موسى عليه السلام، قد أُذن له على الله. قال: ثم يؤذّن لرجل آخر معه مثلُ جميع مواكب النبيين قبله، بين يديه أمثال الجبال، من النور يسمع دوي تسبيح الملائكة معه، وصَفَقُ أجنحتهم؛ فمدّ أهل الجنة أعناقهم، فقيل: من هذا الذي قد أُذن له على الله؟ فقيل: هذا أول شافع، وأول مشفّع، وأكثر الناس واردة، وسيد ولد آدم؛ وأول من تنشق عن دُوابّته الأرض، وصاحب لواء الحمد، أحمد صلّى الله عليه وسلّم، قد أُذن له على الله. قال: فجلس النبيون على منابر النور، والصدّيقون على سُرُرِ النور؛ والشهداء على كراسي النور وجلس سائر الناس على كُثبان المسك الأذفر الأبيض، ثم ناداهم الربّ تعالى من وراء الحُجُب: مَرَحَبًا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي. يا ملائكتي، انهضوا إلى عبادي، فأطعموهم. قال: فقربت إليهم من لحوم طير، كأنها البُخت لا ريش لها ولا عظم، فأكلوا، قال: ثم ناداهم الربّ من وراء الحجاب: مرحبا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي، أكلوا اسقوهم. قال: فنهض إليهم غلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون بأباريق الذهب والفضة بأشربة مختلفة لذيدة، لذة آخرها كلدة أولها، لا يُصدّعون عنها ولا يُنزفون؛ ثم ناداهم الربّ من وراء الحُجُب: مرحبا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا، فكّهوهم. قال: فيقرب إليهم على أطباق مكلّلة بالياقوت والمرجان؛ ومن الرُطْب الذي سمّى الله، أشدّ بياضا من اللبن، وأطيب عذوبة من العسل. قال: فأكلوا ثم ناداهم الربّ من وراء الحُجُب: مرحبا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا، وفكّهوا؛ اكسوهم؛ قال ففتحت لهم ثمار الجنة بحلّ مصقولة بنور الرحمن فألبسوها. قال: ثم ناداهم الربّ تبارك وتعالى من وراء الحُجُب: مرحبا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي؛ أكلوا؛ وشربوا؛ وفكّهوا؛ وكسّوا طيّبوهم. قال: فهاجت عليهم ريح يقال لها المثيرة، بأباريق المسك الأبيض الأذفر، فنفتحت على وجوههم من غير غُبار ولا قُتَام. قال: ثم ناداهم الربّ عزّ وجلّ من وراء الحُجُب: مرحبا بعبادي وزوّاري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا وفكّهوا، وكسّوا وطيّبوا، وعزّتي لأتجلين لهم حتى ينظروا إليّ قال: فذلك انتهاء العطاء وفضل المزيد؛ قال: فتجلّى لهم الربّ عزّ وجلّ، ثم قال: السلام عليكم عبادي، انظروا إليّ فقد رضيت عنكم. قال: فتداعت قصور الجنة وشجرها، سبحانك أربع مرّات، وخرّ القوم سجداً؛ قال: فنادهم الربّ تبارك وتعالى: عبادي ارفعوا رءوسكم فإنها ليست بدار عمل، ولا دار نصّب إنما هي دار جزاء وثواب، وعزّتي وجلالي ما خلقتها إلا من أجلكم، وما من ساعة ذكرتموني فيها في دار الدنيا، إلا ذكرتكم فوق عرشي" (١).

الثاني: أن المزيد من يزوج بهن من الحور العين، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً (٢).

وحكي الزجاج: "أن السحاب يمرّ بأهل الجنة، فيمطرهم الحور، فتقول الحور: نحن اللواتي قال الله عزّ وجلّ: «ولدينا مزيد»" (٣).

(١) أخرجه الطبري: ٣٦٧/٢٢-٣٦٨.

(٢) انظر: الطبري: ٣٧٠/٢٢.

(٣) انظر: تفسير معاني القرآن: ٤٧/٥.

عن كثير بن مرة قال: "من «المزيد» أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمره عليكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك، لأقولن: أمطرينا جوارى مزيئات"^(١).

عن شهر بن حوشب -من طريق جعفر بن سليمان، عن شيخ من أهل البصرة- قال: "إن الرجل من أهل الجنة ليكئ ائكاء واحدة قدر سبعين سنة، يُحدّث بعض نسائه، ثم يلتفت الالتفاتة، فتناديه الأخرى: فإنا لك، أما لنا فيك نصيب! فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من الذين قال الله: {فيها ولدينا مزيدٌ}. قالوا: فيتحدّث معها، ثم يلتفت الالتفاتة، فتناديه الأخرى: أما إنا لك، أما لنا فيك نصيب! فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من الذين قال الله: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]"^(٢).

عن أبي سعيد الخدري، أنه قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل في الجنة ليكئ سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأته فتضرب على منكبيه، فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه، فيرد السلام، ويسألها من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد وإنه ليكون عليها سبعون ثوبا أدناها مثل نعمان من طوبى فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، وإن أدنى لؤلؤة فيها لتضيء ما بين المشرق والمغرب"^(٣).

الثالث: أن الزيادة على ما تمثوه وسألوا مما لم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، ذكره أبو سليمان المشقي^(٤).

الرابع: أنها الزيادة التي ضاعفها الله من ثوابه بالحسنة عشر أمثالها^(٥).

قال البغوي: "يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم"^(٦).
قال القشيري: "اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية، والنظر إلى الله سبحانه. وقوم يقولون: المزيد على الثواب في الجنة- ولا منافاة بينهما"^(٧).

قال ابن عطية: "ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة، لأن الله تعالى يقول: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم} [السجدة: ١٧] وهم يعينونها تكلفا وتعسفا. وروي عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن المزيد: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف"^(٨).

عن محمد بن سيرين-من طريق ابن عون- قال: حدّثنا -أو قال: "قالوا- إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي يُقال له: تمنّ. ويذكره أصحابه، فيتمنى، ويذكره أصحابه، فيقال: له ذلك ومثله معه. قال: قال ابن عمر: ذلك لك وعشرة أمثاله، وعند الله مزيد"^(٩).
فوائد الآيات: [٣١-٣٥]:

- ١- فضل التقوى وكرامة المتقين على رب العالمين.
- ٢- فضل الأواب الحفيظ وهو الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربه.
- ٣- بيان أكبر نعيم في الجنة وهو رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم.

القرآن

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٤٤): ص ٣٣١٠/١٠.
- (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة -موسوعة ابن أبي الدنيا ٦/ ٣٧٩ - ٣٨٠ (٢٨٩) -.
- (٣) أخرجه الطبري: ٣٧٠/٢٢.
- (٤) انظر: زاد المسير: ١٦٤/٤.
- (٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٤/٥.
- (٦) تفسير البغوي: ٣٦٣/٧.
- (٧) لطائف الإشارات: ٤٥٥/٣.
- (٨) المحرر الوجيز: ١٦٦/٥.
- (٩) أخرجه الطبري: ٣٧٠/٢٢.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦)} [ق : ٣٦]

التفسير:

وأهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش أمماً كثيرة، كانوا أشد منهم قوة وسطوة، فطوفوا في البلاد وسلخوا كل طريق؛ طلبا للهرب من الهلاك، هل من مهرب من عذاب الله حين جاءهم؟ قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا} [ق : ٣٦]، أي: "وأهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش أمماً كثيرة، كانوا أشد منهم قوة وسطوة"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وكثيرا أهلكتنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، {هُم أَشَدُّ} من قريش الذين كذبوا محمدا {بَطْشًا}"^(٢). وللمفسرين في المراد بـ«القرن»، أقوال:

أحدها: أن القرن: سبعون سنة. قاله قتادة^(٣).

الثاني: أنه ستون سنة. قاله الحسن^(٤).

الثالث: أن القرن أربعون سنة. قاله إبراهيم^(٥).

الرابع: أنه عشرون سنة. وهذا مروى عن الحسن -أيضا-^(٦).

عن مالك بن دينار، قال: "سألت الحسن، عن القرن، فقال: عشرون سنة"^(٧).

الخامس: أنه مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى^(٨)، وإياس بن معاوية^(٩).

السادس: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك^(١٠).

السابع: أنه مائة سنة، قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن^(١١)، وهو قول الجمهور^(١٢).

والراجح أن القرن مئة سنة، إذ ورد فيه الحديث مرفوعا^(١٣) وهو حديث قوي. والله

أعلم.

قوله تعالى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ} [ق : ٣٦]، أي: "فساروا في البلاد يبتغون الأرزاق

والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها"^(١٤).

(١) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٢) تفسير الطبري: ٣٧٠/٢٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩٣٧): ص ٢٩٨٢/٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩٣٨): ص ٢٩٨٢/٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩٤٠): ص ٢٩٨٢/٩.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩٤١): ص ٢٩٨٢/٩.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩٤١): ص ٢٩٨٢/٩.

(٨) انظر: زاد المسير: ١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.

(٩) انظر: زاد المسير: ١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧١٠٩): ص ١٢٦٣/٤.

(١١) انظر: زاد المسير: ١٠/٢.

(١٢) انظر: الدر المصون: ٥٤١/٤.

(١٣) ورد ذلك مرفوعا وهو حديث قوي. علقه البخاري في «التاريخ الكبير» ٣٢٣/١ و«الصغير» ٢١٦/١ قال: قال داود بن رشيد حدثنا أبو حياة شريح بن يزيد الحضرمي عن إبراهيم بن محمد بن زياد عن أبيه عن عبد الله بن بسر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يعيش هذا الغلام قرنا»، فعاش مائة سنة. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٦١١٩ بآتم منه وقال رواه الطبراني والبخاري باختصار إلا أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليدركن قرنا» ورجال أحد إسنادي البخاري رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي، وهو ثقة اهـ.

وورد بنحوه عن الحسن بن أيوب الحضرمي قال: أراني عبد الله بن بسر شامة في قرنه فوضعت إصبعي عليها فقال: وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعه عليها وقال: «لتبلغن قرنا» أخرجه أحمد ١٨٩/٤ والطبراني كما في «المجمع» ١٦١٢٠. قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب، وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات اهـ. وانظر «الإصابة» ٢/٢٨١-٢٨٢ (٤٥٦٥).

الخلاصة هو حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده..

وفي قوله تعالى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ} [ق : ٣٦]، وجوه:
 أحدها : أثروا في البلاد، قاله ابن عباس^(١).
 قال مجاهد: " يقول: عملوا في البلاد، ذاك النقب"^(٢).
 الثاني : أنهم ملكوا في البلاد ، قاله الحسن^(٣).
 الثالث : ساروا في البلاد وطافوا، قاله قتادة، وبه قال الفراء^(٤)، والطبري^(٥)، ومنه قول امرئ القيس^(٦):
 وَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى ... رَضِيْتُ مِنَ السَّلَامَةِ بِالْإِيَابِ
 وعن مجاهد: " يقول: ضربوا في البلاد"^(٨).
 قال الزجاج: " المعنى: طوّقوا وفَتَّشُوا"^(٩).
 قال الفراء: " خرّقوا البلاد فساروا فيها"^(١٠).
 قال أبو عبيدة: " طافوا وتباعدوا"^(١١).
 قال الطبري: " يقول: فَخَرَّقُوا الْبِلَادَ فَسَارُوا فِيهَا، فطافوا وتوغّلوا إلى الأفاصي منها"^(١٢).
 وقال المبرد: "نقبوا في اللغة: طوفوا. وأصله من النقب وهو الطريق، كأنهم سلكوا كل طريق"^(١٣).
 قال الراغب: " النَّقْبُ فِي الْحَائِطِ وَالْجِدِّ كَالنَّقَبِ فِي الْخَشَبِ، يُقَالُ: نَقَبَ الْبَيْطَارُ سُرَّةَ الدَّابَّةِ بِالنَّقَبِ، وَهُوَ الَّذِي يُنَقَّبُ بِهِ، وَالْمَنْقَبُ: الْمَكَانُ الَّذِي يُنَقَّبُ، وَنَقَبُ الْحَائِطِ، وَنَقَبَ الْقَوْمُ: سَارُوا. قَالَ تَعَالَى: {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ}[ق: ٣٦] وَكَلَبَ نَقِيبٌ: نُقِبَتْ غَلْصَمَتُهُ لِيَضْعَفَ صَوْتُهُ"^(١٤).
 الرابع : أنهم اتخذوا فيها طرقاً ومسالك ، قاله ابن جريج^(١٥).
 الخامس : أنه اتخذ الحصون والقلاع. أفاده الماوردي^(١٦).
 قال السعدي : "أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد"^(١٧).

(١) تفسير ابن كثير: ٤٠٨/٧.
 (٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٧١/٢٢.
 (٣) أخرجه الطبري: ٣٧١/٢٢.
 (٤) انظر النكت والعيون: ٣٥٥/٥.
 (٥) انظر: معاني القرآن: ٧٩/٣.
 (٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٧١-٣٧٠/٢٢.
 (٧) لامرئ القيس في ديوانه ص ٤٣، ولسان العرب (نقب) ، وجمهرة الأمثال ١ / ٤٨٤، والعقد الفريد ٣ / ١٢٦، والفاخر ص ٢٦٠، وكتاب الأمثال ص ٣٤٩، والمستقصى ٢ / ١٠٠، ومجمع الأمثال ١ / ٢٩٥، وتهذيب اللغة ٩ / ١٩٧، وتاج العروس (نقب) ، وتفسير الطبري: ٣٧١/٢٢. وفي بعض الروايات:
 « لَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى ... رَضِيْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ »
 (٨) تفسير مجاهد: ٦١٥.
 (٩) معاني القرآن: ٤٨/٥.
 (١٠) معاني القرآن: ٧٩/٣.
 (١١) مجاز القرآن: ٢٢٤/٢.
 (١٢) تفسير الطبري: ٣٧١-٣٧٠/٢٢.
 (١٣) نقلا عن: التفسير البسيط للواحدى: ٤١٣/٢٠.
 (١٤) المفردات: ٨٢٠.
 (١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٥/٥.
 (١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٥٥/٥.
 (١٧) تفسير السعدي: ٨٠٧.

قال أبو السعود: "أي: خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا في أقطارها أو جالوا في أكناف الأرض كل مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقيب عن الأمر والبحث والطلب، و«الفاء» للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب قيل هي عاطفة في المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا"^(١).

وقرأ يحيى بن يعمر «فَنَقَبُوا»، على وجه التهديد والوعيد: أي طوّفوا في البلاد، وتردّدوا فيها، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم^(٢)، وهي قراءة ابن عباس، وأبي العالية، ونصر بن سيار، وأبي حيوة، والأصمعي عن أبي عمرو^(٣).

قال الزجاج وتقرأ: «نَقَبُوا في البلاد»، أي: فتشوا وانظروا، ومن هذا نَقِبُ القوم للذي يعرف أمرهم، مثل العريف^(٤).

قوله تعالى: {هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ} [ق : ٣٦]، أي: هل من مهرب من عذاب الله حين جاءهم؟^(٥).

قال الفراء: "فهل كان لهم من الموت من محيص؟"^(٦).

قال الطبري: يقول: "فهل كان لهم بتنقيبهم في البلاد من معدل عن الموت؛ ومُنْجِي من الهلاك إذ جاءهم أمرنا"^(٧).

قال ابن قتيبة: "أي: هل يجدون من الموت محيصاً؟! فلم يجدوا ذلك"^(٨).

قال ابن كثير: "أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص"^(٩).

قال السعدي: "أي: لا مفر لهم من عذاب الله، حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم"^(١٠).

عن ابن زيد، قوله: "هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ"، قال: هل من منجي"^(١١).

قال قتادة: "قد حاص الفجرة فوجدوا أمر الله مُتَّبِعاً"^(١٢).

وقال قتادة في رواية أخرى: "حاص أعداء الله، فوجدوا أمر الله لهم مُدْرِكاً"^(١٣).

القرآن

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)} [ق : ٣٧]

التفسير:

إن في إهلاك القرون الماضية لعبرة لمن كان له قلب يعقل به، أو أصغى السمع، وهو حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق : ٣٧]، أي: إن في إهلاك القرون الماضية لعبرة لمن كان له قلب يعقل به"^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ١٣٣/٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٢/٢٢.

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط ١٢٩ / ٨.

(٤) معاني القرآن: ٤٨/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٦) معاني القرآن: ٧٩/٣.

(٧) تفسير الطبري: ٣٧١/٢٢.

(٨) غريب القرآن: ٤١٩.

(٩) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧.

(١٠) تفسير السعدي: ٨٠٧.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٧٢/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٧٢/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٣٧٢/٢٢.

قال النحاس: " أي: إن في إهلاكنا القرون التي أهلكتنا وقصصنا خبرها. {لذكري} يتذكر بها من كان له قلب يعقل به"^(١).

قال الطبري: يقول: " إن في إهلاكنا القرون التي أهلكتنا من قبل قريش {لذكري} يتذكر بها لمن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم، خوفاً من أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ بهم من العذاب.. والقلب في هذا الموضع: العقل. وهو من قولهم: ما لفلان قلب، وما قلبه معه: أي ما عقله معه. وأين ذهب قلبك؟ يعني أين ذهب عقلك"^(٢).

قال ابن كثير: " أي: لعبرة {لمن كان له} لبّ يعي به"^(٣).
قال السعدي: " أي: قلب عظيم حي، ذكي، زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع، فارتفع"^(٤).

قال قتادة: " أي: من هذه الأمة، يعني بذلك القلب: القلب الحي"^(٥).
قال قتادة: " من كان له قلب من هذه الأمة"^(٦).
قال ابن زيد: " قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم"^(٧).

عن علي بن أبي طالب -من طريق عياض- قال: "إنّ العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والنفس في الرئة"^(٨).

عن علي بن أبي طالب -من طريق إبراهيم- قال: "التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشدّ من العجب"^(٩).
قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، أي: "أو أصغى السمع، وهو حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساه"^(١٠).

قال الطبري: " يقول: أو أصغى لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكتها بسمعه، فيسمع الخبر عنهم، كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم، وعصوا رسله، وهو متفهم لما يخبر به عنهم شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه"^(١١).

قال ابن كثير: " أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه"^(١٢).
قال النحاس: " أي: أصغى. {وَهُوَ} متفهم غير ساه، والجملة في موضع نصب على الحال"^(١٣).

قال السمعاني: " أي: استمع بأذنه وهو حاضر بفؤاده، والمعنى: أنه يستمع، ولا يشغل قلبه بما يمنعه من السماع"^(١٤).

-
- (١) التفسير الميسر: ٥٢٠.
 - (٢) إعراب القرآن: ١٥٤/٤.
 - (٣) تفسير الطبري: ٣٧٢/٢٢، ٣٧٣.
 - (٤) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧.
 - (٥) تفسير السعدي: ٨٠٧.
 - (٦) أخرجه الطبري: ٣٧٢/٢٢-٣٧٣.
 - (٧) أخرجه الطبري: ٣٧٣/٢٢.
 - (٨) أخرجه الطبري: ٣٧٣/٢٢.
 - (٩) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٦٢).
 - (١٠) أخرجه البيهقي (٤٦٦١، ٨٠٣٢).
 - (١١) التفسير الميسر: ٥٢٠.
 - (١٢) تفسير الطبري: ٣٧٣/٢٢.
 - (١٣) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧.
 - (١٤) إعراب القرآن: ١٥٤/٤.
 - (١٥) تفسير السمعاني: ٢٤٧/٥.

قال الزمخشري: " {لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}، أي: قلب واع، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع: الإصغاء، {وَهُوَ شَهِيدٌ}، أي: حاضر بفطنته، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه^(١):
 ما شئت من زهزة والفتى ... بمصقلا باذ لسقى الزروع"^(٢).
 قال أبو عبيدة: " يقول الرجل للرجل: ألقِ إليّ سمعك، أي: استمع مني"^(٣).
 قال الواحدي: " وليس يراد بالسمع -هاهنا-: الأذن، وإنما يراد حاسة السمع، كأنه قيل: وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له"^(٤).
 قال ابن قتيبة: " يقول: استمع كتاب الله: وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه"^(٥).
 قال الجصاص: " يعني: وهو عاقل؛ لأنه يشهد الدليل الذي يميز به الحق من الباطل"^(٦).
 قال أبو هلال العسكري: " حقيقة إلقاء السمع الاستماع؛ أي: استمع إليك وهو شهيد؛ أي: قلبه شاهد عندك لا يغيب عنك فهمه، وإذا كان كذلك انتفع بالخير الذي تدعوا إليه"^(٧).
 قال أبو السعود: " فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى {وهو شهيد} أي حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للإيدان بأن من عري قلبه عنها كمن لا قلب له أصلاً"^(٨).
 وقال الحسين بن الفضل، في قوله: {ألقى السمع}، " يعني: وجه سامعه وحولها إلى الذكر كما يقال اتبعني إليه"^(٩).
 وقرأ السدي وجماعة: «ألقى السمع»، على البناء للمفعول. ومعناه: لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن^(١٠).
 قال سهل: " يعني: استمع إلى ذكرنا وهو حاضر مشاهد ربه غير غائب عنه"^(١١).
 وسئل سهل عن العقل، قال: "العقل حسن النظر لنفسك في عاقبة أمرك"^(١٢).

(١) يجيء في فضلة وقت له ... مجيء من شاب الهوى بالنزوع

ثم يرى جبلة مشبوبة ... قد شددت أحماله بالنسوع

ما شئت من زهزة والفتى ... بمصقلا باذ لسقى الزروع

ملح ولمح به الامام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه، وهو أبو عامر الجرجاني، أي: يجيء في بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له، كمجيء من خلط الهوى بالنزوع، أي الرجوع وبطلق النزوع على الشوق أيضاً، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب. والجبلة- بكسرتين فتشديد، وبتثنيث أوله وسكون ثانيه-: الخلقة والطبيعة، ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته. ويقال: شب يشب ويشب شبابا وشبيبا: قصص ولعب. وشببت النار شبا وشبوبا: أوقدتها. وشببته: أظهرته. وأشببته: هيجته. ويروى: ثم ترى جلسة مستوفز، أي: مستعجل متهيأ للقيام. وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى. والنسوع: حزام عريض يوضع تحت صدر المطية، وستر الهودج، واسترخاء لحم الأسنان، وريح الشمال، والذهاب، وسرعة الانبثاق. وجمعه: أنساع ونسوع ونسج. أي: والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع، كناية عن الرحيل. ويقول الفارسي عند استحسان الأمر: زهازه، فأخذ منه الزهزة، أي: ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير، والخطاب لغير معين، والحال أن الفتى في مصقلا باد، وهي محلة بجرجان، ويروى بالذال المعجمة، أي: كائن هناك لسقى زروعه. لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان، كان جسمه كأنه هناك، ولقد ترقى في التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى بغيره تشبيهاً بليغاً. ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيهاً بليغاً، قلله دره بليغاً.

(٢) الكشاف: ٣٩١/٤.

(٣) مجاز القرآن: ٢٢٤/٢.

(٤) التفسير البسيط: ٤١٥/٢٠.

(٥) غريب القرآن: ٤١٩.

(٦) أحكام القرآن: ٣٥/٢-٣٦.

(٧) الوجوه والنظائر: ٢٧٣.

(٨) تفسير أبي السعود: ١٣٤/٨.

(٩) نقلا عن: الكشف والبيان: ١٠٦/٩.

(١٠) انظر: الكشاف: ٣٩٢/٤.

(١١) تفسير التستري: ١٥٢.

قال السعدي: " وأما المعرض، الذي لم يلق سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته"^(٢).
وفي معنى «الشهيد» -هنا-، قولان^(٣):

القول الأول: عنى بـ«الشهيد»: حضور القلب من غير غياب، أي: الفطن الحاضر الذهن.
وقد تعددت عبارات أهل هذا القول في تفسير قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق : ٣٧]، على وجوه:

أحدها: المعنى: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه. وهذا قول مجاهد^(٤).

قال مجاهد: " وهو لا يحدث نفسه، شاهد القلب"^(٥).

الثاني: استمع بأذنيه، وهو شاهد، غير غائب. وهذا قول الضحاك^(٦).

قال الضحاك: " كان العرب تقول: ألقى فلان سمعه، أي استمع بأذنيه، وهو شاهد، يقول:

غير غائب"^(٧).

قال الضحاك: " العرب تقول: ألقى فلان سمعه: أي: استمع بأذنيه"^(٨).

الثالث: معناه: إن استمع الذكر وشهد أمره، فإن ذلك يجزيه إن عقله. قاله ابن عباس^(٩).

الرابع: يسمع ما يقول، و[ليس] قلبه في غير ما يسمع. قاله سفيان^(١٠).

القول الثاني: عنى بـ«الشهيد» -في هذا الموضع-: «الشهادة». ومن ثم تعددت عباراتهم في تفسير قوله تعالى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق : ٣٧]، على وجوه:

أحدها: يعني بذلك: أهل الكتاب، وهو شهيد على ما يقرأ في كتاب الله من بعث محمد صلى الله عليه وسلم. قاله قتادة^(١١).

عن قتادة: " {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}، على ما في يده من كتاب الله أنه يجد النبيّ

صلى الله عليه وسلم مكتوباً"^(١٢).

الثاني: أنها في منافق استمع القول ولم ينتفع. وهذا قول ابن عباس^(١٣)، والحسن^(١٤).

عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: " {لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} [ق :

٣٧] قال: كان المنافقون يجلسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال أنفا؟ قال: ليس معهم قلوبهم"^(١٥).

الثالث: أنها في المؤمن يسمع القرآن، وهو شهيد على ذلك، قاله محمد بن كعب^(١٦)، وأبو صالح^(١٧).

(١) تفسير التستري: ١٥٢.

(٢) تفسير السعدي: ٨٠٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٣/٢٢-٣٧٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٣/٢٢.

(٥) تفسير الطبري: ٣٧٣/٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(٧) تفسير إسحاق البستي (١٠٤٥): ص ٤١٣/٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٣/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧، حكاه عنه، وانظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢. رواه عنه بلفظ "وقلبه في غير ما يسمع".

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(١٣) انظر: التفسير الوسيط للواحد (٨٧٨): ص ١٧٠/٤.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(١٥) أخرجه الواحد في التفسير الوسيط (٨٧٨): ص ١٧٠/٤.

(١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٥٦/٥.

(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢.

الرابع : {أَلْقَى السَّمْعُ}، يسمع ما قد كان مما لم يعاين من الأحاديث عن الأمم التي قد مضت، كيف عذبهم الله وصنع بهم حين عَصُوا رسله. قاله ابن زيد^(١).

قال الزجاج: "معنى: {مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ}، أي: من صرف قلبه إلى النَّفْهِم، ألا ترى أن قوله: {صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ} أنهم لم يستمعوا استماع متفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر^(٢):

أَصُمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ

ومعنى: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعُ}، أي: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع. والعرب تقول: ألق إليَّ سَمْعَكَ، أي استمع مني. ومعنى: {وَهُوَ شَهِيدٌ}، أي: وقَلْبُهُ فيما يسمعُ. وجاء في التفسير أنه يعنى به أهل الكتاب الذين كانت عندهم صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - . فالمعنى على هذا التفسير {أَوْ أَلْقَى السَّمْعُ وَهُوَ شَهِيدٌ} أن صفة النبي -عليه لسلام- في كتابه^(٣).

جاء في كتاب «فهم القرآن» للحارث المحاسبي: "قلت: فكيف أحضر عقلي حتى يكون شاهدا لا يغيب عن فهم كلام ربي جل وتعالى؟ قال: بأن تجمع فهمك حتى لا يكون فهمك متفرقا في شيء غير طلب الفهم لكلام مولاك.

قلت: وكيف أجمع همي حتى لا يتفرق في شيء سوى ذلك؟

قال: تمنع عقلك من النظر في شيء سوى طلب فهم كتاب ربك جل وتعالى.

قلت: وكيف أجمع عقلي؟

قال: بأن لا تشغل جوارحك بما لا يشتغل به عقلك وأن تستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم كنظرك في مصحف واستماعك إلى تلاوتك أو تلاوة غيرك وتمنع عقلك من فكر وذكر يقوى طلب فهم كلام مولاك لأنك إذا لم تشغل جوارحك بشيء غير ذلك ومنع عقلك عن النظر والفكر في غير ذلك اجتمع همك وحضر وإذا حضر عقلك زكا ذهنك وإذا زكا ذهنك قويت على طلب الفهم واستبان فيه اليقين وصفا فيه الذكر وقوي فيه الفكر وبذلك مدح المستمعين لتلاوة كتابه بالفهم فقال عز وجل: {قَلَمًا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} [الأحقاف : ٢٩]، أي: قالوا صه!

أفلا نسمع الله عز وجل مدحهم بأن سكتوا عن الكلام لئلا يشتغلوا عن فهم ما يتلو نبيه عليه السلام عليهم وهذا ولم يعلموا ما فيه وما هو فلما قضى وفهموا عن الله عز وجل ما تلا عليهم نبيه عليه السلام ولوا إلى قومهم منذرين تحدثوا وفهموا من الله عز وجل ما سمعوا فقالوا {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَحْبَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ} [الأحقاف : ٣٠-٣٢] وقالوا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن : ١-٢]، الآيات.

لقد نطقوا بالحكم عن فهم بين وعن عقول ذكية في استماع آيات في مقام واحد فدعوا إلى إجابة الله عز وجل وأملوا المغفرة والنجاة من العذاب الأليم وأخبروا أنه من أعرض عما تلا نبيه صلى الله عليه وسلم من كلام ربه عز وجل لا يعرف الله وأن مصيره إليه، هذا الأدب والفهم من استماع آيات في مقام واحد في أقل من ساعة فكيف بمن وعى القرآن كله من صغره ويكرر تلاوته من صباه إلى كبره وعمر السنين الكثيرة ويكرر تلاوته لم يعقل عن ربه ولم يفهم كلام مولاه فيقوم بحقه وكان أول ما تداعوا الأدب لاستماع ما تلى نبيه عليه السلام بتناهيهم عن الاشتغال بالمحادثة عن كلام ربهم ولقد ذم مولانا عز وجل المتشاغلين عند استماعهم بالمحادثة

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/٢٢.

(٢) انظر: اللسان: مادة: صمم سمع، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/٤٠١، ومجمع الأمثال للميداني: ٤٠٢/١.

أي: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا، يضرب مثلا للرجل يتغافل عما يكره.

(٣) معاني القرآن: ٤٨/٥-٤٩.

فقال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى} [الإسراء : ٤٧]، فاحرص أن لا يكون فيك خلق ذم الله عز وجل به كافرا وإن كنت مؤمنا فإن من كمال الإيمان مخالفة أهل الكفر بالقول والفعل فيما نهى الله عز وجل عنه ولقد وعد ربنا عز وجل الرحمة وأمرنا أن نطلبها منه بالاستماع والإنصات لفهم كلامه فقال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف : ٢٠٤]، يعني: لكي ترحموا فجعل الاستماع بترك الكلام لتفهم كلامه يوجب الرحمة قبل العمل بما يسمع، وقال عز وجل: {فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر : ١٧-١٨]، فمدحهم بالهدى ووصفهم باللب وأثنى عليهم في أي من القرآن فإذا أحضرت عقلك بجمع همك بنية صادقة مع أمل ورجاء أن تنال ما قال وتسارع إلى محابه وتجتنب مساخطه وتريده وحده ولا تريد أن تفهم منه ما تتصنع به عند العباد فإذا نظر الله عز وجل إليك وأنت كذلك وعلم ذلك من ضميرك أقبل بلطفه وولي تقويم عقلك بفهم كلامه وما فيه من علم الغيوب ومكنون الوعيد فحينئذ تكون للقرآن مفهما فتستتطق منه علم ما عميت عليك فيه الحجة فيوضح الله لك به البرهان ويمدك بالفوائد ويجلي عنك ظلم الشبه ويدلك على محجة المهتدين ويذيقك الحلاوة التي أذاقها أهل التقوى لأن كلامه ربيع قلوب الأبرار ويثقل فهمه على من تعطل قلبه وهو الذي حجب قلوب الفهمين فأهاج منهم الفؤاد والزفرات أسفا على ما فات من أعمارهم وما أحصى الله عليهم من ذنوبهم وأشخص أبصار قلوبهم إلى ملكوت جواره فطال حنينهم واشتياقهم إلى الخلود في دار الأمل في جوار رب العالمين مع خوف الحرمان لما سلف من جرائمهم.

فإن طلبت الفهم بالصدق أقبل عليك بالمعونة تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل : ١٢٨]، لا يثقل فهم كلامه إلا على من تعطل قلبه ألا يسمع وربنا جل وعز يقول: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَكَّلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال : ٢٣]، فأخبر أنه لو علم فيهم خيرا لأفهمهم لأنهم لم يكونوا صما وكانوا يسمعون قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ولكن ضيعوا الفهم ألا تسمعه يقول: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف : ١٧٩]. ألا تسمعه يقول: {مَا كَانُوا يَسْتَنصِتُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} [هود : ٢٠]، لا يعني: أنهم كانوا صما ولكن لا يفقهون ما يسمعون بأذانهم ألا تسمعه يقول: {وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ} [الأعراف : ١٩٨]، فأثبت النظر منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: {وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف : ١٩٨]، يقول: لا يعقلون دلائل الله عز وجل في نبوته عليه السلام فإن علم من التالي لكتابه صدق ضمير وعناية حتى يجمع همه للفهم أفهمه ألا تسمعه يقول: {إِنَّ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ} [الأنفال : ٧٠]، فإذا أقبلت على الله تعالى بصدق نية ورغبة لفهم كتابه باجتماع هم متوكلا عليه أنه هو الذي يفتح لك الفهم لا على نفسك فيما تطلب ولا بما لزم قلبك من الذكر لم يخيبك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله^(١).

القرآن

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)} [ق :

٣٨]

التفسير:

ولقد خلقنا السموات السبع والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات في ستة أيام، وما أصابنا من ذلك الخلق تعب ولا نصب.

سبب النزول:

(١) فهم القرآن: ٣١٨-٣٢٤.

عن أبي بكر، قال: "جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: "خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنتين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات، يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن أنتمت، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يريدون، فغضب، فأنزل الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق : ٣٨-٣٨]"^(١). [ضعيف]

عن ابن عباس: "أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فسألت عن خلق السموات والأرض فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنتين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء [وما فيهن من المنافع] وخلق يوم الأربعاء والشجر والماء وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر. قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو تمت ثم استراح. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا. فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨]"^(٢). [ضعيف]

عن الضحَّاك بن مزاحم، قال: "قالت اليهود: ابتداء الله الخلق يوم الأحد، والاثنتين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، واستراح يوم السبت، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾"^(٣).

عن العوام بن حوشب، قال: "سألت أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجله على الأخرى. فقال: لا بأس به، إنما كره ذلك اليهود؛ زعموا أنّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السبت، فجلس تلك الجلسة؛ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾"^(٤).

عن الحسن البصري -من طريق أبي معاذ- قال: "قالت اليهود: خلق الله -تبارك وتعالى- السموات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع؛ فأنزل الله -تبارك وتعالى- على نبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾"^(٥).

عن قتادة -من طريق معمر- قال: "قالت اليهود: إنّ الله خلق الخلق في ستة أيام، وفرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت. فأكذبهم الله في ذلك، فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾"^(٦).

عن ابن المبارك، قال: سمعت أبا سنان الشيباني يقول: فرغ الله من خلق السموات والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين من يوم الجمعة؛ فخلق الآفة في ساعة والأجل في ساعة، فلا أدري بأيتهما بدأ؟ وخلق آدم في الساعة الآخرة. فقالت اليهود: فجلس هكذا يوم السبت؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾"^(٧).

(١) أخرجه الطبري: ٣٧٥/٢٢. إسناده ضعيف، بسبب ابن حميد (تقريب التهذيب: ١٥٦/٢ - رقم: ١٥٩).
(٢) أخرجه الواحدى في أسباب النزول (٧٦٩): ص٤١٣-٤١٤، والحاكم (المستدرک: ٥٤٣/٢) إسناده ضعيف، أبو سعد يقال اسمه سعيد بن المرزبان، قال ابن معين: ليس بشيء لا يكتب حديثه، وقال: عمرو بن علي: ضعيف الحديث [تهذيب التهذيب ٧١ / ٤] و [المجروحين لابن حبان ٣١٣ / ١]

(٣) الدر المنثور: ٦٠٩/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.
(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه ٦ / ٨، وفيه: سألت أبا مخلد، وعند ابن أبي شيبة ٣٨٢ / ٨: عن العوام عن الحكم قال: سألت أبا مجلز.

(٥) ذكره في الإيماء ٣٥٣ / ٧ (٦٨٧٥)، وعزاه لجزء المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٢٥٨١). وقال: «إسناده ضعيف، وهو مرسل».

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢ / ٢٣٩، والطبري: ٣٧٦/٢٢ - كما سيأتي-، وابن أبي حاتم -كما في الفتح ٨ / ٥٩٤ - وزاد في آخره: أي من إعياء. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد ١ / ١١١.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق : ٣٨]، أي: "ولقد خلقنا السموات السبع والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات في ستة أيام"^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا السموات السبع والأرض وما بينهما من الخلائق في ستة أيام"^(٢).

قال السعدي: "وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشينته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة"^(٣).

قال الضحاك: "كان مقدار كل [يوم] ألف سنة مما تعدون"^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨]، أي: "وما أصابنا من ذلك الخلق تعب ولا نَصَب"^(٥).

قال الطبري: يقول: "وما مسنا من إعياء"^(٦).

قال السعدي: "من غير تعب، ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها -على كبرها وعظمتها- قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى"^(٧).

قال ابن زيد: "لم يمسننا في ذلك عناء، ذلك اللغوب"^(٨).

قال ابن كثير: "فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى"^(٩).

قال أبو السعود: "وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا"^(١٠).

عن سفيان: "﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾، قال: من سامة"^(١١).

قال ابن عباس: "يقول: من إزحاف"^(١٢).

وقال ابن عباس: "يقول: وما مسنا من نصب"^(١٣). وروي عن مجاهد نحوه^(١٤).

قال مجاهد: "اللغوب: النَّصَب، تقول اليهود: إنه أعياء بعد ما خلقهما"^(١٥).

عن قتادة: "﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾، أي: من إعياء"^(١٦).

قال قتادة: "أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفري على الله، وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة"^(١٧).

- (١) التفسير الميسر: ٥٢٠.
- (٢) تفسير الطبري: ٣٧٥/٢٢.
- (٣) تفسير السعدي: ٨٠٧.
- (٤) أخرجه الطبري: ٣٧٦/٢٢.
- (٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.
- (٦) تفسير الطبري: ٣٧٥/٢٢.
- (٧) تفسير السعدي: ٨٠٧.
- (٨) أخرجه الطبري: ٣٧٦/٢٢.
- (٩) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧.
- (١٠) تفسير أبي السعود: ١٣٤/٨.
- (١١) أخرجه الطبري: ٣٧٥/٢٢.
- (١٢) أخرجه الطبري: ٣٧٥/٢٢.
- (١٣) أخرجه الطبري: ٣٧٥/٢٢.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٦-٣٧٥/٢٢.
- (١٥) تفسير مجاهد ص ٦١٥، وأخرجه الفريابي -كما في تعليق التعليق ٤/ ٣٧٦ - ، والطبري: ٣٧٦/٢٢ مختصراً -كما سيأتي-، وابن أبي حاتم -كما في الفتح ٨/ ٥٩٤، ٦/ ٢٨٨ - مختصراً، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٦٦)، وانظر: الدر المنثور: ٦١٠/٧.
- (١٦) أخرجه ابن أبي حاتم -كما في الفتح ٨/ ٥٩٤ -.

قال قتادة: " قالت اليهود: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله، وقال: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} "(١).
 عن محمد بن علاثة، قال: "كان عندنا رجل يكتب مصاحف، وكان خفيف اليد. وكتب مصحفًا في ستة أيام. فقيل له: في كم كتبت؟ قال: في ستة أيام وما مسنا من لغوب. قال: فجفت يمينه" (٢).

وقال عبد الله بن الحسين التويي الهمداني: سمعت أبي يقول: "كنت عند أبي حامد الإسفراييني، فذكر له رجل يكتب مصحفًا في يوم، فاجتمع بالرجل فقال له: أنت تكتب مصحفًا في يوم، فقال: نعم، وما مسنا من لغوب! وأشار بثلاثة أصابعه، فجفت يده في الحال" (٣).

القرآن

{فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)} [ق : ٣٩-٤٠]
 التفسير:

فاصبر -أيها الرسول- على ما يقوله المكذبون، فإن الله لهم بالمرصاد، وصلِّ لربك حامدًا له صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر قبل الغروب، وصلِّ من الليل، وسبِّحْ بحمد ربك عقب الصلوات.

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} [ق : ٣٩]، أي: "فاصبر -أيها الرسول- على ما يقوله المكذبون، فإن الله لهم بالمرصاد" (٤).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود، وما يفترون على الله، ويكذبون عليه، فإن الله لهم بالمرصاد" (٥).
 قال ابن كثير: "يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجرًا جميلاً" (٦).

قال أبو السعود: "أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه" (٧).

قال السعدي: "أي: من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى، مسل للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر" (٨).

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق : ٣٩]، أي: "وصلِّ لربك حامدًا له صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر قبل الغروب" (٩).

قال أبو السعود: "أي: نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامدا له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها {قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة" (١٠).

(١) أخرجه الطبري: ٣٧٦/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٧٦/٢٢.

(٣) تاريخ واسط: ٢١٦.

(٤) المنتور من الحكايات والسؤالات لابن طاهر المقدسي: ٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٦) تفسير الطبري: ٣٧٦/٢٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧.

(٨) تفسير أبي السعود: ١٣٤/٨.

(٩) تفسير السعدي: ٨٠٧.

(١٠) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(١١) تفسير أبي السعود: ١٣٤/٨.

وفي هذا التسبيح وجهان :

أحدهما : أنه تسبيحه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، قاله أبو الأحوص^(١) .
الثاني : أنها الصلاة، ومعناه: فصلٌ بأمر ربك قبل طلوع الشمس، يعني: صلاة الصبح ، وقبل
الغروب ، يعني: صلاة العصر، قاله أبو صالح^(٢)، وقتادة^(٣)، وابن زيد^(٤)، ورواه جرير بن عبد
الله مرفوعاً^(٥) .

قال الطبري: " يقول: وصل بحمد ربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر
قبل الغروب"^(٦) .

عن قتادة: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس" قال: هي صلاة الفجر، {وقبل غروبها}
قال: صلاة العصر"^(٧) .

عن قتادة: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس" قال: صلاة الصبح. {وقبل غروبها}
الظهر والعصر"^(٨) .

عن ابن جريج: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها"، قال: العصر"^(٩) .

عن السدي: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها"، قال: كان هذا قبل أن
تُفرض الصلاة"^(١٠) .

عن جرير بن عبد الله قال : "كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر
ليلة البدر فقال : «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه،
فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ : {وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}"^(١١) .

قال ابن كثير: " كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء تنتين قبل طلوع الشمس في وقت
الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم
وعلى أمته حولا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس
صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب"^(١٢) .

قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق : ٤٠]، أي: " وصل من الليل، وسبِّحْ
بحمد ربك عقب الصلوات"^(١٣) .

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} [ق : ٤٠]، وجوه:

أحدها : أنه تسبيح الله تعالى قولاً في الليل، قاله أبو الأحوص^(١٤) .

(١) انظر: النكت والعيون: ٢٥٦ .

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٥٧/٥ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٦/٢٢-٣٧٧ .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٦/٢٢-٣٧٧ .

(٥) انظر: المسند (٣٦٥/٤) وصحيح البخاري برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبي داود برقم
(٣٧٢٩) وسنن الترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم
(١١٧) .

(٦) تفسير الطبري: ٣٧٦/٢٢ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١، والطبري: ٣٧٦/٢٢-٣٧٧ . ويحيى بن سلام في "التفسير": ٢٩٢/١ [روي عنه
الشرط الأول فقط بلفظ: "صلاة الصبح"]، وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه يحيى بن سلام ١/ ٢٩٣ .

(٩) أخرجه الطبري: ٤٠١/١٨ .

(١٠) الدر المنثور: ٦١١/٧، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(١١) المسند (٣٦٥/٤) وصحيح البخاري برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبي داود برقم
(٣٧٢٩) وسنن الترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم
(١١٧) .

(١٢) تفسير ابن كثير: ٤٠٩/٧ .

(١٣) التفسير الميسر: ٥٢٠ .

(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٥٧/٥ .

الثاني : أنها صلاة الليل ، قاله مجاهد^(١).
 عن مجاهد: " {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} ، قال: من الليل كله"^(٢).
 الثالث : أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد^(٣).
 عن ابن زيد: " {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} ، قال: العتمة"^(٤).
 الرابع: أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس^(٥).
 وروي عن ابن عباس: " {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} ، يعني: صلاة العشاءين"^(٦).
 قال الطبري: " والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن الله جل ثناؤه قال: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} ، فلم يحد وقتا من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمرا بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمرا بصلاة العتمة، لأنهما يصليان ليلا"^(٧).
 وفي قوله تعالى: {وَأَذْبَارَ السُّجُودِ} [ق : ٤٠] ، وجوه:
 أحدها : أنه التسبيح في أدبار الصلوات، قاله ابن عباس-في رواية-^(٨) ، وأبو الأحوص^(٩) ، ومجاهد^(١٠).
 قال مجاهد: " كان ابن عباس يقول: التسبيح. قال ابن عمرو: في حديثه في إثر الصلوات كلها. وقال الحارث في حديثه في دبر الصلاة كلها"^(١١).
 قال ابن كثير: "ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : «جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال : "وما ذاك ؟" قالوا : يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال : "أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتكم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين". قال : فقالوا : يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال : "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"^(١٢)»^(١٣).
 الثاني : أنها النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد^(١٤).
 الثالث : أنها ركعتان بعد المغرب، روي ذلك عن عمر^(١٥) ، وعلي^(١٦) ، وابنه الحسن^(١٧) ، وابن عباس^(١٨) ، وأبي هريرة^(١٩) ، وأبي أمامة^(٢٠) ، وبه يقول مجاهد^(٢١) ، وعكرمة^(٢٢) ، والشعبي^(٢٣) ، والنخعي^(٢٤) ، والحسن^(٢٥) ، وقتادة^(٢٦) ، والأوزاعي^(٢٧) .

- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٧/٢٢.
 (٢) أخرجه الطبري: ٣٧٧/٢٢.
 (٣) أخرجه الطبري: ٣٧٧/٢٢.
 (٤) أخرجه الطبري: ٣٧٧/٢٢.
 (٥) انظر: النكت والعيون: ٣٥٧/٥.
 (٦) تفسير الثعلبي ١٠٦ / ٩.
 (٧) تفسير الطبري: ٣٧٧/٢٢.
 (٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٨١/٢٢ ، وتفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.
 (٩) انظر: النكت والعيون: ٣٥٧/٥.
 (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٢.
 (١١) أخرجه الطبري: ٣٨١/٢٢.
 (١٢) صحيح البخاري برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).
 (١٣) تفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.
 (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٨١/٢٢.
 (١٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.
 (١٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٨/٢٢.
 (١٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/٢٢.
 (١٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/٢٢.
 (١٩) انظر: النكت والعيون: ٣٥٧/٥ ، وتفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.

عن مجاهد: " {وَأَذْبَارَ السُّجُودِ}، قال: الركعتان بعد المغرب" (٩).
 عن علي قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة" (١٠).
 عن ابن عباس قال : "بت ليلة عند رسول صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال : «يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إديار النجوم، وركعتين بعد المغرب إديار السجود»" (١١).
 عمرو بن أبي سلمة، قال: سئل الأوزاعي عن الركعتين بعد المغرب، قال: هما في كتاب الله: { [وَمِنَ اللَّيْلِ] فَسَبِّحْهُ وَأَذْبَارَ السُّجُودِ } " (١٢).
 قال الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: هما الركعتان بعد المغرب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد، لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أديار الصلوات كلها، فقال: وأديار السجود، ولم تقم بأنه معني به: دبر صلاة دون صلاة، حجة يجب التسليم لها من خبر ولا عقل" (١٣).
 وقرئ: «وإديار السجود» بكسر الألف، على أنه مصدر أدير يدبر إديارا (١٤).

القرآن

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)} [ق : ٤١-٤٢]

التفسير:

واستمع -أيها الرسول- يوم ينادي الملك بنفخه في «القرن» من مكان قريب، يوم يسمعون صيحة البعث بالحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ذلك يوم خروج أهل القبور من قبورهم.
 قوله تعالى: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ} [ق : ٤١]، أي: "واستمع -أيها الرسول- يوم ينادي الملك بنفخه في «القرن» من مكان قريب" (١٥).
 قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب" (١٦).
 قال ابن كثير: "يعني : النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}، أي : من الأجداث" (١٧).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/٢٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩/٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٠/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٧٩/٢٢.

(١٠) المسند (١٢٤/١) وسنن أبي داود برقم (١٢٧٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(١١) سنن الترمذي برقم (٣٢٧٥). وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرجه الطبري: ٣٧٩/٢٢. بلفظ: "قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ابن عباس بعد المغرب أديار السجود".

(١٢) أخرجه الطبري: ٣٨٠/٢٢.

(١٣) تفسير الطبري: ٣٨١/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٨١/٢٢.

(١٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(١٦) تفسير الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(١٧) تفسير ابن كثير: ٤١١/٧.

عن ابن عباس، قوله: " {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}، قال: هي الصيحة" (١).
قال كعب: " ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال
المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء" (٢).

عن ابن بري، عن أبيه بريدة، قال: "ملك قائم على صخرة بيت المقدس، واضع
أصبعيه في أذنيه ينادي، قال: قلت: بماذا ينادي؟ قال: يقول يا أيها الناس هلموا إلى الحساب؛
قال: فيقبلون كما قال الله: {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر: ٧]" (٣).

قال قتادة: "كنا نحدث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض" (٤).
وعن كعب: "هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً" (٥).
قوله تعالى: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ} [ق: ٤٢]، أي: "يوم
يسمعون صيحة البعث بالحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ذلك يوم خروج أهل القبور من
قبورهم" (٦).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: يوم يسمع الخلائق صيحة البعث من القبور بالحق،
يعني بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب، [ذلك] يوم خروج أهل القبور من قبورهم" (٧).

عن ابن جريج: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ}، قال: "يسمع النفخة القريب والبعيد" (٨).

عن ابن عباس: {ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ}، قال: "يوم يخرجون إلى البعث من القبور" (٩).

عن عطاء الخراساني: {يَوْمَ الْخُرُوجِ}، قال: "يوم يخرجون إلى البعث من القبور" (١٠).

القرآن

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ (٤٤)} [ق: ٤٣-٤٤]

التفسير:

إنَّا نحن نحْيي الخلق ونميتهم في الدنيا، وإلينا مصيرهم جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء، يوم
تتصدع الأرض عن الموتى المقبورين بها، فيخرجون مسرعين إلى الداعي، ذلك الجمع في
موقف الحساب علينا سهل يسير.

قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ} [ق: ٤٣]، أي: "إنَّا نحن نحْيي الخلق ونميتهم في
الدنيا" (١١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إنَّا نحن نحْيي الموتى ونميت الأحياء" (١٢).

قال ابن كثير: "أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه" (١٣).

قوله تعالى: {وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} [ق: ٤٣]، أي: "إلينا مصيرهم جميعاً يوم القيامة للحساب
والجزاء" (١٤).

(١) أخرجه الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٨٢/٢٢.

(٦) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٧) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(٨) الدر المنثور: ٦١٢/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٤٨): ص ٣٣١٠/١٠.

(١٠) أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه (تفسير عطاء) ص ١٠٩.

(١١) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٤١١/٧.

(١٤) التفسير الميسر: ٥٢٠.

قال الطبري: يقول: " وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة"^(١).
قال ابن كثير: " وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر"^(٢).

قال أبو السعود: " للجزء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً"^(٣).
قوله تعالى: {يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا} [ق : ٤٤]، أي: " يوم تتصدع الأرض عن الموتى المقبورين بها، فيخرجون مسرعين إلى الداعي"^(٤).
قال مجاهد: " ثمطر السماء عليهم حتى تشقق الأرض عنهم"^(٥).
قال الطبري: " يقول جل ثناؤه وإلينا مصيرهم يوم تصدع الأرض عنهم فيخرجون منها سراعا"^(٦).

قال ابن كثير: " وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل : وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ} [القمر : ٨]، وقال الله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء : ٥٢]، وفي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا أول من تنشق عنه الأرض"^(٧)^(٨).

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم أتى أهل البقيع، فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة". وتلا ابن عمر: {يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا} الآية"^(٩).
قوله تعالى: {ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} [ق : ٤٤]، أي: " ذلك الجمع في موقف الحساب علينا سهل يسير"^(١٠).

قال عطاء: "بَعْتُ عَلَيْنَا سَهْلًا"^(١١).

وقال الكلبي: "سَوَّقَ عَلَيْنَا هَيْبًا"^(١٢).

(١) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤١١/٧.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٨.

(٤) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٥) الدر المنثور: ٦١٢/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولم أهتد إليه من حديث أنس.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤١١/٧.

(٩) أخرجه الترمذي ٢٦٩ / ٦ (٤٠٢٤)، وابن حبان ٣٢٤ / ١٥ (٦٨٩٩) كلاهما دون الآية، والحاكم ٥٠٥ / ٢ (٣٧٣٢) واللفظ له، ٧٢ / ٣ (٤٤٢٩).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وعاصم بن عمر العمري ليس بالحافظ عند أهل الحديث». قال الحاكم في الموضوعين: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي في الموضوع الأول بقوله: «عبد الله بن نافع ضعيف». وفي الموضوع الآخر بقوله: «عاصم بن عمر هو أخو عبد الله، ضعفه». وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٤٣٢ / ٢ (١٥٢٧ - ١٥٢٨): «هذا حديث لا يصح، ومدار الطريقين على عبد الله بن نافع، قال يحيى: ليس بشيء. وقال علي: يروي أحاديث منكروة. وقال النسائي: متروك. ثم مدارهما أيضاً على عاصم بن عمر؛ ضعفه أحمد ويحيى، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به». وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ ٤٩٦ / ١ - ٤٩٧ (٧٤٥): «رواه عاصم بن عمر العمري، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، وعاصم ضعيف». وقال الألباني في الضعيفة ٥٠٨ / ٦ (٢٩٤٩): «ضعيف».

(١٠) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(١١) علقه الواحدي في "التفسير البسيط": ٤٢٠/٢٠.

قال مقاتل: "يعني: جميع الخلائق علينا هين"^(٢).
 قال الطبري: "يقول: جمعهم ذلك جمع في موقف الحساب، علينا يسير سهل"^(٣).
 قال ابن كثير: "أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: {مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كُنُفُسًا وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [لقمان: ٢٨]"^(٤).
 قال أبو السعود: "ذلك حشر" {بعث وجمع وسوق {علينا يسير} أي هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى"^(٥).
 قال السمعاني: "هو جواب لقولهم في أول السورة: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٣]"^(٦).
 قال ابن عطية: "علينا يسير"، تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى: {مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كُنُفُسًا وَاحِدَةً} [لقمان: ٢٨]"^(٧).

القرآن

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ (٤٥)} [ق: ٤٥]
 التفسير:

نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون من افتراء على الله وتكذيب آياته، وما أنت -أيها الرسول- عليهم بمسلط؛ لتجبرهم على الإسلام، وإنما بُعثت مبلِّغًا، فذَكَرْ بالقرآن من يخشى وعبيدي؛ لأن من لا يخاف الوعيد لا يذُكر.
 سبب النزول:

عن ابن عباس، قال: قالوا يا رسول الله لو خوفتتنا؟ فنزلت: {فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ}"^(٨).

وفي رواية عن عمرو بن قيس، قال: "قالوا: يا رسول الله، لو ذكرتنا، فذكر مثله"^(٩).
 قال ابن عطية: "ولو لم يكن هذا سببًا، فإنه لما أعلمه أنه ليس بمسلط على جبرهم، أمره بالاعتصار على تذكير الخائفين من الناس"^(١٠).
 قوله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} [ق: ٤٥]، أي: "نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون من افتراء على الله وتكذيب آياته"^(١١).
 قال الواحدي: "أي: تكذيبك، يعني: كفار مكة"^(١٢).
 قال السمعاني: "أي: بما يقولون من الشرك والكذب على الله وعلى رسوله"^(١٣).
 قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله، وتكذيبهم آياته، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت"^(١٤).

(١) علقه الواحدي في "التفسير البسيط: ٤٢٠/٢٠ .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٧/٤ .

(٣) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢ .

(٤) تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧ .

(٥) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٨ .

(٦) تفسير السمعاني: ٢٤٨/٥ .

(٧) المحرر الوجيز: ٣٩٣/٤ .

(٨) أخرجه الطبري: ٣٨٥/٢٢ .

(٩) أخرجه الطبري: ٣٨٥/٢٢ .

(١٠) المحرر الوجيز: ١٧٠/٥ .

(١١) التفسير الميسر: ٥٢٠ .

(١٢) التفسير الوسيط: ١٧٢/٤ .

(١٣) تفسير السمعاني: ٢٤٨/٥ .

(١٤) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢ .

قال ابن كثير: "أي : نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}. وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر : ٩٧ - ٩٩]"^(١).

قال الزمخشري: " {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} تهديد لهم وتسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٢).

قال السعدي: يقول: " {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} لك، مما يحزنك، من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمرنا، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرف، من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم، من رسل الله"^(٣).

قال ابن عطية: "وعيد محض للكفرة"^(٤).

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق : ٤٥]، أي: "وما أنت -أيها الرسول- عليهم بمسلط؛ لتجبرهم على الإسلام، وإنما بُعِثتَ مَبْلَغًا"^(٥).

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق : ٤٥]، وجوه من التفسير: أحدها : لست عليهم بمسلط فتجبرهم وتقهرهم على الإيمان والإسلام، يقال: جبرته على كذا، أي: قسرتة، ف«جبار» بناء مبالغة من: «جبر». قاله الفراء^(٦)، وابن قتيبة^(٧)، والطبري^(٨)، والسجستاني^(٩)، والنحاس^(١٠)، ولذلك قيل لكل متسلط: جبار . قال الشاعر^(١١):

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ ... أَقْمَنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَنَقَوَّمَا

قال الفراء: وضع «الجبار» في موضع «السلطان» من الجبرية. وأنشدني المفضل^(١٢):

وَيَوْمَ الْحَزْنِ إِذْ حَشَدَتْ مَعَدَّ ... وَكَانَ النَّاسُ إِلَّا نَحْنُ دِينَا
عَصَيْنَا عَزْمَةَ الْجَبَّارِ حَتَّى ... صَبَحْنَا الْجَوْفَ أُنْفَا مُعَلِّمِينَا

أراد بـ«الجبار» المنذر بن النعمان لولايتته^(١٣).

قال الفراء: "وَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ: جَبْرَهُ عَلَى الْأَمْرِ. يَرِيدُ: أَجْبَرَهُ، فَالْجَبَّارُ مِنْ هَذِهِ اللَّغَةِ صَحِيحٌ يَرَادُ بِهِ: يَقْهَرُهُمْ وَيَجْبِرُهُمْ"^(١٤).

قال الطبري: "يقول: وما أنت عليهم بمسلط"^(١٥).

قال أبو أحمد السامري: {بِجَبَّارٍ} مُسَلِّطٌ بِلُغَةِ حَمِيرٍ"^(١٦).

(١) تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.

(٢) الكشاف: ٣٩٣/٤.

(٣) تفسير السعدي: ٨٠٧.

(٤) المحرر الوجيز: ١٧٠/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٦) انظر: معاني القرآن: ٨١/٣.

(٧) انظر: غريب القرآن: ٤١٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(٩) انظر: غريب القرآن: ١٧٤.

(١٠) انظر: إعراب القرآن: ١٥٦/٤.

(١١) البيت للمتلص في ديوانه: ص ٢٤، ولسان العرب (درأ)، (صعر)، (كون)، والتنبيه والإيضاح: ١/ ١٥، ١٤٩/٢، وتاج العروس (درأ)، (صعر)، (كون)، ولعمرو بن حني التغلبي في تفسير الطبري ١٤٣/٢٠، وبلا نسبة في مقاييس اللغة: ٢/ ٢٧٤، ويروى «من درئه» بدل «من ميله».

(١٢) من شواهد الفراء في معاني القرآن: ٨١/٣، والطبري في التفسير: ٣٨٤/٢٢، وقد رواهما الفراء عن المفضل، ولم أعرث عليهما في المفضليات.

(١٣) قال ابن عطية: ١٧٠/٥: "ويحتمل أن نصب عزيمة على المصدر وأراد عصينا مقدمين عزيمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا".

(١٤) معاني القرآن: ٨١/٣.

(١٥) تفسير الطبري: ٣٨٣/٢٢.

(١٦) اللغات في القرآن: ٤٥.

قال ابن كثير: "أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك ما كلفت به"^(١).
قال ابن أبي زمنين: {وما أنت} "برب تجبرهم على الإيمان"^(٢).
قال القشيري: "ما أنت عليهم بمتسلط تكرهم"^(٣).
قال الزجاج: "هذا كما قال: {لستَ عليهم بمُصَيِّرٍ} [الغاشية: ٢٢]، وهذا قبل أن يؤمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالحرب لأن سورة (ق) مكية"^(٤).
قال الماوردي: "وهو من صفات المخلوقين ذم"^(٥).
قال السمعاني: "الجبار في صفات الله محمود، وفي صفات الخلق مذموم، وكذلك المتكبر؛ لأن الخلق أمروا بالتواضع والخشوع والخضوع ولين الجانب وخفض الجناح، وأما الرب جل جلاله فيليق به الجبروت والكبرياء: لأنه المتعالي عن إدراك الخلق، القاهر لهم في كل ما يريده، ولم يصفه أحد حق صفته، ولا عظمه أحد حق تعظيمه، ولا عرفه أحد حق معرفته"^(٦).
قال الماتريدي: "الجبار: هو الذي يقتل بلا ذنب ولا حق"^(٧).
الثاني: معناه: إنك لم تبعث لتجبرهم على الإسلام والهدى إنما بعثت مُذَكِّرًا فذُكِّر. من قولهم: قد جبرته على الأمر، إذا قهرته على أمر، قاله الكلبي^(٨).
وحكي عن ابن عباس، قال: "لم تبعث لتجبرهم على الإسلام إنما بعثت مُذَكِّرًا"^(٩).
قال الكلبي: "وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم"^(١٠).
وأكرر الفراء هذا القول، قائلاً: "والعرب لا تقول: فَعَل من أفعلت، لا يقولون: هَذَا خَرَّاجٌ ولا دَخَّالٌ، يريدون مُدْخِلٌ ولا مُخْرَجٌ من أدخلت وأخرجت، إنما يقولون: دخل من دخلت، وفَعَالٌ من فعلت. وَقَدْ قَالَتِ الْعَرَبُ: دَرَّأَكَ مِنْ أَدْرَكَتْ، وَهُوَ شَاذٌ، فَإِنْ حَمَلْتَ الْجَبَّارَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ وَجْهٌ. وَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ: جَبَّرَهُ عَلَى الْأَمْرِ. يَرِيدُ: أَجْبَرَهُ، فَالْجَبَّارُ مِنْ هَذِهِ اللَّغَةِ صَحِيحٌ يَرَادُ بِهِ: يَقْهَرُهُمْ وَيَجْبِرُهُمْ"^(١١).
الثالث: معناه: لستَ عليهم بملك مُسَلِّطٍ. قاله ابن قتيبة^(١٢).
قال ابن قتيبة: "وليس هو من: أجبرت الرجل على الأمر: إذا قهرته عليه، لأنه لا يقال من ذلك: «فَعَالٌ». و«الْجَبَّارُ»: الْمَلِكُ، يُسَمَّى بِذَلِكَ لِتَجْبُرِهِ يَقُولُ: فَلَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمَلِكٍ مُسَلِّطٍ"^(١٣).
قال الزمخشري: "يجوز أن يكون من: جبره على الأمر. بمعنى: أجبره عليه، أي: ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. و«على» بمنزلة في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم"^(١٤).
الرابع: معناه: لا تتجبر عليهم، قاله مجاهد^(١٥)، وقتادة^(١)، والضحاك^(٢).

-
- (١) تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٨١/٤.
(٣) لطائف الإشارات: ١٠٣/٤.
(٤) معاني القرآن: ٥٠/٥.
(٥) النكت والعيون: ٣٥٩/٥.
(٦) تفسير السمعاني: ٢٤٨/٥.
(٧) تأويلات أهل السنة: ٣٧٠/٩.
(٨) انظر: معاني القرآن للفراء: ٨١/٣، والنكت والعيون: ٣٥٩/٥.
(٩) انظر: تنوير المقباس: ٢٦٥/٥، والتفسير الوسيط للواحدى: ١٧٢/٤، وزاد المسير: ١٦٦/٤، وفتح القدير: ٨١/٥.
(١٠) معاني القرآن للفراء: ٨١/٣.
(١١) معاني القرآن: ٨١/٣.
(١٢) انظر: غريب القرآن: ٤١٩.
(١٣) غريب القرآن: ٤١٩.
(١٤) الكشاف: ٣٩٤/٤.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٤/٢٢.

قال قتادة: "فإن الله عز وجل كره الجبرية، ونهى عنها، وقدم فيها"^(٣).
قال ابن كثير: "القول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه"^(٤) لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ"^(٥).
عن ابن عباس في قوله: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} [الغاشية: ٢٢]، وقوله عز وجل: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، وقوله عز وجل: {فَاعْفُ عَنْهُمْ} [المائدة: ١٣]، وقوله عز وجل: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ} [الجاثية: ١٤]. قال: نسخ هذا كله قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} [التوبة: ٥]، وقوله عز وجل: {فَاتَّبِعُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى قَوْلِهِ: وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩]"^(٦).
وفي بعض التفاسير: "أن قوله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} نسخت سبعين آية من القرآن"^(٧).
قوله تعالى: {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق: ٤٥]، أي: "فذكّر بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن من لا يخاف الوعيد لا يذكر"^(٨).
قال ابن عباس: "فحفظ بالقرآن من يخاف وعيد ما وعدت من عصاني من العذاب"^(٩).
قال الطبري: يقول تعالى ذكره: فذكر يا محمد بهذا القرآن الذي أنزلته إليه من يخاف الوعيد الذي أوعدته من عصاني وخالف أمري"^(١٠).
قال النحاس: "أي: وعيدي لمن عصاني وخالف أمري"^(١١).
قال ابن أبي زمنين: "وهو المؤمن يقبل التذكرة، أي: إنما يقبل نذارتك بالقرآن من يخاف وعيدي؛ أي: وعيدي بالنار"^(١٢).
قال ابن كثير: "أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: {فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]، وقوله: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} [الغاشية: ٢١، ٢٢]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}"^(١٣).
قال الزمخشري: "{مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} كقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا}، لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر"^(١٤).
قال أبو السعود: "وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توحيه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب"^(١٥).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٤/٢٢، وتفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.
(٣) أخرجه الطبري: ٣٨٤/٢٢.
(٤) يقصد القول الأخير.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.
(٦) رواه القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ (٣٥٥): ص ١٩٠-١٩١، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٩، كتاب السير «باب ما جاء في نسخ العفو عن المشركين» ص ١١.
(٧) نقل عن: تفسير السمعاني: ٢٤٨/٥.
(٨) التفسير الميسر: ٥٢٠.
(٩) علقه الواحدي في "التفسير البسيط": ٤٢٢/٢٠، وانظر: "تنوير المقباس" ٢٦٥/٥، "الجامع لأحكام القرآن" ٢٨/١٧.
(١٠) تفسير الطبري: ٣٨٥/٢٢.
(١١) إعراب القرآن: ١٥٦/٤.
(١٢) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٨١/٤.
(١٣) تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.
(١٤) الكشاف: ٣٩٤/٤.
(١٥) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٨.

قال السعدي: " وإنما يتذكر بالتذكير، من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد، ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره، إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} [المائدة : ١٩]"^(١).

كان قتادة يقول: "اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم"^(٢).

وقرأ يعقوب: «وعيدي» بياءٍ في الحالين، أي: ما أوعدتُ مَنْ عصاني من العذاب^(٣).
فوائد الآيات: [٣٦-٤٥]:

- ١- مشروعية تخويف العصاة والمكذابين بالعذاب الإلهي وقربه وعدم بعده.
 - ٢- للانتفاع بالمواعظ شروط أن يكون السامع ذا قلب حي واع وأن يلقي بسمعه كاملاً وأن يكون حاضر الحواس شهيداً.
 - ٣- وجوب الصبر والاستعانة على تحقيقه بالصلاة.
 - ٤- مشروعية الذكر والدعاء بعد الصلاة فرادى لا جماعات.
 - ٥- تقرير البعث وتفصيل مبادئه.
 - ٦- المواعظ ينتفع بها أهل القلوب الحية.
- «آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده»

(١) تفسير السعدي: ٨٠٧.

(٢) نقلاً عن: تفسير ابن كثير: ٤١٢/٧.

(٣) انظر: زاد المسير: ١٦٦/٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تفسير سورة «الذاريات»

«سورة الذاريات» هي السورة «الواحدة والخمسون» بحسب ترتيب المصحف العثماني، وهي السورة «السادسة والستون» بحسب ترتيب نزول السور، نزلت بعد «سورة الأحقاف»، وقيل «سورة الغاشية». وعدد آياتها ستون، وكلماتها ثلثمائة وستون، وحروفها ألف ومائتان وسبع وثمانون، مجموع فواصل آياتها: «قفاك معن»^(١).

■ أسماء السورة:

■ أسماؤها التوقيفية: «سورة والذاريات»:

تسمى هذه السورة «والذاريات» بإثبات «الواو» تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها: {وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا} [الذاريات : ١]، وبهذا عنوانها البخاري في كتاب التفسير من "صحيحه"^(٢) والفراء في "معاني القرآن"^(٣)، وابن العربي في "أحكام القرآن"^(٤)، وابن أبي زمنين في "التفسير"^(٥)، والبيضاوي في "التفسير"^(٦)، والقرطبي في "التفسير"^(٧).

وتسمى أيضاً «سورة الذاريات» بدون «الواو» اقتصاراً على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن، وكذلك عنوانها الترمذي في "جامعه"^(٨)، والحاكم في "المستدرک"^(٩)، وجمهور المفسرين^(١٠)، وكذلك هي في المصاحف المشرقية والمغربية^(١١).
ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن^(١٢).

■ مكية السورة ومدنيتها:

عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: "نزلت سورة الذاريات بمكة"^(١٣). وروي عن ابن الزبير -رضي الله عنه- مثله^(١٤).

قال ابن عطية: "هي مكية بإجماع من المفسرين"^(١٥).

قال ابن الجوزي: "مكية كلها بإجماعهم"^(١٦).

قال القرطبي: "سورة والذاريات مكية في قول الجميع"^(١٧).

قال ابن عاشور: "هي مكية بالاتفاق"^(١٨).

■ مناسبة السورة لما قبلها:

ومناسبتها لما قبلها:

(١) انظر: بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ١/ ٤٣٩، والتحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري: ١٣٩/٦.

(٣) انظر: معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٤) انظر: أحكام القرآن: ٣٤٢/٢.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي زمنين: ٢٨٢/٤.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ١٤٦/٥.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩/١٧.

(٨) سنن الترمذي: ٤٢/٥.

(٩) انظر: المستدرک على الصحيحين: ٥٠٦/٢.

(١٠) حكاة عن الجمهور ابن عاشور، انظر: التحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦.

(١١) انظر: التحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦.

(١٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦.

(١٣) الدر المنثور: ٦١٣/٧، وعزاه إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(١٤) انظر: الدر المنثور: ٦١٣/٧، وعزاه إلى ابن مردويه.

(١٥) المحرر الوجيز: ١٥٥/٥.

(١٦) زاد المسير: ١٦٧/٤.

(١٧) تفسير القرطبي: ٢٩/١٧.

(١٨) التحرير والتنوير: ٣٣٥/٢٦.

- ١- إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار، وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع.
- ٢- إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل^(١).

قال السيوطي: "لما ختمت «ق» بذكر البعث، واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة، والنار، وغير ذلك من أحوال القيامة، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق، وأن الدين -وهو الجزاء- لواقع. ونظير ذلك: افتتاح المرسلات بذلك، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة الإنسان^(٢)»^(٣).

■ أغراض السورة ومقاصدها

إن موضوع السورة يدور حول متابعة معالجة منكري البعث والجزاء يوم الدين إبان التنزيل؛ إذ يوجد فيهم من لم يصلوا بعدُ إلى مرحلة ميؤوس منهم معها. والسورة على الجملة تضمنت المقاصد التالية:

- ١- تحقيق وقوع البعث والجزاء، وإبطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ورميهم بأنهم يقولون بغير تثبت، ووعيدهم بعذاب يفتنهم.
- ٢- وعَدُّ المؤمنين بنعيم الخلد، وذكّر ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.
- ٣- قَسَمَ اللهُ سبحانه بمخلوقات من مخلوقاته، لها آثارها الواضحة، وظواهرها الشاهدة، ومنافعها التي لا ينكرها أحد، ولا يجحد عقلٌ فضلها على الإنسان، والحيوان، والنبات؛ فإن الرياح تسوق الأمطار إلى جميع الأقطار، وتدفع السفن في البحار، تحمل الأمتعة والأثقال والمسافرين، وتمخر عباب البحار، فتسهل كل صعب، وتقرب كل بعيد، كل هذا مما يقع تحت العيان، ولا يستطيع أن ينكره إنسان، كما أن ما يتفاوت الناس فيه من أحوال، وما يجري عليهم من أحداث، وما يختلفون فيه من منازل وأرزاق، لا يكون إلا بتقدير العزيز العليم، وبتسخير من الحكيم الخبير.
- ٤- عَرَضَ مشهد ترغيبي من مشاهد يوم القيامة يتعلق بعباده المتقين، الذين بلغوا مرتبة الإحسان بأعمالهم في رحلة امتحانهم، وهم يُنعمون في جنات وعيون، أخذين ما آتاهم ربهم من فيوض عطاءاته.
- ٥- حثَّ على التفكير في آيات ربوبية الله وإلهيته في الأرض وفي الأنفس، موجّه من الله بالخطاب المباشر للذين لم يؤمنوا بعدُ، ويتوهمون أن آلهتهم من دون الله، هي التي ترزقهم من الأرض، فأبان الله لهم أن رزقهم في السماء بأوامر ربانية، وكذلك ما يوعدون من جزاء بأوامر ربانية، وأقسم سبحانه بربوبيته للسماء والأرض على أن هذا حق مماثل لما ينطقون بألسنتهم في حركة حياتهم.
- ٦- اختصت السورة طائفة من الرسل اشتدت معاناتهم مع أممهم وأقوامهم، فذكرت إبراهيم، وموسى عليهما السلام، وعرضت للأمم، التي أوغلت في الطغيان، وأغرقت في التجبر من أمثال عاد، وثمود، وقوم نوح، فلاقت أشد النكال، وأسوأ المال.
- ٧- حديثٌ عن مظاهر القدرة ببناء السموات وامتدادها، وفرش الأرض، وبسطها، وتمهيدها، وتعدد المخلوقات وازدواجها، مما لا يتحقق إلا بقدرة لا يقادر قدرها، وحكمة لا يدرك كنهها، ويقين يدفعنا إلى صدق الإيمان، ويسوقنا إلى الفرار إلى الله، والاعتماد عليه دون سواه.

(١) انظر: تفسير المراغي: ١٧٣/٢٦.

(٢) الوعد والوعيد في الإنسان: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا} [الإنسان: ٤]، وما بعدها، وأقسم على صحة ذلك في أول المرسلات: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} [المرسلات: ٧].

(٣) أسرار ترتيب سور القرآن: ١٣٣.

٨- خُتِمت السورة ببيان الغرض الأسمى، والمقصد الأعلى، والغاية العليا من خلق الإنسان والجان، وهي توحيد الله وعبادته، ثم تهديد الكافرين بسوء العاقبة والمصير^(١).

■ الناسخ والمنسوخ:

فيها من المنسوخ آيتان:

إحدهما: قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} [الذاريات : ٥٤]، نسختها قوله: {وَدَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات : ٥٥]، وقيل: آية السيف^(٢).
والثانية: قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} [الذاريات : ١٩]، نسختها آية الزكاة^(٣).

■ فضائل السورة:

ومما وردت في فضائل هذه السورة:

- عن البراء بن عازب قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي بنا الظهر، فنسمع منه الآية بعد الآيات، من «سورة لقمان والذاريات»"^(٤).
- عن أبي المتوكل الناجي، "أن عمر، قرأ في الظهر بـ«ق والذاريات»"^(٥).
- عن قتادة: "أن ابن عمر كان يقرأ في الركعة الأولى من الظهر «والذاريات»"^(٦).
- عن أبي إسحاق، عن علقمة، والأسود، قالوا: "أتى ابن مسعود رجلٌ فقال: إني أقرأ المَفْصَلَ في ركعة، فقال: أهدأ كهذا الشَّعْر ونثراً كنثر الدَّقْل؟ لكنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ النَّظَائِرَ السُّورَتَيْنِ في رَكْعَةٍ، «الرحمن، والنجم» في ركعة، و«اقتربت، والحاقة» في ركعة، و«الطور، والذاريات» في ركعة، و«إذا وَقَعْتَ، ونون» في ركعة، و«سأل سائل، والنازعات» في ركعة، و«وَيْلٌ للمطففين، وعيس» في ركعة، و«المدثر، والمزمل» في ركعة، و«هل أتى، ولا أقسم بيوم القيامة» في ركعة، و«عم يتساءلون، والمرسلات» في ركعة، و«الدخان، وإذا الشمس كورت» في ركعة"^(٧).

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٢٧٥.

(٢) قال ابن الجوزي: "زعم قوم: أنها منسوخة، ثم اختلفوا في ناسخها: فقال بعضهم: آية السيف، وقال بعضهم: إن ناسخها: {وَدَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}. وهذا قد يخيل أن معنى قوله: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} أعرض عن كلامهم، فلا تكلمهم، وفي هذا بعد. فلو قال: هذا إن المعنى أعرض عن قتالهم صلح نسخها بآية السيف، ويحتمل أن يكون معنى الآية أعرض عن مجادلتهم فقد أوضحت لهم الحجج، وهذا لا ينافي قتالهم." [نواسخ القرآن: ١٩٩].

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤٣٩/١، ونواسخ القرآن لابن الجوزي: ١٩٩.
قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [الذاريات: ١٩] الحق هاهنا النصيب وفيه قولان:

الأول: أنه ما يصلون به رحماً، أو يقرون به ضيفاً، أو يحملون به كلاً، أو يغنون به محروماً، وليس بالزكاة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: أنه الزكاة، قاله، قتادة وابن سيرين.

وقد زعم قوم: أن هذه الآية اقتضت وجوب إعطاء السائل والمحروم، فذلك منسوخ بالزكاة، والظاهر أنها حث على التطوع ولا يتوجه نسخ." [نواسخ القرآن: ١٩٩].

(٤) سنن ابن ماجة (٨٣٠): ص ٢١/٢، وسنن النسائي (٩٧١): ص ١٦٣/٢. [حكم الألباني] ضعيف.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٧٤): ص ٣١٣/١.

(٦) مصنف عبد الرزاق (٢٦٨٥): ص ١٠٦/٢.

(٧) صحيح أبي داود (١٣٩٦): ص ٥٦/٢. قال أبو داود: «هذا تأليف ابن مسعود رحمه الله». والحديث أخرجه البخاري (٧٧٥) و (٤٩٩٦) و (٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)، والترمذي (٦٠٨)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٧٨) - (١٠٧٩) من طريق أبي وائل شقيق بن سلمة، والنسائي (١٠٨٠) من طريق مسروق بن الأجدع، كلاهما عن عبد الله بن مسعود، بهذا الإسناد. ولم يذكروا أسماء السور تفصيلاً. وهو في "مسند أحمد" (٣٩٥٨) و (٣٩٦٨)، و"صحيح ابن حبان" (١٨١٣).

[حكم الألباني]: صحيح دون سرد السور

- عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة والذاريات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ريح هبت وجرت في الدنيا»^(١). [ضعيف]
 - عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أعطيت مكان التوراة السبع الطول وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل"^(٢).
- وفي أشهر الأقوال: أن أول المفصل «الحجرات»، وأول وسط المفصل: «عبس» وأول قصار المفصل: «والضحى»، هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة، ففي الصبح يستحب القراءة بطوال المفصل، وفي الظهر والعشاء بمتوسطه، وفي المغرب بقصاره^(٣).
- هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١٠٩/٩. [وقد اتفق العلماء بأن روايات الثعلبي عن أبي بن كعب في فضائل السور باطل موضوع كله].

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧، رقم ١٧٠٢٣). قال الهيثمي (٧/ ٤٦): فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الطبراني (٢٢/ ٧٥ رقم ١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٦٥، رقم ٢٤١٥ مكرر). وأخرجه أيضا: الطيالسي (ص ١٣٦ رقم ١٠١٢) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥/ ٢٧١٦ رقم ٦٤٨٥). وقال المناوي (١/ ٥٦٦): فيه عمرو بن مرزوق، أورده الذهبي في الضعفاء وقال: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه.

(٣) النكت والعيون: ٢٧-٢٦/١.

القرآن

{وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)} [الذاريات : ١-٦]

التفسير:

أقسم الله تعالى بالرياح المثيرات للتراب، فالسحب الحاملات ثقلاً عظيماً من الماء، فالسفن التي تجري في البحار جرياً ذا يسر وسهولة، فالملائكة التي تُقسّم أمر الله في خلقه. إن الذي توعدون به -أيها الناس- من البعث والحساب لكائن حق يقين، وإن الحساب والثواب على الأعمال لكائن لا محالة.

قوله تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا} [الذاريات : ١]، أي: "أقسم بالرياح المثيرات للتراب" (١). قال الطبري: "يقول: والرياح التي تذرو التراب ذرواً" (٢). قال أبو عبيدة: "هي الرياح، وناس يقولون: المذريات للريح، ذر وأذرت لغتان" (٣). قال ابن قتيبة: "الرياح. يقال: ذرت الريح التراب تذرؤه ذروراً وتذريه ذرياً. ومنه قوله: {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ} [الكهف: ٤٥]" (٤). عن خالد بن عرعر، قال: "قام رجل إلى علي رضي الله عنه، فقال: ما {الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا}، فقال: هي الرياح" (٥).

عن محمد بن جبير بن مطعم، قال: "سمعت علياً رضي الله عنه يخطب الناس، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا}، قال: هي الرياح" (٦).

قال أبو الطفيل: "سمعت علياً رضي الله عنه يقول: لا يسألوني عن كتاب ناطق، ولا سنة ماضية، إلا حدثتكم، فسأله ابن الكواء عن «الذاريات»، فقال: هي الرياح" (٧). عن ابن زيد، قوله: "وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا"، قال: كان ابن عباس يقول: هي الرياح" (٨). عن مجاهد، قوله: "وَالذَّارِيَاتِ"، قال: الرياح" (٩).

قال السمعاني: "وَالذَّارِيَاتِ" هي من ذرت الريح التراب وأذرته إذا فرقته، ويقال: إن الذاريات هي النساء الحوامل تدرين الأولاد (١٠)، والأول هو المختار" (١١). عن عمر الأعرج، قال: "بلغنا أن مساكناً الرياح تحت أجنحة الكروبيبين حملة الكرسي، فتهيج من ثم فتقع بعجلة الشمس، ثم تتهيج من عجلة الشمس فتقع برعوس الجبال، ثم تتهيج من رؤوس الجبال فتقع في البر. فأما الشمال فإثها تمر بجئة عدن، فتأخذ من عرق طيبها فتمر على أرواح الصديقين، ثم تأخذ حدها من كرسي بنات نعش إلى مغرب الشمس، ويأتي الدبور حدها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل، ويأتي الجنوب حدها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس،

(١) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٢) تفسير الطبري: ٣٨٦/٢٢.

(٣) مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(٤) غريب القرآن: ٤٢٠.

(٥) أخرجه الطبري: ٣٨٦/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٣٨٧-٣٨٦/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٣٨٧/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٣٩١/٢٢.

(٩) أخرجه الطبري: ٣٩١/٢٢.

(١٠) ذكره الماوردي في النكت والعيون: ٣٦٠/٥-٣٦١، قال: "أن الذاريات النساء الولودات لأن في ترائبهن ذرو الخلق، لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات، وأقسم بهن لما في ترائبهن من خيرة عباده الصالحين، وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين: أحدهما: لأنهن أوعية دون الرجال فلا اجتماع الذورين خصصن بالذكر. الثاني: أن الذرو فيهن أطول زماناً وهن بالمباشرة أقرب عهداً".

(١١) تفسير السمعاني: ٢٥٠/٥.

ويأتي الصبا حدّها من مطلع الشمس إلى كرسيّ بنات نعش، فلا تدخل هذه في حدّ هذه، ولا هذه في حدّ هذه"^(١).

قوله تعالى: {فَالْحَامِلَاتِ وَفِرًّا} [الذاريات : ٢]، أي: "وأقسم بالسحب الحاملات ثقلاً عظيماً من الماء"^(٢).

قال الطبري: "يقول: فالسحاب التي تحمل وقرها من الماء"^(٣).

وفي قوله تعالى: {فَالْحَامِلَاتِ وَفِرًّا} [الذاريات : ٢]، وجهان:

أحدهما : أنها السحب يحملن وقرّاً بالمطر. قاله علي-رضي الله عنه-^(٤)، وابن عباس^(٥)، ومجاهد^(٦)، والفراء^(٧)، وأبو عبيدة^(٨)، وابن قتيبة^(٩)، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل^(١٠):

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ... لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَدْبًا زُلَالًا

قال مجاهد: "السحاب تحمل المطر"^(١١).

قال الفراء: "يعنى: السحاب لحملها الماء"^(١٢).

الثاني: أنها الرياح يحملن وقرّاً بالسحاب، فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب لأن أمام كل سحابة ريحاً، والريح الثانية حاملة السحاب. لأن السحاب لا يستقل ولا يسير إلا بريح. وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط، قاله ابن بحر^(١٣).

وقال الماوردي: "ويجري فيه احتمال قول : ثالث: أنهن الحاملات من النساء إذا ثقلن

بالحمل، والوقر ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، وبالفتح ثقل الأذن"^(١٤).

قلت: وهذا المعنى لا يحتمله اللفظ ولا تساعد العبارة-والله أعلم-

قوله تعالى: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} [الذاريات : ٣]، أي: "وأقسم بالسفن التي تجري في

البحار جرياً ذا يسر وسهولة"^(١٥).

قال الطبري: "يقول: فالسفن التي تجري في البحار سهلاً يسيراً"^(١٦).

وفي قوله تعالى: {فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا} [الذاريات : ٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها : السفن تجري بالريح يسراً إلى حيث سيرت. قاله علي-رضي الله عنه-^(١٧)، ومجاهد^(١٨)، والفراء^(١٩)، وأبو عبيدة^(٢٠)، وابن قتيبة^(٢١).

قال الفراء: "هي السفن تجري ميسرة"^(١).

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١٠٩/٩-١١٠.

(٢) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٣) تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٨) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(٩) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠.

(١٠) البيت في سيرة ابن هشام: ١/٢٣١.

(١١) أخرجه الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(١٢) معاني القرآن: ٨٢/٣.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(١٤) النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(١٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(١٦) تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(١٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(١٩) انظر: معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٢٠) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(٢١) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠.

قال ابن قتيبة: "أي: السفن تجري في الماء جرياً سهلاً. ويقال: تجري ميسرة؛ أي مسخرة"^(٢).

عن خالد بن عرعة، قال: "قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: ما الجاريات يسرا؟ قال: هي السفن"^(٣).

الثاني: النجوم تجري يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك. حكاه ابن كثير^(٤).
الثالث: السحاب، حكاه الماوردي^(٥).

وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان^(٦):

أحدهما: إلى حيث يسيرها الله تعالى من البقاع والبلاد.

الثاني: هو سهولة تسييرها، وذلك معروف عند العرب كما قال الأعشى^(٧):

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارِيَتِهَا ... مَوْزُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

قال ابن كثير: "فأما الجاريات يسراً، فالمشهور عن الجمهور - كما تقدم - : أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً"^(٨).

قوله تعالى: {قَالْمُقَسَّمَاتٍ أُمْرًا} [الذاريات: ٤]، أي: "وأقسم بالملائكة التي تُقسَّم أمر الله في خلقه"^(٩).

قال الطبري: "يقول: فالملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه"^(١٠).

وفي قوله تعالى: {قَالْمُقَسَّمَاتٍ أُمْرًا} [الذاريات: ٤]، وجهان:

أحدهما: أنه السحاب يقسم الله به الحظوظ بين الناس. حكاه الماوردي^(١١).

الثاني: الملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه، قاله علي رضي الله عنه^(١٢)، وابن عباس^(١٣)، ومجاهد^(١٤)، والكلبي^(١٥)، والفراء^(١٦)، وأبو عبيدة^(١٧)، وابن قتيبة^(١٨).

قال مجاهد: "الملائكة ينزلها بأمره على من يشاء"^(١٩).

قال الفراء: "الملائكة تأتي بأمر مختلف: جبريل صاحب الغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت، فتلك قسمة الأمور"^(٢٠).

(١) معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٢) غريب القرآن: ٤٢٠.

(٣) أخرجه الطبري: ٣٩١/٢٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٤/٧.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(٧) البيت في ديوان الأعشى: ١٠٥، ولسان العرب: مادة «مور»، وتهذيب اللغة ١/ ٣٧٢، ٢/ ٢٥٦، وتاج العروس: مادة «مور».

(٨) تفسير ابن كثير: ٤١٤/٧.

(٩) التفسير الميسر: ٥٢٠. [بتصرف بسيط]

(١٠) تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(١١) انظر: النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩١/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(١٦) انظر: معاني القرآن: ٨٢/٣.

(١٧) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(١٨) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠.

(١٩) أخرجه الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(٢٠) معاني القرآن: ٨٢/٣.

وقال مقاتل: "يعني: أربعة من الملائكة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، يقسمون الأمر بين الخلائق، وهم المدبرات أمرا بأمره في بلاده وعباده فأقسم الله- تعالى- بهؤلاء الآيات"^(١).

قال الماوردي: "وهم : جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة ، وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو ملك الموت وقابض الأرواح ، عليهم السلام"^(٢).

قال الماوردي: "والواو التي فيها واو القسم، أقسم الله بها لما فيها من الآيات والمنافع"^(٣).

عن خالد بن عرعة، قال: "قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: ما الجاريات يسرا؟ قال: هي السفن؛ قال: فما الحملات وقرا؟ قال: هي السحاب؛ قال: فما المقسمات أمرا؟ قال: هي الملائكة"^(٤).

قال الزجاج: "والمفسرون جميعاً يقولون بقول علي في هذا، {وَالذَّارِيَّاتِ} مجرور على القسم، المعنى: أحلف بالذاريات وبهذه الأشياء، والجواب: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ}. وقال قوم: المعنى: وَرَبِّ الذَّارِيَّاتِ ذُرْوًا، كما قال عز وجل: {قُورَبِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ}. والذاريات من ذرت الريح تَدْرُو إذا فرقت التراب وغيره... والمعنى: ورب الرياح الذاريات، ورب السفن الجاريات، ورب الملائكة المقسمات، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ"^(٥).

قال القشيري: "أقسم برب هذه الأشياء وبقدرته عليها. وجواب القسم: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ}"^(٦).

عن أبي الطفيل: "قال شهدت عليا وهو يخطب ويقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار وأم في سهل ، أم في جبل ، فقام إليه ابن الكواء ، وأنا بينه وبين علي وهو خلفي فقال: ما {وَالذَّارِيَّاتِ ذُرْوًا} فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً} [الذاريات: ٢]، فقال له علي: ويلك سل تفقها ولا تسأل تعنتا ، {وَالذَّارِيَّاتِ ذُرْوًا} [الذاريات: ١] الرياح ، {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} [الذاريات: ٢]: السحاب، {فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا} [الذاريات: ٣]: السفن، {فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً} [الذاريات: ٤]، فقال: هم الملائكة ، قال: أفرأيت السواد الذي في القمر ما هو؟ قال: أعمى سأل عن عمى أما سمعت الله يقول: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} [الإسراء: ١٢]، فذلك محوه السواد الذي فيه، قال: أفرأيت ذا القرنين أنبيا كان أم ملكا، قال: لا واحد منهما ، ولكنه كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله، وناصح الله فناصحه الله، دعا قومه إلى الهدى فضربوه على قرنه فمكث ما شاء الله ، ثم دعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر ، ولم يكن له قرنان كقرني الثور ، قال: أفرأيت هذه القرنين ما هي؟ قال: علامة كانت بين نوح، وبين ربه وأمان من الغرق، قال: أفرأيت البيت المعمور ما هو؟ قال: ذلك الصرح في سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، قال: فمن {الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البُورِ} [إبراهيم: ٢٨]؟ قال الأفجران من قريش بنو أمية، وبنو مخزوم كفيتهم يوم بدر، قال: فمن: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ١٠٤]؟ قال: «كانت أهل حروراء منهم»^(٧).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٧/٤.

(٢) النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(٣) النكت والعيون: ٣٦١/٥.

(٤) أخرجه الطبري: ٣٩١/٢٢.

(٥) معاني القرآن: ٥١/٥.

(٦) لطائف الإشارات: ٤٥٩/٣.

(٧) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٧٠): ص ٢٣٤/٣.

وروي عن سعيد بن المسيب قال : " جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين، أخبرني عن {الذارياتِ ذُرُوءًا} ؟ فقال : هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال : فأخبرني عن {المُفَسِّمَاتِ أُمْرًا} قال : هي الملائكة، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال : فأخبرني عن {الجارياتِ يُسْرًا} قال : هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال : ثم أمر به فضرب مائة وجعله في بيت، فلما برئ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله على قنَبٍ وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالإيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: ما أخاله إلا قد صدق، فخل بينه وبين مجالسته الناس" (١).

قال أبو بكر البزاز: " وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه من الوجوه إلا من هذا الوجه، وإنما أتى من أبي بكر بن أبي سبرة فيما أحسب لأن أبا بكر لين الحديث وسعيد بن سلام لم يكن من أصحاب الحديث، وإنما ذكرت هذا الحديث إذ لم أحفظه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه، فذكرته وبينت العلة فيه" (٢).

قال ابن كثير: " فهذا الحديث ضعيف رفعه، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، فإن قصة صبيغ بن عسل مشهورة مع عمر، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتاً وعناداً، والله أعلم. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة (٣). وهكذا فسرهما ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك" (٤).

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ} [الذاريات : ٥]، أي: "إن الذي توعدون به -أيها الناس- من البعث والحساب لكائن حق يقين" (٥).

قال الطبري: يقول: "إن الذي توعدون أيها الناس من قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم لكائن حق يقين" (٦).

قال مقاتل: "يعني: إن الذي توعدون من أمر الساعة: لحق" (٧).

قال ابن كثير: "أي: لخبر صدق" (٨).

وفي قوله تعالى: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ} [الذاريات : ٥]، وجهان:

أحدهما : إن يوم القيامة لكائن، قاله مجاهد (٩).

الثاني : ما توعدون من الجزاء بالثواب والعقاب حق ، وهذا جواب القسم. حكاه الماوردي (١٠).

قوله تعالى: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات : ٦]، أي: "وإن الحساب والثواب على الأعمال لكائن لا محالة" (١١).

(١) مسند البزاز (٢٩٩): ص ٤٢٣/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤١٣/٧.

(٢) مسند البزاز: ٤٢٣/١.

(٣) انظر: تاريخ دمشق (٢٨٤٦): ص ٤٠٨/٢٣ وما بعدها.

وفيه: "صبيغ بن عسل، ويقال ابن عسيل ويقال صبيغ بن شريك من بني عسيل ابن عمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي اليربوعي البصري الذي سأل عمر بن الخطاب عما سأل فجلده وكتب إلى أهل البصرة لا تجالسوه ذكر أبو بكر بن دريد أن اسمه مشتق من الشيء المصنوع وذكر أنه كان يحمق رأيه وفد على معاوية ولم يزل بشر يعني بعد جلد عمر حتى قتل في بعض الفتن. روى عن عمر بن الخطاب وسأل أبا الدرداء عن شيء من المتشابه روى عنه ابن أخيه عسل بن عبد الله بن عسل التميمي وحكت عنه أم الدرداء".

(٤) تفسير ابن كثير: ٤١٤/٧.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٠.

(٦) تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٧/٤.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤١٤/٧.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٣/٢٢.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ٣٦٢/٥.

قال الماوردي: " وهذا جواب القسم"^(٢).
 وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات : ٦]، وجهان:
 أحدهما : إن الحساب لواجب ، قاله مجاهد^(٣)، وبه قال الطبري^(٤).
 قال الطبري: " يقول: وإن الحساب والثواب والعقاب لواجب، والله مجاز عباده
 بأعمالهم"^(٥).

قال مقاتل: " يعنى: إن الحساب لكائن"^(٦).
 قال ابن كثير: " {وَإِنَّ الدِّينَ}، وهو : الحساب {لواقِعٌ}، أي : لكائن لا محالة"^(٧).
 عن ابن زيد، قوله: " {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ}، قال: لكائن"^(٨).
 الثاني : أن الدين الجزاء، ومعناه: أن جزاء أعمالكم بالثواب والعقاب لكائن، وهو معنى قول
 قتادة^(٩)، وبه قال ابن قتيبة^(١٠)، والزجاج^(١١)، ومنه قول لبيد:
 قوم يدينون بالنوعين مثلهما ... بالسوء سوء وبالإحسان إحسانا
 قال قتادة: " وذلك يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم"^(١٢).
 قال ابن قتيبة: " يعنى: الجزاء بالأعمال والقصاص. ومنه يقال: دِنْتُهُ بما صنع"^(١٣).
 قال الزجاج: " أي: إن المجازاة على أعمالكم لواقعة"^(١٤).

القرآن

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكُ (٩)} [الذاريات : ٧-٩]

التفسير:

وأقسم الله تعالى بالسماوات ذات الخلق الحسن، إنكم -أيها المكذبون- لفي قول مضطرب في هذا
 القرآن، وفي الرسول صلى الله عليه وسلم. يُصْرَفُ عن القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم
 مَنْ صُرِفَ عن الإيمان بهما؛ لإعراضه عن أدلة الله وبراهينه اليقينية فلم يوقِّق إلى الخير.
 قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات : ٧]، أي: " وأقسم بالسماوات ذات الخلق
 الحسن"^(١٥).

وفي: «السَّمَاءِ»-ها هنا- وجهان :

أحدهما : أنها السحاب الذي يظل الأرض. حكاها الماوردي^(١٦).
 الثاني : وهو المشهور أنها السماء المرفوعة، قال عبد الله بن عمر: "هي السماء السابعة"^(١٧).

- (١) التفسير الميسر: ٥٢٠.
- (٢) النكت والعيون: ٣٦٢/٥.
- (٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (٥) تفسير الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٧/٤.
- (٧) تفسير ابن كثير: ٤١٤/٧.
- (٨) أخرجه الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (١٠) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠.
- (١١) انظر: معاني القرآن: ٥١/٥.
- (١٢) أخرجه الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (١٣) غريب القرآن: ٤٢٠.
- (١٤) معاني القرآن: ٥١/٥.
- (١٥) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (١٦) انظر: النكت والعيون: ٣٦٢/٥.
- (١٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٥١٦/٢٤، د. دار التفسير، والنكت والعيون" للماوردي ٣٦٢/٥، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي ٣١/١٧، "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير ٢٠٩/١٣.

وفي معنى: «الحُبُّكُ»، أقوال:

أحدها: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوي، قاله ابن عباس^(١)، وقتادة^(٢)، وعكرمة^(٣)، والربيع أنس^(٤)، وأبو صالح^(٥)، وعطاء الخراساني^(٦). وبه قال الطبري^(٧).

قال الطبري: يقول: "والسَّمَاءُ ذات الخَلْقِ الحسن"^(٨).

قال قتادة: "أي: ذات الخَلْقِ الحسن"^(٩).

قال الربيع بن أنس: "ذات الخَلْقِ الحسن"^(١٠).

قال عطاء الخراساني: "ذات الخَلْقِ الحسن الوثيق"^(١١).

عن ابن عباس: "وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الحُبُّكِ"، قال: حُسْنُهَا واستواؤها"^(١٢).

وقال سعيد بن جبیر: "حبكها: حسنها واستواؤها"^(١٣).

وقال الحسن: "حبكت بالخلق الحسن، حبكت بالنجوم"^(١٤).

قال الحسن: "ذات الخلق الحسن، حبكت بالنجوم"^(١٥).

عن عمران بن حُدَيْر، قال: "سُئِلَ عكرمة، عن قوله: {وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الحُبُّكِ}، قال: ذات الخلق الحسن، ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب، قال: ما أحسن ما حبكه"^(١٦).

عن أبي قلابة، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمُ الكَذَّابِ المُضِلِّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبُّكَ حُبُّكَ" يعني بالحُبُّكِ: الجعودة"^(١٧).

الثاني: ذات الزينة. حكاه ابن عباس-في رواية-^(١٨)، وبه قال سعيد بن جبیر^(١٩)، والضحاك^(٢٠).

وقال الحسن: "حبكها: نجومها"^(٢١).

وعن ابن عباس: "وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الحُبُّكِ"، قال: استواؤها: حسنها"^(٢٢).

عن سعيد بن جبیر: "وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الحُبُّكِ"، قال: حبكها: حسنها واستواؤها"^(٢٣).

الثالث: يعني: ذات البُنْيَانِ المُتَّقِنِ. قاله مجاهد^(١).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٥/٢٢.
- (٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.
- (٣) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (٥) رواه عنه مقاتل بن سليمان في "التفسير": ١٢٧/٤.
- (٦) انظر: الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان ونافع بن أبي نعيم القارئ ومسلم بن خالد الزنجي وعطاء الخراساني برواية أبي جعفر الترمذي (٢٣٤): ص ٩٣.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٥/٢٢.
- (٨) تفسير الطبري: ٣٩٤/٢٢.
- (٩) أخرجه الطبري: ٣٩٧/٢٢.
- (١٠) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (١١) الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان ونافع بن أبي نعيم القارئ ومسلم بن خالد الزنجي وعطاء الخراساني برواية أبي جعفر الترمذي (٢٣٤): ص ٩٣.
- (١٢) أخرجه الطبري: ٣٩٥/٢٢.
- (١٣) أخرجه الطبري: ٣٩٥/٢٢.
- (١٤) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (١٥) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (١٦) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (١٧) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (١٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.
- (١٩) أخرجه الطبري: ٣٩٥/٢٢.
- (٢٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.
- (٢١) أخرجه الطبري: ٣٩٧/٢٢.
- (٢٢) أخرجه الطبري: ٣٩٦/٢٢.
- (٢٣) أخرجه الطبري: ٣٩٥/٢٢.

الرابع : أن حبكها مثل حبك الرمل، ومثل حبك الدرع، ومثل حبك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق، حكاها الضحاك^(١)، وبه قال مقاتل^(٢)، والفراء^(٣)، ومنه قول زهير^(٤) :

مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ... رِيحٌ حَرِيْقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُّكُ

قال مقاتل: " يعني: مثل الطرائق التي تكون في الرمل من الريح، ومثل الماء تصيبه الريح فيركب بعضه بعضاً"^(٥).

قال الفراء: " الحُبْكُ: تكسُرُ كل شيء، كالرملة إذا مرت بها الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح، والدرع درع الحديد لها حُبْكٌ أيضاً، والشَّعْرَةُ الجَعْدَةُ تكسُرُها حُبْكٌ، وواحد الحبك: حباك، وحبيكة"^(٦).

الخامس : أنها الشدة، حُبْكْتُ: شَدَّتْ، ومنه قوله تعالى: {وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} [النبأ : ١٢]. قاله ابن زيد^(٧).

قال القرطبي: " المحبوك: الشديد الخلق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس^(٨) :
قد غدا يَحْمَلُنِي فِي أَنْفِهِ . . . لَاحِقُ الْإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرٌّ
وقال آخر^(٩) :

مَرَجَ الدَّيْنُ فَأَعَدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَئِدِ

وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتك تحت الدرع في الصلاة، أي تشد الإزار وتحكمه"^(١٠).

السادس: السماء السابعة. قاله عبدالله بن عمرو^(١١).

السابع : الصفاقة، قاله خفيف^(١٢).

قال القرطبي: " ومنه: ثوب صفيق، ووجه صفيق: بين الصفاقة"^(١٣).

الثامن : يعني: ذات الطرائق، مأخوذ من: حبك الحمام، طرائق على جناحه، قاله الأخفش^(١٤)، وأبو عبيدة^(١٥)، وابن قتيبة^(١٦).

(١) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٧، وتفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٧/٤.

(٤) انظر: معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٥) البيت في "ديوانه" ص ١٧٦، "المحتسب" ٢/ ٢٨٧، "اللسان" ١/ ٥٥٥ (حبك).

النجم: كل شيء من النباتات ليس له ساق ينبت حول الماء كالا كليل. ريح خريق: شديدة. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء أي: برز. والبيت في وصف غدير.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٧/٤.

(٧) معاني القرآن: ٨٢/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.

(٩) ديوانه: ١٤٦. وانظر: "تهذيب اللغة" (أنف) ١٥/ ٤٨٢، "اللسان" ٩/ ١٤. وهو في وصف الغيث.

قال الشارح: يحملني في أنفه: أي: في أول هذه المطرة، للاحق الإلين: يعني: فرسا ضامر الكشحين، والمحبوك: المدمج الخلق، الشديد، والممر: تحوه في المعنى.

الاطل: الخاصرة كلها. وقيل: غير ذلك.

(١٠) البيت لأبي دؤاد يصف فرسا، كما في "ديوانه" ص ٣٠٤، واللسان، مادة «مرج»، والصحاح، مادة «مرج»، والبيت أيضا في إصلاح المنطق: ٩٠، وأمالى القالي: ٣١٠/٢.

والكتد- بفتح التاء وكسرها-: مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس.

(١١) تفسير القرطبي: ٣٢/١٧، والصحاح، مادة «حبك»، والحديث أخرجه البيهقي: ٢٣٥/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/٢٢.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ٥/ ٣٦٢، وتفسير القرطبي: ٣٢/١٧.

(١٤) تفسري القرطبي: ٣٢/١٧. وانظر: الصحاح، مادة «صفق». ثوب صفيق، أي: كثير الغزل، ووجه صفيق: أي: وقح.

(١٥) حكاها عنه الماوردي في النكت والعيون: ٥/ ٣٦٢، ولم أجده في معاني القرآن.

(١٦) انظر: مجاز القرآن: ٢/ ٢٢٥.

(١٧) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠.

قال أبو عبيدة: "ومنها سمى حباك الحائط: الإطار، وحبك الحمام: طرائق على جناحيه، وطرائق الماء: حيكه"^(١).

قال ابن قتيبة: "يقال للماء القائم -إذا ضربته الريح فصارت فيه طرائق-: له حُبْكٌ. وكذلك الرمل: إذا هبَّتْ عليه الريح فرأيت فيه كالطرائق - فذلك: حُبْكُه"^(٢).

وفي رواية قال ابن عباس: "ذات الطرائق والخلق الحسن"^(٣).

قال الزجاج: "جاء في التفسير أنها ذات الخلق الحسن، وأهل اللغة يقولون {ذات الحبك}: ذات الطرائق الحسنة، و«المحبوك» -في اللغة-: ما أُجيدَ عملُهُ، وكل ما تراه من الطرائق في الماء وفي الرمل إذا أصابته الريح فهو حبك، وواحدُها «حبيك». مثل: مِثَالٌ ومِثْلٌ، وتكون واحدها أيضاً «حبيكة»، مثل: طريقة وطرق"^(٤).

قرأ عمر بن الخطاب، وأبو رزين: «الحبِك» بكسر الحاء والباء جميعاً. وقرأ عثمان بن عفان، والشعبي، وأبو العالية، وأبو حيوة: «الحبِك» بكسر الحاء وإسكان الباء. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو رجاء، وابن أبي عبله: «الحُبِك» برفع الحاء وإسكان الباء. وقرأ ابن مسعود، وعكرمة: «الحبِك» بفتح الحاء والباء جميعاً. وقرأ أبو الدرداء، وأبو الجوزاء، وأبو المتوكل، وأبو عمران الجوني، وعاصم الجحدري: «الحبِك» بفتح الحاء وكسر الباء^(٥).

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات : ٨]، أي: "إنكم -أيها المكذبون- لفي قول مضطرب في هذا القرآن، وفي الرسول صلى الله عليه وسلم"^(٦).

قال الماوردي: "وهذا جواب القسم الثاني"^(٧).

وفي قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات : ٨]، وجوه: أحدها: يعني: في أمر مختلف، فمطيع وعاص، ومؤمن وكافر، قاله السدي^(٨).

الثاني: أنه القرآن فمصدق له ومكذب به، قاله قتادة^(٩)، ونحوه عن ابن زيد^(١٠)، وبه قال الطبري^(١١).

قال قتادة: "مصدق بهذا القرآن ومكذب به"^(١٢).

قال الطبري: "يقول: إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن، فمن صدق به ومكذب"^(١٣).

قال ابن زيد: "يتخرصون يقولون: هذا سحر، ويقولون: هذا أساطير، فبأي قولهم يؤخذ، قتل الخراصون هذا الرجل، لا بد له من أن يكون فيه أحد هؤلاء، فما لكم لا تأخذون أحد هؤلاء، وقد رميتموه بأقاويل شتى، فبأي هذا القول تأخذون، فهو قول مختلف. قال: فذكر أنه

تخرص منهم ليس لهم بذلك علم قالوا: فما منع هذا القرآن أن ينزل باللسان الذي نزلت به الكتب من قبلك، فقال الله: أعجمي وعربي؟ لو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لقلتم نحن عرب وهذا القرآن أعجمي، فكيف يجتمعان"^(١٤).

(١) مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(٢) غريب القرآن: ٤٢٠.

(٣) مسائل نافع بن الأزرق (١٤٣) ح ب ك [الحبك]: ص ١٧٣.

(٤) معاني القرآن: ٥٢/٥.

(٥) انظر: زاد المسير: ١٦٧/٤.

(٦) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٧) النكت والعيون: ٣٦٣/٥.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٦٣/٥.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢.

(١٣) تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ٣٩٨/٢٢.

الثالث : انهم أهل الشرك مختلف عليهم بالباطل ، قاله ابن جريج^(١) .
الرابع : أن القول المختلف: تكذيب بعضهم بالقرآن وبمحمد، وإيمان بعضهم. قاله الفراء^(٢) .
الخامس : أي: في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - . قاله الزجاج^(٣) .
السادس : أنهم عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره . أفاده الماوردي^(٤) .
قوله تعالى: {يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات : ٩] ، أي: "يُصْرِفُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ صَرَفَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِمَا؛ لِإِعْرَاضِهِ عَنْ أَدَلَّةِ اللَّهِ وَبِرَاهِينِهِ الْيَقِينِيَّةِ فَلَمْ يُوَفِّقْ إِلَى الْخَيْرِ"^(٥) .
قال الطبري: "يقول: يصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صرف، ويدفع عنه من يُدْفَعُ، فَيُحْرَمَهُ"^(٦) .
قال ابن زيد: "يُؤْفِكُ عَنْهُ الْمَشْرُكُونَ"^(٧) .
قال قتادة: "فالمأفوك عنه اليوم، يعني كتاب الله"^(٨) .
وفي قوله تعالى: {يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات : ٩] ، وجوه من التفسير:
أحدها : يضل عنه من ضل ، قاله ابن عباس^(٩) .
الثاني : يصرف عنه من صرف ، قاله الحسن^(١٠) ، والفراء^(١١) ، وابن قتيبة^(١٢) ، والزجاج^(١٣) .
قال الفراء: "يريد: يُصْرِفُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ مَنْ صَرَفَ كَمَا قَالَ: {أَجْتَنَّا لِنَأْفِكْنَا} [الأحقاف: ٢٢] : يَفْوُلُ: لَتَصْرِفْنَا عَنْ آلِهَتِنَا، وَتَصَدَّنَا"^(١٤) .
قال ابن قتيبة: "أي: يُصْرِفُ عَنْهُ وَيُحْرَمُهُ مِنْ حُرْمِهِ، يَعْنِي: الْقُرْآنَ"^(١٥) .
الثالث : يدفع عنه ويحرمه كما توفك الأرض. قاله أبو عبيدة^(١٦) .
الرابع: يؤفن عنه من أفن ، قاله مجاهد^(١٧) ، والأفن: "فساد العقل"^(١٨) .
الخامس : يخدع عنه من خدع ، قاله قطرب^(١٩) .
السادس : يعني: يصرف عن القرآن من كذب، قاله مقاتل^(٢٠) .
السابع : يدفع عنه من دفع ، قاله الليزدي^(٢١) .
قال القرطبي: "والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى: الصرف"^(٢٢) .

-
- (١) النكت والعيون: ٣٦٣/٥ .
 - (٢) انظر: معاني القرآن: ٨٣/٣ .
 - (٣) انظر: معاني القرآن: ٥٢/٥ .
 - (٤) النكت والعيون: ٣٦٣/٥ .
 - (٥) التفسير الميسر: ٥٢١ .
 - (٦) تفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢ .
 - (٧) أخرجه الطبري: ٣٩٩/٢٢ .
 - (٨) أخرجه الطبري: ٣٩٩/٢٢ .
 - (٩) النكت والعيون: ٣٦٣/٥ ، و عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم .
 - (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٩/٢٢ .
 - (١١) انظر: معاني القرآن: ٨٣/٣ .
 - (١٢) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠ .
 - (١٣) انظر: معاني القرآن: ٥٢/٥ .
 - (١٤) معاني القرآن: ٨٣/٣ .
 - (١٥) انظر: غريب القرآن: ٤٢٠ .
 - (١٦) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٥/٢ .
 - (١٧) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٧ ، وتفسير الطبري: ٣٩٨/٢٢ .
 - (١٨) انكت والعيون: ٣٦٣/٥ .
 - (١٩) النكت والعيون: ٣٦٣/٥ ، وتفسير القرطبي: ٣٣/١٧ .
 - (٢٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٨/٤ .
 - (٢١) النكت والعيون: ٣٦٣/٥ ، وتفسير القرطبي: ٣٣/١٧ .
 - (٢٢) تفسير القرطبي: ٣٣/١٧ .

وقرأ سعيد بن جبير: «يؤفك عنه من أفك»، على البناء للفاعل^(١). قال الزمخشري: "أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أن الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم"^(٢).
وقرى: «يؤفن عنه من أفن»، أي: يحرمه من حرم، من: أفن الضرع إذا نهكه حلباً^(٣).

القرآن

{قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)} [الذاريات : ١٠-١١]

التفسير:

لعن الكذابون الظانون غير الحق، الذين هم في لجة من الكفر والضلالة غافلون متمادون.
قوله تعالى: {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات : ١٠]، أي: "لعن الكذابون الظانون غير الحق"^(٤).

قال السعدي: "أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون"^(٥).

قال ابن زيد: "القوم الذين كانوا يتخرصون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت طائفة: إنما هو ساحر، والذي جاء به سحر. وقالت طائفة: إنما هو شاعر، والذي جاء به شعر؛ وقالت طائفته: إنما هو كاهن، والذي جاء به كهانة؛ وقالت طائفة: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} اِكْتَنَبَهَا فَهِيَ تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، يتخرصون على رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٦).

وفي قوله تعالى: {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات : ١٠]، وجوه:

أحدها : لعن المرتابون ، قاله ابن عباس^(٧).

الثاني : لعن الكذابون، قاله الحسن^(٨)، ومجاهد^(٩)، والفراء^(١٠)، وبه قال ابن قتبية^(١١).

قال مجاهد: "أي: لعن الكذابون الذين يخرصون الكذب، يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون بالبعث، وهي مثل قوله في عبس: {قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧]، أي: «لعن»"^(١٢).

قال الفراء: "يَقُولُ: لعن الكذابون الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: مجنون، شاعر، كذاب، ساحر. خرصوا ما لا علم لهم به"^(١٣). ونقله ابن قتبية بتمامه^(١٤).

قال الزجاج: "هم الكذابون، تقول: قد تخرص علي فلان الباطل"^(١٥).

الثالث : أنهم أهل الظنون والفرية ، قاله قتادة^(١٦).

عن قتادة: " {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} أهل الغرة والظنون"^(١٧).

(١) انظر: الكشاف: ٣٩٧/٤.

(٢) الكشاف: ٣٩٧/٤.

(٣) انظر: الكشاف: ٣٩٧/٤.

(٤) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٥) تفسر السعدي: ٨٠٨.

(٦) أخرجه الطبري: ٤٠٠/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٩/٢٢.

(٨) النكت والعيون: ٣٦٣/٥.

(٩) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٨، وتفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٨٣/٣.

(١١) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.

(١٢) تفسير مجاهد: ٦١٨.

(١٣) معاني القرآن: ٨٣/٣.

(١٤) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.

(١٥) معاني القرآن: ٥٢/٥.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢.

(١٧) تفسير إسحاق البستي (١٠٦٨): ص ٤٢٢/٢، وتفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢.

قال الزجاج: " ويجوز أن يكون الخراصون الذين يتظنون الشيء لا يُحِقونه، فيعملون بما لا يدرون صحته"^(١).

الرابع: أنهم المتكهنون. وهو مروى عن ابن عباس -أيضاً-^(٢)، وبه قال أبو عبيدة^(٣).

عن ابن عباس، قوله: " {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ}، قال: الكهنة"^(٤).

قال الطبري: يقول: " لعن المتكهنون الذين يتخرصون الكذب والباطل فيتظنونونه"^(٥).

والقتل: اللعن . وأما «الخراصون» فهو جمع: «خارص». وفي «الخرص» -ها هنا- وجهان :

أحدهما : أنه تعمد الكذب ، قاله الأصم^(٦).

الثاني : ظن الكذب، لأن الخرص حزر وظن ، ومنه: أخذ خرص الثمار. حكاه الماوردي^(٧).

وفيما يخرصونه وجهان^(٨):

أحدهما : تكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم -.

الثاني : التكذيب بالبعث .

قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات : ١١]، أي: "الذين هم في لجة من الكفر والضلالة غافلون متمادون"^(٩).

قال الطبري: يقول: " الذين هم في غمرة الضلالة وغلبتها عليهم متمادون، وعن الحق الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم ساهون، قد لهُوا عنه"^(١٠).

قال السعدي: " أي: في لجة من الكفر، والجهل، والضلال، {سَاهُونَ}"^(١١).

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} [الذاريات : ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها : في غفلة لاهون ، قاله ابن عباس-في رواية-^(١٢)، وبه قال سفيان^(١٣).

الثاني : في ضلالتهم يتمادون، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً^(١٤).

الثالث : في غمرة وشبهة، قاله قتادة^(١٥).

عن قتادة: " {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} يقول: في غمرة وشبهة"^(١٦).

الرابع : قلبه في كِنَانَةٍ. قاله مجاهد^(١٧).

قال مجاهد: «قلبه في مثل كنانة»^(١٨).

الخامس: الذين هم في مآثم المعاصي ساهون عن أداء الفرائض. أفاده الماوردي^(١٩).

-
- (١) معاني القرآن: ٥٢/٥.
- (٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٩/٢٢.
- (٣) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.
- (٤) أخرجه الطبري: ٣٩٩/٢٢.
- (٥) تفسير الطبري: ٣٩٩/٢٢.
- (٦) انظر: النكت والعيون: ٣٦٤/٥.
- (٧) انظر: النكت والعيون: ٣٦٤/٥.
- (٨) انظر: النكت والعيون: ٣٦٤/٥.
- (٩) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (١٠) تفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢.
- (١١) تفسر السعدي: ٨٠٨.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١-٤٠٠/٢٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٥١): ص: ٣٣١١/١٠.
- (١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.
- (١٦) تفسير إسحاق البستي (١٠٦٨): ص: ٤٢٢/٢، وتفسير الطبري: ٤٠٠/٢٢.
- (١٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.
- (١٨) تفسير مجاهد: ٦١٨، وتفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.
- (١٩) انظر: النكت والعيون: ٣٦٤/٥.

قال ابن زيد: "سأهون عما أتاهم، وعما نزل عليهم، وعما أمرهم الله تبارك وتعالى، وقرأ قول الله جلّ ثناؤه: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا} ... الآية، وقال: ألا ترى الشيء إذا أخذته ثم غمرته في الماء" (١).

القرآن

{يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ (١٢)} [الذاريات : ١٢]

التفسير:

يسأل هؤلاء الكذابين سؤال استبعاد وتكذيب: متى يوم الحساب والجزاء؟ قال الطبري: يقول: "يسأل هؤلاء الخراصون الذين وصف صفتهم متى يوم المجازاة والحساب، ويوم يُدين الله العباد بأعمالهم" (٢).

قال أبو عبيدة: "يوم الحساب، متى يوم الدين" (٣).

قال الفراء: "متى يوم الدين؟" (٤).

قال ابن كثير: "وإنما يقولون هذا تكديبا وعنادا وشكا واستبعادا" (٥).

قال السعدي: {يَسْأَلُونَ} على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون، أي: متى يبعثون، مستبعدين لذلك" (٦).

قال مجاهد: "يقولون: متى يوم الدين، أو يكون يوم الدين" (٧).

عن ابن زيد، في قوله: {أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ}، قال: الذين كانوا يجحدون أنهم يُدانون، أو يُبعثون" (٨).

عن قتادة: {يَوْمَ الدِّينِ}، قال: "يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم" (٩).

القرآن

{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)} [الذاريات : ١٣-١٤]

التفسير:

يوم الجزاء، يوم يُعذبون بالإحراق بالنار، ويقال لهم: ذوقوا عذابكم الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا.

قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [الذاريات : ١٣]، أي: "يوم الجزاء، يوم يُعذبون بالإحراق بالنار" (١٠).

قال الأخفش: "فقبل لهم: في يوم هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. لأن ذلك اليوم يوم طويل فيه الحساب وفيه فتنتهم على النار" (١١).

قال الطبري: يقول: "يوم هم على نار جهنم يفتنون" (١٢).

قال السعدي: "أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر" (١).

(١) أخرجه الطبري: ٤٠١/٢٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.

(٣) مجاز القرآن: ٢٢٥/٢.

(٤) معاني القرآن: ٨٣/٣.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤١٥/٧.

(٦) تفسر السعدي: ٨٠٨.

(٧) أخرجه الطبري: ٤٠١/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٤٠١/٢٢.

(٩) علقه يحيى بن سلام في "التفسير": ٥٠٨/٢.

(١٠) التفسير الميسر: ٥٢١.

(١١) معاني القرآن: ٥٢٤/٢.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.

وفي معنى قوله تعالى: {يُفْتَنُونَ} [الذاريات : ١٣]، ثلاثة وجوه :
أحدها : معناه: يعذبون، قاله ابن عباس^(٢)، وعكرمة-في رواية-^(٣)، وبه قال وابن قتيبة^(٤). ومنه قول الشاعر^(٥):

كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور مفتون

قال الفراء: " يحرقون ويعذبون بالنار"^(٦).

قال الزجاج: " يحرقون ويُعَذَّبُونَ، ومن ذلك يقال للحجارة السود التي كأنها قد أحرقت بالنار: الفَتِين"^(٧).

قال ابن عباس: " فتنتمهم أنهم سألوا عن يوم الدين وهم موقوفون على النار: {دُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}، فقالوا حين وقفوا: {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، وقال الله تبارك وتعالى: { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ }"^(٨).

الثاني : يحرقون كما يفتن الذهب بالنار، قاله مجاهد^(٩)، وعكرمة^(١٠)، ونحوه عن الضحاك^(١١).
قال عكرمة: " يعذبون في النار يحرقون فيها، ألم تر أن الذهب إذا ألقي في النار قيل فتن"^(١٢).

قال الضحاك: " يطبخون، كما يفتن الذهب بالنار"^(١٣).

وقال سفيان: " يحرقون"^(١٤).

قال ابن زيد: " يحرقون بالنار"^(١٥).

الثالث : يُضَجُّون بالنار. قاله مجاهد-أيضا-^(١٦).

الرابع : يعيرون بذنوبهم. وهذا مروى عن الحسن^(١٧).

عن الحسن في قوله: " {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} ". قال إسحاق: أحسبه قال: يعيرون بذنوبهم"^(١٨).

الخامس: يكذبون. قاله الضحاك-في رواية-^(١٩).

قال الماوردي: أي: " يكذبون توبيخاً وتقريعاً زيادة في عذابهم"^(٢٠).

قال الطبري: معناه" يعذبون بالإحراق، لأن الفتنة أصلها الاختبار، وإنما يقال: فتنتم الذهب بالنار: إذا طبختها بها لتعرف جودتها، فكذاك قوله: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، يحرقون بها كما يحرق الذهب بها"^(١).

(١) تفسر السعدي: ٨٠٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٠١/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(٤) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.

(٥) الشعر بلا نسبة في النكت والعيون: ٣٦٤/٥.

(٦) معاني القرآن: ٨٣/٣.

(٧) معاني القرآن: ٥٣/٥.

(٨) أخرجه الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٣/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٤٠٣/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ٤٠٣/٢٢.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤٠٣/٢٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٢/٢٢.

(١٧) تفسير إسحاق البستي (١٠٧١): ص ٤٢٣/٢.

(١٨) تفسير إسحاق البستي (١٠٧١): ص ٤٢٣/٢.

(١٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٣/٢٢.

(٢٠) النكت والعيون: ٣٦٤/٥.

قوله تعالى: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات : ١٤]، أي: "ويقال لهم: ذوقوا عذابكم"^(١).

وفي قوله تعالى: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} [الذاريات : ١٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها : معنى: {فِتْنَتَكُمْ}، أي: عذابكم، قاله قتادة^(٢)، وابن زيد^(٣)، والفراء^(٤)، وابن قتيبة^(٥).

قال الفراء: "يَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ فِي الدُّنْيَا"^(٦).

قال قتادة: "يقول: يوم يعذبون، فيقول: ذوقوا عذابكم"^(٧).

قال السعدي: "أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتننوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر، والضلال"^(٨).

الثاني : حريقكم ، قاله مجاهد^(٩)، والضحاك^(١٠)، وسفيان^(١١).

عن مهرا، عن سفيان: "ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ"، يقول: احتراقكم"^(١٢).

وروي عن سفيان بن عيينة -من طريق ابن أبي عمير- أنه سُئِلَ عن قوله: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}. فقال: "هذا الذي فتنتم به، ألم تر إلى الدينار إذا أدخل النار قيل: قد اخبر وفتن؟!"^(١٤).

الثالث : تكذيبكم ، قاله ابن عباس^(١٥). وحكاه الضحاك^(١٦).

قال الطبري: "يعني بقوله: {فِتْنَتَكُمْ}: عذابكم وحريقكم"^(١٧).

قوله تعالى: {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات : ١٤]، أي: "يقال لهم: هذا العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا"^(١٨).

عن عكرمة: "هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} قال: تكذيبكم، به تكذبون"^(١٩).

قال الطبري: "يقال لهم: هذا العذاب الذي توفونه اليوم، هو العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا"^(٢٠).

قال السعدي: "هَذَا} العذاب، الذي وصلتكم إليه، هو {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} فالآن، تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال"^(٢١).

قال ابن كثير: "أي : يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً"^(٢٢).

- (١) تفسير الطبري: ٤٠٤/٢٢.
- (٢) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (٥) انظر: معاني القرآن: ٨٣/٣.
- (٦) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.
- (٧) معاني القرآن: ٨٣/٣.
- (٨) أخرجه الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (٩) تفسر السعدي: ٨٠٨.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥-٤٠٤/٢٢.
- (١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (١٣) أخرجه الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (١٤) أخرجه إسحاق البستي في تفسيره ص ٤٢٣.
- (١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (١٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (١٧) تفسير الطبري: ٤٠٤/٢٢.
- (١٨) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (١٩) تفسير إسحاق البستي (١٠٧٣): ص ٤٢٣/٢.
- (٢٠) تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.
- (٢١) تفسر السعدي: ٨٠٨.
- (٢٢) تفسير ابن كثير: ٤١٥/٧.

فوائد الآيات: [١٤-١]:

- ١- تقرير عقيدة البعث والجزاء حيث أقسم تعالى على ذلك.
- ٢- تقرير عقيدة القضاء والقدر في قوله: {يُؤَقِّكُ عَنْهُ مِنَ الْذَارِيَاتِ : ٩}.
- ٣- لعن الله الخراصين الذين يقولون بالخرص والكذب ويسألون استهزاء وسخرية لا طلبا للعلم والمعرفة للعمل.

القرآن

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)}
[الذاريات : ١٥-١٦]

التفسير:

إن الذين اتقوا الله في جنات عظيمة، وعيون ماء جارية، أعطاهم الله جميع منافعهم من أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، فرحة به نفوسهم، إنهم كانوا قبل ذلك النعيم محسنين في الدنيا بأعمالهم الصالحة.

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الذاريات : ١٥]، أي: "إن الذين اتقوا الله في جنات عظيمة، وعيون ماء جارية"^(١).

قال الطبري: يقول: "إن الذين اتقوا الله بطاعته، واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتين وعيون ماء في الآخرة"^(٢).

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال"^(٣).

قال سهل: "المتقي في الدنيا في جنات الرضى يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح، هذا باطن الآية"^(٤).

قوله تعالى: {أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ} [الذاريات : ١٦]، أي: "أعطاهم الله جميع منافعهم من أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، فرحة به نفوسهم"^(٥).

قال الطبري: يقول: "عاملين ما أمرهم به ربهم مؤدبين فرائضه"^(٦).
عن ابن عباس، قوله: {أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}، قال: الفرائض"^(٧).

قال الزجاج: " {أَخَذِينَ} نصب على الحال، المعنى: إن المتقين في جنات وعيون في حال أخذ ما آتاهم ربهم"^(٨).

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} [الذاريات : ١٦]، أي: "إنهم كانوا قبل ذلك النعيم محسنين في الدنيا بأعمالهم الصالحة"^(٩).

قال السمعاني: "أي: من قبل أن ينالوا ما نالوا محسنين في الدنيا. ومعنى «الإحسان» - هاهنا-: هو طاعة الله تعالى"^(١٠).

وقال الطبري: "يقول: إنهم كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين، يقول: كانوا لله قبل ذلك مطيعين"^(١١).

(١) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٢) تفسير الطبري: ٤٠٥/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤١٦/٧.

(٤) تفسير التستري: ١٥٣.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٦) تفسير الطبري: ٤٠٦/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٤٠٦/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٥٣/٥.

(٩) التفسير الميسر: ٥٢١.

(١٠) تفسير السمعاني: ٢٥٣/٥.

(١١) تفسير الطبري: ٤٠٦/٢٢.

قال ابن عباس: " قبل الفرائض محسنين يعملون" (١).
 قال ابن كثير: " وهذا الإسناد [عن ابن عباس] ضعيف، ولا يصح، والذي فسر به ابن
 جرير فيه نظر؛ لأن قوله: {أَخْذِينَ} حال من قوله: {فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ} : فالمتقون في حال
 كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم، أي : من النعيم والسرور والغبطة.
 وقوله: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ}، أي : في الدار الدنيا {محسنين}، كقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
 أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة : ٢٤]" (٢).

القرآن

{كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)} [الذاريات : ١٧-
 ١٨]

التفسير:

كان هؤلاء المحسنون قليلا من الليل ما ينامون، يُصَلُّون لربهم قانتين له، وفي أواخر الليل قبيل
 الفجر يستغفرون الله من ذنوبهم.

قوله تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات : ١٨]، أي: "كان هؤلاء
 المحسنون قليلا من الليل ما ينامون، يُصَلُّون لربهم قانتين له" (٣).

قال ابن الجوزي: " ثم ذكر إحصائهم فقال: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، والهَجُوع:
 النَّوْمُ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ" (٤).

قال الضحاك: "الهجوع: النوم" (٥).

عن ابن عباس: " {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، يقول: ينام" (٦).
 عن مجاهد: " يقول: كانوا قليلا من الليل ما ينامون" (٧). وروي عن القرظي مثله (٨).
 عن إبراهيم: " {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، قال: قليلا من الليل ما ينامون" (٩).
 عن الحسن، قال: "يقول: {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون} [الذاريات: ١٧] قال: «ما
 ينامون، كانوا يمدون الصلاة إلى الأسحار، فإذا كان السحر أخذوا في الاستغفار» (١٠).

قال مطرف بن عبد الله: «كان لهم قليل من الليل، ما يهجعون فيه كانوا يصلون» (١١).
 قال ابن زيد: " كانوا قليلا ما ينامون من الليل، قال: ذلك الهجع. قال: والعرب تقول: إذا
 سافرت اهجع بنا قليلا. قال: وقال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر
 الله تبارك وتعالى قوما فقال: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، ونحن والله قليلا من الليل ما
 نقوم؛ قال: فقال أبي طوبى لمن رقد إذا نعى؛ وألقى الله إذا استيقظ" (١٢).

وفي قوله تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [الذاريات : ١٧]، وجهان:

أحدهما: أن «ما» مصدرية، تقديره : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره
 الطبري (١٣).

(١) أخرجه الطبري: ٤٠٦/٢٢. قال ابن كثير: ٤١٦/٧: " وهذا الإسناد ضعيف، ولا يصح عن ابن عباس".

(٢) تفسير ابن كثير: ٤١٦/٧.

(٣) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٤) زاد المسير: ١٦٨/٤.

(٥) أخرجه الطبري: ٤١١/٢٢-٤١٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٤١١/٢٢.

(٧) تفسير مجاهد: ٦١٨.

(٨) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١١٠): ص ٥٦/٢.

(٩) تفسير إسحاق البستي (١٠٧٧): ص ٤٢٣/٢، وتفسير الطبري: ٤١١/٢٢.

(١٠) تفسير مجاهد: ٦١٨.

(١١) تفسير عبدالرزاق (٢٩٧٧): ص ٢٣٦/٣.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤١٢/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤١٢/٢٢.

قال الزجاج: " المعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، أي: كانوا ينامون قليلاً من الليل" (١).

عن الحسن، قوله: "كأثوا قليلاً من الليل ما يهجعون"، قال: قيام الليل" (٢).

قال الحسن: "كابدوا قيام الليل" (٣).

قال الحسن: " لا ينامون منه إلا قليلاً" (٤).

قال الحسن: " لا ينامون من الليل إلا أقله" (٥).

قال الحسن: " نشطوا فمدّوا إلى السحر" (٦). وفي رواية: " مدّوا في الصلاة ونشطوا، حتى حتى كان الاستغفار بسحر" (٧).

قال معمر: " كان الحسن والزهري يقولان: كانوا كثيراً من الليل ما يصلون" (٨).

قال الأحنف بن قيس: " كانوا لا ينامون إلا قليلاً" (٩).

عن قتادة، قال: "قال الأحنف بن قيس، وقرأ هذه الآية: {كأثوا قليلاً من الليل ما يهجعون}، قال: لست من أهل هذه الآية" (١٠).

الثاني: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه.

قال ابن عباس: " قال لم يكن يمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً" (١١).

قال قتادة: " كان لهم قليل من الليل ما يهجعون، كانوا يصلونه" (١٢).

قال محمد بن علي: " كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة" (١٣).

قال ابن أبي نجیح: " كانوا قليلاً ما ينامون ليلة حتى الصباح" (١٤).

قال مجاهد: " قليل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهدون" (١٥).

قال مطرف: " قلّ ليلة أتت عليهم إلا صلوا فيها" (١٦). وفي رواية: " قل ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله. إما من أولها، وإما من وسطها" (١٧). وفي رواية: " قلّ ليلة أتت عليهم هجعوها كلها" (١٨).

قال الربيع: " كانوا يصيبون من الليل حظاً" (١٩).

قال أبو العالية: " كانوا يصيبون فيها حظاً" (٢٠).

وقال أبو العالية: " لا ينامون بين المغرب والعشاء" (٢١).

(١) معاني القرآن: ٥٣/٥.

(٢) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢-٤٠٩.

(٥) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢-٤١٠.

(٩) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٤٠٩/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(١٦) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.

(١٧) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.

(١٨) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(١٩) أخرجه الطبري: ٤٠٨/٢٢.

(٢٠) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.

(٢١) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢-٤٠٨.

قال أنس: "يتيقظون يصلون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء"^(١).
وقال الضحاك: "كانوا من الناس قليلاً"^(٢).
قال الضحاك: "كانوا قليلاً من الناس من يفعل ذلك"^(٣).
قال الضحاك: "يقول: إن المحسنين كانوا قليلاً ثم ابتدئ فقيل: {مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، كما قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، ثم قال:
{وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}"^(٤).
قال الطبري: "وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا
يَهْجَعُونَ}، قول من قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، لأن الله تبارك وتعالى وصفهم بذلك
مدحا لهم، وأثنى عليهم به، فوصفهم بكثرة العمل، وسهر الليل، ومكابדתه فيما يقربهم منه
ويرضيه عنهم أولى وأشبه من وصفهم من قلة العمل، وكثرة النوم، مع أن الذي اخترنا في ذلك
هو أغلب المعاني على ظاهر التنزيل"^(٥).
قوله تعالى: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات : ١٨]، أي: "وفي أواخر الليل قبيل
الفجر يستغفرون الله من ذنوبهم"^(٦).
قال الزجاج: "ثم أعلم الله عزَّ وجلَّ في أي شيء كان سهرهم، فقال: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ}"^(٧).
وفي قوله تعالى: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات : ١٨]، وجهان من التفسير:
أحدهما : وبالأسحار هم يصلون ، قاله ابن عمر^(٨)، ومجاهد^(٩)، والضحاك^(١٠).
قال الضحاك: "يقول: يقومون فيصلون، يقول: كانوا يقومون وينامون، كما قال الله
لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ}، فهذا نوم،
وهذا قيام {وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ}، كذلك يقومون ثلثاً ونصفاً وثلثين: يقول: ينامون
ويقومون"^(١١).
الثاني : أنهم كانوا يؤخرون الاستغفار من ذنوبهم إلى السحر ليستغفروا فيه ، قاله الحسن^(١٢).
قال الحسن: "مدوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار بسحر"^(١٣).
قال ابن زيد : هم المؤمنون، قال: وبلغنا أن نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعقوب حين
سأله أن يستغفر لهم: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا - قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}، قال بعض
أهل العلم: إنه أحرَّ الاستغفار إلى السحر. قال: وذكر بعض أهل العلم أن الساعة التي تفتح فيها
أبواب الجنة: السحر"^(١٤).
عن ابن وهب، قال: "سمعت ابن زيد يقول: السحر: هو السدس الأخير من الليل"^(١٥).

- (١) أخرجه الطبري: ٤٠٧/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٤١١/٢٢.
- (٣) أخرجه الطبري: ٤١١/٢٢.
- (٤) أخرجه الطبري: ٤١٠/٢٢.
- (٥) تفسير الطبري: ٤١٢/٢٢.
- (٦) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (٧) معاني القرآن: ٥٣/٥.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٤١٢/٢٢.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٤١٣/٢٢.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤١٢/٢٢.
- (١١) أخرجه الطبري: ٤١٢/٢٢.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤١٣/٢٢.
- (١٣) أخرجه الطبري: ٤١٣/٢٢.
- (١٤) أخرجه الطبري: ٤١٣/٢٢.
- (١٥) أخرجه الطبري: ٤١٣/٢٢.

قال النحاس: " تأوله جماعة على معنى: يصلون، لأن الصلاة مسألة استغفار، وتأوله بعضهم على أنهم يصلون من أول الليل ويستغفرون آخره، واستحبّ هذا لأن الله سبحانه أنثى عليهم به"^(١).

قال ابن كثير: " فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤاله؟ حتى يطلع الفجر"»^(٢). وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب: أنه قال لابنيه: {سَوْفَ أَسْتَعْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر"^(٣).

القرآن

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)} [الذاريات : ١٩]

التفسير:

وفي أموالهم حق واجب ومستحب للمحتاجين الذين يسألون الناس، والذين لا يسألونهم حياءً. قال الطبري: يقول: " وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حقٌّ لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم"^(٤).

قال ابن قتيبة: " {للسائل}، يعني: الطوائف"^(٥).

قال سهل في الآية: " يعني: الصدقة على من طلبها منهم ومن لم يطلبها"^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ} [الذاريات : ١٩]، وجهان:

أحدهما: أنها الزكاة، قاله ابن سيرين^(٧)، وقتادة^(٨)، وابن أبي مريم^(٩).
الثاني: أنه حق سوى الزكاة تصل له رحماً أو تقري به ضيقاً أو تحمل به كلاً أو تغني به محروماً، قاله ابن عباس^(١٠)، ومجاهد^(١١).

عن ابن عمر، قال: "سمعت عمر، يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: «خذّه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذّه وما لا فلا تتبعه نفسك»"^(١٢).

واختلف في معنى: «المحروم»، على أقوال:

أحدها: أنه المُحَارَفُ الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وهذا قول عائشة^(١٣)، وابن عباس-في رواية^(١٤)، ومجاهد^(١٥)، والضحاك^(١)، وسعيد بن المسيب^(٢)، ونافع^(٣)، وعطاء^(٤)، وبه قال ابن قتيبة^(٥).

(١) إعراب القرآن: ١٦٠/٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير: ٤١٨/٧.

(٤) تفسير الطبري: ٤١٣/٢٢.

(٥) غريب القرآن: ٤٢١.

(٦) تفسير التستري: ١٥٣.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٦٦/٥.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٦٦/٥.

(٩) انظر: النكت والعيون: ٣٦٦/٥.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٥٣): ص ٣٣١١/١٠.

(١١) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٩.

(١٢) صحيح البخاري (١٤٧٣): ص ١٢٣/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٥٦): ص ٣٣١٢/١٠.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/٢٢، ولفظه: "المحروم: المحارف".

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/٢٢.

قال النحاس: "صح عن ابن عباس قال: «المحرور المحارف»" (٦).
قال الضحاك: "هو الرجل المحارف الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك" (٧).

عن مجاهد، وعطاء، قالوا: "المحرور: المحارف في الرزق، وفي التجارة" (٨).
قال الفراء: "فأمّا السائل: فالطوّاف على الأبواب، وأمّا المحرور: فالمحارف" (٩).
قال ابن قتيبة: "والمحرور {المحارف} وهو: المقتر عليه في الرزق" (١٠).
الثاني: أنه المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يعلم بحاجته، قاله قتادة (١١)، وابن شهاب الزهري (١٢).

عن قتادة، قوله: "وفي أموالهم حقّ للسائل والمحرور"، هذان فقيرا أهل الإسلام، سائل يسأل في كفه، وفقير معتفف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم" (١٣).
قال قتادة: "السائل الذي يسأل بكفه، والمحرور: المتعفف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم" (١٤).

قال الزهري: "السائل: الذي يسأل، والمحرور: المتعفف الذي لا يسأل" (١٥).
عن الزهري: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران والأكلة والأكلتان، قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى، ولا يعلم بحاجته فيتصدق عليه فذلك المحرور" (١٦).

عن محمد بن كعب القرظي: "المحرور صاحب الحاجة، ثم قرأ: {إِنَّا لَمُعْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [الواقعة: ٦٧]" (١٧). قال الثعلبي: "ونظيره في قصة ضروان" (١٨) {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} (١٩).

قال النحاس: "حدثنا الزهري محمد بن مسلم (٢٠)، أنه قال: المحرور: الذي لا يسأل، وأكثر الصحابة على أنه: المحارف. وليس هذا بمتناقض، لأن «المحرور» -في اللغة- ممنوع من الشيء، فهو مشتمل على كل ما قيل فيه" (٢١).

-
- (١) انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/٢٢.
 - (٢) انظر: تفسير الطبري: ٤١٥/٢٢.
 - (٣) انظر: تفسير الطبري: ٤١٥/٢٢.
 - (٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٥/٢٢.
 - (٥) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.
 - (٦) إعراب القرآن: ٢٣/٥.
 - (٧) أخرجه الطبري: ٤١٤/٢٢.
 - (٨) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٢٩٨٥): ص ٢٣٨/٣.
 - (٩) معاني القرآن: ٨٤/٣.
 - (١٠) انظر: غريب القرآن: ٤٢١.
 - (١١) انظر: تفسير الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٣) أخرجه الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٤) أخرجه الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٥) أخرجه الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٦) أخرجه الطبري: ٤١٦/٢٢.
 - (١٧) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٢/٩.
 - (١٨) ضروان: اسم أرض باليمن فيها الجنة المشار إليها. انظر: الدر المنثور ٦: ٢٥٣.
 - (١٩) الكشف والبيان: ١١٢/٩.
 - (٢٠) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، القرشي المدني، تابعي جليل، وامام علم، كان عالم الحجاز والشام، وكان آية في الحفظ، حتى انه قال ما استودعت قلبي شيئاً فنسيه، وقال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط اجمع من ابن شهاب، وقال مالك: لم يكن في الناس له نظير توفي عام ١٢٤ هـ.
 - (٢١) إعراب القرآن: ١٦٠/٤.

الثالث : أنه الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم، قاله محمد بن الحنفية^(١).
عن الحسن بن محمد: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية، فغنموا، فجاء قوم يشهدون الغنيمة، فنزلت هذه الآية: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}^(٢).
وعن الحسن بن محمد، قال: "بعثت سرية فغنموا، ثم جاء قوم من بعدهم، قال: فنزلت {لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}^(٣).
عن إبراهيم: "أن أناسا قدموا على علي رضي الله عنه الكوفة بعد وقعة الجمل، فقال: اقسموا لهم، قال: هذا المحروم"^(٤).
قال إبراهيم: "المحروم: الذي لا فيء له في الإسلام، وهو محارف من الناس"^(٥). وفي رواية: "المحروم: الذي لا يجري عليه شيء من الفيء، وهو محارف من الناس"^(٦).
الرابع : أنه من ليس له سهم في الإسلام، قاله ابن عباس^(٧).
قال ابن عباس: "السائل: الذي يسأل الناس، والمحروم: الذي ليس له في الإسلام سهم وهو محارف"^(٨).
قال مقاتل: {لِّلسَّائِلِ}، يعني: المسكين، {وَالْمَحْرُومِ}: الفقير الذي لا سهم له، ولم يجعل الله للفقراء سهما في الفيء ولا في الخمس، فمن سمي الفقير: المحروم، لأن الله حرّمهم نصيبهم، فلما نزلت براءة بدأ الله بهم فقال- تعالى- {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ..} فبدأ بهم، فنسخت هذه الآية المحروم"^(٩).
قال هبة الله: "قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات : ١٩]، نسخ ذلك بآية الزكاة"^(١٠).
الخامس : أنه الذي لا ينمى له مال. قاله عكرمة^(١١).
عن حصين، قال: "سألت عكرمة، عن السائل والمحروم؟ قال: السائل: الذي يسألك، والمحروم: الذي لا ينمى له مال"^(١٢).
قال الزجاج: "والأكثر في اللغة: لا ينمى له مال"^(١٣).
السادس : أنه المصاب بثمره وزرعه يعينه من لم يصب، قاله ابن زيد^(١٤).
قال ابن زيد: "المحروم: المصاب بثمره وزرعه، وقرأ: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}، حتى بلغ: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، وقال أصحاب الجنة: {إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}^(١٥).
عن عبد الله بن عياش، قال: "قال زيد بن أسلم في قول الله: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} قال ليس ذلك بالزكاة، ولكن ذلك مما ينفقون من أموالهم بعد إخراج الزكاة، والمحروم: الذي يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته، فيكون له حقّ على من لم يصبه ذلك

- (١) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٤١٦/٢٢-٤١٧.
- (٣) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (٤) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (٥) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (٦) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/٢٢.
- (٨) أخرجه الطبري: ٤١٤/٢٢.
- (٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.
- (١٠) الناسخ والمنسوخ: ١٦٨.
- (١١) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (١٢) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢.
- (١٣) معاني القرآن: ٥٣/٥.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/٢٢-٤١٨.
- (١٥) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢-٤١٨.

من المسلمين، كما قال لأصحاب الجنة حين أهلك جنتهم قالوا {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} وقال أيضاً: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} (١).

عن أبي قلابة، قال: "جاء سيل باليمامة، فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا المحروم" (٢).

وفي رواية عن أبي قلابة، قال: "كان رجل من أهل اليمامة له مال، فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا المحروم، فاقسموا له" (٣).

السابع: أنه المملوك، قاله عبد الرحمن بن حميد (٤).

الثامن: إن المحروم من حرم وصيته. رواه أنس مرفوعاً (٥).

التاسع: أنه الكلب، قال محمد بن إسحاق: "حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانترع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم" (٦).

التاسع: أنه من وجبت نفقته من ذوي الأنساب لأنه قد حرم كسب نفسه، حتى وجبت نفقته في مال غيره. أفاده الماوردي (٧).

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أنه الذي قد حُرِمَ الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تعففه وتركه

المسألة، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعم، كما قال جل ثناؤه: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (٨).

قال النحاس: "وإنما وقع الاختلاف في هذا لأنها صفة أقيمت مقام الموصوف، و«المحروم»: هو الذي قد حرم الرزق واحتاج. فهذه الأقوال كلها داخلة في هذا غير أنه ليس فيها أجل مما روي عن ابن عباس ولا أجمع أنه: «المحارف» (٩).

قال الجصاص: "من تأوله على الكلب فإنه لا يجوز أن يكون المراد عنده بحق معلوم الزكاة لأن إطعام الكلب لا يجزي من الزكاة فينبغي أن يكون المراد عنده حقا غير الزكاة فيكون

في إطعام الكلب قرابة كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن في كل ذي كبد حرى أجرا وإن رجلا سقى كلبا فغفر الله له» (١٠)، والأظهر في قوله حق معلوم أنه الزكاة لأن الزكاة واجبة

لا محالة وهي حق معلوم فوجب أن يكون مرادا بالآية إذ جائز أن ينطوي تحتها ويكون اللفظ عبارة عنها ثم جائز أن يكون جميع ما تأول السلف عليه المحروم مرادا بالآية في جواز إعطائه

الزكاة وهو يدل على أن الزكاة إذا وضعت في صنف واحد أجزأ لأنه اقتصر على السائل والمحروم دون الأصناف المذكورة في آية الصدقات وفرق الله تعالى في الآية بين السائل والمحروم لأن الفقير قد يحرم نفسه بتركه المسألة وقد يحرمه الناس بترك إعطائه فإذا لم يسئل

والمحروم لأن الفقير قد يحرم نفسه بتركه المسألة وقد يحرمه الناس بترك إعطائه فإذا لم يسئل

(١) أخرجه الطبري: ٤١٧/٢٢-٤١٨.

(٢) أخرجه الطبري: ٤١٥/٢٢.

(٣) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٢/٩.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٦٦/٥.

(٥) انظر: أحكام القرآن للجصاص: ٦٢٦/٣.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤١٩/٧، وحكاه عنه النحاس في: الناسخ والمنسوخ: ٦٨٣، والماوردي في النكت والعيون: ٣٦٦/٥.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٨) تفسير الطبري: ٤١٨/٢٢.

(٩) الناسخ والمنسوخ: ٦٨٣.

(١٠) الحديث في البخاري عن أبي هريرة كتاب الشرب والمساقاة: (٢٣٦٣): ص ١١١/٣.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بيننا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له"، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: "في كل كبد رطبة أجر"».

فقد حرم نفسه بترك المسألة فسمي محروماً من هذا الوجه لأنه يصير محروماً من وجهين من قيل نفسه ومن قبل الناس" (١).

قال الشعبي: "أعنانني أن أعلم ما {المَحْرُوم} (٢)، لقد سألت عن المحروم منذ سبعين سنة، فما أنا اليوم بأعلم مني من يومئذ" (٣).

قال الحسن البصري: "أدركت أقواماً إن كان الرجل ليعزم على أهله أن لا يردوا سائلاً، ولقد أدركت أقواماً إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله أربعين عاماً، وإن أهل البيت يبتلون بالسائل، ما هو من الجن ولا من الإنس، وإن الذين كانوا من قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغاً، ويتعاونون بالفضل أنفسهم. رحم الله امرأ جعل العيش عيشاً واحداً، فأكل كسرة وليس خلفاً، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، وابتغى الرحمة، حتى يأتي عليه أجله وهو كذلك" (٤).

وحكي: «أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله مالي لا أحب الموت، جعلني الله فداك؟ فقال: هل لك مال؟ قال: نعم. قال: قدم مالك. قال: لا أطيق ذلك يا رسول الله. قال: فإن قلب المرء مع ماله، إن قدمه أحب أن يلحقه، وإن أخره أحب أن يتخلف معه» (٥).

عن الحرث بن النعمان- ابن أخت سعيد بن جبيرة- قال: "سمعت أنس بن مالك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون: يا ربّ ظلمونا حقوقنا التي فرضتها عليهم. قال: فيقول: وعزّتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم»، قال: فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه هذه الآية: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (٦).

القرآن

{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠)} [الذاريات : ٢٠]

التفسير:

وفي الأرض عبر ودلائل واضحة على قدرة خالقها لأهل اليقين بأن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، والمصدّقين لرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الطبري: يقول: "وفي الأرض عبر وعظات لأهل اليقين بحقيقة ما عاينوا ورأوا إذا ساروا فيها" (٧).

قال النحاس: "أي: عبر وعظات للمؤمنين تدلّ على بارئها ووحدانيته" (٨).
عن قتادة، قوله: "{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}"، قال: يقول: معتبر لمن اعتبر" (٩).
قال قتادة: "إذا سار في أرض الله رأى عبراً وآيات عظيمة" (١٠).
وفي قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات : ٢٠]، وجهان أحدهما : ما فيها من الجبال والبحار والأنهار، قاله مقاتل (١١)، والفراء (١٢).

(١) أحكام القرآن: ٢٩٦/٥.

(٢) أخرجه الطبري: ٤١٨/٢٢.

(٣) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٢/٩.

(٤) الحلية ١٤٩ / ٢ وكتاب الزهد الكبير للبيهقي (١٣): ص ٦٥ / ٢.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ٢٠٥ / ٣ (رقم ٤٥٨٠)، وتفسير التستري: ١٥٣.

(٦) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٣/٩.

(٧) تفسير الطبري: ٤١٨/٢٢.

(٨) إعراب القرآن: ١٦٠/٤.

(٩) أخرجه الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(١٢) انظر: معاني القرآن: ٨٤/٣.

قال الفراء: "آيات الأرض جبالها، واختلاف نباتها وأنهارها، والخلق الذين فيها"^(١).
 قال مقاتل: "يعني: عبرة للموقنين بالرب- تعالى- لتعرفوا صنعه فتوحدوه"^(٢).
 الثاني: من أهلك من الأمم السالفة وأباد من القرون الخالية، قاله الكلبي^(٣).

القرآن

{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات : ٢١]

التفسير:

وفي خلق أنفسكم دلائل على قدرة الله تعالى، وعبر تدلكم على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله لكم يستحق العبادة سواه، أعقلتم عنها، فلا تبصرون ذلك، فتعتبرون به؟

وفي قوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات : ٢١]، وجوه من التفسير: أحدها: أنه سبيل الغائط والبول، قاله ابن الزبير^(٤)، ومجاهد^(٥).

قال الفراء: "إن أحدكم يأكل ويشرب في مدخل واحد، ويُخرج من موضعين"^(٦).
 وقال المسيب بن شريك: "يأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج من مكانين، ولو شرب لنا محضاً خرج ماء، فتلك الآية في النفس"^(٧).

الثاني: وفي تسوية الله تبارك وتعالى مفاصل أبدانكم وجوارحكم دلالة لكم على أن خلقتم لعبادته، قاله قتادة^(٨)، ونحوه عن ابن زيد^(٩).

قال قتادة: "من تفكر في خلق نفسه عرف أنما خلق ولينت مفاصله للعبادة"^(١٠).

قال ابن زيد: "وفينا آيات كثيرة، هذا السمع والبصر واللسان والقلب، لا يدري أحد ما هو أسود أو أحمر، وهذا الكلام الذي يتلجج به، وهذا القلب أي شيء هو، إنما هو مضغة في جوفه، يجعل الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذاك العقل، وما صفته، وكيف هو"^(١١).

الثالث: في خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، قاله ابن زيد^(١٢)-أيضا-^(١٣)، ونحوه عن مقاتل^(١٤).

عن ابن زيد، قوله: "{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}"، قرأ قول الله تبارك وتعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}"^(١٥).

وقال مقاتل: "حين كنتم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم لحما، ثم ينفخ فيه الروح، ففي هذا كله آية، أفهلا {تُبْصِرُونَ}، قدرة الرب- تعالى- أن الذي خلقكم قادر على أن يبعثكم كما خلقكم"^(١٦).

(١) معاني القرآن: ٨٤/٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٢٢.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٦) معاني القرآن: ٨٤/٣.

(٧) انظر: الكشف والبيان: ١١٣/٩. و«المسيب»، هو "المسيب بن شريك التميمي أبو سعيد"، ترك الناس حديثه، وقال البخاري: "سكنوا عنه". مترجم في الكبير ٤٠٨ \ ١١ \ ٤، وابن أبي حاتم ٢٩٤ \ ١ \ ٤، وميزان الاعتدال ٣: ١٧١، ولسان الميزان ٦: ٣٨.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١٠) تفسير إسحاق البستي (١٠٨٩): ص ٤٢٨/٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٤١٩/٢٢ - ٤٢٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤١٩/٢٢.

(١٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

الرابع : في حياتكم وموتكم وفيما يدخل ويخرج من طعامكم ، قاله السدي^(١).
وحكي الماوردي عن السدي، قال: " في حياتكم وموتكم وفيما يدخل ويخرج من طعامكم"^(٢).

الخامس : في الكبر بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد ، قاله الحسن^(٣).
وقال أبو بكر الوراق: " {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، يعني: في تحويل الحالات وضعف القوة وقهر المنّة وعجز الأركاب وفسخ الصريمة ونقض العزيمة"^(٤).
قال الطبري: " الصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضا أيها الناس آيات وعبر تدلّكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم، {أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتنفكروا فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم"^(٥).

القرآن

{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)} [الذاريات : ٢٢]

التفسير:

وفي السماء رزقكم وما توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب، وغير ذلك كله مكتوب مقترن.

قال أبو عبيدة: " فيه مضمّر مجازه: عند من في السماء رزقكم وعنده ما توعدون"^(٦).
وفي قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} [الذاريات : ٢٢]، وجوه من التفسير:
أحدها : ما ينزل من السماء من مطر وتلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق فهو رزق لهم من السماء ، قاله سعيد بن جبير^(٧)، والضحاك^(٨)، ومقاتل^(٩).
قال الطبري: يقول: " وفي السماء: المطر والتلج اللذان بهما تخرج الأرض رزقكم، وقوتكم من الطعام والثمار وغير ذلك"^(١٠).
قال الماتريدي: " فأخبر أن رزق الخلق في السماء، والذي ينزل من السماء الماء، وهو المطر، وجعل ذلك رزقا، إذ هو أصل رزق الخلق"^(١١).
عن الضحاك، قوله: " {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ}، قال: المطر"^(١٢).
قال مجاهد وسفيان: " رزقكم المطر"^(١٣).
عن سعيد، قوله: " {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}، قال: التلج، وكلّ عين ذاتية من التلج لا تنقص"^(١٤).
قال الحسن: " في السحاب فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وأعمالكم"^(١٥).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٨٦٥٨):ص٣٣١٢/١٠.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٦٧/٥.

(٤) الكشف والبيان: ١١٣/٩.

(٥) تفسير الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(٦) مجاز القرآن: ٢٢٦/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(١٠) تفسير الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(١١) تأويلات أهل السنة: ٢٥٦/١٠.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٤٢٠/٢٢-٤٢١.

(١٤) أخرجه الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤٢٠/٢٢.

سفيان، عن إسماعيل بن أمية، قال: أحسبه أو غيره: "أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلا ومطروا، يقول: ومطرنا ببعض عثانين الأسد، فقال: كذبت، بَلْ هُوَ رِزْقُ اللهِ" (١).

الثاني: يعني: أن من عند الله الذي في السماء رزقكم. فسره بذلك واصل الأحذب (٢).

قال سهل: "أي: تفرغوا لعبادتي ولا يشغلكم طلب الرزق عنا، فإننا نرزقكم، إن الله رضي عنكم بعبادة يوم فارضوا عنه برزق يوم بيوم" (٣).

عن سفيان الثوري، قال: "قرأ واصل الأحذب هذه الآية: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}، فقال: ألا إن رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما كان اليوم الثالث إذا هو بدوخلة (٤) رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه، فصارتا دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما" (٥).

الثالث: وفي السماء تقدير رزقكم وما قسمه لكم مكتوب في أم الكتاب. أفاده الماوردي (٦).

الرابع: يعني: الجنة، يقول: الجنة في السماء. وهذا مروى عن مجاهد -أيضا- (٧).

الخامس: يعني: من الذكر وثوابه. ذكره سهل بن عبدالله (٨).

وفي قوله تعالى: {رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: ٢٢]، ثلاثة وجوه من التفسير: أحدها: وما توعدون من خير أو شر، قاله مجاهد (٩).

قال النحاس: "الأحسن فيه ما قال مجاهد، قال: «ما توعدون من خير وشر»، لأن الآية عامة فلا يخص بها شيء إلا بدليل قاطع" (١٠).

الثاني: من جنة ونار، قاله الضحاك (١١).

وعن سفيان: "وَمَا تُوعَدُونَ}، من الجنة" (١٢).

الثالث: يعي: من أمر الساعة، قاله الربيع (١٣)، وابن سيرين (١٤)، ومقاتل (١٥).

قال الطبري: "وأولى القولين (١٦) بالصواب في ذلك عندي، القول الذي قاله مجاهد، لأن الله عمّ الخبر بقوله: {وَمَا تُوعَدُونَ}، عن كل ما وعدنا من خير أو شر، ولم يخص بذلك بعضا دون بعض، فهو على عمومته كما عمه الله جل ثناؤه" (١٧).

عن عبد الله بن السائب، قال: "أخر عمر بن الخطاب كرم الله وجهه العشاء الآخرة فصليت، ودخل فكان في ظهري، فقرأت: {والذاريات ذروا} [الذاريات: ١] حتى أتيت على قوله: {وفي السماء رزقكم وما توعدون} [الذاريات: ٢٢] فرفع صوته حتى ملأ المسجد: «أشهد»" (١٨).

(١) أخرجه الطبري: ٤٢٠/٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٢١/٢٢.

(٣) تفسير التستري: ١٥٤.

(٤) الدوخلة -بتشديد اللام وتخفيفها-: سفينة من حوص يوضع فيها التمر والرطب.

(٥) أخرجه الطبري: ٤٢١/٢٢.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٣٦٨/٥.

(٧) انظر: تفسير مجاهد: ٦١٩، وتفسير الطبري: ٤٢١/٢٢.

(٨) انظر: تفسير التستري: ١٥٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٢١/٢٢.

(١٠) إعراب القرآن: ١٦١/٤.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢١/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤٢١/٢٢.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ٣٦٨/٥.

(١٤) رواه عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٤/٩.

(١٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(١٦) هو ذكر قولين فقط.

(١٧) أخرجه الطبري: ٤٢٢/٢٢.

(١٨) فضائل القرآن للقاسم بن سلام: ١٤٩.

عن جعفر بن إياس، قال: "دخل عمر بن الخطاب رضوان الله عنه المسجد، وقد سبق ببعض الصلاة، فنشب في الصف، وقرأ الإمام {وفي السماء رزقكم وما توعدون} [الذاريات: ٢٢] فقال عمر: «وأنا أشهد»^(١).

روي عن أبي الفضل العباس بن الفرغ الرياسي البصري، قال: "سمعت الأصمعي يقول: أقبلت ذات يوم من المسجد الجامع في البصرة فبينما أنا في بعض سلكها إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلد سيفه وبيده قوس، فدنا وسلم وقال لي: من الرجل؟، قلت: من بني الأصم، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم، قال: ومن أين أقبلت؟، قلت من موضع مليء بكلام الرّحمن، قال: وللرّحمن كلام يتلوه الأدمين. قلت: نعم، قال: اتل عليّ شيئاً منه، فقلت له: انزل عن قعودك. فنزل، وابتدأت بسورة والذّاريات، فلما انتهيت إلى قوله سبحانه: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}. قال: يا أصمعي هذا كلام الرّحمن؟، قلت: أي والذي بعث محمداً بالحق، إنه لكلامه أنزله على نبيّه محمد، فقال لي: حسبك، ثم قام إلى الناقة فنحراها وقطعها كلها، وقال: أعطني على توزيعها ففرقتها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وجعلهما تحت الرمل وولى مدبراً نحو البادية وهو يقول: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}. فأقبلت على نفسي باللوم وقلت: لم تنتهي لما انتبه له الأعرابي، فلما حجبت مع الرشيد دخلت مكة، فبينما أنا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابي نحيلاً مصفراً فسلم عليّ وأخذ بيدي وأجلسني من وراء المقام وقال لي: اتل كلام الرّحمن، فأخذت في سورة والذّاريات، فلما انتهيت إلى قوله: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} صاح الأعرابي فقال: وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، ثم قال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم يقول الله سبحانه فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِفُونَ، فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟، ألم يصدّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ قالها ثلاثاً وخرجت فيها نفسه^(٢).

عن زيد بن جرير: "أن رجلاً جاع في مكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به، قال: فشبع وروى من غير طعام ولا شراب"^(٣).

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت»^(٤).

القرآن

{فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِفُونَ (٢٣)} [الذاريات : ٢٣]

التفسير:

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدكم به حق، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره مقسماً لخلقه بنفسه: فو ربّ السماء والأرض، إن الذي قلت لكم أيها الناس: إن في السماء رزقكم وما توعدون لحق، كما حق أنكم تنطقون"^(٥).

قال السمعي: "يعني: أنه حق مثل نطقكم، كما يقول القائل لغيره: إنه لحق كما أنك"^(٦).

قال الفراء: "أقسم عز وجلّ بنفسه: أن الذي قلت لكم لحق مثل ما أنكم تنطقون"^(٧).

قال أبو عبيدة: أي: "كما أنكم تنطقون"^(٨).

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام: ١٤٩.

(٢) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٥/٩، وانظر: كتاب التوايين لعبد الله بن قدامة: ٢٧٥ ح ١١٢.

(٣) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٥/٩.

(٤) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٥/٩-١١٦.

(٥) تفسير الطبري: ٤٢٢/٢٢.

(٦) تفسير السمعي: ٢٥٥/٥.

(٧) معاني القرآن: ٨٤/٣.

(٨) مجاز القرآن: ٢٢٦/٢.

قال الزجاج: "أي: إن ما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - حق وإن قوله: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} حَقٌّ، فالمعنى: أن هذا الذي ذكرنا في أمر الآيات والرزق وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - حق {مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تُنْطَفُونَ}"^(١).
 قال مقاتل: "يعني: لكائن، يعني: أمر الساعة {مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تُنْطَفُونَ}، يعني: تتكلمون"^(٢).
 قال الثعلبي: "أي: كمثل ما {أَنْتُمْ تُنْطَفُونَ} فتقولون: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وقيل: كما أتكم ذوو نطق خصصتم بالقوة الناطقة العاقلة فتتكلمون، هذا حق كما حق أن الأدمي ناطق"^(٣).
 عن ابن جريج، في قوله {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ} قال: "لكل شيء ذكره في هذه السورة"^(٤).

عن الحسن، في قوله: "{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، الآية، قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا»"^(٥).
 عن أبي العلاء بن الشَّخِير -من طريق الجريري- قال: "لَمَّا نَزَلَتْ: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تُنْطَفُونَ} خرج رجال بأيديهم العصي، قالوا: أين الذين كَفَّوْا ربنا حتى حلف؟!"^(٦).
 فوائد الآيات: [١٥-٢٣]:

- ١- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.
- ٢- بيان صفات المتقين من التهجد بالليل والاستغفار في آخره والإنفاق في سبيل الله.
- ٣- بيان أن في الأرض كما في الأنفس آيات، أي: دلائل وعلامات على قدرة الله على البعث والجزاء.
- ٤- بيان أن في السماء رزق العباد فلا يطلب إلا من الله تعالى، وأن ما نوعه من خير وشر أمره في السماء ومنها ينزل بأمره تعالى، فليكن طلبنا الخير من الله دائما وتعوذنا من الشر بالله وحده.

القرآن

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥)} [الذاريات : ٢٤-٢٥]

التفسير:

هل أتاك -أيها الرسول- حديث ضيف إبراهيم الذين أكرمهم -وكانوا من الملائكة الكرام- حين دخلوا عليه في بيته، فحيوه قائلين له: سلامًا، فردَّ عليهم التحية قائلا سلام عليكم، أنتم قوم غرباء لا نعرفكم.

قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} [الذاريات : ٢٤]، أي: "هل أتاك -أيها الرسول- حديث ضيف إبراهيم الذين أكرمهم -وكانوا من الملائكة الكرام-"^(٧).
 قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يخبره أنه محل بمن تمادى في غيه، وأصرَّ على كفره، فلم يتب منه من كفار قومه، ما أحلَّ بمن قبلهم من الأمم الخالية، ومذكرا قومه من قريش بإخباره إياهم أخبارهم وقصصهم، وما فعل بهم، هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم خليل الرحمن المكرمين"^(٨).

(١) معاني القرآن: ٥٤/٥.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤.

(٣) الكشف والبيان: ١١٤/٩.

(٤) الدر المنثور: ٦١٩/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٥٩) ص: ٣٣١٢/١٠، والطبري: ٤٢٢/٢٢.

(٦) ذكره الحافظ في المطالب العالية (إشراف: د. سعد الشثري) ٢٧٨/١٥ (٣٧٢٩).

(٧) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٨) تفسير الطبري: ٤٢٤/٢٢.

قال ابن كثير: "أي : الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل"^(١).
قال الفراء: "لم يكن علمه النبيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - حتى أنزله الله عليه"^(٢).
قال الماوردي: "وسمي الضيف ضيفاً، لإضافته إليك وإنزاله عليك"^(٣).
وفي قوله تعالى: {المُكْرَمِينَ} [الذاريات : ٢٤]، وجهان من التفسير:
أحدهما : أنهم كانوا مكرمين عند الله، نظيره في سورة الأنبياء: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء : ٢٦]. قاله عبد العزيز بن يحيى الكناني^(٤).
قال الواحدي: "يعني: عند الله، وذلك أنهم كانوا ملائكة كراما، وقد قال الله تعالى في صفتهم: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء : ٢٦]"^(٥).
وذكر ابن عباس أسماءهم، فقال: يريد: "إسرافيل، وجبريل، وميكائيل"^(٦).
قال عطاء: "كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما ملك آخر"^(٧).
قال القرظي: "كان جبريل ومعه سبعة"^(٨).
الثاني : مكرمون لإكرام إبراهيم لهم حين خدمهم بنفسه ، قاله مجاهد^(٩).
قال مجاهد: " أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بالعجل حينئذ"^(١٠).
قال الفراء: " أكرمهم بالعمل الذي قرّبه"^(١١).
وقال الكلبي: "أكرمهم بالعجل"^(١٢).
قال الطبري: "يعني بقوله: {المُكْرَمِينَ} أن إبراهيم عليه السلام وسارة خدماهم بأنفسهما"^(١٣).

قال مقاتل: "يعني: قد أتاك يا محمد {حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}، يعني: جبريل وميكائيل، وملك آخر أكرمهم إبراهيم وأحسن القيام، ورأى هيئتهم حسنة، وكان لا يقوم على رأس ضيف قبل هؤلاء، فقام هو وامراته سارة لخدمتهم"^(١٤).

قال سهل: " سماهم «مكرمين»، لأنه خدمهم بنفسه، وكان منذ سبعة أيام لم يطعم شيئاً، ينتظر ضيفاً، فلما أرسل الله تعالى ملائكته إليه استبشر بهم وخدمهم بنفسه ولم يطعم معهم، وهي علامة الخلة المؤكدة أن يطعم ولا يطعم، ويشفي الغير من ألم ويسقم"^(١٥).

قال أبو بكر الوراق وابن عطاء: "سماهم مكرمين، لأنّ أضياف الكرام مكرمون، وكان إبراهيم عليهم السلام أكرم الخليقة وأطهرهم فتوة"^(١٦).

قال عطاء : "وكان إبراهيم إذا أراد أن يتغذى ، أو يتعشى خرج الميل والميلين والثلاثة ، فيطلب من يأكل معه"^(١٧).

- (١) تفسير ابن كثير: ٤٢٠/٧.
- (٢) معاني القرآن: ٨٦/٣.
- (٣) النكت والعيون: ٣٦٩/٥.
- (٤) حكاة عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٧/٩.
- (٥) التفسير الوسيط: ١٧٧/٤.
- (٦) حكاة عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ١٧٧/٤.
- (٧) تفسير الثعلبي ١١٦ /٩.
- (٨) تفسير الثعلبي ١١٦ /٩.
- (٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٤/٢٢.
- (١٠) أخرجه الطبري: ٤٢٤/٢٢.
- (١١) معاني القرآن: ٨٦/٣.
- (١٢) حكاة عنه الواحدي في التفسير الوسيط: ١٧٧/٤.
- (١٣) تفسير الطبري: ٤٢٤/٢٢.
- (١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٢٩/٤-١٣٠.
- (١٥) تفسير التستري: ١٥٤.
- (١٦) نقلا عن: الكشف والبيان في تفسير القرآن للثعلبي: ١١٧/٩.

قال عكرمة : "وكان إبراهيم يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد"^(٢).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"^(٣).

قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الذاريات : ٢٥]، أي: "حين دخلوا عليه في بيته، فحيوه قائلين له: سلامًا"^(٤).

قال الطبري: "يقول: حين دخل ضيف إبراهيم عليه، فقالوا له سلاما: أي: أسلموا إسلامًا"^(٥).

وفي قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الذاريات : ٢٥]، وجهان:

أحدهما : أي: مسالمين غير محاربين لتسكن نفسه. قاله الأخفش^(٦).
الثاني : أنه دعا لهم بالسلامة ، حكاه الماوردي عن الجمهور^(٧)، لأن التحية بالسلام تقتضي السكون والأمان ، قال الشاعر^(٨):

أَطْلِمُ إِنْ مُصَابِكُمْ رَجُلًا ... أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةَ ظَلَمٍ

وقراءة عامة قراء المدينة والبصرة: {سَلَامٌ} بالألف، بمعنى قال: إبراهيم لهم سلام عليكم. وقراء ذلك عامة قراء الكوفة: «سَلِمٌ»، بغير ألف، بمعنى، قال: أنتم سلم^(٩).

قال الزجاج: "من قرأ: {قَالَ سَلَامٌ} فهو على وجهين: على معنى قال: سلام عليكم. ويجوز أن يكون على معنى: أمرنا سلامٌ. ومن قرأ: «سَلِمٌ»، فالمعنى: قال سَلِمٌ، أي: أمرني سَلِمٌ، وأمرنا سَلِمٌ. أي: لا بأس علينا"^(١٠).

قوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} [الذاريات : ٢٥]، أي: "فردَّ عليهم التحية قائلا سلام عليكم، أنتم قوم غرباء لا نعرفكم"^(١١).

قال الطبري: "يقول: قوم لا نعرفكم"^(١٢).

قال مقاتل: "يقول: أنكرهم إبراهيم- صلى الله عليه- وظن أنهم من الإنس"^(١٣).

قال ابن كثير: "وقوله: {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ}: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم ؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ فحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء : ٨٦] ، فالخليل اختار الأفضل. وقوله: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} : وذلك أن الملائكة وهم : جبريل

(١) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٦٩/٥.

(٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٦٩/٥.

(٣) صحيح البخاري(٦٠١٨):ص١١/٨، وأخرجه مسلم في الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف . رقم (٤٧).

(٤) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٥) تفسير الطبري: ٤٢٤/٢٢.

(٦) نقلا عن: النكت والعيون: ٣٧٠/٥.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٧٠/٥.

(٨) البيت للحارث بن خالد المخزومي في "ديوانه" ص ٩١، "الاشتقاق" ص ٩٩، و ١٥١، "الأغاني" ٩/ ٢٢٥، "خزانة الأدب" ١/ ٤٥٤، "إنباه الرواة" ١/ ٢٤٩، "اللسان" ٤/ ٢٥١٩، (صوب) "المقاصد النحوية" ٣/ ٥٠٢، "المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية" ٧/ ١٩٠.

وظليم: ترخيم ظليمة، ويروى: أظلوم، وظليم: هي أم عمران زوجة عبد الله بن مطيع وكان الحارث يُنسب بها، ولما مات زوجها تزوجها.

ورجلاً منصوب بمصاب، يعني: إن إصابتكم رجلاً، وظلمٌ: خبر إن.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٤/٢٢-٤٢٥.

(١٠) معاني القرآن: ٥٤/٥.

(١١) التفسير الميسر: ٥٢١.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٠/٤.

وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ؛ ولهذا قال :﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(١).

عن ابن عباس: "إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ"، قال في نفسه: هؤلاء قوم لا نعرفهم"^(٢).

قال أبو العالية: "أنكر سلامهم في ذلك الزمان، وفي تلك الأرض"^(٣).

القرآن

{فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)} [الذاريات : ٢٦-٢٨]

التفسير:

فَعَدَلَ وَمَالَ خَفِيَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَعَمِدَ إِلَىٰ عَجَلٍ سَمِينٍ فَذَبَحَهُ، وَشَوَاهُ بِالنَّارِ، ثُمَّ وَضَعَهُ أَمَامَهُمْ، وَتَلَطَّفَ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الطَّعَامِ قَائِلًا أَلَا تَأْكُلُونَ؟ فَلَمَّا رَأَاهُمْ لَا يَأْكُلُونَ أَحْسَبَ فِي نَفْسِهِ خَوْفًا مِنْهُمْ، قَالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ إِنَّا رَسَلْنَا إِلَيْكَ اللَّهُ، وَبَشَّرُوهُ بِأَنْ زَوْجَتَهُ «سَارَةَ» سَتَلِدُ لَهُ وَلَدًا، سَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِدِينِهِ، وَهُوَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: {فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ} [الذاريات : ٢٦]، أي: "فَعَدَلَ وَمَالَ خَفِيَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ"^(٤).

قال ابن كثير: "أي : انسل خفية في سرعة"^(٥).

قال مقاتل: "يعنى: فمال إلى {أهله}"^(٦).

قال الطبري: "يقول: عدل إلى أهله ورجع"^(٧).

قال الزجاج: أي: " عدل إليهم من حيث لا يعلمون لأي شيء عدل، وكذلك يقول: راغ

فلان عنا إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون"^(٨).

قال ابن قتيبة: "أي: عدل إليهم في خفية. ولا يكون «الرؤاغ» إلا أن تخفي ذهابك

ومجيبك"^(٩).

قال الصابوني: "إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر

بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه في

التأخير"^(١٠).

قوله تعالى: {فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ} [الذاريات : ٢٦]، أي: " فجاءهم بعجل سمين

مشوي"^(١١).

قال الطبري: "يقول: فجاء ضيفه بعجل سمين قد أنضجه شيئاً"^(١٢).

قال ابن كثير: "أي : من خيار ماله. وفي الآية الأخرى : {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيذٍ} [

هود : ٦٩] أي : مشوي على الرضف"^(١٣).

قال قتادة: "كان عامة مال نبي الله إبراهيم عليه السلام البقر"^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٤٢٠/٧.

(٢) تفسير البغوي ٣٧٦ / ٧.

(٣) تفسير البغوي ٣٧٦ / ٧.

(٤) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٠/٤.

(٧) تفسير الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٥٤/٥-٥٥.

(٩) غريب القرآن: ٤٢١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٢٣٥/٣.

(١١) صفوة التفاسير: ٢٣٥/٣.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

وأما «العجل»، ففي تسميته بذلك وجهان^(٢):
أحدهما : لأن بني إسرائيل عجلوا بعبادته .
الثاني : لأنه عجل في اتباع أمه.

عن عون بن أبي شداد: "أنّ ضيف إبراهيم المكرمين لما دخلوا عليه فقرب إليهم العجل، فمسحه جبريل عليه السلام بجناحه، فقام العجل يدرج في الدار حتى لحق بأمه"^(٣).
قوله تعالى: {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [الذاريات : ٢٧]، أي: "فأدناه منهم ووضع بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام"^(٤).
قال الطبري: "المعنى: فقربه إليهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا، {قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} على النكير. أي: أمركم في ترك الأكل مما أنكره"^(٥).

قال ابن كثير: " {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ}، أي : أدناه منهم، {قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} : تلطف في العبارة وعرض حسن. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم ألا فقال : "نأتيكم بطعام ؟" بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال : اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال : {أَلَا تَأْكُلُونَ} على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل"^(٦)^(٧).
عن السدي، قال: "أتى الرسل إبراهيم حين بعثوا إلى قوم لوط فنزلوا به يستضيفونه فجاءهم بالعجل الحنيد، قال: فلما وضع بين أيديهم كفوا عنه فلم يتناولوا منه شيئا، فقال لهم إبراهيم حين رأهم لا يطعمون: مالكم لا تطعمون؟ قالوا: إنا قوم لا نصيب طعاما إلا بثمن"^(٨).
قوله تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} [الذاريات : ٢٨]، أي: "فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام"^(٩).

قال الطبري: "يقول: فأوجس في نفسه إبراهيم من ضيفه خيفة وأضمرها"^(١٠).
قال الزجاج: " معنى {أَوْجَسَ}، وقع في نفسه الخوف"^(١١).
قال النحاس: "أي: ستر ذلك وأضمره"^(١٢).

قال مقاتل: "فلما رأى إبراهيم- عليه السلام- أيدي الملائكة لا تصل إلى العجل {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، فخاف وأخذته الرعدة، وضحكت امرأته سارة وهي قائمة، من رعدة إبراهيم، وقالت في نفسها: إبراهيم معه أهله وولده وخدمه وهؤلاء ثلاثة نفر"^(١٣).
قال ابن كثير: " هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ

(١) أخرجه الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٧٠/٥.

(٣) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ١١٧/٩.

(٤) صفوة التفاسير: ٢٣٥/٣-٢٣٦.

(٥) تفسير الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(٦) وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "جلاء الأفهام" (ص ١٨١ - ١٨٤) في الكلام على آداب الضيافة في هذه الآيات.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(٨) تفسير إسحاق البستي (١٠٩٣): ٤٢٩/٢.

(٩) صفوة التفاسير: ٢٣٦/٣.

(١٠) تفسير الطبري: ٤٢٥/٢٢.

(١١) معاني القرآن: ٥٥/٥.

(١٢) إعراب القرآن: ١٦٢/٤.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٠/٤.

وَأَمْرًا تُهَاجِرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ} [هود : ٧٠، ٧١] أي : استبشرت بهلاكهم ؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب^(١).

قال وهب بن منبه: "فلما رأى الله ذلك يعني فاحشة قوم لوط بعث الله عز وجل الملائكة ليعذبوهم فاتوا إبراهيم فلما رآهم راعه هيئتهم وجمالهم فسلموا عليه وجلسوا إليه فقام ليقرّب لهم العجل فقالوا مكانك قال: بل دعوني أتيتكم بما ينبغي لكم فإن لكم حقاً لم يأتنا أحد أحق بالكرامة منكم فأمر بعجل سمين فحنذ له يعني شوي فقرب إليهم الطعام فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة وسارة وراء الباب تسمع"^(٢).

قوله تعالى: {قَالُوا لَا تَخَفْ} [الذاريات : ٢٨]، أي: "قالوا له لا تخف إنا رسل ربك"^(٣).

قال القشيري: "توهم أنهم لصوص فقالوا له: {لَا تَخَفْ}"^(٤).

عون بن أبي شداد - من طريق نوح بن قيس-: "أنّ ضيف إبراهيم المكرمين لما دخلوا عليه فقرب إليهم العجل مشويًا، فمسحه جبريل - عليه السلام - بجناحه فقام العجل يدرج^(٥) في الدار حتى لحق بأمه، فحينئذ عرف أنهم ملائكة"^(٦).

قوله تعالى: {وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات : ٢٨]، أي: "وبشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه"^(٧).

قال ابن كثير: "فالبشارة له هي بشارة لها ؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بشر به"^(٨).

قال الزجاج: " معنى {عليم}، أنه يبلغ ويعلم"^(٩).

قال القشيري: "أي: بشروه بالولد، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير عليماً والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليماً بعد كبره"^(١٠).

وقال مقاتل: "يعني: حليم"^(١١).

وفي قوله تعالى: {وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات : ٢٨]، قولان:

أحدهما : أنه إسماعيل من هاجر ، قاله مجاهد^(١٢).

عن مجاهد: {وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ}، قال: "هو إسماعيل"^(١٣).

الثاني: أنه إسحاق من سارة ، استشهاداً بقوله تعالى في آية أخرى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ} [الصافات : ١١٢].

قال الطبري: "يعني: بإسحاق، وقال: عليم بمعنى عالم إذا كبر.. وإنما قلت: عنى به إسحاق، لأن البشارة كانت بالولد من سارة، وإسماعيل لهاجر لا لسارة"^(١٤).

قال الفراء: "قوله: {وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ} إذا كبر، وكان بعض مشيختنا يقول: إذا كان العلم منتظراً لمن يوصف به قلت في العليم إذا لم يعلم: إنه لعالم عن قليل وفاقه، وفي السيد: سائد، والكريم: كارم. والذي قال حسن، وهذا كلام عربي حسن، قدّ قاله الله في «عليم»^(١٥)،

(١) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠١٨): ص ٢٠٥٥/٦.

(٣) صفوة التفاسير: ٢٣٦/٣.

(٤) لطائف الإشارات: ٤٦٧/٣.

(٥) يدرج: يمشي. النهاية واللسان (درج).

(٦) أخرجه الثعلبي ١١٧/٩.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٣٦/٣.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(٩) معاني القرآن: ٥٥/٥.

(١٠) لطائف الإشارات: ٤٦٧/٣.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٠/٤.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢.

(١٣) تفسير مجاهد: ٦١٩، وتفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم (١٨٦٦٠): ص ٣٣١٢/١٠.

(١٤) تفسير الطبري: ٤٢٥-٤٢٦.

(١٥) كما في قوله: «وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ».

و«حليم»^(١)، و«ميت»^(٢)، وكان المشيخة يقولون للذي لما يمُت وسيموت: هو مائت عن قليل، وقول الله عزَّ وجلَّ أصوب من قيلهم، وقال الشَّاعر فيما احتجوا به^(٣):
كريم كصفو الماء ليس بباخل ... بشيء، ولا مهد ملاما لباخل
يريد: بخيل، فجعله باخل لأنَّه لم يبخل بعد^(٤).

القرآن

{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَتْ وَجَهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)} [الذاريات : ٢٩-٣٠]
التفسير:

فلما سمعت زوجة إبراهيم مقالة هؤلاء الملائكة بالبشارة أقبلت نحوهم في صيحة، فلطمت وجهها تعجباً من هذا الأمر، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟ قالت لها ملائكة الله: هكذا قال ربك كما أخبرناك، وهو القادر على ذلك، فلا عجب من قدرته. إنه سبحانه وتعالى هو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، العليم بمصالح عباده.

قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} [الذاريات : ٢٩]، أي: "فلما سمعت زوجة إبراهيم مقالة هؤلاء الملائكة بالبشارة أقبلت نحوهم في صيحة"^(٥).

قال الطبري: "يعنى: سارّة، وليس ذلك إقبال نقلة من موضع إلى موضع، ولا تحوّل من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى: أخذ في شتمي. وقوله: {في صَرَّةٍ}، يعني: في صيحة"^(٦).

وفي قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ} [الذاريات : ٢٩]، ثلاثة أقوال:
أحدها : الرنة^(٧) والتأوه، قاله قتادة^(٨)، ومنه قول الشاعر^(٩):

وشربة من شراب غير ذي نفس ... في صرة من تخوم الصيف وهاج
قال قتادة: "أقبلت ترن"^(١٠).

الثاني : أنها الصيحة، قاله ابن عباس^(١١)، ومجاهد^(١٢)، والضحاك^(١٣)، وابن سابط^(١٤)، وابن زيد^(١٥)، ومنه قول امرئ القيس^(١٦):

فَالْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ ... جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلَ
قال الزجاج: " الصرة: شدة الصياح ههنا"^(١٧).

(١) كما في قوله: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات : ١٠١].

(٢) كما في قوله: {إِنَّكَ مَيّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيّتُونَ} [الزمر : ٣٠].

(٣) من شواهد الفراء في معاني القرآن: ٨٦/٣. ولم أفق على قائله.

(٤) معاني القرآن: ٨٦/٣.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٦) تفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢.

(٧) الرنة: الصيحة الحزينة. ورننت ترن رنيئاً، وأرانت: صاحت.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢.

(٩) الشعر بلا نسبة في النكت والعيون: ٣٧١/٥.

(١٠) أخرجه الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٦/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١٦) ديوانه: ٢٢، وانظر: شرح المعلمات السبع للزوزني: ٣١، إذ الرواية فيه «فالحقنا»، والهاديات: أوائل بقر الوحش، وجوارحها: متخلفاتها، ولم تزيل، أي: لم تنفرك، يقول: لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أوآخرها لم تنفرك.

(١٧) معاني القرآن: ٥٥/٥.

قال أبو عبيدة: {فِي صَرَّةٍ}، شدة صوت، يقال: أقبل فلان يصطر. أي: يصوت صوتا شديدا^(١).

قال ابن قتيبة: "أي: في صِيْحَةٍ. ولم تأت من موضع إلى موضع؛ إنما هو كقولك: أقبل يصيح وأقبل يتكلم"^(٢).

الثالث: أنها الجماعة، قاله ابن بحر^(٣)، ومنه: المصرة من الغنم لجمع اللين في ضرعها. وسميت صرة الدراهم فيها، قال الشاعر^(٤):

رُبُّ غلامٍ قد صرَى في فقرته ... ماء الشباب عنفوانَ سنّته

قال النحاس: "وقيل: {فِي صَرَّةٍ}، في جماعة نسوة يتبادرن لينظرن إلى الملائكة"^(٥). قوله تعالى: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات: ٢٩]، أي: "فلطمت وجهها تعجباً من هذا الأمر"^(٦).

قال الطبري: "الصكّ عند العرب: هو الضرب"^(٧).

قال الفراء: "أي: جمعت أصابعها، فضربت جبهتها"^(٨).

قال ابن قتيبة: "أي: ضربت بجميع أصابعها جَبْهَتَهَا"^(٩).

عن مجاهد، قوله: "فَصَكَّتْ وَجْهَهَا"، قال: جبهتها"^(١٠).

عن ابن سابط، قوله: "فَصَكَّتْ وَجْهَهَا"، قال: قالت هكذا؛ وضرب سفيان بيده على جبهته"^(١١).

وفي قوله تعالى: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات: ٢٩]، وجهان:

أحدهما: معناه: لطمت وجهها، قاله ابن عباس^(١٢).

قال الزجاج: "أي: لطمت وَجْهَهَا"^(١٣).

قال ابن كثير: "أي: تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب"^(١٤).

الثاني: أنها ضربت جبينها تعجباً. قاله السدي^(١٥)، وسفيان^(١٦)، ومقاتل^(١٧).

قال السدي: "لما بَشَّرَ جبريل سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ضربت جبهتها عجباً، فذلك قوله: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}"^(١).

(١) مجاز القرآن: ٢٢٧/٢.

(٢) غريب القرآن: ٤٢١.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٣٧١/٥.

(٤) للأغلب العجلي، وبعدهما:

أنعظ حتى استند سم سمته

ويروى: "رأت غلاماً" مكان "رب غلام". والفقرة: إحدى فقرار الظهر، والمراد كلها، والسنت والسنتية: قطعة من الزمن، والسم: الثقب، والسمة بالكسر وتفتح: الاست، واستد الثقب: انسد. والمعنى: رب غلام امتنع عن غشيان النساء في فورة الشباب؛ حتى صار إذا أنعظ ينسد استه. وانظر: سر صناعة الإعراب: ١٧٥، واللسان والتاج "صري".

(٥) إعراب القرآن: ١٦٣/٤.

(٦) التفسير الميسر: ٥٢١.

(٧) تفسير الطبري: ٤٢٨/٢٢.

(٨) معاني القرآن: ٨٧/٣.

(٩) غريب القرآن: ٤٢١.

(١٠) أخرجه الطبري: ٤٢٨/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٤٢٨/٢٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١٣) معاني القرآن: ٥٥/٥.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٧/٢٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٨/٢٢.

(١٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٠/٤.

قال سفيان: " وضعت يدها على جبهتها تعجبا" (٢).
 قوله تعالى: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [الذاريات : ٢٩]، أي: "وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم لا ألد؟" (٣).
 قال أبو عبيدة: " مختصر. أي: أنا عجوز عقيم" (٤).
 قال ابن كثير: " أي : كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وقد كنتُ في حال الصبا عقيما لا أحبل؟" (٥).
 قال الطبري: " يقول: وقالت: أتلد، وحذفت أتلد لدلالة الكلام عليه، وبضمير أتلد رفعت عجوز عقيم، وعني بالعقيم: التي لا تلد" (٦).
 قال الزجاج: " المعنى: وقالت أنا {عَجُوزٌ عَقِيمٌ}، وكيف ألد. ودليل ذلك قوله في موضع آخر: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [هود : ٧٢]" (٧).
 قال الفراء: " أتلد عجوز عقيم؟" (٨).
 قال النحاس: " زعم بعض العلماء أنّ عجوزا بإضمار فعل أي أتلد عجوز. قال أبو جعفر: وهذا خطأ لأن حرف الاستفهام لا يحذف والتقدير على قول أبي إسحاق: قالت أنا عجوز عقيم أي فكيف ألد" (٩).
 عن مشاش، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ}، قال: لا تلد" (١٠).
 عن هشيم، قال: "أخبرنا رجل من أهل خراسان من الأزدي، يكنى أبا ساسان، قال: سألت الضحاك، عن قوله: {عَقِيمٌ}، قال: التي ليس لها ولد" (١١).
 عن السدي: {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}: " كنت شابة عقيم فكيف وأنا اليوم عجوز؟ فضحكت تعجباً وقالت: أنا ألد؟ كيف يكون هذا وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً" (١٢).
 قوله تعالى: {قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ} [الذاريات : ٣٠]، أي: "قالت لها ملائكة الله: هكذا قال ربك كما أخبرناك، وهو القادر على ذلك، فلا عجب من قدرته" (١٣).
 قال الطبري: " يقول: هكذا قال ربك: أي: كما أخبرناك وقلنا لك" (١٤).
 قال الزجاج: " أي: كما قلنا لك قال ربك، أي: إنما نخبرك عن الله - عزَّ وجلَّ" (١٥).
 قال النحاس: " أي: كما قلنا لك، وليس هذا من عندنا" (١٦).
 قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الذاريات : ٣٠]، أي: "إنه سبحانه وتعالى هو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، العليم بمصالح عباده" (١٧).

- (١) أخرجه الطبري: ٤٢٧/٢٢.
- (٢) أخرجه الطبري: ٤٢٨/٢٢.
- (٣) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (٤) مجاز القرآن: ٢٢٧/٢.
- (٥) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.
- (٦) تفسير الطبري: ٤٢٨/٢٢.
- (٧) معاني القرآن: ٥٥/٥.
- (٨) معاني القرآن: ٨٧/٣.
- (٩) إعراب القرآن: ١٦٣/٤.
- (١٠) أخرجه الطبري: ٤٢٨/٢٢.
- (١١) أخرجه الطبري: ٤٢٨/٢٢.
- (١٢) تفسير إسحاق البستي (١٠٩٧): ص ٤٢٠/٢.
- (١٣) التفسير الميسر: ٥٢١.
- (١٤) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.
- (١٥) معاني القرآن: ٥٥/٥.
- (١٦) إعراب القرآن: ١٦٣/٤.
- (١٧) التفسير الميسر: ٥٢١.

قال الزجاج: " واللّه حكيم عليم، يقدر أن يجعل العقيم ولوداً، والعجوز كذلك. فعلم إبراهيم أنهم رسل وأنهم ملائكة"^(١).
قال الطبري: " هو {الحكيم} في تدبيره خلقه، {العليم} بمصالحهم، وبما كان، وبما هو كائن"^(٢).

قال ابن كثير: " أي : عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله "^(٣).
قال مقاتل: " {الحكيم}: حكم أمر الولد في بطن سارة، {العليم}: بخلقه"^(٤).
عن قتادة: " حكيم: في أمره"^(٥).
قال الثعلبي: " كانت سارة لم تلد قبل ذلك وكان بين البشارة والولادة سنة، فولدت له سارة وهي بنت سبع وتسعين، وإبراهيم ابن مائة سنة"^(٦).

فوائد الآيات: [٣٠-٢٤]:

- ١- تقرير النبوة المحمدية.
- ٢- فضيلة إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين.
- ٣- وجوب إكرام الضيف.
- ٤- الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدر في العقيدة ولا يعد شركاً.

القرآن

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)} [الذاريات : ٣١-٣٤]
التفسير:

قال إبراهيم عليه السلام، لملائكة الله: ما شأنكم وفيهم أرسلتم؟ قالوا: إن الله أرسلنا إلى قوم قد أجرموا لكفرهم بالله؛ لنهلكهم بحجارة من طين متحجر، معلّمة عند ربك لهؤلاء المتجاوزين الحدّ في الفجور والعصيان.

قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} [الذاريات : ٣١]، أي: " إبراهيم عليه السلام، لملائكة الله: ما شأنكم وفيهم أرسلتم؟"^(٧).

قال الطبري: " يقول : قال إبراهيم لضيّفه: فما شأنكم أيها المرسلون"^(٨).

قال ابن كثير: " أي : ما شأنكم وفيهم جنتم؟"^(٩).

قال الماتريدي: "الخطب: الشأن؛ أي: على أي أمر وشأن أرسلتم"^(١٠).

قال القشيري: " سألهم عن حالهم: قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟"^(١١).

قال السدي: " قال: ما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فجادلهم في قوم لوط قال، أرأيتم إن كان فيها مائة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يحطّ حتى بلغ عشرة من المسلمين، فقالوا: لا نعذبهم، إن كان فيهم عشرة من المسلمين، ثم قالوا: "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين " هو لوط وأهل بيته، وهو قول الله

(١) معاني القرآن: ٥٥/٥.

(٢) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٧.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.

(٥) تفسير عبدالرزاق (٢٣٨٩): ص٥٦/٣.

(٦) الكشف والبيان: ١١٧/٩.

(٧) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٨) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.

(٩) تفسير ابن كثير: ٤٢٢/٧.

(١٠) تأويلات أهل السنة: ٤٤٩/٦.

(١١) لطائف الإشارات: ٢٧٥/٢-٢٧٦.

تعالى ذكره: {بجادلنا في قوم لوط}. فقالت الملائكة: {يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود} (١).

عن أبي المثني ومسلم أبو الحبيب الأشجعي قالا: "... قال إبراهيم: أتعذب عالماً من عالمك كثيراً، فيهم مائة رجل؟ قال: لا وعزتي، ولا خمسين! قال: فأربعين؟ فثلاثين؟ حتى انتهى إلى خمسة. قال: لا! وعزتي لا أعذبهم ولو كان فيهم خمسة يعيدونني! قال الله عز وجل: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الذاريات: ٣٦] ، أي لوطاً وابنتيه، قال: فحلّ بهم من العذاب، قال الله عز وجل: {وَوَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة الذاريات: ٣٧] ، وقال: {فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط} (٢).

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} [الذاريات : ٣٢] ، أي: "قالوا: إن الله أرسلنا إلى قوم قد أجزموا لكفرهم بالله" (٣).

قال الزجاج: "أي: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم بكفرهم" (٤).

قال ابن كثير: "يعنون: قوم لوط" (٥).

قال الطبري: "قد أجزموا لكفرهم بالله" (٦).

قوله تعالى: {لُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ} [الذاريات : ٣٣] ، أي: "لنهلكهم بحجارة من

طين متحجر" (٧).

قال الطبري: "يقول: لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين" (٨).

قال النحاس: "أي: لنمطر عليهم" (٩).

قال ابن عباس: "هو الأجر" (١٠).

قال ابن عطية: "أي: لنهلككم بهذه الحجارة. ومتى اتصلت «أرسل» ب «على»: فهي بمعنى المبالغة في المباشرة والعذاب. ومتى اتصلت ب «إلى»، فهي أخف. وانظر ذلك تجده مطرداً.. وقوله: {حجارةً من طين}، بيان يخرج عن معتاد حجارة البرد التي هي من ماء. ويروى أنه طين طبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجر" (١١).

قال الماتريدي: "دل قوله تعالى: {حجارةً من طين}، على أن ما ذكر في آية أخرى:

{حجارةً من سجيلٍ منضودٍ} [هود : ٨٢]، أن «السجيل» ليس هو اسم المكان على ما ذكر بعض أهل التأويل، ولكن «السجيل» اسم الطين؛ على ما ذكره -هاهنا-، وهو طين مطبوخ كالآجر؛ إلا أن يقال: هو طين حمل من مكان يسمى: سجيلاً، والله أعلم" (١٢).

قوله تعالى: {مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [الذاريات : ٣٤] ، أي: "معلّمة عند ربك

لهؤلاء المتجاوزين الحد في الفجور والعصيان" (١٣).

قال الطبري: "يقول: معلّمة عند الله، أعلمها الله" (١٤) "للمتعددين حدود الله، الكافرين به

من قوم لوط" (١).

(١) أخرجه الطبري (١٨٣٤٥): ص ٤٠٤/١٥.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٣٤٨): ص ٤٠٥/١٥.

(٣) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٥٥/٥.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٢٢/٧.

(٦) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.

(٧) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٨) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.

(٩) إعراب القرآن: ١٦٣/٤.

(١٠) حكاه عنه ابن قتيبة في غريب القرآن: ٤٢١.

(١١) المحرر الوجيز: ١٧٨/٥.

(١٢) تأويلات أهل السنة: ٣٨٦/٩-٣٨٧.

(١٣) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(١٤) تفسير الطبري: ٤٣٧/١٥.

قال أبو عبيدة: "أي: معلمة بالسيماء وكانت عليها أمثال الخواتيم"^(٢).
 وقال النحاس: "للمُسْرِفِينَ"، أي: للمتعددين لأمر الله جلّ وعز"^(٣).
 قال مقاتل: "للمُسْرِفِينَ"، يعني: المشركين، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها"^(٤).
 قال ابن عطية: "المسرف: الذي يتعدى الطور، فإذا جاء مطابقا فهو لأبعد الغايات الكفر
 فما دونه"^(٥).

قال الزمخشري: "سماهم: مسرفين، كما سماهم: عادين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم:
 حيث لم يقنعوا بما أبيع لهم"^(٦).
 وفي قوله تعالى: {مُسَوِّمَةٌ} [الذاريات : ٣٤]، قولان:
 أحدهما: أن معنى: {مُسَوِّمَةٌ}، مرسلّة. من: سوّمت الإبل. قاله النحاس^(٧).
 الثاني: أن «المسومة»: المعلمة، قاله ابن عباس^(٨)، ومجاهد^(٩). وبه قال الزجاج^(١٠).
 قال الزجاج: "أخذ من «السومة»، وهي: العلامة. على كل حجر منها اسم من تقع عليه
 ويهلك بها"^(١١).

وفي علامتها أقوال:
 أحدها : أنها كانت مختمة، قاله السدي^(١٢).
 قال الرماني: "وقيل: كان عليها أمثال الخواتم"^(١٣).
 قال الزهراوي والرماني: "وقيل معناه: على كل حجر اسم المضروب به"^(١٤).
 قال الماوردي: "كانت مختمة على كل حجر منها اسم صاحبه"^(١٥).
 قال ابن كثير: "أي : مكتتبه عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه"^(١٦)... "وذكروا
 أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها ، فبينما أحدهم يكون عند الناس
 يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدّمه، فنتبعهم الحجارة من سائر
 البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد"^(١٧).
 الثاني : معلمة ببياض في حمرة، وهذا قول ابن عباس^(١٨).
 وعن قتادة، قوله: "{مُسَوِّمَةٌ}، حدثني من رآها أنها حجارة مطوقة عليها نصح من حمرة
 ليست كحجارتكم هذه"^(١٩).
 الثالث: أن «المسومة»: الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطة سوداء، أو يكون
 الحجر أسود فيه نقطة بيضاء. وهذا مروى عن ابن عباس -أيضا-^(١).

(١) تفسير الطبري: ٥٣٢/٢٢.

(٢) مجاز القرآن: ٢٩٧/١.

(٣) إعراب القرآن: ١٦٣/٤.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.

(٥) المحرر الوجيز: ١٧٩/٥.

(٦) الكشف: ٤٠٢/٤.

(٧) انظر: إعراب القرآن: ١٦٣/٤.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١١٠٧): ص ٢٠٦٩/٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٨٤٤٠): ص ٤٣٧/١٥.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٥٦/٥.

(١١) معاني القرآن: ٥٦/٥.

(١٢) أخرجه الطبري (١٨٤٤٧): ص ٤٣٨/١٥.

(١٣) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٧٨/٥-١٧٩.

(١٤) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٧٨/٥.

(١٥) النكت والعيون: ٤٩٣/٢.

(١٦) تفسير ابن كثير: ٥٢٢/٧.

(١٧) تفسير ابن كثير: ٣٤٠/٤-٣٤١.

(١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١١٠٨): ص ٢٠٦٩/٦.

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١١١٠٩): ص ٢٠٦٩/٦.

الرابع : مطوقة بسواد وحمرة. قاله قتادة^(٢).
وفي رواية عن قتادة، وعكرمة، قالوا: "مطوقة بها نضح"^(٣) من حمرة^(٤).
عن قتادة: "مُسْوَمَةٌ"، عليها سيما معلومة. حدث بعض من رآها، أنها حجارة مطوقة
عليها- أو بها- نضح من حمرة، ليست كحجارتكم^(٥).
الخامس : عليها سيما خطوط. قاله الربيع^(٦).
السادس: معناه: متروكة وسومها من الإهلاك والانصباب. حكاها ابن عطية^(٧).
السابع : أنها كانت معلمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا. قاله ابن جريج^(٨).
قال ابن جريج: "مُسْوَمَةٌ"، لا تشاكل حجارة الأرض^(٩).
قال الماتردي: "معلمة في نفسها حتى يعلم كل أحد: أنها للهلاك جاءت، وأنها أرسلت
لذلك مخالفة لسائر الأحجار"^(١٠).
قال ابن الجوزي: "حكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال: كانت مثل رأس
الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل"^(١١).

القرآن

{فَأُخْرِجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)} [الذاريات : ٣٥]

التفسير:

فأخرجنا من كان في قرية قوم لوط من أهل الإيمان.
قال الطبري: يقول: "فأخرجنا من كان في قرية سدوم، قرية قوم لوط من أهل الإيمان
بالله وهم لوط وابنتاه"^(١٢).
قال مقاتل: "يعني: في قرية لوط {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، يعني: المصدقين بتوحيد الله- تعالى-"
^(١٣).

قال ابن كثير: "وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته"^(١٤).
قال الواحدي: "أمر الله تعالى لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين، لئلا يصيبهم
العذاب"^(١٥).

قال البغوي: "وذلك قوله: {فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْإِثْمِ} [هود : ٨١]"^(١٦).

القرآن

{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)} [الذاريات : ٣٦]

- (١) انظر: تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.
- (٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١١٠):ص٢٠٦٩/٦.
- (٣) «النضح»: ما بقي له أثر، يقال: على ثوبه نضح دم، وهو اليسير منه، الباقي أثره.
- (٤) أخرجه الطبري(١٨٤٤٤):ص٤٣٨/٢٢.
- (٥) أخرجه الطبري(١٨٤٤٥):ص٤٣٨/٢٢.
- (٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٤٦):ص٤٣٨/١٥، وتفسير ابن أبي حاتم(١١١١):ص٢٠٦٩/٦.
- (٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٨/٥.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٨/٢٢.
- (٩) أخرجه الطبري: ٤٣٨/٢٢.
- (١٠) انظر: تأويلات أهل السنة: ٣٨٧/٩.
- (١١) زاد المسير: ٣٩٤/٢.
- (١٢) تفسير الطبري: ٤٢٩/٢٢.
- (١٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.
- (١٤) تفسير ابن كثير: ٣٤١-٣٤٠/٤.
- (١٥) التفسير البسيط: ٤٥٣/٢٠.
- (١٦) تفسير البغوي: ٣٧٧/٧.

التفسير:

فما وجدنا في تلك القرية غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط عليه السلام.
قال الطبري: يقول: "فما وجدنا في تلك القرية التي أخرجنا منها من كان فيها من المؤمنين غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط"^(١).

قال مقاتل: "المُسْلِمِينَ"، يعني: المخلصين، فهو لوط وابنتيه ريثا الكبرى زعونا الصغرى"^(٢).

عن مجاهد، قوله: "فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"، قال: لوط وابنتيه"^(٣).

عن سعيد بن جبير، قال: "كانوا ثلاثة عشر"^(٤).

قال ابن زيد: "هؤلاء قوم لوط لم يجدوا فيها غير لوط"^(٥).

عن أبي المثنى ومسلم أبي الحيل الأشجعي: "قال الله: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، لوطا وابنتيه، قال: فحل بهم العذاب"^(٦).

قال قتادة: "لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله"^(٧).

قال الماتريدي: "قوله: {غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، هو منزل لوط - عليه السلام - دل

تسمية الملائكة - عليهم السلام - إياهم: مؤمنين، ومسلمين على أن الإسلام والإيمان واحد"^(٨).

قال السمعاني: "فيه دليل لمن قال: إن الإسلام والإيمان واحد"^(٩).

قال الزمخشري: "وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح"^(١٠).

قال يحيى بن سلام: "الإسلام هو اسم الدين"^(١١).

قال ابن كثير: "احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى

الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء

كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم لا يعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال"^(١٢).

القرآن

{وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ النَّالِيمَ (٣٧)} [الذاريات : ٣٧]

التفسير:

وتركنا في القرية المذكورة أثراً من العذاب باقياً علامة على قدرة الله تعالى وانتقامه من الكفرة، وذلك عبرة لمن يخافون عذاب الله المؤلم المومع.

قال الطبري: يقول: وتركنا في هذه القرية التي أخرجنا من كان فيها من المؤمنين عظة

وعبرة، للذين يخافون عذاب الله الأليم في الآخرة"^(١٣).

قال مقاتل: "يعني: عبرة لمن بعدهم"^(١).

(١) تفسير الطبري: ٤٣٠/٢٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٦٢): ص ٣٣١٢/١٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٦٦٣): ص ٣٣١٣/١٠.

(٥) أخرجه الطبري: ٤٣٠/٢٢.

(٦) أخرجه الطبري: ٤٣٠/٢٢.

(٧) أخرجه الطبري: ٤٣٠/٢٢.

(٨) تأويلات أهل السنة: ٣٨٧/٩.

(٩) تفسير السمعاني: ٢٥٨/٥.

(١٠) الكشاف: ٤٠٢/٤.

(١١) تفسير يحيى بن سلام: ٧١٨/٢.

(١٢) تفسير ابن كثير: ٣٤٠/٤-٣٤١.

(١٣) تفسير الطبري: ٤٣٠/٢٢.

قال الزجاج: "أي: تركنا في مدينة قوم لوط علامة للخائفين تدلهم على أن الله أهلهم وينكل غيرهم عن فعلهم"^(١).

قال ابن عطية: "المعنى: وتتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرا من العذاب باقيا مؤرخا لا يفنى ذكره فهو: {آية}، أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، {للذين يخافون العذاب} وهم العارفون بالله تعالى"^(٢).

قال ابن كثير: "أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، {للذين يخافون العذاب الأليم}"^(٣).

قال الماتريدي: "أي: يكون ذلك آية للذين يخافون العذاب الأليم، وهم المؤمنون، أي: هم المنتفعون بها"^(٤).

عن ابن جريج، قوله: "وتتركنا فيها آية"، قال: ترك فيها صخرًا منضوداً"^(٥).

قال أبو العالية: "الأليم: الموجع في القرآن كله"^(٦)، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك"^(٧).

قال مجاهد: "أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سرّحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم"^(٨).

قال قتادة: "بلغنا أن جبريل عليه السلام أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف"^(٩).

عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعث الله جبريل عليه السلام إلى المؤتفة قرية لوط عليه السلام التي كان لوط فيهم، فاحتلمها بجناحه، ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله: {جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [هود: ٨٢]، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفات، وكنّ خمس قريات، «صنعة، وصعوة، وعثرة، ودوما، وسدوم-وسدوم هي القرية العظمى-»، ونجى الله لوطًا ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك"^(١٠).

فوائد الآيات: [٢٥-٣٧]:

١- جواز تشكل الملائكة بصورة رجال من البشر.

٢- التنديد بالإجرام وفاعليه.

٣- جواز الإهلاك بالعذاب الخاص الذي لم يعرف له نظير.

٤- تقرير حقيقة علمية وهي أن كل مؤمن صادق الإيمان مسلم، وليس كل مسلم مؤمنا حتى يحسن إسلامه بانبئائه على أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، كما في آية البقرة، {لَيْسَ الْبِرُّ بِالْبِقْرَةِ} [البقرة: ١٧٧]، وفي حديث جبريل عند مسلم^(١١).

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.

(٢) معاني القرآن: ٥٦/٥.

(٣) المحرر الوجيز: ١٧٩/٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٤٠/٤-٣٤١.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٣٨٧/٩.

(٦) الدر المنثور: ٦٢٠/٧، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٥١): ص ٨٢٣/٣.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٥١): ص ٨٢٣/٣.

(٩) أخرجه الطبري (١٨٤٥٨): ص ٤٤٠/١٥.

(١٠) أخرجه الطبري (١٨٤٦٢): ص ٤٤١/١٥.

(١١) أخرجه الطبري (١٨٤٦٦): ص ٤٤٢/١٥-٤٤٣.

(١٢) انظر: صحيح مسلم (٨): ص ٣٦/١. ونص الحديث:

القرآن

{وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩)} [الذاريات : ٣٨-٣٩]

التفسير:

وفي إرسالنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة آية للذين يخافون العذاب الأليم. فأعرض فرعون مغترّاً بقوته وجانبه، وقال عن موسى: إنه ساحر أو مجنون.

قوله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [الذاريات : ٣٨]، أي: وفي إرسالنا موسى إلى فرعون وملئه بالآيات والمعجزات الظاهرة آية للذين يخافون العذاب الأليم^(١).

قال الطبري: يقول: "وفي موسى بن عمران إذ أرسلناه إلى فرعون بحجة تبين لمن رآها أنها حجة لموسى على حقيقة ما يقول ويدعو إليه"^(٢).

عن قتادة، قوله: "إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ"، يقول: بعدر مبين"^(٣). قوله تعالى: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [الذاريات : ٣٩]، أي: "فأعرض فرعون مغترّاً بقوته وجانبه"^(٤).

قال الطبري: "يقول: فادبر فرعون كما أرسلنا إليه موسى بقومه من جنده وأصحابه"^(٥).

وفي قوله تعالى: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ} [الذاريات : ٣٩]، وجوه من التفسير: أحدها: بقومه. قاله ابن عباس^(٦)، وقاتدة^(٧).

وقال قتادة: "غلب عدو الله على قومه"^(٨).

قال القاسم بن سلام: "يعني: برهطه - بلغة كنانة"^(٩).

عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحמיד بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد، فاكتفتته أنا وصاحبي أحدهما عن يمينه، والأخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتفقرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني بريء منهم، وأنهم برآء مني»، والذي يحلف به عبد الله بن عمر «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر» ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتؤتي الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربثها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

(١) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٤) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٥) تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢. بلفظ: بقوته، أو بقومه، أبو جعفر يشك. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٧) انظر: تفسير عبدالرزاق (٢٩٨٩): ص ٢٤٠/٣.

(٨) أخرجه الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٩) لغة القبائل الواردة في القرآن الكريم: ١٠.

الثاني : بعضده وأصحابه. قاله مجاهد^(١)
الثالث : بجموعه وأجناده ، قاله ابن زيد^(٢).

عن ابن زيد، قوله: {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ}، قال: " بجموعه التي معه، وقرأ {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}، قال: إلى قوة من الناس إلى ركن أجاهدكم به؛ قال: وفرعون وجنوده ومن معه ركنه؛ قال: وما كان مع لوط مؤمن واحد؛ قال: وعرض عليهم أن يُنكحهم بناته رجاء أن يكون له منهم عضد يعينه، أو يدفع عنه، وقرأ: {هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}، قال: يريد النكاح، فأبوا عليه، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: {لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ}"^(٣).

الرابع : بقوته، قاله ابن عباس^(٤)، ومنه قول عنتره^(٥):

فما أوهى مراس الحرب ركني ... ولكن ما تقادم من زماني

قال الفراء: " يُقال: تولى، أي: أعرض عن الذكر بقوته في نفسه، ويقال: {فتولى برُكنه} بمن معه لأنهم قوته"^(٦).

الخامس : بجانبه ، قاله الأخفش^(٧)، وأبو عبيدة^(٨)، وابن قتيبة^(٩).

قال أبو عبيدة: " {فتولى برُكنه}، وبجانبه سواء، إنما هي ناحيته"^(١٠).

قال ابن قتيبة: " {فتولى برُكنه} و"بجانبه" سواء؛ أي: أعرض"^(١١).

قال الطبري: " أصل الركن: الجانب والناحية التي يعتمد عليها ويقوى بها"^(١٢).

السادس : بميله عن الحق وعناده بالكفر ، قاله مقاتل^(١٣).

السابع : بماله لأنه يركن إليه وينقوى به. أفاده الماوردي^(١٤).

الثامن : معناه : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً، كقوله: {ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الحج : ٩]، أي : معرض عن الحق مستكبر. قاله ابن كثير^(١٥).

قوله تعالى: {وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات : ٣٩]، أي: " وقال عن موسى: إنه ساحر أو مجنون"^(١٦).

قال الطبري: " يقول: وقال لموسى: هو ساحر يسحر عيون الناس، أو مجنون، به جنة"^(١٧).

قال ابن كثير: " أي : لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً، أو مجنوناً"^(١٨).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٣١/٢٢.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/٥.

(٥) البيت لعنتره في الكامل للمبرد: ٢٨٥/١، والنكت والعيون: ٣٧٢/٥، وتفسير القرطبي: ٤٩/١٧. وليس البيت في الطبوع من ديوانه.

(٦) معاني القرآن: ٨٧/٣.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/٥.

(٨) انظر: مجاز القرآن: ٢٢٧/٢.

(٩) انظر: غريب القرآن: ٤٢٢.

(١٠) مجاز القرآن: ٢٢٧/٢.

(١١) غريب القرآن: ٤٢٢.

(١٢) تفسير الطبري: ٤٣١/٢٢.

(١٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣١/٤.

(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/٥.

(١٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٢٢/٧-٤٧٣.

(١٦) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(١٧) تفسير الطبري: ٤٣٢/٢٢.

(١٨) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٧.

قال معمر بن المثنى، : «أو» في هذا الموضع- بمعنى: الواو التي للموالة، لأنهم قد قالوها جميعا له، وأنشد في ذلك بيت جرير الخطفي^(١):
أُتْعَلَبَةُ الْفَوَارِسِ أَوْ رِيَا حَا ... عَدَلْتُ بِهِمْ طَهْيَةَ وَالْخَشَابَا^(٢).

القرآن

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠)} [الذاريات : ٤٠]

التفسير:

فأخذنا فرعون وجنوده، فطرحناهم في البحر، وهو أتى ما يلام عليه؛ بسبب كفره وجنوده وفجوره.

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ} [الذاريات : ٤٠]، أي: "فأخذنا فرعون وجنوده"^(٣).

قال الطبري: يقول: "فأخذنا فرعون وجنوده بالغضب منا والأسف"^(٤).

قوله تعالى: {فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} [الذاريات : ٤٠]، أي: "فطرحناهم في البحر، وهو أتى ما يلام عليه؛ بسبب كفره وجنوده وفجوره"^(٥).

قال ابن كثير: "أي : ألقيناهم في اليم، وهو البحر، {وَهُوَ مُلِيمٌ}، أي : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند"^(٦).

قال الطبري: "يقول فألقيناهم في البحر، فغرقناهم فيه، وفرعون مليم، والمليم: هو الذي قد أتى ما يلام عليه من الفعل"^(٧).

عن قتادة: {فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، قال: " اليم: بحر يقال له: إساف من وراء مصر، ففرقهم الله فيه"^(٨).

قال ابن قتيبة: "أي: مُذنب. يقال: ألام الرجل؛ إذا أتى بذنب يلام عليه. قال الشاعر:
وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا"^(٩).

قال الفراء: " وهو الَّذِي قد اكتسبَ اللُّومَ وإن لم يلم. و[الملوم]^(١٠) الذي قد ليم باللسان. وهو مثل قول العرب: أصبحت مُحَمَّمًا مُعْطِشًا، أي: عندك الحمق والعطش. وهو كثير في الكلام"^(١١).

عَنْ مُجَاهِدٍ: {وَهُوَ مُلِيمٌ} [الصفات: ١٤٢] ، يعني: «مذنبا»"^(١٢).

عن قتادة: " {وَهُوَ مُلِيمٌ}، قال: مُلِيمٌ في عباد الله"^(١٣). وفي رواية: "أي: مليم في نعمة الله"^(١٤).

وقال قتادة: "أي: مُلِيمٌ في نعمة الله"^(١٥).

عن ابن عباس: "المليم: المسيء المذنب"^(١).

(١) البيت لجرير بن الخطفي. من قصيدة له يهجو بها الراعي النميري ، انظر: ديوانه -طبعة الصاوي-: ٦٦.

(٢) نقلا عن: تفسير الطبري: ٤٣٢/٢٢.

(٣) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٤) تفسير الطبري: ٤٣٢/٢٢.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٧.

(٧) تفسير الطبري: ٤٣٢/٢٢.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٦٩٢٢):ص٢٩٨٠/٩.

(٩) غريب القرآن: ٤٢٢.

(١٠) في المطبوع:«الموم»، أعتقد أن الصحيح ما اثبتناه.

(١١) معاني القرآن: ٣٩٣/٢.

(١٢) تفسير مجاهد: ٥٧٠.

(١٣) أخرجه عبدالرزاق في "التفسير" (٢٩٩٠):ص٢٤٠/٣، والطبري: ٤٣٢/٢٢.

(١٤) أخرجه الطبري: ٤٣٢/٢٢، وانظر: تفسير إسحاق البستي ص ٤٣١

(١٥) أخرجه عبد الرزاق ٢ / ٢٤٥، وابن جرير ٢١ / ٥٣٦. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

القرآن
﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ
(٤٢)﴾ [الذاريات : ٤١-٤٢]

التفسير:

وفي شأن عاد وإهلاكهم آيات وعبر لمن تأمل، إذ أرسلنا عليهم الريح التي لا بركة فيها ولا تأتي بخير، ما تَدْعُ شيئاً مرّت عليه إلا صيرته كالشيء البالي.
قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات : ٤١]، أي: "وفي شأن عاد وإهلاكهم آيات وعبر لمن تأمل" (١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أيضاً، وما فعلنا بهم لهم آية وعبرة" (٢).
قال الزجاج: "أي: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أيضاً آية على ما شرحنا في قوله: ﴿وَفِي موسى﴾" (٣).
قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ [الذاريات : ٤١]، أي: "إذ أرسلنا عليهم الريح التي لا بركة فيها ولا تأتي بخير" (٤).

وفي قوله تعالى: ﴿الرِّيحَ العَقِيمَ﴾ [الذاريات : ٤١]، وجوه من التفسير:
أحدها : أن الريح العقيم: الريح الشديدة التي لا تُلْقِحُ شيئاً، قاله ابن عباس (٥)، والضحاك (٦).
قال الطبري: "يعني بالريح العقيم: التي لا تُلْقِحُ الشجر" (٧).

قال الفراء: "فَجَعَلَهَا عَقِيمًا إِذْ لَمْ تُلْقِحْ" (٨).
قال ابن عباس: "لا تُلْقِحُ الشجر، ولا تثير السحاب" (٩).
وعن الضحاك: "﴿الرِّيحَ العَقِيمَ﴾، قال: لا تُلْقِحُ" (١٠). وفي رواية: "التي لا تُلْقِحُ شيئاً" (١١).
قال الضحاك: "الريح التي ليس فيها بركة ولا تُلْقِحُ الشجر" (١٢).

قال مقاتل: "التي تهلك ولا تُلْقِحُ الشجر ولا تثير السحاب وهي عذاب على من أرسلت عليه" (١٣).

قال ابن زيد: "إن الله تبارك وتعالى يُرسل الريح بُشراً بين يدي رحمته، فيحيي به الأصل والشجر، وهذه لا تُلْقِحُ ولا تحيي، هي عقيم ليس فيها من الخير شيء، إنما هي عذاب لا تُلْقِحُ شيئاً، وهذه تُلْقِحُ، وقرأ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾" (١٤).
الثاني : هي التي لا تنبت، قاله قتادة (١٥)، وسفيان (١٦).

(١) غريب القرآن في شعر العرب «مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس - رضي الله عنه وعن أبيه»:
(٤٩) ل وم [مليم]: ص ٧٩.

(٢) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٣) تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٥٦/٥.

(٥) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(٨) تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(٩) معاني القرآن: ٨٧/٢.

(١٠) أخرجه الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(١١) أخرجه الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(١٢) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.

(١٣) أخرجه الطبري: ٤٣٣/٢٢.

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٤/٢٢.

(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٤/٢٢.

عن قتادة، {الرَّيْحَ الْعَقِيمَ}، قال: "الريح التي لا تنبت"^(١). وفي رواية «التي لا تثبت»^(٢). قال سفيان: "التي لا تنبت شيئاً"^(٣).
الثالث: ليس فيها رحمة ولا نبات، ولا تلتفح نباتاً، قاله مجاهد^(٤).
الرابع: أن الريح العقيم: التي لا يكون معها لقع، أي: لا تأتي بمطر، وإنما هي ريح الإهلاك. قاله الزجاج^(٥).

وفي الريح التي هي عقيم، أربعة أقوال:
أحدها: الجنوب. قاله سعيد بن المسيب^(٦)، والحارث بن عبد الرحمن^(٧)، وابن شهاب^(٨).
عن ابن شهاب قال: "الريح العقيم"، الجنوب، وهي التي عذب الله بها قوم عاد^(٩).
عن الحارث بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب: "أنه كان يقول: {الريح العقيم}: الجنوب؛ فقلت له: ما الريح بالين منها، فقال: إن الله يجعل فيها ما يشاء"^(١٠).
عن الحارث بن عبد الرحمن: "العقيم: يعني: الجنوب"^(١١).
الثاني: هي ريح الصبا، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد^(١٢).
الثالث: أن الريح العقيم: الريح النكباء^(١٣). قاله علي بن أبي طالب^(١٤).
الرابع: الدبور، قاله مقاتل^(١٥).
عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»^(١٦).

قال قتادة: "من الريح عقيماً وعذاباً حين ترسل لا تلتفح شيئاً، ومن الريح رحمة يثير الله تبارك وتعالى بها السحاب، وينزل بها الغيث"^(١٧).
عن مجاهد، قال: "هاجت ريح أو هبت ريح فسبواها، فقال ابن عباس: «لا تسبواها، فإنها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب، ولكن قولوا: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً»"^(١٨).
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ما هبت ريح قط إلا جثا النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً» قال ابن عباس: في كتاب الله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} [فصلت: ١٦]، و {أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]. وَقَالَ: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ} [الحجر: ٢٢]، {يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْشِرَاتٍ} [الرُّوم: ٤٦]"^(١٩).

-
- (١) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢٩٩١): ص ٢٤٠/٣.
(٣) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.
(٥) انظر: معاني القرآن: ٥٦/٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٣٣/٢٢.
(٨) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٣٠٩): ص ١٥١/٢.
(٩) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٣٠٩): ص ١٥١/٢.
(١٠) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٦٢): ص ٣٦/٢.
(١١) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.
(١٢) انظر: تفسير مجاهد: ٥٤٨.
(١٣) والنكباء: وهي الرياح التي تهلك المال، و تحبس القطر، كما أنها تلك الرياح التي تهب بين الصبا و الشمال.
(١٤) تفسير إسحاق البستي (١١٠٣): ص ٤٣٣/٢.
(١٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٧٣٨/٣.
(١٦) صحيح مسلم (٩٠٠): ص ٦١٧/٢.
(١٧) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.
(١٨) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٢٢٠): ص ٢٧/٦.
(١٩) مسند الإمام الشافعي: ٨١.

قوله تعالى: {مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات : ٤٢]، أي: "ما تَذُرُّ شيئاً مرَّت عليه إلا صيرته كالشيء البالي"^(١).

قال الفراء: "الريم: نبات الأرض إذا يبس ودبس فهو رميم"^(٢).

قال الطبري: "الريم- في كلام العرب-: ما يبس من نبات الأرض وديس"^(٣).

قال الزجاج: "الريم: الورق الجاف المتحطم، مثل: الهشيم، كما قال: {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}

[القمر : ٣١]"^(٤).

قال الزمخشري: "الريم: كل ما رم، أي: بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك"^(٥).

قال ابن كثير: "مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ، أي: مما تفسده الريح {إِلَّا جَعَلْتَهُ

كَالرَّمِيمِ}، أي: كالشيء الهالك البالي"^(٦).

قال السمعاني: "يقال: كالعظم البالي المنسحق ومنه الرمة. ويقال كالنبت الذي يبس

وديس بالرجل"^(٧).

عن مؤرج قال: "كالرماد -بلغه حضرموت-"^(٨).

عن مجاهد: {مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ}، يعني: «الشيء الهالك»^(٩).

وفي رواية: "الهامد"^(١٠). وفي رواية: "كالثبن اليابس"^(١١).

عن قتادة: "{إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ}، قال: كرميم الشجر"^(١٢).

قال أبو العالية الرياحي: "{إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ} كالثراب المدقوق"^(١٣).

عن عبد الله بن عمرو قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «الريح مسخرة من

الثانية- يعني من الأرض الثانية- فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم

ريحا تهلك عاداً، قال: أي رب، أرسل عيهم الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ

الأرض ومن عليها، ولكن أرسل بقدر خاتم فهي التي يقول الله في كتابه: {مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ

عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ}"^(١٤).

القرآن

{وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤)} [الذاريات : ٤٣-٤٤]

التفسير:

وفي شأن ثمود وإهلاكهم آيات وعبر، إذ قيل لهم -والقائل نبيهم صالح عليه السلام-: تمتعوا في

داركم ثلاثة أيام حتى تنتهي آجالكم. فعصوا أمر ربهم، فأخذتهم صاعقة العذاب، وهم ينظرون

إلى عقوبتهم بأعينهم.

(١) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٢) معاني القرآن: ٨٨/٣.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٣٤/٢٢.

(٤) معاني القرآن: ٥٧/٥.

(٥) الكشاف: ٤٠٣/٤.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٧.

(٧) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(٨) نقلاً عن: تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(٩) تفسير مجاهد: ٦٢٠.

(١٠) تفسير إسحاق البستي(١١٠٤):ص٤٣١/٢.

(١١) تفسير البغوي ٣٧٨ /٧.

(١٢) تفسير عبدالرزاق(٢٩٩٢):ص٢٤٠/٣، وتفسير إسحاق البستي(١١٠٥):ص٤٣٣/٢.

(١٣) تفسير البغوي ٣٧٨ /٧.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٦٥):ص٣٣١٣/١٠.

قوله تعالى: {وَفِي ثَمُودَ} [الذاريات : ٤٣]، أي: " وفي شأن ثمود وإهلاكهم آيات وعبر" (١).

قال الطبري: يقول: " وفي ثمود أيضا لهم عبرة وتمعظ" (٢).

قال الزجاج: " أي: وفي ثمود أيضا آية" (٣).

قوله تعالى: {إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ} [الذاريات : ٤٣]، أي: " إذ قيل لهم -والقائل نبيهم صالح عليه السلام-: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام حتى تنتهي آجالكم" (٤).

قال الطبري: يقول: " إذ قال لهم ربهم" (٥).

قال مقاتل: " قال لهم نبيهم صالح: {تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ}، يعني: إلى آجالكم" (٦).

قال يحيى بن سلام: " إلى حين، يعني: إلى آجالهم" (٧).

قال الثعلبي: " يعني: وقت فناء آجالهم" (٨).

قال ابن أبي زمنين: " إلى آجالكم بغير عذاب إن أمنتم، وإن عصيتم عذبتهم" (٩).

وقال الفراء: " كَانَ ذَلِكَ الْحِينُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ" (١٠).

قال السمعاني: " أي: إلى ثلاثة أيام" (١١).

قال البغوي: " يعني: وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام" (١٢).

قال الزمخشري: " {حَتَّىٰ حِينٍ} تفسيره قوله: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ} [هود : ٦٥]" (١٣).

قال ابن عطية: " يحتمل أن يريد إذ قيل لهم في أول بعث صالح آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعا حسنا إلى آجالكم، وهو الحين على هذا التأويل وهو قول الحسن حكاة عن الرمانى" (١٤).

قوله تعالى: {فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} [الذاريات : ٤٤]، أي: " فعصوا أمر ربهم" (١٥).

قال الطبري: " يقول: فتكبروا عن أمر ربهم وعلوا استكبارا عن طاعة الله" (١٦).

قال ابن أبي زمنين: " تركوا أمره" (١٧).

قال الزمخشري: " فاستكبروا عن امتثاله" (١٨).

قال ابن زيد: " العاتي: العاصي التارك لأمر الله" (١٩).

قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الذاريات : ٤٤]، أي: " فأخذتهم صاعقة العذاب، وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم" (٢٠).

- (١) التفسير الميسر: ٥٢٢.
- (٢) تفسير الطبري: ٤٣٥/٢٢.
- (٣) معاني القرآن: ٥٧/٥.
- (٤) التفسير الميسر: ٥٢٢.
- (٥) تفسير الطبري: ٤٣٥/٢٢.
- (٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.
- (٧) التصاريف لتفسير القرآن مما اشبهت أسماءه وتصرفت معانيه: ٢٨٥.
- (٨) الكشف والبيان: ١١٨/٩.
- (٩) تفسير ابن أبي زمنين: ٢٨٩/٤.
- (١٠) معاني القرآن: ٨٨/٣.
- (١١) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.
- (١٢) تفسير البغوي: ٣٧٨/٧.
- (١٣) الكشاف: ٤٠٤/٤.
- (١٤) المحرر الوجيز: ١٨٠/٥.
- (١٥) التفسير الميسر: ٥٢٢.
- (١٦) تفسير الطبري: ٤٣٥/٢٢.
- (١٧) أخرجه الطبري: ٤٣٥/٢٢.
- (١٨) الكشاف: ٤٠٤/٤.
- (١٩) أخرجه الطبري: ٤٣٥/٢٢.

قال الطبري: يقول: " فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة" (٢).
قال مقاتل: " يعني: العذاب، وهو الموت من صيحة جبريل- صلى الله عليه- " (٣).
قال البغوي: " يعني: بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس،
و"الصاعقة": كل عذاب مهلك، {وهم ينظرون}، يرون ذلك عياناً" (٤).
قال السمعاني: " {وَهُمْ يَنْظُرُونَ}، أي: نهاراً جهاراً، وهم يرون نزول العذاب، ومعناه:
أنه لم يكن بليل وهم نيام ولم يشعروا به" (٥).
قال الزمخشري: " كانت نهاراً يعاينونها. وروى أن العمالقة كانوا معهم في الوادي
ينظرون إليهم وما ضررتهم" (٦).
قال ابن عطية: " يحتمل أن يريد: وَهُمْ يَنْظُرُونَ ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به
فيها ورأوا علاماته في تلونه، وهذا قول مجاهد حسبما تقدم تفسيره، وانتظارهم العذاب هو أشد
من العذاب" (٧).
قال ابن كثير: " وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع
بُغرة النهار" (٨).
عن ابن عباس: " {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ} الموت" (٩).
عن مجاهد: " {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}، قال: فجأة" (١٠).
قال مجاهد: " وذلك أن ثمود وعدت العذاب قبل نزوله بهم بثلاثة أيام وجعل لنزوله
عليهم علامات في تلك الثلاثة، فظهرت العلامات التي جعلت لهم الدالة على نزولها في تلك
الأيام، فأصبحوا في اليوم الرابع موقنين بأن العذاب بهم نازل، ينتظرون حلوله بهم" (١١).
وروي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أنه قرأ ذلك: " {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ} " (١٢)،
بغير ألف.
قال السمعاني: " وقرئ: «الصعقة» (١٣)، وهما بمعنى واحد، ويقال: الصعقة الصيحة،
والصاعقة فاعلة من الصعقة" (١٤).
قال الزمخشري: " قرئ: الصعقة وهي المرة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة
النازلة نفسها" (١٥).
قال الحسين بن واقد: " كل صاعقة في القرآن فهي عذاب" (١٦).

القرآن

- (١) التفسير الميسر: ٥٢٢.
- (٢) تفسير الطبري: ٤٣٥/٢٢-٤٣٦.
- (٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.
- (٤) تفسير البغوي: ٣٧٨/٧.
- (٥) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.
- (٦) الكشاف: ٤٠٤/٤.
- (٧) المحرر الوجيز: ١٨٠/٥.
- (٨) تفسير ابن كثير: ٤٢٤/٧.
- (٩) تفسير البغوي ٣٧٨ / ٧.
- (١٠) تفسير مجاهد ص ٦٢٠، وأخرجه الطبري: ٤٣٦/٢٢ بنحوه. وعزاه السيوطي إلى عبد الرزاق، وابن المنذر.
- (١١) أخرجه الطبري: ٤٣٦/٢٢.
- (١٢) أخرجه الفراء في معاني القرآن: ٨٨/٣، والطبري في "التفسير": ٤٣٦/٢٢.
- (١٣) وقرأ بها الكسائي، انظر: تفسير الطبري ٤٣٦/٢٢، وتفسير البغوي: ٣٧٨/٧.
- (١٤) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.
- (١٥) الكشاف: ٤٠٤/٤.
- (١٦) نقلا عن: الكشف والبيان: ١١٨/٩.

{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ (٤٥)} [الذاريات : ٤٥]

التفسير:

فما أمكنهم الهرب ولا النهوض مما هم فيه من العذاب، وما كانوا منتصرين لأنفسهم.

قوله تعالى: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ} [الذاريات : ٤٥]، أي: "فما أمكنهم الهرب ولا

النهوض مما هم فيه من العذاب"^(١).

قال الفراء: "يقول: فما قاموا لها، ولو كانت: فما استطاعوا من إقامة لكان صَوَابًا"^(٢).

قال الطبري: يقول: "فما استطاعوا من دفاع لما نزل بهم من عذاب الله، ولا قدروا على

نهوض به"^(٣).

قال مقاتل: "يعني: أن يقوموا للعذاب حين غشيهم"^(٤).

قال ابن كثير: "أي: من هَرَبٍ ولا نهوض"^(٥).

قال السمعاني: "أي: وقعوا وقوعا لم يستطيعوا بعده القيام. ويقال: لم يستطيعوا أن

يدفعوا عن أنفسهم العذاب أي: أن يقوموا بالدفع. يقول الرجل: أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر

أي: لا أستطيع دفع هذا الأمر عن نفسي"^(٦).

عن قتادة: " {فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ}، قال: من نهوض"^(٧).

قال قتادة: "يقول: ما استطاع القوم نهوضا لعقوبة الله تبارك وتعالى"^(٨).

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ} [الذاريات : ٤٥]، أي: "وما كانوا منتصرين

لأنفسهم"^(٩).

قال مقاتل: "يعني: ممتنعين من العذاب حين أهلكوا"^(١٠).

قال السمعاني: "أي: ممتنعين من نزول العذاب بهم"^(١١).

قال الثعلبي: يعني: "منتقمين منّا"^(١٢).

قال الطبري: "يقول: وما كانوا قادرين على أن يستقيدوا ممن أحل بهم العقوبة التي

حلت بهم"^(١٣).

قال ابن كثير: "أي: ولا يقدر على أن ينتصروا مما هم فيه"^(١٤).

قال قتادة: "ما كانت عندهم من قوة يمتنعون بها من الله عزّ وجلّ"^(١٥).

القرآن

{وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)} [الذاريات : ٤٦]

التفسير:

وأهلكننا قوم نوح من قبل هؤلاء، إنهم كانوا قومًا مخالفين لأمر الله، خارجين عن طاعته.

(١) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٢) معاني القرآن: ٨٨/٣.

(٣) تفسير الطبري: ٤٣٦/٢٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٢٤/٧.

(٦) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(٧) أخرجه الطبري: ٤٣٧/٢٢.

(٨) أخرجه الطبري: ٤٣٦/٢٢.

(٩) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.

(١١) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(١٢) الكشف والبيان: ١١٨/٩.

(١٣) أخرجه الطبري: ٤٣٧/٢٢.

(١٤) تفسير ابن كثير: ٤٢٤/٧.

(١٥) أخرجه الطبري: ٤٣٧/٢٢.

قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ} [الذاريات : ٤٦]، أي: "وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء"^(١).

قال الطبري: يقول: "وفي قوم نوح لهم أيضا عبرة، إذ أهلكناهم من قبل ثمود لما كذبوا رسولنا نوحاً"^(٢).

قال ابن كثير: "أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء"^(٣).

قال مقاتل: "مِن قَبْلُ" هؤلاء الذين ذكر"^(٤).

قال السمعاني: "أي: من قبل عاد وثمرود، أهلكناهم كما أهلكنا عاداً وثمروداً"^(٥).

عن يزيد الرقاشي، قال: "إنما سمي نوح، لطول ما ناح على نفسه"^(٦).

قال الفراء: "من نصبها فعلى وجهين: أخذتهم الصعقة، وأخذت قوم نوح وإن شئت:

أهلكناهم، وأهلكنا قوم نوح. ووجه آخر ليس بأبعص إلى من هذين الوجهين: أن تُضمَر فعلاً-

واذكر لهم قوم نوح، كما قال عز وجل: {وإبراهيم إذ قال لِقَوْمِهِ} [العنكبوت : ١٦]، {وَنُوحًا إِذْ

نادى مِنْ قَبْلُ} [الأنبياء : ٧٦]، في كثير من القرآن معناه: أنبئهم واذكر لهم الأنبياء

وأخبارهم"^(٧).

قال الزجاج: "قرئت: «وقوم نوح»، بالخفض، {وقوم نوح}، بالنصب، فمن خفض

فالمعنى: في قوم نوح، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ

يَنْظُرُونَ}. ومعنى: أخذتهم الصاعقة أهلكناهم. فالمعنى: فأهلكناهم وأهلكنا قوم نوح من قبل.

والأحسن والله أعلم أن يكون محمولاً على قوله: {فَأَخَذْتَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، لأن

المعنى: فأغرقناه وجنوده وأغرقنا قوم نوح من قبل"^(٨).

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الذاريات : ٤٦]، أي: "إنهم كانوا قومًا مخالفين

لأمر الله، خارجين عن طاعته"^(٩).

قال مقاتل: "مِن قَبْلُ" هؤلاء الذين ذكر"^(١٠).

قال الطبري: "يعنى: عاصين"^(١١).

قال السمعاني: "أي: خارجين عن طاعة الله تعالى"^(١٢).

عن سعيد بن جبير، قوله: "فاسقين"، يعني: عاصين"^(١٣).

فوائد الآيات: [٣٨-٤٦]:

- ١- تقرير كل من التوحيد والنبوة والبعث لما في الآيات من دلائل على ذلك.
- ٢- قوة الله تعالى فوق كل قوة إذ كل قوة في الأرض هو الذي خلقها ووهبها.
- ٣- اتهام المبطلين لأهل الحق دفعاً للحق وعدم قبول له يكاد يكون سنة بشرية في كل زمان ومكان.
- ٤- من عوامل الهلاك العتو عن أمر الله أي عدم الإذعان لقبوله، والفسق عن طاعته وطاعة رسله.

(١) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤٣٨/٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٢٤/٧.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.

(٥) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٦): ص ١٥٠٥/٥.

(٧) معاني القرآن: ٨٩-٨٨/٣.

(٨) معاني القرآن: ٥٧/٥.

(٩) التفسير الميسر: ٥٢٢.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٣٢/٤.

(١١) تفسير الطبري: ٤٣٨/٢٢.

(١٢) تفسير السمعاني: ٢٦١/٥.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٦٦): ص ٢٨٥٢/٩.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الثالث والثلاثون من التفسير، ويليه الجزء الثالث والثلاثون بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (٤٧) من سورة «الذاريات».

